

إيلونا بورسكا

طبيبة في بيت البرزنجي

بغداد العشرينيات وبداية الثلاثينيات في ذاكرة امرأة تشيكية

مراجعة وتحريير
د. مجيد الراضي

ترجمة
حسين العامل



طبيبة في بيت البرزنجي



Author : Iliona Borska
Title : Awoman Doctor in Al-
Barazachi's House
Translator : Hussein Al-Amil
Revisor : Dr. Majeed Al-Radhi
Al Mada P.C.
First Edition 2002
Copyright © Al mada

اسم المؤلف : إيلونا بورسكا
عنوان الكتاب : طبيبة في بيت البرزنجي
ترجمة : حسين العامل
مراجعة وتحرير : د. مجيد الراضي
الناشر : دار المدا للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٢
الحقوق محفوظة

الترجمة : من اللغة التشيكية

دار المدا للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦
تلفون ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس ٢٣٢٢٢٨٩١

Al Mada Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

إيلونا بورسكا

طبيبة
في بيت البرزنجي

بغداد العشرينيات وبداية الثلاثينيات
في ذاكرة امرأة تشيكية

مراجعة وتحريير
د. مجيد الراضي

ترجمة
حسين العامل



كلمة الكاتبة إيلونا بورسكا إلى الطبعة العربية

إلى القراء العرب

عندما شرعت طالبة الطب فلاستا كالالوفا بتعلم اللغة العربية في جامعة كارل في براغ ، كانت في العشرين من عمرها فتاة ضئيلة الجسم ذات شعر أسود ، وُلِدَتْ في جنوب الأراضي التشيكية . وتشاء المصادفة الغريبة أن تصدر الطبعة العربية للكتاب الذي يتحدث عن حياتها بعد عشرين عاماً من طبعته الأولى في اللغة التشيكية . والكتاب يروي مصيراً شجاعاً ودرامياً ، بل وتراجيدياً في أحيان كثيرة ؛ يروي قصة عملها طبيبةً ، ويقدم أصدقاءها في العالم العربي ، ويتطرق الى تعرفها على ماضيه ذي الألوان العديدة وطبيعته المثيرة للاعجاب .

في الأراضي التشيكية وجد كتاب «طبيبة في بيت البرزنجي» قراءه . هذا ما تؤكده طبعته السادسة التي ستصدر في هذا العام وكذلك العدد الاجمالي لطبعاته الصادرة والبالغ ١٢٠ ألف نسخة . واني لعلى ثقة من أن هذا الكتاب سوف يحظى بالاهتمام في البلد الذي أصبح بالنسبة لفلاستا كالالوفا - دي لوتي وطنها الثاني ، حيث أحببت وتزوجت ورزقت بطفلين .

الدكتورة فلاستا - كما كان يدعوها مرضاها - كانت طبيبة جراحة . وقد أدركت بعمق أننا متشابهون جميعاً على الرغم من كل الفروق الخارجية واختلاف التراث الثقافي وحتى لون البشرة . قلوبنا واحدة ، كما نتقاسم كوكبنا - بيتنا المشترك . وقد حان الوقت لادراك ذلك .

كانت تتوق إلى العودة إليكم مرة أخرى ، إلى وطن شبابها . فحتى نهاية عام ١٩٧١ كانت مؤمنة بأنها سوف تحقق ذلك . وإذ يعود هذا الكتاب نيابة عنها - فلتكن عودته ميمونة .

والسلام عليكم - ليكن السلام حليفكم

إيلونا بورسكا

الذكرى في محاولة لاستعادة

الزمان والمكان

د. مجيد الراضي

حين صدرت الطبعة الأولى من كتاب « طيبة في بيت البرزنجي » كان قد مضى عليّ وقتٌ طويل نسبياً في براغ . ولكنّ لغتي التشيكية لم تكن كافية للقراءة وفهم النصوص الأدبية والفكرية . فقد عشتُ في « غيتو » اللغة الانكليزية ، أي كنتُ أتعكز عليها في قضاء شؤوني الخاصة . ومما ساعد على إهمالي تطوير لغتي التشيكية أنني لم أكن أحتاج إليها في عملي اليومي ، وكان تعاملي اللغوي مقصوراً على العربية والانكليزية ، بالإضافة إلى أنه استغرق معظم وقتي بطريقة غير عقلانية . لم أفكر مطلقاً فيما يعنيه ذلك من تدمير للذات أو استلاب لها وسجنها داخل دائرة ضيقة من المعارف والأصدقاء وجعلها تعيش في قوقعة كالحلزون لا تكاد تفارقها ، بل تجرؤ أحياناً وأحياناً فقط ، على مدّ رأسها الى الخارج بمقدار ما تتيحه لها فرصةٌ وُلِدَتْ مِيتَةً على ما يبدو ، تلك هي فرصة التعرف على مجتمع جديد من كل جوانبه ، فرصة الاقترابِ الحميم من ثقافته ونمط عيشه ، وعقلية ناسه وطريقة تعاملهم مع بعضهم البعض ومع العالم المحيط بهم .

كانت « الحرب الباردة » تمتد الى كل زاوية من زوايا هذا المجتمع ، وتضطر الجميع إلى العيش في أجوائها كان هذا الأمر محسوساً لديّ ، غير أنّ الحديث عنه لا يأتي في هذا السياق . كنت كالنبته التي عُرسَتْ في بيت زجاجي ؛ كنت أعيش في براغ وخارجها في آن

باختصار ، كنت قد تعرفت على الأدب التشيكي بصورة أولية عندما كنت في بغداد ، وقد بدأت هذا التعرف في نقطة لا أستطيع أن أصفها إلا بأنها مثيرة ليس للجدل

حسب ، بل وللتأمل ، إذ إقتنيتُ رواية الكاتب ياروسلاف هاشيك «الجندي الطيب شفيك» باللغة الانكليزية ورحت أقرأها بنهم . منذ البداية حذرت المقدمة من صعوبة ترجمة هذا العمل الأدبي الشامخ بسبب لغته «المتبذلة أحياناً» والتي لا يمكن أن تجاريها اللغة الانكليزية في ذلك . وعاش شفيك معي أياماً ولياليَ بغدادية طويلة . أحبته وأدركت العمق الكامن وراء إدعائه البلاهة التي هي عينُ الحكمة كان ذلك أواخر الخمسينيات ، ولا بد لي أن أذكر أن هذه لم تكن قراءتي الأولى لعمل أدبي تشيكي ، فقد وقعتُ في منتصف الخمسينيات في دمشق ، وكنت طالباً في جامعتها ، على ترجمة عربية لكتاب يوليوس فوتشيك «تحت أعواد المشانق» كانت الترجمةُ على ما أذكر سقيمةً فلم تخلف انطباعاً جيداً لديّ

وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ الوطنية الديمقراطية وقيام العلاقات بين الجمهورية العراقية من جهة وجمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية من جهة أخرى حصلت من سفارة تشيكوسلوفاكيا في بغداد على مجموعة قصصية باللغة الانكليزية تضم ، على ما أذكر ، أربع قصص لكتاب تشيك وسلوفاك .

كان أحد إخواني قد درس في تشيكوسلوفاكيا ، وتخرج في معاهدها مهندساً ميكانيكياً ، ولكنه اقترن بفتاة تشيكية مُغرمة بالفن وعازفة على البيانو ، بل ومحترفة لهذا العزف . وإلى جانب هذا كانت مولعةً بالقراءة وتعرف اللغة العربية معرفة لا بأس بها مما سهّل علينا التواصل الثقافي كانت حريصةً - وهي ذات مشاعر وطنية متوهجة - على أن أكون أكثر إلماماً بالأدبين التشيكي والسلوفاكي بعد أن شاهدتُ ولعي العظيم بالأدب العالمي وهكذا كُلفتُ إحدى صديقاتها في براغ أن تقتني أول مجموعة أدبية كبيرة صدرت باللغة الانكليزية في عام ١٩٦٢ عن دار النشر Artia, The Linden Tree, an Anthology of Czech and Slovak Literature 1890 - 1960 . وجاوز عدد صفحات المجموعة أربعمئة صفحة من القطع الكبير . لا أدعي أن المجموعة كانت كاملة أو ممتلئة ، مجرد تمثيل لكل الغنى الأدبي والروحي لدى الأمتين التشيكية والسلوفاكية . ولكنها كانت بالنسبة لي ، نافذة أطلتُ منها على بانوراما الأدب التشيكوسلوفاكي ، وقربتُ لي الصورة نوعاً ما ودفعني الى البحث عن هذا الأدب الغني في أشكاله ومضامينه . كما قرأت ترجمة الصديق حسين العامل لرواية «حرب السمندر» للكاتب الشهير كارل تشابك ، وفيما بعد «الانسان الآلي» للكاتب والمترجم نفسيهما

لم أكن حتى خريف عام ١٩٧٠ لأفكر . مجرد التفكير ، في زيارة براغ بله الاقامة

فيها . إذ كانت على جدول الحلم عواصم عالمية مثل باريس ولندن وروما وفيينا... الخ . إنها البؤر الضوئية العالمية للأدب والفن ومطمح كل المثقفين الذين يقطنون أراضي ما وراء البحار . ثم ألم يقل شاعرنا المتنبئ

إذا غامرت في شرف مـروم

فلا تقنغ بما دون النجوم

أجل ، ولكنها الأقدار! لقد غادرت فتاة تشيكية هذه الأرض الطيبة لتتخذ من بغداد وطناً لها ، أما أنا فقد لعبت الأقدارُ دروها في أن تكون براغ وطناً لي ، بعد أن فقدت وطني في بغداد . ما الفرق بين الاضطرار والاختيار؟ إن ثمتَ خطأً رفيعاً يفصل بين الحالتين . ففي كل اختيار «نوع من الاضطرار» وفي كل اضطرار «نوعٌ من الاختيار» هذه سنة الحياة ولا رادَ لها . وما نحن سوى نطفةٍ في تيارها الزاخر يحملنا حيثما يشاء ، ويلقي بنا حيثما يريد . وفي براغ قُدِّر لي أن أكون محرراً لأول وآخر مجموعة من النصوص التشيكية مترجمة الى اللغة العربية صدرت في براغ عام ١٩٨٢ بعنوان «بانوراما الأدب التشيكي» . ولا يفوتني أن أذكر أنّ نصوصاً مختارة من الأدب التشيكي كانت تصدر في براغ باللغة الانكليزية منذ عام ١٩٨٠ تحت عنوان «بانوراما الأدب التشيكي» وقد بلغت عشرة أعداد كان آخرها في عام ١٩٨٨ . وكانت هذه المختارات تنشر بالتعاون بين إتحاد الكتاب التشيك ومؤسسة الصندوق التعاوني للأدب التشيكية ووكالة دياليا للأدب والمسرح ودار النشر بانوراما . وقد أتاحت لي هذه النصوص التعرف على أبرز الكتاب التشيك آنذاك . وقرأت في تلك الفترة رواية «الجواد الأبيض» باللغة الانجليزية للكاتب يان كوزاك .

أعود إلى رواية «طبيبة في بيت البرزنجي» للكاتبة التشيكية إيلونا بورسكا حول حياة الطبيبة التشيكية فلاستا كالالوفا - دي لوتي التي صدرت طبعتها الأولى في أواخر السبعينيات . نوه أحد الأصدقاء العراقيين أمامي بجمال الكتاب وأهميته بالنسبة لنا نحن العراقيين - المغتربين ، فشعرت بأسفٍ مضاعفٍ لإضاعتي فرصة تعلم اللغة التشيكية بطريقة أصولية لكي أستطيع قراءة هذا الكتاب في الأقل . ولكن لا أدري كيف راودتني فكرة ترجمته إلى اللغة العربية . وتلفتُ حولي فلم أجد من هو معنيٌ بذلك . واستقرت هذه الملاحظة في أعماق ذاكرتي ، وبرزت الى السطح ، مرة أخرى ، عندما قرأت عرضاً لهذا الكتاب باللغة العربية كتبته المستعربة ياروسلافا بابانوفا . إلى متى يبقى هذا الأثر

الأدبي الناضح بالحب العميق لبغداد وأهل بغداد بعيداً عن متناول يد القارئ العراقي
بخاصة والعربي بعامة ؟

وما إن صدرت الطبعة الرابعة من الكتاب في عام ١٩٩٦ حتى أقتنيته وحرصت
أصدقائي على إقتنائها ، وقرأتها بشغف - إذ تطورت لغتي وأصبحتُ قادراً على القراءة
فيها - فصممت على نقل الرواية الى اللغة العربية وفاءً لذكرى إنسانة أمضت زهرة شبابها
في بغداد فأحببتها وأهلها ، وبقيت تمني النفس بالعودة إليها حتى آخر لحظة في حياتها
إتصلت بصديقي حسين العامل فأبدى استعداداً لترجمتها على أن أتولى مراجعة الترجمة
وتحريرها . والآن نضع أمام القارئ العربي هذه الرواية الوثائقية التي جهدنا أن تكون
ترجمتها العربية أمينة وبلغة عربية سليمة تحمل غنى الأصل وتنوع أسلوبه . في هذه
الرواية أسلوبان ، الأول أسلوب كاتبة الرواية إيلونا بورسكا ، والثاني هو أسلوب الطيبة
فلاستا كالالوفا ، كما ورد في رسائلها ، والذي وصفته الكاتبة بكونه أسلوباً متعدد
الألوان . فالطيبة كانت «أدبية هاوية» ، ذات ثقافة واسعة ، تعرف أربع عشرة لغةً ، وقد
كتبت أعمالاً أدبية لم يقدر لها أن ترى النور ، وعزت الكاتبة ذلك إلى أسلوب فلاستا
كالالوفا في الكتابة ، ذلك الأسلوب المقلد للأساليب الأدبية فقالت : «ربما كان من الممكن
أن تحقق الأعمال نصيباً أفضل من النجاح لو أنها كتبتها باللغة الحية وذات الألوان ، تلك
اللغة التي كتبت بها رسائلها ، ولو أنها لم تحاول بالقدر الذي حاولت فيه «الكتابة
بأسلوب أدبي» .

ومخطوطة كالالوفا «عبر البوسفور نحو دجلة» المكرسة لإقامتها في بغداد محفوظة في
متحف الوثائق المكتوبة في ستراهوف - براغ . كانت الطيبة قد قدّمتها للمتحف بعد بضع
محاولات غير مجدية لنشرها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها . كما أن عملها المسرحي
الثاني «شجرة الدردار الشمسية» والذي استوحته من حياتها الشخصية ، لم يحظَ بالعرض
أيضاً . والشئ، المؤكد أن المؤلفة كانت ترى في عملها الأدبي غير ما كان يرى فيه
الناشرون . ولا يستبعد أن يكون ضيق الأفق وعدم اهتمام الناشرين بمصائر أناسٍ شجعان ،
ولكنهم اعتياديون ، يقفان وراء هذا الإهمال لكتابها

إنّ فتاة بجسارة كالالوفا وعزمها على خطّ مصيرها بنفسها تستحق اهتماماً استثنائياً
لقد قررت وهي في عشرينيات عمرها ، وفي عشرينيات قرننا الذي يطوي صفحاته الأخيرة ،
أن تتوجه الى الشرق من دون الركض وراء سراب النزعة الغرائبية (exoticism) . إنها ذاهبة

الى الشرق لتدرس أمراضه ولتكون عوناً له ، وليس حباً في غرابته أو توقاً الى وطن « ألف ليلة وليلة » وانجراً ورا ، سحره ، كما فعل عدد من أدباء الغرب ، ولا طمعاً في ثرواته الدفينة كما فعل ويفعل المستعمرون منذ نهاية حركة الاستكشاف الجغرافي في القرن الخامس عشر وما تلاه حتى هذه الأيام . لقد هزأت بالصعاب ، ولم تكن قليلة أو هينةً ، وكانت من الثقة بالنفس بحيث نفذت حلمها فأقامت لها « أول مستوصف تشيكوسلوفاكى » في بغداد منتصف العشرينيات . خالطت الناس وعاشت في وسطهم ، وقدمت المساعدة الطبية لهم ، وابتهجت لأن البغداديين تقبلوها واحدة منهم ، فلم تعانِ الاغتراب . وفي الوقت نفسه عرفت مجتمع النخبة المثقفة العراقية وكذلك صفوة مجتمع الأجانب الصغير والمغلق ، والذي حذرت منه فيما بعد ، غير أنها تزوجت منه ، تزوجت ذلك الإيطالي ذا الأصل النبيل ، المحب للموسيقى والعارف بكل شيء ، والذي بدا لها للوهلة الأولى مترفعاً ، وعلى شيء غير قليل من الغطرسة . كانت معرفتها باللغة العربية قد ميّزتها عن الآخرين ، كما أن تفهمها لطبيعة المجتمع العراقي وتقاليده في بداية القرن قد هدمَ أمامها آخر السدود . وهي تعي أهمية ذلك فتقول للدكتور ياروسلاف سليبكا في صيف ١٩٦٢ ، وكان من المقرر أن يسافر في خريف ذلك العام إلى بغداد للعمل في رئاسة معهد التشريح المجهرى :

« تقولون إنّ هناك خمسين أو ستين من أبناء بلدنا ؟ هذا شيء ممتاز . غير أنّ الإنسان ينبغي أن لا يحصر نفسه في غيتو الأقلية . هذا ما فعله الانكليز في العراق ، ولهذا لم يستطيعوا مطلقاً فهم هذا البلد »

ينبغي أن لا يحصر الإنسان نفسه في غيتو الأقلية . هذا لبُّ الموضوع . كانت كالألوف لا تطبيق نظرة التعالي لدى الأوروبيين إزاء المجتمع العراقي . غير أنّ معضلة البريطانيين أنهم لم يأتوا الى العراق إلا لغرض واحد هو بسط هيمنتهم على هذا البلد واستغلال نفطه ، ولهذا لا يمكن أن تكون علاقة السيد بالعبد غير ما كانت عليه ، وهي علاقة استغلال الانسان للانسان . لقد إستشفت كالألوف هذه العلاقة من أول مقابلة لها مع الأنسة غيرترود بيل السكرتير الشرقي للمندوب السامي ، وأحد أعمدة النظام الاستعماري في الشرق العربي والعراق بشكل خاص .

نجحت المؤلفة في تصوير أجواء المجتمع البغدادي في منتصف العشرينيات وحتى الثلاثينيات . ويحس القارئ روعة هذا الوصف ودقته في أماكن عديدة من الرواية وبخاصة الأجزاء الأولى منها ، وهذا يعود بالدرجة الأساس - كما أعتقد - إلى وصف الطبيعة كالألوف

لهذه الأجواء . فالانسان الذي لم يعيش في تلك الأجواء يصعب عليه فهمها ، ناهيك عن تصويرها بالكلمة واللحمة والموقف . ويبرز في هذا المجال وصفها للجو الملحمي في الكاظمية في أثناء مواكب عاشوراء والتقاطها لتقاليد الطائفة الشيعية .

الموضوعة الرئيسية في هذه الرواية التشيكية الوثائقية هي بغداد . إنها البطل الكامن وراء الأحداث سواءً في جريانها الآني أو في الذاكرة . فالزمن يتوقف لدى الطيبة كاللوفاف في بغداد ، وكل ما هو عدا ذلك ذكرى تحيل إلى المكان ، إلى بغداد . الأشياء الجميلة تُذكَرُها ببغداد ، كما تذكرها بها المآسي . لقد فرّت من الموت في بغداد بعد أن أصيبت بالهزال ، ولكنها عندما واجهت الموت ، هي وعائلتها ، في بلدتها برنارتيته في اليوم الأخير للحرب العالمية الثانية على أيدي القاطعان الفاشية ، فإن مشهد الدماء يذكرها بالجلنار ، بأزهار شجرة الرمان في الربيع...

« في رأسها كانت تدوي جملة غريبة : في بداية أيار تفتتح في الحدائق الزهور الحمر لشجيرات الرمان . تلك الجملة باستمرار . شجيرات الرمان في بساتين بغداد » .

« مدت يدها لتلمس كتفها اليسرى . وعندما نظرت الى راحة يدها وجدتتها حمراء . في بداية أيار تفتتح الزهور على شجيرات الرمان . ركعت مستندة على يدها اليمنى التي تلمس الأرض . زحفت على الأربع مثل كلب جريح . زحفت من أحدهم نحو الآخر . حاولت جس النبض ، رفعت الأجران ، كانوا موتى ، كلهم كانوا موتى » .

لم تكن كاللوفاف تحس الوحدة الحقيقية في بغداد ، على الرغم من الابتعاد عن الوطن والأهل والعائلة . كانت تجد دائماً ما يشغلها ، ما يصرفها عن تلك الوحدة . أما في الوطن ، وبعد أن فقدت الولد والبنت والزوج فقد كانت لا تحس الوحدة حسب ، بل وتخشاها : « لم تجد الجرأة لاغلاق الباب على وحدتها » .

٢٦ كانون الثاني ١٩٦٢

« ... اليوم هو اليوم الذي وجدت دراهوميلاً ليديا نفسها في المساء بين أيدي جيورجي وأمّي : وكانت تنظر إليها - من الجانبين ومن نافذتين - منارتان زرقاوان من منائر بغداد . وفي قمة النخلة ، التي كان حفيفها يُسَمَعُ داخل الدار ، كان الهزار يغني... » .

حتى عندما كانت تتذكر طقساً من الطقوس المسيحية غير الشائعة في بغداد تتذكر أيضاً :

« ... في بغداد كانت الدار مملوءة بالورود في أعياد الميلاد كان الأصدقاء يحملونها مملوءة أيدهم وفي السلال ، لم يبق هناك مكان لوضعها فيه ، ولم تكن المزهريات كافية »
وتلتقي وقدأ نساءياً عراقياً في براغ فتتساءل : هل هذا ممكن ؟ إنها تسمع ، مرة أخرى ، اللغة العربية حية ، « لغة الحكايات التي بدأت بالنسبة لي عن حق بـ كان يا ما كان »

ويظنني عليها الحنين " « الحنين ، أيها الحنين القديم ، ها أنت هنا ثانية . لمن أشعر بالحنين حقاً ، أأحن الى بغداد أم الى الشباب ؟ »

والأرجح أنها توحد بينهما ، توحد بين الشباب وبغداد . لقد توقف زمنها ، زمن الطبيبة الأنسة ، والسيدة كالالوفا دي لوتي ، فيما بعد ، عند هذه النقطة . وإذا كانت قد غادرتها قسراً ، غادرت المكان والزمان دون رغبة منها ، فإنها لا بد أن تعود إليها بشكل من الأشكال . « أعتقد أنني سوف أذهب الى هناك في النهاية »

« كانت تلك في العادة مجرد أحاسيس عابرة ، عطرٍ يُشَمُّ بالمصادفة ، سرعان ما يتشتت ويزول ، حتى أنك لا تمسك به إذا استنشقت ثانية . لم تستطع تمييز الرائحة التي انتشرت ولم تستطع تذكر الحدث الذي ارتبط بتلك الرائحة ، والأمراً المؤكد أنها رائحة بغداد . شيء ما استفز حمانم الجيران ، فانطلقت تصفق أجنحتها بقوة ؛ إنه الصباح البغدادي الشديد الزخم لدرجة أنها توقفت بلا حراك وأغمضت عينيها كررت ذلك مرات كثيرة الى أن أدركت أنها تشعر بالحنين . تتوق الى مشاهدة بغداد » .

و حين يكتب لها الدكتور ياروسلاف سليبكا من بغداد الستينيات فيؤكد أن بغداد في مركزها مدينة عصرية كبيرة وفيها ناطحات سحاب... وأن بغدادها لا يمكن الاحساس بها إلا في الأزقة الجانبية ، تداري خبيتها بالشعور أن طبيباً تشيكياً يلقي المحاضرات في بغداد وأنهم ما زالوا يذكرونها هناك . إنها لمفارقة تلك التي تشيع في أجواء هذه الرواية الوثائقية التي تسردُ حياة إنسانة شجاعة حقاً ، ساعدت الآخرين على تحمل متاعب الحياة وآلامها ، ولكن حياتها في السنوات الخمس والعشرين الأخيرة كانت سلسلة متواصلة من الآلام والأحزان والذكري والمحاولات الوهمية لاستعادة الزمان والمكان اللذين فقدتهما بعد مغادرتها بغداد

نحن اليوم أشبه الناس بها . وإذ نَحْنُ الى بغداد ، فإنها تأتينا في دفتي رواية تشيكية تستحق القراءة والتأمل . وهنا لا بد من ملاحظة أخيرة هي أن مآثرة المؤلفَة لا تقل عن مآثرة الطبيبة فلاستا كالالوفا دي لوتي .

براغ ١٩٩٨/٤/٣

ملاحظة : ترجمت الطبيبة كالالوفا دي لوتي وكذلك المؤلفَة لقب عائلة البرزنجي الى صاحب البرزان (أي البوق) . فجاء عنوان الرواية في اللغة التشيكية «طبيبة من بيت البواقين» . وبما أنّ لكل لغة أسلوبها في التعبير ، فقد التزمنا بالأصل العربي الذي يرد عرضاً في داخل الرواية . لقد استأجرت الطبيبة كالالوفا بيت البرزنجي في حي الميدان قرب «الباب المعظم» ليكون مستوصفاً تشيكوسلوفاكياً في بغداد . ومن هنا جاء عنوان الرواية .

المحرر

على الطريق

عند بزوغ فجر الثامن من تشرين الاول ، وبالذات في اللحظة التي انتشر فيها نور النهار لتظهر معالم مشهد الطبيعة المحيطة ، مرت السفينة الرومانية القيصر ترويان عبر الشواطئ الصخرية الى مضيق اسطنبول .

لم يكثرث المسافرون ببرد الصباح وتراكموا الى سطح السفينة - باستثناء الذين أصبح هذا المنظر مألوفاً لديهم لتكرار رحلاتهم هنا - . وفجأة وجدت فلاستا نفسها وسط مجموعة من الطلبة الانجليز الذين ظهروا حولها من كل الجوانب مرة واحدة . وقد تزاحموا عند سياج السفينة وكانوا يدخلون غلايينهم متظاهرين بالتحالي . ويبدو أنهم كانوا يتصورون أن تدخين الغليون وارتداء البدلة الصوفية ووضع المعطف المطري على الكتف والتظاهر بالتحالي سمات انجليزية صرفاً ، لأنهم كانوا في العشرين من العمر .

هل كنت أتظاهر على هذا النحو في العشرين من عمري ؟ تذكرت فلاستا . في العشرين كنت قد تجاوزت ذلك ، ولكن في السابعة عشرة من العمر كنت كذلك الى حد ما في السابعة عشرة كانت تتمشى خلال الاجازات الصيفية بين الحقول ويدها قاموس الكلمات الصغير ، فتاة نحيفة وغامضة الى حد ما في ثيابها ذات اللون الفاتح ، التي تغطي جسدها من الرقبة حتى أخمص القدمين وفق الموضة السائدة حينذاك . كانت جادة في حفظ

الكلمات عن ظهر قلب ، وإلا كيف يتسنى لها تعلم اللغات السبع التي تجيدها اليوم وكانت في الوقت نفسه تجد متسعاً من الوقت لتنظر بطرف عينها الى الناس الذين يراقبونها من وراء أسيجة بساتينهم .

«لاحظو رجاءً بقايا الحصون البيزنطية على الصخور يساراً ويميناً» قال المرافق بحماسة «في الماضي كانت هنا سلسلة قد تم مدها من حصن الى حصن . كانت تربط أوروبا بآسيا ربطت أوروبا بآسيا . ربما لأجل أن لا تتباعدة ، لأجل أن لا تتباعدة أكثر» .

«هذا ما لم تنجح أوروبا في تحقيقه مع بريطانيا ، أن تربطها بسلسلة» . تأمل الشاب الأبرص الجمع ليرى وقع مزاحه على الآخرين ، غير أنه لم يجد رد الفعل المنتظر . فقد أنهى أصدقاؤه للتو رحلتهم في ايطاليا واليونان وتأثير إنطباعاتهم الطرية كانوا على استعداد لاعتبار جزيرتهم جزءاً من أوروبا

«تأملوا القرى الساحرة على السفوح . فهي معلقة مثل أعشاش السنونو» قال المرافق وهو يدور حول المجموعة كالراعي حول أغنام قطيعه . وقد اعتبر فلاستا واحدة منهم ربما بسبب معطفها الرمادي الصوفي الخشن .

حقاً إنها مثل أعشاش السنونو ، في الأغلب إنها ستكون مشابهة لأعشاش السنونو بمواد وأسلوب بنائها . وسيكون فيها أيضاً الكثير من الصغار فاغري الأفواه .

مروا بجوار قرى الصيادين على الشاطئ ، وقرب رصيف الميناء الصغير حيث احتشد الأطفال ، الذين ربما اعتقدوا بإمكان حلول المعجزة ، أن ترسو هذه السفينة الكبيرة هنا وأن يقبل المسافرون على شراء الأصداف والمحار وتوزيع البخشيش . لم تحدث المعجزة .

«لاحظوا رجاءً ، إننا نقترّب من اسطنبول ، ونمر بجوار القصور الصيفية للنخبة من سكان اسطنبول» .

الفيلات وسط الحدائق بيض ومزينة كأنها قرص من الحلوى يعلوه الكريم . ركض الحشد نحو مقدمة السفينة . يقال إن أول منارات اسطنبول قد ظهرت للمسافرين .

ذهبت فلاستا الى مقصورتها لتأخذ حقيبتها اليدوية . فلو وقفت لحظة أخرى هكذا مع هؤلاء الطلبة ومرافقهم المجتهد لاعتقدت بأنها تقوم بنزهة لا هدف لها في أوروبا . غير أنها لا تستطيع أن تسمح لنفسها بتسكع السياح هذا بالذات .

إنها ليست جوابة آفاق ، إنما هي على الطريق .

ما زالت في حقيبتها اليدوية الصحيفة التشيكية ، التي اشتراها لها زوج أختها في محطة القطار . إنها مدعوكة وقد كتب فيها أن وزير التعليم والارشاد القومي ، قد استقال من منصبه حسب رغبته ولأسباب صحية ، وفي جنيف يجري الاعداد لمؤتمر حول نزع السلاح ، وتعلن بلدية براغ للرأي العام أنه قد تم حتى ٢٠ أيلول ١٩٢٤ توظيف ٣٥٩ عاملاً في أعمال الطرق والمواصلات و٨٢ عاملاً في مجال البستنة والحداثق و٣٦٩ عاملاً في مجال تنظيف المدينة . وفي الثالث من تشرين الأول تم بمشاركة وزيرين افتتاح محطة (بيو راديو) في شارع فوشوفا في كرالوفسكه فينوهرادي . خطوط سكك الحديد في مدينة خبْ مقطوعة لثلاثة أسابيع تقريباً بسبب إنهيار التربة ، سباق الخيل في ميدان ليتنا بين فريقتي سبارتا - سلافيا : انتهت اللعبة بالتعادل ٦٥ : ٦٥ بعد ٢٤ جولة . ولسوف تعلن هيئة التحرير حالة المباراة على لوحة الاعلانات المعلقة كل ربع ساعة

وبالطبع من العبث أن تبحثوا في الصحف اليومية عن أية إشارة أو خبر يقول «... في الساعات المبكرة من صباح اليوم غادرت الدكتورة فلاستا كاللوف ، الطبيبة التشيكية الشابة ، والتي قررت بإرادتها المستقلة واعتمادا على قدرتها الذاتية تأسيس مستشفى تشيكي في إحدى دول الشرق الأوسط...» لا شيء من هذا القبيل . فلم يعلم بسفر فلاستا غير بضعة من أشد الناس قرابة ومن أقرب الأصدقاء . وربما بعض الذين قد تناسوها منذ زمن طويل قائلين : إنها مغامرة ، امرأة متهورة ، ما الذي يجذبها هناك ؟ رومانطيقية الشرق ؟ الحلم بالذهب ، إنها ستري بأمر عينها كم سيكلفها ذلك من المشقة .

بدأ كل شيء قبل تسع سنوات ، حين أقدمت فلاستا على تسجيل نفسها للدراسة في آن واحد في كلية الطب وفي معهد الاستشراق لدراسة اللغتين العربية والفارسية . حتى ذلك الحين كانت تبدو طالبة مجتهدة ، تتمشى في المسالك بين الحقول المحيطة ببلدة برنارتيتسه وبين يديها دفتر الكلمات في حين تعبث ريح الصيف بشعرها الكستنائي .

وكانت الدهشة ترتسم فقط على وجوه الذين يقع نظرهم مصادفة على دفتر الكلمات فيتساءلون : ما هذه الرسوم المتعرجة بحق الاله ؟ هل هي التركية ؟ يا لها من فتاة غريبة : لو تعلمت الانكليزية أو الفرنسية لكان الأمر مقبولاً ، ولكن التركية ؟ ماذا في ذلك ؟

لكنها كانت تجيد الإنجليزية والفرنسية والروسية والاسبانية الى حد ما كما أنها كانت تجيد الألمانية رغم أنها لم تكن إجادة تامة - ولكن لا ، لن نسبق الأحداث فلكل شيء ، وقته المناسب

كانت فلاستا في السابعة عشرة من العمر (فتاة ناعمة دقيقة البنية ترتدي ثوباً فاتح اللون ، يغطي جسمها من الرقبة حتى أخمص القدمين وفق ما كانت تقضي به موضحة عهد النهضة الجديد) تتعلم لغتها السابعة . وعندما كان هناك من يبدي دهشة لذلك تقول حسناً وماذا في الأمر ؟ هذا ما يمكن أن يتعلمه كل إنسان ، فليس في هذا أي أمر غريب (ولم تدرك مطلقاً ذلك حتى في وقت متأخر وبعد أن تعلمت أربع عشرة لغة وربما أكثر ، بل ولم تشأ أن تعترف بموهبتها الاستثنائية لتعلم اللغات . ماذا في الأمر من غرابة ، هذا ما يستطيعه كل إنسان ، وكأن بمقدور كل إنسان أن يرسم مثل رامبرانت أو أن يؤلف مثل موزارت) .

من الممكن أن نحدد بدقة تامة تأريخاً واحداً على طريق فلاستا ، بل وأن نحدده بالساعة . لم يكن ذلك عموماً حدثاً استثنائياً : ففي عام ١٩١٩ كان البروفيسور ياروسلاف هالا يلقي محاضرة في جمعية الأطباء التشيك حول الأمراض التي تسببها الطفيليات في البلدان الأجنبية . وفي ختام المحاضرة أكد أنه من الجيد لو يكون لواحدة من كليات الطب في أراضي الدولة الفتية مركزاً متخصصاً بدراسة أمراض المناطق الاستوائية . فإن العلاقات تتسع وتزداد سرعة وسائط النقل وتختصر المسافات وبذلك يتنامى خطر انتشار الأمراض . ونحن لا نستطيع الإلتظار مكتوفي الأيدي أو الإكتفاء (بدراسة بعثاتنا المستضافة في الجامعات الأجنبية) . إنحني البروفيسور منهيأ محاضرتة وهو يجمع أوراقه . أعقب ذلك تصفيق طويل تعبيراً عن الموافقة . صفق طلبة الطب بصورة عاصفة وكانوا على شيء من الدهشة : إنه إنسان متقدم في السن ويحمل مثل هذه الأفكار الحكيمة .

« حقاً إنه مصيب فيما قال ، بالطبع أن ذلك أمر ضروري ولكن قولتي لي من فضلك لماذا ينبغي أن تحققي ذلك أنت بالذات ؟ » كان زملاؤها يهزون رؤوسهم باستغراب ويحاولون بصبر أن يوضحوا لها أن هناك آخرين . هناك رجال أقوياء وشجعان . الى أين تريد أن تذهب هذه المرأة التي لا يكاد يراها أحد . (لصغر حجمها أو لقلّة أهميتها) .

« إذن فلسوف تذهب أنت بالذات ؟ قالت ذلك مهاجمة من كان الأقرب إليها

« أنا ؟ لا تفقدي صوابك ، فإن أهلي بدأوا يوسعون الدار ويحسبون أنني سأفتح عيادة طبية هناك . ولكن هناك آخرون... »

« آخرون... آخرون ، دائماً الاغنية نفسها . فكل واحد يقول هذا »

وفي حين كان الرجال الأقوياء والشجعان يتبادلون النظرات ذات المغزى من فوق رأسها كانت فلاستا تفكر « بالنسبة لمن هو من وسط أوروبا ستتوفر أفضل الظروف لدراسة أمراض المناطق الحارة في الشرق الأوسط ، في الأقل توفر المناخ الأكثر ملاءمة نسبياً هناك ، ويعني هذا بالتحديد دمشق أو بغداد » .

إشارات الاستسلام . دمشق أم بغداد ، هكذا ترونها ، أغرى سحر الف ليلة وليلة ، سحر الشرق هذه الفتاة .

لنتفاهل بأن تشفى من ذلك ، فالأفضل تشيسكا ليا أو تروتونوف أيتها العزيزة الذهبية . وإذا كان الحظ الكبير حليفك فلسوف تعملين في مدينة بيسك أو مدينة طابور ، لأجل أن تستطيعي السفر لزيارة أهلك أيام الأحد

٣

دمشق أو بغداد . اتخذ القرار . وعندما يتخذ القرار لا بد من العمل . لم يكن لأحلام فلاستا حتى في العشرين من العمر ذلك الغموض المحبب ، لم تكن لديها صورة السراب المتلاشي على عجل ، التي تلتهم بشكل مفر وساحر قبل أن تختفي في لحظات . أجيال كاملة من فلاحي جنوب الأراضي التشيكية ممن انحدروا من سلالتها كانوا على يقين تام ، بأن نمو القمح في الحقل يتطلب أولاً بذر الحبوب .

دمشق أو بغداد . غير أنها لا تستطيع أن تتركب في أحد الأيام ، وشهادة التخرج في كلية الطب في جيبيها ، عربة القطار لتسافر : إنني هنا أمامكم طبيعة تشيكية واعدة ، وأريد أن أقيم هنا معهداً ، يستطيع فيه زملائي وأبناء ، وطني دراسة أمراض المناطق الحارة . ولا شك أننا أيها السادة المحترمون سنفهم بعضنا بعضاً ، في الأقل لأنني أتكلم اللغة العربية .

لا ، لن يسخروا منها . فقد اشتهروا بالأدب والمجاملة . ولسوف يرسلون معها الى المحطة لأجل العودة خادماً سوف يمشي خلفها بخطوتين ، لأنه من غير المناسب أن تسير السيدة وحيدة في الشوارع .

لا ، إذا ما أرادت أن لا تصاب بالفشل أمام أول باب تطرقه ، لا بد أن يعرفوا عنها مسبقاً وأن يكونوا في انتظارها . ينبغي أن يتعرفوا عليها من خلال من يحظى باحترامهم وتقديرهم . وهي بحاجة لأن تعرف المزيد عنهم ، أن تلقي نظرة على آسيا ولو من فتحة ما بين ستائر النوافذ . فإن أجسام البشر متشابهة من حيث الأساس في كل مكان غير أن الروح على خلاف ذلك . والأدب غير كاف لتحقيق هذه المعرفة ، وسيكون اكتشاف روح الشرق في دمشق أو في العيادة في بغداد أمراً متأخراً

سجلت طلباً على المجلة الطبية التركية ، اسطنبول سريريائي - مستشفى اسطنبول .
فطريقها الى الشرق يمر عبر اسطنبول .

مرّ عامان تقريباً منذ أن وضعت مشروعها المدروس على «الورق» بكل تفاصيله ، وأضافت الى ذلك بضعة سطور عن كفاءتها الطبية واللغوية . بعدها جاء الرجاء وليس التوسل للحصول على قرض . ووجهت الطلب الى وزارة الصحة وحددت هي بنفسها موعداً قاطعاً لتسديد القرض .

انتظرت ثلاثة أشهر لتحصل على بضعة سطور جافة رافضة . كتبت طلباً آخر الى وزارة التعليم هذه المرة . بعد فترة من الزمن وجهوا لها الدعوة . إننا نقدر مساعيك اللطيفة أيتها الدكتورة ، ولكننا وزارة فقيرة .

طلبت المساعدة من جامعة كارل ، بلا جدوى . الزمن مرّ مسرعاً وليس لديها إلا ما استطاعت توفيره بنفسها ، ربما لديها من النقود ما يكفي للسفر ولكن من المؤكد ليس لتجهيز العيادة .

في لقاء ما لمنظمة الصليب الأحمر التقت أمام قاعة الاجتماع بالدكتورة أليسا ماساريكوف . كانتا قد تعارفتا خلال العمل في المستشفيات العسكرية في الشهور الأولى التي أعقبت الحرب وهكذا وجدت فلاستا الشجاعة لأن تشرح مشكلتها رداً على سؤال طرح مجاملة : كيف حالك ؟

حَيَّلَ لها أن أليسا لا تستمع إليها كما ينبغي خاصة وقد كان هناك من يقطع حديثهما في كل لحظة ، فالكل يريد إلقاء التحية على ابنة رئيس الجمهورية . ولكنها بعد ذلك (وكانت منحنية على طاولة رئاسة الاجتماع) وضعت يدها على كتف فلاستا قائلة : اتصلي بي تلفونياً ولنقل بعد أسبوع ، فلسوف أسأل . ولم تقل تسأل من .

بعد أسبوع وجهت الدكتورة ماساريكوفيا الدعوة لفلاستا لزيارتها في قصر لاني كانت تنتظرها في حديقة القصر . وكان يوماً خريفياً مشمساً ، صيف هنود حمر

« درست الموضوع ، غير أن ما هو بحوزة الصليب الأحمر لا يكاد يكفي لتغطية مصروفاته » . فكرت فلاستا « الرفض من جديد إذن . إنه رفض ودي يزينه تناول الفطور في قصر لاني . »

« غير أن هناك أماكن أخرى » واصلت أليسا حديثها « فإن لمكتب رئاسة الجمهورية صندوقاً يصرف منه على الحالات الخاصة ، التي هي في الصالح العام للدولة . لهذا أردت حضورك الى هنا بالذات ، فإن الرئيس ماساريك يود التحدث إليك » .

شعرت فلاستا بالحيرة تعلو وجهها ، إذ لم تدخل في حسابها مطلقاً مثل هذا اللقاء أفضل ما تريد الآن أن تمشط شعر رأسها من جديد وأن تلمع حذاءها . لم يكن لديها أي متسع من الوقت ، فإن الرئيس مقبل يرافقه سيد آخر أصغر منه سناً الى حد ما . « هوبي » قال الرجل مقدماً نفسه . إنه يرتدي بدلة مدنية غير أن قامته المنتصبه تشي بكونه الى وقت قريب كان يرتدي البدلة العسكرية . على أية حال لم تعره فلاستا في هذه اللحظة غير قليل من الاهتمام . قفزت من مكانها ، مرتبكة ، وهذا ما لا يحدث إلا نادراً . وانحنت كالتلميذة « نهارك سعيد أيها السيد الرئيس! »

إنها تكاد تكون ما تزال طالبة ، فكرت أليسا وخطر في ذهنها السؤال فيما إذا كان من الممكن النظر الى مشاريع هذه الفتاة بجدية ، ألا تقودها في الأغلب رومانطيقية المغامرة ؟ لعلها قد ارتكبت خطأ بترتيب لقائها مع أبيها

جلس السادة وجاء النادل حاملاً على عربة صغيرة الشاي والحليب والفواكه والحلويات . أبدى الرئيس إهتماماً بالإختصاص العلمي لفلاستا ، ومما أفرحها أنه لم يبدِ استغراباً لذلك . فعندما قالت إنها متخصصة بالجراحة تحدث لبرهة عن المهن وعن الجامعة وعن جنوب الأراضي التشيكية ، إنه الحديث المؤلف عند تناول الشاي .

بعد ذلك دفع السيد هوبي صينية الأواني . وانحنت أليسا بارتياح في كرسيها . ولعل فلاستا قد انتظرت وضعية مشابهة سيتخذها الرئيس (باهتمام ولكن بشيء من المحافظة) . غير أنها دهشت حين انحنى فجأة على الطاولة واقترب منها جداً : « هكذا والآن حدثيني عن رحلتك المزمعة أيتها الأنسة الطيبة » .

تلك الحركة الحية (أسند ذراعه على زاوية الطاولة) قربته إليها لدرجة نسيت معها شعورها بالرهبة . لم يعد لحمرة الخجل من أثر ولم تعد تتلعثم وتحدث بموضوعية - بشينية ووضوح عن ما تريد القيام به وعن ما أنجزته لحد الآن من أجل ذلك . لم يقدم الرئيس على مقاطعتها . وقد تراجع السيد هوبي (السكرتير والمرافق وربما الحرس الشخصي الى حد ما للرئيس) في لحظة ما مبتعداً عن الطاولة وأخرج آلة التصوير والتسقط بعض الصور الفوتوغرافية .

« إنني سوف أوصي مكتب رئاسة الجمهورية » قال بعد ذلك توماش ماساريك « أن يقدم لك قرصاً ولنقل لخمس سنوات ، لا تعرضي فترة أقصر للتسديد » أوقف فلاستا عندما وجد أنها تفتح فيها معترضة « أنت لا تدرين أية بدايات تنتظرك » .

عبرت عن الشكر وألقت حولها نظرة غير متأكدة ما إذا كان عليها أن تهتم بالتوديع ، غير أن الرئيس كما يبدو ليس على عجل (على أية حال إنها المشكلة الخالدة للعقيد ف ، ف . هوبي ، أن ينبه الرئيس بأن الوقت المحدد قد انتهى ، في حالة أن يطول الحديث بشكل جميل مع أحد الزائرين) .

« سوف تشعرين بالحنين » قال ماساريك هازأً رأسه « إنني أعرف ذلك فلقد عشت في الخارج أيضاً لفترة طويلة وكنت وحيداً . استصحي معك ما يذكرك بالوطن ، لا تنسي ذلك » .

« نعم... نعم » قالت فلاستا متلعثمة ومندهشة « بالطبع إنني سأستصحب الكتب والصور الفوتوغرافية... »

« هذه أيضاً ، ولكنني أقصد شيئاً محبباً ، مثلاً الكوب الذي تفضلين شرب الشاي فيه ، وسوف ترين كيف أنه سيساعدك في بعض الأحيان » .

إنها لم تنسَ تلك النصيحة . واستصحبت معها غطاءً صغيراً للطاولة من قماش الجودر وقد طرزت عليه أمها زهوراً صغيرة وزخرفة زرقاء . إنه أفضل من الكوب ، فكرت فلاستا بطريقة عملية ، فهو لا يشغل حيزاً كبيراً ولا يتحطم . وضعت في أعلى الحقيبة لأجل أن تفرشه بعد ذلك على الطاولة عند تخطيها عتبة غرفتها . إنه سيذكرها بالوطن وبالرئيس - توماش ماساريك .

تراكض المسافرون نحو مقدمة السفينة ، لأجل أن لا تفوتهم مشاهدة أول منارة تلوح في الأفق ، بعد ذلك عادوا مسرعين الى مقصوراتهم لاستصحاب حقائب السفر وها هم يتزاحمون نحو الجانب الأيمن للسفينة ، حيث يتم إنزال جسر السفينة . إنهم يتعجلون كل شيء ، وكأنهم يخشون أن لا تنتظرهم المدينة التي يمتد عمرها آلاف السنين ، مدة عشر دقائق يضعون أقدامهم على اليابسة .

تقدمت فلاستا بصبر في آخر الحشد ولاح لها في الأسفل بين المنتظرين من يرتدي البدلة العسكرية التشيكوسلوفاكية . لوحث له فانحنى الضابط بأدب . إنها لفكرة جيدة تلك التي خطرت للعاملين في السفارة التشيكية حين أرسلوا ضابطاً لاستقبالي . في الأقل تم بذلك التخلص من إحراجات بحث أحدهما عن الآخر والتكهن المتبادل . إنه ضابط فارغ الطول ، يشمخ بين الحشد ليس برأسه بل وأيضاً بكتفيه .

على أية حال إنه لا يستحق هذه السخرية ، فهو لم يكن فارغ القامة ومؤدباً وحسب وإنما كان أيضاً قديراً ، فقد كانت سيارة الأجرة تنتظر عند دائرة الجمرك وقد أرسل سائقها لينتظر حقائب السفر في طابور المسافرين .

« ستقيمين بالطبع في بيره ، أيتها السيدة الطيبة ؟ كان ذلك للتأكد من كونه سؤالاً فهناك فندقان جيدان جداً يمتلكانهما أبناء وطننا فندق نوفوتني وفندق كوهوت . » قال موضحاً بحماسة وإذا كان لي أن أقدم النصيحة فإنني أنصح باختيار فندق نوفوتني ، إذ أن لديهم مطبخاً رائعاً ، مطبخاً تشيكياً ونظافة تامة ومستوى أوروبياً للراحة ، راحة أوروبية في جميع التفاصيل . لا شك أنك تفهميني يا دكتوراة . « لسوف تشعرين هناك ؛ وكأنك في بيتك »

« شكراً جزيلاً ، غير أنني قد ضمنت السكن مسبقاً ، حجزه لي الأصدقاء من براغ » مدت يدها في الحقيبة باحثة بين أوراق كثيرة عن تلك الورقة بالذات .

« بالطبع في بيره توجد أيضاً فنادق فرنسية وانكليزية والمانية » قال - اعترف الفارس المنتدب ببرودة رافعا حاجبيه الى حد ما . شعر أنه أغيظ وحاول اخفاء ذلك . هكذا هم أناسنا ، ما إن يضعوا أقدامهم خارج الوطن حتى يكون الفندق التشيكي غير عالمي في نظرهم . أخيراً وجدت العنوان

« في اسطنبول ؟ أنت تريدين الإقامة في اسطنبول ؟ هل تعلمين كيف هي الحال هناك ؟
ما من أوربي يقيم هناك مطلقاً »

« لا ، إنهم يسكنون هناك . بالتحديد في هذا العنوان يسكن مستشرقنا الدكتور تاور
(Tauer) ، ومنه حصلت على هذا العنوان » قالت رافضة .

« مستشرق طبعاً . إنه يريد معرفة الوسط ، ولكن لماذا ينبغي أن تسكني هناك أنت
الطبيبة ؟ »

ليأخذها الشيطان ، إنها امرأة ، إنها تبتسم على الدوام بعناد . إلتفت مسلماً العنوان
الى السائق . وقد استغرب السائق ذلك أيضاً . سيدة أوربية في اسطنبول ، ليكون ذلك حسب
مشيئتها ، رفع الضابط كتفيه . غداً أو بعد غد ستكون سعيدة إذا ما انتقلت الى فندق
نوفوتني في بيره .

كانت سيارة الفورد تلهث مسرعة في شارع اسطنبول المنحدر . من نوافذ الطوابق
الأرضية وعبر ثقوب ستائر النوافذ من الأطلس الوردي والأحمر أو الأزرق تنظر عيون
متطلعة . فوصول سيارة الأجرة الى هنا حدث كبير . الأطفال يتراكضون على الأرصفة وقد
حملوا إخوانهم الصغار على ظهورهم وبين أيديهم قطط كبيرة .

فلاستا تنظر خارج السيارة وتشعر بالارتياح والطمأنينة . فلقد أدرك المستشرق تاور
بالضبط ما تريد هي . فهي هنا في غير ما حاجة لأن تشعر وكأنها في بلدها . إنها بحاجة
لأن تشعر بأنها في آسيا ولهذا جاءت الى هنا

٥

تقع دار جورج العساف على السفح الجنوبي لجبل علي بيك ، وكأنها علبة كبريت قد
وضعت بشكل قائم . ثلاثة طوابق في كل منها غرفة متجهة نحو الشارع وواحدة متجهة نحو
الحوش وسقف مستوٍ . وقد أعدوا لفلاستا غرفة متجهة نحو الحوش في الطابق الأول . هنا
سرير حديد وطاولة وكرسي وفوق السرير طاقة للكتب ، ولم تتسع الغرفة للدولاب ، لذا
وضعه في الممر الى جانب الباب .

إنه بيت متواضع . لا شك أن الفنادق في بيره تقدم لضيوفها راحة أكبر . (الكونفورت

الأوربي بكل التفاصيل ، لا شك أنك تفهميني يا دكتورة . بالطبع أفهم - تقصد المراحيض الأوربية وتخجل من قول ذلك أمام سيدة . ولكن هنا ، حيث ينتشر الكثير من الأمراض عبر الجهاز الهضمي ، أرى أن المراحيض التركية الحالية من المقعد أفضل بكثير ، أيها الشهم المحترم) .

بيت متواضع ، الثراء الوحيد هنا هو المنظر الممتد أمامي . فالنوافذ الضيقة الثلاث تحتل الجدار المقابل للباب بكامله . ومن الممكن من خلالها مشاهدة البحر والتلال المواجهة لي والمسجد المتوج للسلطان بايزيد . البيوت ذات السطوح المستوية تبدو مثل لعب الأطفال المنثورة . وبينها تشمخ أشجار السرو وكأنها رماح قائمة الخضرة . وفي السماء تنار المصابيح الصغيرة الصفراء . بيت لحم . بيت لحم القديم من أيام الطفولة ، في كنيسة القرية .

استقبلت أسرة العساف فلاستنا استقبالاً حميماً ، كأنها ضيف طال انتظارهم له . الشيخ الأشيب جورج ليس تركيا ، إنه عربي سوري ، وهذا أفضل ، فإن فلاستا تستعد لأن تعيش بين العرب .

أعدت السيدة شفيقة بمناسبة الاستقبال عشاءً احتفالياً . حساء الرز وسمكة بحرية مطبوخة بالطريقة السورية وباذنجان محشو باللحم ، وحلويات تركية مع الحلوى بالجوز وبعد وقت متأخر ، بعد وقت متأخر جداً علمت فلاستا أن الباذنجان قد طبخ بطريقة تسمى «إمام بايلدي» أي أغمي على الإمام . وتقول الاسطورة أن الإمام أصيب بالإغماء حين أخبرته القائمة على شؤون المطبخ عن كمية الزيت الذي استخدمته لهذه الطبخة .

وكان من عواقب اللقاء الأول مع المطبخ الشرقي الإضرار الى الإلتزام مدة أسبوع كامل بنظام دقيق للغذاء : الشاي والخبز اليابس وعند الظهيرة حساء الدجاج الذي كانت تذهب الى بيره المخيفة لتناوله ترافقها الخشية من أن تلتقي الضابط المنتدب الذي كان في انتظارها

٦

بعد الوصول الى اسطنبول مباشرة سعت الى اقامة صلة مع الاطباء الاتراك ، الذين عرفت اسماءهم من المجلة الطبية . وفي الوقت نفسه كرسيت الاهتمام لأن تعمل كطبيبة خارجية في احد مستشفيات اسطنبول . قالت في أحد المستشفيات ولكنها كانت تفكر في

مستشفى واحد فقط ، هو مستشفى البروفسور باسم عمر للأمراض النسائية . يتكون مستشفى الدكتور عمر من بضعة مبانٍ خشبية تحتوي خمسين سريرا ، وكانت تجهيزاتها فقيرة ومستهلكة . لأن الدعم الحكومي لم يسمح بأكثر من هذا ، ورغم ذلك قيل أن البروفيسور يقوم بتغطية قسم من تكاليف عمل المستشفى من حسابه الخاص .

وكان الأطباء في هذه الظروف البدائية يقدمون عملا جيدا في مجال تخصصهم ، وقد اشتهر باسم عمر كطبيب توليد وطبيب للأمراض النسائية في الشرق الاوسط كله . واذا ما ذهب الانسان الى اي مكان في الدول العربية مع توصية موقعة باسمه سيجد جميع الأبواب مفتوحة أمامه .

وعد السفير التشيكوسلوفاكي أن يحاول ترتيب لقاء فلاستا مع البروفيسور وكانت هي الى ذلك الحين تقوم بزيارة من هم اقل شهرة ولذا فإنهم الزملاء الذين يسهل الإتصال بهم .

طبيب الأمراض الجلدية الذي نشرت له في " مستشفى إسطنبول " بضع مقالات ممتعة حول معالجة حبة بغداد كانت له عيادة في شارع الفرن المغلق . إنه إسم شاعري ولا ريب ، غير أن الدار كانت قديمة تفوح من سلالها عفونة القدم ، وخلف الباب المهشم تقع غرفة الانتظار ، التي تذكر بممر لدار بريد ريفية مهملة . كل كرسي هنا يختلف عن الآخر والطلاء الزيتي وراء مساندها قد تقشع حتى ظهر الطلاء الجيري . ويبدو ان التنظيف هنا لا يتم في كثير من الاحيان .

على اية حال ، الامر الاهم بالنسبة للمرضى : كيف هو الطبيب وليس كيف هي حال الغرف . لامت فلاستا نفسها لهذا الانتقاد . ظهر طبيب الامراض الجلدية في وقت مبكر ، ومد يده بحرارة ساحبا الزميلة الى داخل العيادة . حال العيادة بدت مشابهة لحال غرفة الانتظار ، ولكن الاشياء التي كانت في العيادة أكثر بكثير .

الطبيب شاب أزرق العينين ، ممتلىء حيوية وكان يبدو فرنسيا اكثر منه تركيا . كان رشيقا سريع التهيج . بعد خمس دقائق كان ينحى باللائمة على الاوضاع المحافظة التي تسود الجامعة . إننا بحاجة لأن نهز الاوضاع من أساسها . كان يشد بيدين بارزتي العظام على شيء غير مرني . واضطرت فلاستا إلى أن تكرس كل ماديها من الخذاقة واللباقة لأجل أن تحوّل الحديث من السياسة الى مشكلة حبة بغداد

طبيب الاعصاب يعمل في الحي اللطيف (الجلبي) قرب الميناء الكبير . باب ناصع البياض

ولوحة سوداء محتشمة كتب عليها عنوان العيادة بحروف ذهبية اللون . يقوم بفتح الباب خادماً أسود يضع الطربوش على رأسه ويقود المرضى الى غرفة الانتظار المخصصة للرجال أو للنساء

ويدير البروفيسور إضافة الى هذه العيادة ثلاثة معاهد متخصصة وهو في الوقت نفسه رئيس تحرير المجلة الطبية ، التي تشترك فيها . بالطبع ، بالطبع إنه يعرف فلان ، فلقد قرأ رسائلها التركية ، التي بعثت بها الى الادارة مع الاشتراك . غير أنه لم يكن ليتوقع أن تتاح له الفرصة السعيدة لأن يتعرف على الزميلة شخصياً . إنه يشعر بفرح لا حدود له ... حقاً لا حدود له أن لهم قارئة في براغ وهو يرحب بها هنا ، ويبدو أنه مخلص في قوله .

إذن فهو تقدمي (في البلد الذي تم فيه قبل سنة بالضبط اعلان الجمهورية ، يبدو أن التقدمية أصبحت من السمات الحسنة المطلوبة ومن مستلزمات النجاح) . هو أيضاً يريد ان يزعزع اسس الظروف المحافظة في الجامعة وجمود كلية الطب التي يعمل فيها بروفيسورا . غير أنه لا يشد قبضته فهو يشد ويثني الاصابع الرشيقه ليديه الجميلتين والمعنى بهما عناية فائقة . وهو يتمرد ضد الرجعية والتخلف في الحدود التي تسمح بها طبيعة مرضاه .

مرضى طبيب الاعصاب الذي لديه خادماً أسود وكراسٍ حمراً في غرف الانتظار البيض يختلفون جوهرياً عن مرضى طبيب الامراض الجلدية ، الذين يتداوون في اسطنبول القديمة القذرة من القرح والدمامل .

غير أن البروفيسور كان بأسلوبه تقدماً حقاً . ففي مختبر أحد معاهده التقت فلانستاً بامرأة . لم تكن مريضة ولا زائرة . كانت موظفة . كان وقع ذلك لا يصدق تقريباً كما لو انها التقت برجل في دير للنساء . وكانت عاملة المختبر نجية تدرك ذلك ، لهذا كانت ترتدي ملابس الرجال ربما لأجل أن لا يُعَرَف بسهولة أنها امرأة .

٧

في النهار وعند المساء تكون نوافذ غرفة فلانستاً وكأنها إطار ثلاثي لصورة جميلة متغيرة . وفي الليل تنهض منها الاشباح . فإن الاقسام المتحركة منها لا يمكن أن تغلق ، وتنساب منها برودة قارسة متوغلة . فلانستاً ترتجف تحت البطانية القطنية الخفيفة . في كل

ليلة تصمم : غدا سأشتري بطانية صوفية جميلة ، رائحة وهشة ودافئة ، والافضل أن تكون من وبر البعير . وفي الصباح تنسى اصطكاك الاسنان في الليل ، والتقلب من جانب الى جانب والمحاولات العقيمة لاستدعاء الاحساس بالدفء عن طريق الايحاء الذاتي . في الصباح ترى فقط أن البطانية المحاكة من وبر البعير غالية الثمن . إنني فتية ولسوف أعتاد بسهولة ، فالأمر يتعلق فقط بالليالي الاولى . تحاول إقناع نفسها ، فعندما سأبدأ تجهيز العيادة سأكون بحاجة لكل فلس .

بعد ذلك يأتي الليل من جديد بنوافذه الشاحبة المحدقة بوحشية . وعندما يبدأ نور الصباح بالانتشار حوالي الساعة السادسة تسمح للنور بالمرور عبرها بدون رغبة و بصورة غير كاملة . إنها نهاية شهر تشرين الأول ، الصباحات غير مشوشة ، ورفوف الغريزان تنعق فوق سطح البحر وتطوّف بلا كلل في حلزونيّات سوداء . ليالٍ غير مضيافة وصباحات تشير الشعور بالضيق وأمسيات الوحدة القارسة .

لم تعش فلاستا حالة بانسة كالتي تعيشها اليوم غير مرة واحدة في الحياة : حينذاك ، يوم أرسلها والدها وهي في الثالثة عشرة من عمرها الى اقارب لها في فيينا . فيينا في ذروة رقصها للفالس في بداية القرن ، فيينا الملونة في قمة عهد النهضة الجديد ، بدت لها المدينة الأشد حزنا والأكثر رمادية في العالم . كان للاقارب بيت كبير ، فيه غرف عالية معتمة يغطي جدرانها الورق وباردة . مُنَحَتْ غرفة كانت تقضي فيها الساعات الطويلة وحيدة . خذوني الى بيتنا وإلا فإنني سوف أموت هنا ، كتبت ذلك ربما للمرة المائة لكنها مزقت جميع تلك الرسائل . أرسلوها هنا لمدة سنة واحدة لتتعلم الالمانية ، ولم تشأ أن يقولوا إنها هربت وبسبب تلك السنة الحزينة في فيينا كرهت اللغة الالمانية .

٨

التزم السفير بوعده ، فقد دعت زوجته طبيب التوليد التركي المشهور لتناول الغداء وقبل البروفيسور الدعوة . وهكذا حدث أن بدأت فلاستا كالالوفا منذ نهاية تشرين الاول العمل كطبيبة خارجية في مستشفى عمر باشا في القادرية .

وكما هي حال السمكة في الماء انسجمت فلاستا في وسط المستشفى الكامن في وعيها الباطني ، انسجمت مع رائحة الكربوليك ، ودوامه الزيارات والفحوص العيادية وعمليات التوليد

الايام الآن جيدة ، لها ايقاعها ونظامها . وتنشأ صداقات جديدة خلال حالات الولادة العسيرة وفوق المغسلة عند غسل الأيدي ، وخلال تناول فنجان القهوة في غرفة الخفارة .

حتى الليالي لم تعد غير محتملة : فقد أعارها الأصدقاء من الجالية التشيكية بطانية صوف دافئة لليالي القارسة البرودة واحضروا لها المنقلة في الامسيات الباردة

مثل هذه المنقلة شيء رائع . إناء حديد كبير على أربع قوائم صغيرة من الحديد المطروق توضع في وسطها كومة من الفحم الخشبي وتُشعل فيها النار . وعندما تسود الغرفة عتمة المساء تختفي المنقلة في الضوء الخافت ولا تُرى غير بضع جمرات ملتهبة ومتوهجة تشيع الدفء وتبدو معلقة فوق البساط كأنها خيال أو خزانة من الذهب في مغارة علاء الدين . الجمرات الهشة تتساقط لتكشف ولو لحظات الاشكال المحجوبة للاخشاب وسيقان الاشجار . وعندما تطيل النظر إليها يخيل اليك انها تشتعل وتنطفئ بوتائر منتظمة وبطيئة كأنها تتنفس

إنها لشيء رائع هذه المنقلة ، خاصة بالنسبة لفلاستا التي كانت طوال حياتها بحاجة الى الدفء اكثر من حاجتها الى الطعام .

٩

عرض عليها زملاء الأترك الشباب ، الذين أقامت معهم أواصر الصداقة في المستشفى ، (سواء أكان ذلك بتكليف من البروفيسور أو بمبادرة ذاتية منهم) إستعدادهم لمرافقة زميلتهم الجديدة وتعريفها على إسطنبول .

إنها لمدينة متميزة تبدو من بعيد وكأنها حكاية خرافية . ألوان باستيل ، الازرق الشفاف - المخملي - الذهبي والابيض اللؤلؤي . فسيفساء الألوان تبدو مثل قطعة من الحرير الملون تشع فوق دانتيل أمواج البحر . ومن القرب تُرى شوارع فقيرة وجدران خشبية مخرتها ديدان الاخشاب وستائر بيضاء مزقها البؤس وأكوام الأنقاض والمواقع السوداء التي خلفتها الحرائق .

ما أكثر الحرائق ، ففي الأحياء الخشبية القديمة ، ذات المواقد المفتوحة والمدافئ والنيران ، من السهل أن تشب الحرائق .

السنة اللهب المدوية تنهش أخشاب الشرفات المزخرفة بالحفر والتي جففتها الريح
مثيرة تطاير شرارات النار مثل شلال متساقط ولكنها سرعان ما تنتشر . ولعل اقدم الالعاب
النارية قد نشأت عند احتراق الخشب الذي جففته الشمس لعشرات السنين ، فهو يشتعل
فجأة محدثا فرقة

ولعل حرائق العشرينيات لاتعني شيئا بالنسبة للماضي . إذ تحترق دار أو داران ، وقد
يحترق جناح أو جناحان من الدور . ففي عام ١٩٠٨ تحولت الى رماد في اسطنبول أربعة
آلاف دار مرة واحدة . ولم تجد نفعا إعادة التنظيم لمنظمات الاطفاء التي تم تحقيقها لعدة مرات
كما لم ينفع استبدال قادتها . وقبل أن يتوفر للمدينة التلفون أو اية وسيلة بدائية لارسال
الاشارات ، كانت الأخبار عن الحرائق تنقل عن طريق الحراس حملة الرماح في أبراج غالية
واسطنبول ، الذين يقطعون المسافات مشيا على الاقدام . فالى أن يصلوا الى مبنى قيادة فرق
اطفاء الحرائق ويقدمون الاعلان عن الحرائق رسمياً والى أن يرددوا بدلاتهم الرسمية ذات
اللونين الأزرق والأحمر ، ذات القبعات الحمر (المؤثرة والجذابة في احتفالات المدينة) تكون
النار قد التهمت الحي بكامله . إنها مدينة متميزة .

في الحصن العسكري القديم ، الهائل والسمح والمتفحم تطلق القباقيب . ويضاعف
الصدى قهقهات الفتيات الصغيرات : فهنا الآن مدرسة للبنات . أول مدرسة للبنات في
تركيا

يقول الدكتور سليم متذكرا "عندما أراد ابي تسجيل أختي في المدرسة قال له الجميع :
بريك ، ما الذي اعتراك ؟ إن بمقدورك أن تعلمها في البيت شيئا من القراءة والكتابة ، وما هي
حاجة الفتاة الى التعليم ؟ وكانت النسوة أكثر من يحاول اقناع أبي بذلك"
في أجبية الضاحية الهادئة ، مسجد ومقبرة ، وفي أعلى أشجار الدلب الضخمة والسامقة
تعشش اللقالق ، التي تحلق بهيبة فوق فناء المسجد وتمشى دوغما خوف بين الزوار
على السفح فوق المسجد توجد المقبرة القديمة ، وفيها موقع يقدم منظرا رائعا لبانوراما
المدينة . من ذلك الموقع المقابل ، نظر الى إسطنبول في يوم ما يان نيرودا*
اليوم ستكون ليلة مقدسة ، ليلة المصاييح . أضواء أول بصيص مع لون الغروب

* يان نيرودا ، وُلد يان نيرودا عام ١٨٢٤ وتوفي في ٢٢ أب ١٨٩١ . شاعر وروائي وكاتب مقالة وصحفي تشيكي كانت نظرتة
العامة راديكالية وأوروبية . من بين مؤلفاته الشهيرة " حكايات براغ " ورواية قصيرة بعنوان " نفاية " وعدد من دواوين الشعر وكتب
تحتوي قطعاً نثرية قصيرة . . المحرر .

الأرجواني ، وراح سطح البحر يضاعفه ، يورجحه ويحطمه الى شظايا لماعة . ها هي المصابيح تُضاء ، الواحد بعد الآخر لتضيء المنائر . أحزمة المصابيح المزدوجة والثلاثية تضيء كأنها قلائد اللؤلؤء على جيد عنقاء . البحر يظلم والمدينة تُنار . مدينة ساحرة .

حتى سنوات العشرينيات كان يحدث أن تمسك مرساة السفينة تحت سطح الماء وأن ترفع الى فوق الماء سلسلة حديد يغطيها الصدأ مع حمل مُرَوِّعٍ - هيكل عظمي بشري . فقد كان يختفي في أمواج مضيق اسطنبول في عهد الامبراطورية العثمانية الرعايا غير المريحين والضيوف غير المرغوب فيهم . كان يكفي أن يصرخ السلطان أو أحد موظفيه الكبار تلك الجملة المعروفة :

جوزوم جورميزيسين . "إغرب عن عيني" هكذا يتم تقرير المصير البشري . يربط المحكومون صدرا الى صدر بالسلاسل ويلقى بهم في مياه المضيق .

اقشعرت فلاستا مرتجفة " هل تشعرين بالبرد أيتها الزميلة ، لنذهب " لاحظ ذلك الدكتور العطوف موري

لا أشعر بالبرد ، ولكن لنذهب . ليلة سعيدة ، أيتها المدينة الغريبة . فلابد لنا أن نشترى كعكة للفظور

١٠

أطبق طبيب الاعصاب دقتر مفكرته المغلف بجلد التمساح ومن وراء حاجبين كثين سوداوين نظر الى فلاستا

"الدكتورة صوفيا علي سوف تعجبك ولاشك ، فهي تشبهك قليلا"
"تشبهني؟"

"لعلني لا اقصد أنها مشابهة لك بهياتها " صحح البروفيسور بسرعة وبنوع من الارتباك "فهي أكبر منك سنا غير أنها مشابهة لك بطبيعتها ؛ إنها عنيدة أيضا " قال ذلك بشيء من التردد والاعتذار والاعجاب .

صفية علي ، عنيدة . لو لُقِّبَ الناس بلقب المهيمن لكان هذا اللقب ملائما لها حقا لم تكن المرأة الاولى التي أرادت أن تعمل طبيبة في تركيا وهي ليست التركية الاولى

التي نجحت في دراسة الطب . إنها اكثر من ذلك . إنها أول امرأة استطاعت فرض نفسها كطبيبة في تركيا . ولم تواجه بالدرجة الاولى مقاومة الدوائر أو الدين أو عدم ثقة المرضى فقد كانت العقبة الرئيسية والتي كادت أن لا تتغلب عليها متمثلة بمنافسة وكراهية زملاء الرجال .

مرة ، على عتبة القرن ، يقال أن طبيبة للأمراض النسائية أرمنية انتقلت الى اسطنبول وفتحت عيادة في بيره . وفي وقت قصير أصبحت لا تشكو من قلة المرضى . وكان زملاؤها الرجال يتسمون بارتياح وصبر . وفي احد الايام جاءت الدكتورة الى إجتماع الاطباء ، وقد تأخرت ، فقد جاءت مباشرة من زيارة مريضة مشهورة ، تثير الحسد . وجدت بسرعة مكانا لها وجلست وحمل لها الخادم كما هي العادة فنجان قهوة ، شربت القهوة لبرهة من الزمن ثم خرجت من قاعة الاجتماع مترنحة ، شاحبة الوجه وقد ظهرت على جبينها قطرات عرق بارد . ولم تعد الى هناك مطلقا . فلقد قام أحد ما بتسميمها . ولم ينجح التحقيق بتاتا في الكشف عنه .

بعد ذلك ببضع سنوات ظهرت في اسطنبول طبيبة غروزيانية شابة ، أكملت دراستها في سويسرا . غير أن هذه لم تصل حتى الى باب العيادة . إذ كافحت لفترة من الزمن في سبيل الحصول على رخصة العمل لكنها استسلمت متخيلة عن ذلك فيما بعد . ثم تزوجت وقامت بوضع شهادة التخرج في كلية الطب في اطار وعلقته في غرفة الإستقبال

إنها أحداث مشجعة لطبيبة شابة تريد المضي اكثر نحو الشرق ، أي الى مزيد من العمق في التقاليد والعادات .

لا لم تكن هذه هي المرة الاولى التي تسمع فيها فلاستا عن منافسة الرجال . غير أن تلك التي عرفتتها في بلدها كانت تجرى على صعيد آخر . طبيبة أمراض نسائية ؟ لا بأس ، لم لا . طبيبة اطفال ؟ بالطبع . طبيبة عامة ، طبيبة امراض داخلية ؟ ولماذا لا في النهاية . . ولكن طبيبة جراحة ؟ امرأة وتقوم بأجراء العمليات الجراحية ؟ لا بد للجراح أن يكون رجلا . ينبغي ان تتوفر لديه القوة والدقة والشعور بالمسؤولية . . وهكذا الخ . كم مرة قالوا لها ذلك وجها لوجه وكم مرة قالوا ذلك وراء ظهرها . حينذاك كتبت من برنو الى صديقتها ماري :

"... كان اولئك آباؤنا ، وليس أمهاتنا من أرادوا منا أن نتعلم وندرس ، والآن بعد ان

تخرجت يعترض هذا وذاك من الرجال على المساواة وتساوي القيم التي يعترفون بها على الورق . لم يكن هناك شئ بعيد عني وفي اي وقت مضى كالمشكلة التي تسمى بمشكلة المرأة . ولكنني حين أرى كل ذلك الآن ، يخيل لي أنني كنت قد ظلمت في بعض الاحيان الذين سبق أن عالجوا هذه المشكلة..."

صوفيا علي ، العنيدة . إنهما متشابهتان ، ليس جسديا . كان البروفيسور محقا ، رغم انه لم يتحدث ، بدافع المجاملة ، إلا عن اختلاف العمر ، عن الجانب الاكثر ايجابية بالنسبة لفلاستا . كانت صوفيا حقا اكبر عمرا منها ، ربما في الخامسة والثلاثين وربما اكثر من ذلك بقليل . عدا ذلك كل الاشياء الباقية تتحدث لصالح صوفيا . فهي على خلاف فلاستا جميلة ، فارعة ممتلئة القامة شعر رأسها اسود ، تقاسيم وجهها ناعمة وكأن بشرتها من العاج ، عينها براقتان . إنها طبيبة اطفال ولكنها تترأس في المستشفى قسم الامراض النسائية ايضا وتعمل مرة في الاسبوع في قسم الاستشارات والنصائح الطبية للاطفال الرضع في اسطنبول والتابع للصليب الاحمر . يحمل هذا المركز الاستشاري اسما شاعريا ولعله حزين الى حد ما وساخر هو "قطرة حليب" . ويتبعه مطبخ الحليب ، الذي يقدم منه يوميا لستين وحتى ثمانين طفلا رضيعا الحليب المعقم مجانا . ويقوم المركز الاستشاري ايضا بتسجيل الاطفال الذين هم بحاجة الى تغذية اضافية والذين لا يستطيعون رضاعة الحليب مطلقاً

"إنه لقليل ، قليل بدرجة فظيعة بالنسبة لهذه المدينة الكبيرة . لو علمت كم من الاصابات بالنزلة وكم من الاطفال يموتون بسبب سوء التغذية فقط " قالت الدكتورة صوفيا علي رافضة اطراء فلاستا

بالطبع انه لقليل . قطرة الحليب هذه بالذات في بحر البؤس . فلاستا ترى هذا يوميا في مستشفى الولادة . فالامهات المصابات بالتدرن الرئوي يرضعن بشكل اعتيادي اطفالهن ، دون ان يشير ذلك احدا ودون أن يقوم احد بأي عمل من اجل تغيير الحال ، باستثناء الدكتورة صوفيا علي التي توزع في بايزيد قطرتها الحليبية ، ستين الى سبعين وجبة حليب يوميا . وبالإضافة الى ذلك فإن امكانات المركز الاستشاري غير كافية حتى انها لم تكشف امام فلاستا عما اذا كانت تقدمية . على اية حال لم يتطرق الحديث الى هذه المسألة .

في بداية شهر نوفمبر كتبت فلاستا الى بغداد . وهاهي نهاية العام دون ان تتلقى اي جواب . كان زملاؤها الاتراك يحاولون الترويح عنها قائلين بين الجد والهزل : إذن واصلي البقاء هنا وكوني مرتاحة البال . فمن الممكن العيش في اسطنبول ، عندما يتقن الانسان ترتيب اموره قليلا . وهنا الكثير من أبناء الجالية التشيكية .

أجل كانت تلك حقيقة لاريب فيها . ففي منتصف سنوات العشرينيات حين كانت كالالوفا تعيش في اسطنبول ، كانت المعطيات الرسمية تشير الى وجود حوالي ستمائة مواطن تشيكوسلوفاكيا . إلا أن أغلبية هؤلاء التشيكوسلوفاك ، لا يعرفون ولا كلمة واحدة من اللغة التشيكية أو اللغة السلوفاكية وكانوا يخلطون بين براغ ووارشو أو بلغراد أو اية مدينة أخرى من مدن العالم . كان هؤلاء شرقيين ، منحدرين من الاغريق والمسيحيين الآخرين من شرق البحر الأسود . وفي الفترة المضطربة في بداية القرن حاولوا إنقاذ أنفسهم وأطفالهم بأن قاموا بشراء حق المواطنة (الجنسية) النمساوية - المجرية . ومع المواطنة حصلوا على القرية أو المدينة مسقط الرأس : في الاغلب كان الموظف يضع قلمه على نقطة ما على الخارطة لتكون مسقط رأسهم . وإذا كانت القرية في الأراضي التشيكية أو المورافية أو السلوفاكية اصبح هؤلاء النمساويون المزورون في تشرين الأول عام ١٩١٨ تشيكوسلوفاكيين مزورين . وقد عاش في اسطنبول حينذاك حوالي الثلاثين من التشيك والسلوفاك الحقيقيين . واستقبل هؤلاء فلاستا بترحاب وتوسطوا في ترتيب اللقاءات اللازمة لها واصطحبوها معهم لزيارة الاسر التركية واعاروها البطانيات والمنقلة وكان الفضل لهم في أن فلاستا قد رتبت مسكنها الذي أقامت فيه .

ولم تكن لتدرك كيف تتكون عاداتها اليومية في اسطنبول . فقد اعتادت أن تأكل في الفطور يوميا الكعكة الصغيرة نفسها ، التي تشتريها مساء كل يوم من المتجر نفسه . وقد عرفوها هناك . وحين يحدث مصادفة أن لا تحضر يسألونها في مساء اليوم التالي " أين كنت يوم أمس يا دكتورة ؟ ألم تكوني مريضة ؟"

كانت تحب الذهاب الى السوق القريبة ، ففي الوقت الراهن على حافة الشتاء ، تمتلئ حوانيت السوق باكوام الفواكه والخضروات ، التي لم تكن لتعرف اسماء البعض منها . على

كل حال كانت تذهب إلى هناك للفرجة في الأغلب - فإن لسانها الذي وهب القدرة على تلفظ الكلمات الأجنبية الأكثر تعقيدا ، كان يفتقر تماما الى أكثر السمات حيوية : التلذذ بتذوق الطعام . كانت لا تكثر تماما لتذوق الأطعمة المتميزة واللذيذة سواء المحلية منها أو الأجنبية . وكانت تأكل فقط من أجل تجنب الاحساس بالجوع . وقد اعتادت تناول وجبة الغداء في أحد مطاعم الحليب البلغارية بتناول كأس من اللبن أو صحن من المحلي . وكانت تأكل السمك مرة أو مرتين في الاسبوع في مطعم صغير غطيت طاولاته بالمرمر في حي ديوان يولو . وكانت تتعشى بالخبز والزبدة والجبنه والفاكهة ، لأن ذلك كان صحيا ورخيصا . ولم يخطر لها حتى في الاحلام الذهاب الى احد المطاعم لتناول العشاء ، رغم أنها كأجنبية تستطيع في نهاية المطاف أن تسمح لنفسها بذلك .

(لو كانت تركية ، لما كان لها ما تفعله في الليل في الشارع ناهيك عن المطعم حتى ولو كانت بصحبة رجل ، فالتركية المحترمة تكون بعد غروب الشمس في منزلها أو أن عليها أن لا تعود الى المنزل إلا بعد حلول الصباح) .

ومع مرور الايام بدأوا في السفارة التشيكوسلوفاكية ايضا ينظرون الى فلستا بشيء من العطف والمواساة بسبب عدم وصول أي رد من بغداد . مسكينة هذه الفتاة ، ربما لن يتحقق لها ذلك . هيهات أن يفسح الانجليز في المجال لغيرهم هناك . ولو سمحوا لها بالوصول الى هناك ربما سيكون الامر بالنسبة لها أسوأ - هل تستطيع عموما ان تتصور اي مصير مجهول تريد الذهاب إليه ؟ إنهم سوف يشعرون تجاهها بشعور العطف والمشاركة مع الجندي المتطوع الذي ينتظر بفارغ صبر إرساله الى الجبهة

١٢

في كنيسة سلام الله ، التي شيدها جوستينيان والتي كانت في عهد ما معبدا للقديسة أيرينا ، يوجد اليوم المتحف العسكري التركي .

الكثير من الاسلحة القديمة معلق على الجدران وعلى الاعمدة ، التي كانت المحاريب عندها قائمة . وقد نظمت كالهرم على الارض محاذية للجدار وما بينها الاقمشة الثقيلة المهترئة للرايات المطرزة بخيوط مذهبة يميل لونها اليوم الى الاخضر . الخوذات والدروع والألواح الواقية للخيل . من النادر أن تتاح فرصة مشاهدة مثل هذا القدر من عمل صناع

السلاح و الحديد المطوع في مكان واحد . الزوار الاجانب يبدون اعجابهم ويتأملون ، ويعبرون عن تقديرهم لما يرون

أما فلاستا فلا ، إنها لاتفعل ذلك ، لأن الحرب هي الحرب ، والموت هو الموت . ما الذي ينفع الرأس المقطوع ، إذا كان للفأس التي قطعتة مقبض فني مطعم بالنحاس أو اللآلي؟

الحرب . كانت كلمة فارغة لعهد طويل . تأريخ على صفحات الكتب المدرسية . الحرب الفينيقية وحرب الثلاثين والحرب حول وريثة سيليزيا

في عام ١٩١٤ قرر المعلم كالال ، أن يستمتع بقضاء أيام من الاجازة عند البحر ولسوف تبقى الأم في المنزل لأنه من الضروري أن يبقى أحد في المنزل . لا بد من بقاء من يرعى الدار والأرانب والنحل - ولسوف ترافقه فلاستا . ووقع اختياره على جزيرة كرك في بحر الأدرياتيك .

كان ذلك في منتصف تموز . القطار السريع يمر عبر محطة جميلة علقت على جدار واجهتها نبتة البيلارجونيا الموضوعة في سلال جميلة . ونماذج القلاع في الحدائق زاهية الالوان . يوم أمس الأول جلسوا مع أمها في برناريتسه حتى ساعة متأخرة من الليل ليقرروا ما إذا كانوا سيبدأون الرحلة أم يفتحون حقائب السفر ويعيدون ما فيها الى مكانه . الآن وهم في القطار يجتازون المناطق الطبيعية الجميلة في النمسا ومدنها وقراها الجميلة والبهيجة ، تبدو مخاوف يوم أمس الأول تافهة ومبالغ فيها . فإن حادث الاغتيال في مدينة سراييفو ، سيعود على الصرب بشيء ، من عدم ارتياح فيينا لهم ، وربما سيعرضهم لبعض العقوبات ، ولكن لن يحدث أسوأ من ذلك على ما يبدو .

قبيل المساء كانت العربات المكللة بالتبن تتأرجح في الطرق الريفية المنخفضة ومن الكنائس ذات الأبراج كانت الأجراس تبعث رنينها في كل الاتجاهات ، وكان الهواء معطرا وقد بدت فكرة الحرب عقيمة وعبثية .

بعد أقل من أسبوعين سلكوا الطريق نفسها عائدين . كان القطار يتوقف في كل لحظة ، متجنباً قطارات النقل العسكرية المسرعة نحو الجنوب . كانت محطات سكك الحديد الريفية الصغيرة مألئى بالبذلات العسكرية . عربات مكتظة بالأباء والامهات اللواتي يعلو بكأؤهن وهن يودعن ابناءهن المجندين . وأدركت فلاستا أن الفرقة الموسيقية تعزف على آلاتها

النافخة من أجل أن تطفئ الموسيقى على صوت البكاء . في قرية زديتسه قرب حديقة إحدى القلاع الصغيرة (النموذج) كانوا يقدمون الاسعاف الأولي لامرأة جريح ، ضربها القطار عندما كانت تركض بمحاذاة العربات . لعلهم أخذوا منها زوجها وربما ابنها . ذهب ذلك القطار ، أما المرأة فإنها تجلس هنا عاجزة مقهورة ومرضوخة ، بدون أي مظهر من مظاهر البطولة ، دموعها تختلط بدمائها

سيوف من الحديد المطوع ، ودروع مطعمة بالأحجار الكريمة . لنذهب من هنا ، لنخرج من هنا أيها الاصدقاء ، إنني لا أرى في هذا أي شيء جميل . فنحن أطباء وكل هذه النفائات ضدنا

الدكتور نوري مرتبك ولعله يشعر بأن الكلام قد مسه الى حد ما . سليم يفهمها أفضل . فقد استدعي هو ايضا للخدمة العسكرية أثناء الحرب وعلموه كيف يستخدم البندقية ، وأوضحوا له أن من الأفضل أن يسدد بندقيته نحو صف من الجنود والأحسن بالطول ، لأنه من الأكثر احتمالا في هذه الحالة أنه سوف يصيب بالجراح عددا أكبر منهم مرة واحدة . ولن يسرق في العتاد ، إذ سيستخدم طلقة واحدة . في تلك اللحظة طرح سليم سلاحه جانبا وقال الى هنا وكفى . لعلكم لاتريدون مني أن أقتل الناس الاصحاء . لقد درست خلال الليالي الطويلة لأستطيع إنقاذ الناس من الموت أو في الاقل تمديد أيام حياتهم إنني لن أمارس القتل . لحسن الحظ كان بين الحاضرين ضابط رشيد العقل . لذا لم يرسل سليم الى السجن وإنما رتب فرصة عمله كطبيب في المستشفى العسكري . وهناك استطاع من جديد إنقاذ الناس وخاصة الشباب ، الذين كانوا حتى أمس أو أمس الأول أصحاء كما لن يكونوا بعد الآن طوال حياتهم .

إنهم يسيرون في شوارع اسطنبول صامتين .

"استمعي ايتها الزميلة " قال سليم مصمما بشكل مفاجئ " بودي أن أعرفك على أحد الأشخاص ، ولا أدري هل سأنجح في ذلك ، لكنني سأجرب"

١٣

أن تبحث في الازقة المتلوية في التل تحت مسجد السلطان بايزيد عن "بيت خشبي قديم له شرفة من الخشب المزخرف بالحفر" يبدو كما لو أنك تبحث عن حبة معينة في كيس ممتلئ

بالحنطة . بحثوا مدة ساعة تقريبا ، كانوا ينتقلون من دار الى دار ، الواحدة مشابهة للآخرى تماما ، بيت خشبي قديم شرفته الخشبية من الخشب المزخرف بالحفر . وأخيرا أصابوا الهدف ، إنه البيت المطلوب بعينه .

فتحت لهم الباب سيدة متقدمة في السن . وقادتهم الى غرفة الاستقبال التي تقع في طرف الممر مباشرة وراء الباب . تأملت فلاستا وسليم باهتمام كبير وبعد ذلك قالت "تفضلوا بالجلوس ، وسوف يحضر مجي في الحال"

جدران بيضاء خالية من الصور ، وقد امتدت بمحاذاة الجدران مساطب الجلوس المغطاة بالبياضات ، ولاشيء أكثر من ذلك . اللون الأبيض والصمت . المشبكات الخشبية المزخرفة بالحفر تغطي النصف السفلي من النوافذ

وفي لحظات ظهور الشمس ترسم ظلال المشبك على الارض زخرفة وهمية .

البروفيسور عبد العزيز المجي فيلسوف . كان الى عهد قريب يحاضر في جامعة أنقرا في تاريخ الادب . وكان طلبة الطب ، ومن بينهم سليم أيضا ، يهربون من المحاضرات الأخرى ليستمعوا الى مونولوجاته البطينة والطويلة ، التي لا تقتصر أبدا على الادب وحده وللمشاركة في المناقشات المألى بالخواطر والتأملات .

جاء الرجل الكهل مرتديا عباءة فضفاضة بنية اللون . حيا الضيوف وجلس في المكان الأكثر تواضعا ، الذي يعتبر هنا وفق التقاليد مقعد المضيف . لبرهة من الزمن كان ينظر اليهم صامتا بعينين زرقاوين متسائلتين .

عَمَّ أردت أن تسألني يا ابنتي ؟ صوته هادئ صبور وقد خيل لفلاستا لو أنها استطاعت البقاء فترة من الزمن في هذه الغرفة وتأمل عيني الكهل الزرقاوين ، لما كانت بحاجة لطرح أية أسئلة ولأدركت كل شيء مع مرور الزمن .

سبب لها شيئا من الارتباك : فقد انتظرت أن يقوم هو بتوجيه الاسئلة ، شأن جميع من التقت بهم حتى الآن . من أين هي ؟ ولماذا سافرت هذه المسافات البعيدة ؟ وكان في تلك الاسئلة شيء من الاهتمام وشيء من المجاملة . لكنه لم يسأل . هذه المتحدث البارة والذكية المعتادة على تحديد موضوع وطبيعة الحديث وجدت نفسها فجأة في موقف حرج . حول أي شيء يمكن أن أسأله لكي لا يكون السؤال سخيفا أو محرجا أو ساذجا ؟

"ماهو الامر الجوهري ، يا سيد مجي ، ماهو الامر الأهم في الحياة ؟ " قالت متعجلة بصوت أجش كأنه ليس بصوتها .

"في الحياة؟ الحياة نفسها ، لاتعتقدي بأن كل من يتنفس ويأكل ويشرب ، يعيش أيضا . ليس الأمر هكذا - هز رأسه- تأملي حولك فقط : يدخل الناس الى الحياة على عجل من أحد أبوابها وبسرعة يخرجون من بوابة اخرى قبل ان تستطيع ارواحهم ادراك تفاهة هذه العجالة .إنني لأشعر بالاسف على هؤلاء . فإننا في هذا العالم مرة واحدة لاغير ، وعلينا أن نتيح للروح الاستمتاع والفرح بالحياة . لقد جئت من الغرب يا بنتي . وفي الغرب حققت العلوم التقنية تقدما كبيرا غير أن الحكمة تتخلف وراء التقنية .إنها مازالت تراوح على مرتبة سفلى ، حتى ليخيل لي أن البشرية مازالت طفلا في السابعة من العمر . وعندما يتعلم الناس عدم الشجار فيما بينهم ، ستكون البشرية طفلا في الخامسة عشرة من العمر ، إنه مازال بعيدا جدا عن بلوغ سن الرشد" . ابتسم بحزن وادراك .

قدمت لهم السيدة التي قادتهم الى داخل الدار القهوة في فناجين نحاسية صغيرة مع ارغفة الذرة اليابسة الحلوة . مجي يلوك اللقمة ببطء ، بامتنان الانسان الذي عرف الجوع وربما عاشه بنفسه .

"فالكرة الارضية غنية وواسعة بما يكفي لأن تضمن عيش جميع الناس . والارض حرة ، غير أن للناس نزعات عدوانية وكأنهم حيوانات بشرية . فإن من لديه الفان يريد خمسة آلاف ومن يحصل على الخمسة آلاف يريد عشرة آلاف . وليس للطمع البشري من نهاية . لأن روح الذي يركب السيارة تشعر بالضيق أكثر من روحي ، أنا الذي أقطع الطريق مشيا على الاقدام ، رغم أنه يجلس في حين إنني أتنفس الغبار الذي تخيره سيارته" .

أحنى الشيخ رأسه . ومن النوافذ يُسْمَعُ صفير الريح في أشجار اللبلاب المعتمة الأوراق . حان وقت المغادرة . فإن لدى مجي مزيداً من العمل وربما وقت قصير فقط

رافق الضيوف الى عتبة الدار " جئت من مكان بعيد وبودي أن أقدم لك شيئا لأجل أن لا تذهبي بأيد خالية " . قال مجي مودعا " لاتسمحي مطلقا للهموم والعجالة بأن تصيبا وضوح روحك بالعمى . ولاتتعديبي عبثا ، حاولي دائما الاحتفاظ بالتوازن الروحي . لتكن روحك طليقة دائما وليسكن السلام دخيلة نفسك . تذكري أن كل انسان وحده هو خالق الجنة والنار ، إنه يحملهما في ضميره . تذكري ذلك يا ابنتي ، عندما تواجهك اللحظات الصعبة في الحياة"

انسد الباب وبقيت وراء فلاستا وسليم دار اعتيادية غير كبيرة فيها شرفة مزخرفة
إنها دار قديمة وهادئة مثل عشرات الدور الأخرى على السفح المنحدر تحت مسجد السلطان
بايزيد . تذكرى يا ابنتي عندما تحل اللحظات الصعبة في الحياة .

حينذاك لم تكن فلاستا ولم يكن الشيخ الفيلسوف يتوقعان كيف ستكون صعبة تلك
اللحظات ، التي سوف تتذكر فيها

١٤

وأخيرا تلقت فلاستا في أواخر يناير الإجابة من بغداد . إذ كتب لها رئيس الأطباء في
المستشفى الملكي الدكتور دينلوب يقول إنه تحدث حولها مع المفتش العام للخدمات الصحية
العراقية . غير أن نتائج الحديث ، التي كان يتوقعها دينلوب مقدما ، لم تكن ايجابية
للأسف ، إذ أن الخدمات الصحية العراقية العامة لا تستطيع توظيف أحد بل على العكس
وبدافع التقدير تقدم على تخفيض العاملين . فخلال الايام القليلة القادمة مثلا سوف يتم
تسريح طيبة انجليزية كانت تعمل حتى الآن في مستشفى البصرة .

وكتب الدكتور دينلوب مضيئا بقيت هنا إمكانية واحدة ، هي فتح عيادة خاصة ، غير
أنني لا أنصح بذلك ، إذا لم تكن السيدة الطيبة مستعدة لأن تبقى سنة او سنتين بدون اي
مريض تقريبا

"إذا لم تكن مستعدة " : يعني اذا لم تكن غنية لدرجة تمكنها من تحمل ذلك .

ارخى الاصدقاء اكتافهم بمواساة قائلين : " وما العمل الآن ؟ "

البحث عن الفرصة في مكان آخر ؟ في سوريا ؟ في لبنان ؟ ماذا ستفعلين يا فلاستا ؟
ألا تريدان بعد ماحدث العودة ؟ ولعلك تستطيعين محاولة ذلك من جديد بعد فترة من الزمن
وريشما يكون الوضع أفضل .

مما أثار دهشتهم ارتياح فلاستا للرسالة ، فقد فهمَ منها أمر واحد : وهو أن الدوائر
الرسمية لن تمنعها في الغالب من أن تحطَ رحالها في العراق . وهذا هو الامر الرئيس وما
تريد أن تسمعه . فإن العقبة الحقيقية التي يمكن أن تواجهها هي المنع ، أما المغامرة والمصاعب
فإنها لم تعتبرها مطلقا من العقبات .

إنها سوف تنطلق نحو العراق في بواكير الربيع . فقد أرادت إنهاء العمل التطبيقي في المستشفى وكانت بحاجة لأن تستكمل تجهيزات العيادة

ربما للمرة الاولى في حياتها ، اتخذت فلاستا قرارا بأن تطلب من الخياطة ، خياطة ثوب لها بالذات . فقد كانت امها طوال بقائها في منزلها في برنارتيته تهتم بدرج ملابسها كانت تهتم بعناية فائقة وبشكل سليم ويديها بالذات . وفي براغ انتقلت هذه العناية بشكل ما الى ميلادا ، الاخت الاكبر والمتزوجة والتي تكفلت باسكانها وإطعامها في بيتها ، وبذلك ايضا اخذت على عاتقها بعض واجبات وعادات الأم . كانت ميلادا تتفهم مثل هذه الامور وكانت تتابع بطرف عينها وهي عند كرسي عيادة طب الاسنان ، تقلبات الموضة ، وإدامة الصلة بالخياطات ، وكانت تقرر بمهارة وخبرة الاقمشة الصوفية والحريرالصيني بين سبابتها وإبهامها ، وتختبر عدم اندعاك النسيج وتفكر بالالوان والرسوم ، وكانت تنفعل وتثور بسبب عدم اكتراث فلاستا الدائم بهذه الاشياء

والآن حدث هنا أمر لم يُسمع به من قبل : إذ طلبت فلاستا في الأيام الأخيرة لأقامتها في اسطنبول خياطة بدلة نسائية لها . اختارت تنورة خضراء فاتحة اللون ، واستطاعت أن تصف للخياطة بدقة كاملة كيف ينبغي أن يكون شكل التنورة وكيف تكون البدلة . فاصون رجالي ، السترة ضيقة عند الخصر ، والتنورة ذات أزرار في المقدمة لتستطيع ركوب الخيل أي طول تريدين للتنورة ؟ هكذا تحت الركبة .

كانت دائما ترتدي تنورة أطول بعض الشيء مما كان سائدا في الموضة . " كنت أحاول إضفاء شيء من الهيبة على نفسي " اعترفت بذلك بعد سنوات وهي تتأمل الصور الفوتوغرافية القديمة .

١٥

عند مضيق البوسفور تنتظر شلة الاصدقاء المخلصين . لقد وصلوا . وقفت سيارة الفورد السوداء وهامهم يترجلون منها ويُنزِلون الحقائب ، ويترجل الرجل العجوز العساف الذي يعتني عناية فائقة باناء الماء المصفى ، واخيرا هاهي فلاستا تنزل من السيارة .

إنه لأمر لطيف منهم أن يحضروا وأن يستيقظوا في مثل هذا الوقت المبكر من أجلها ، فلقد سبق لها أن ودعت الجميع وها هو الوداع ينتظرها الآن من جديد ، المصافحة وتقديم

التوصيات والتحيات والمراوحة على رصيف المحطة . إنها الحيرة والإرتباك المتبادل ونفاد الصبر . لذا قررت اللجوء الى خدعتها القديمة . الحديث حتى اللحظة الأخيرة عن الأمور الاعتيادية والمألوفة ، وكأن من المنتظر أن يخرجوا جميعا من المحطة مرة واحدة . بعد ذلك ماعليها إلا أن تقفز وتلوح بيدها وتكون قد سافرت كانت تتصرف هكذا عند أهلها ، حين كانت امها ترافقها الى قرية فيسلييتشكا حيث محطة القطار

إنهم يلوحون بأيديهم ، وهم أصغر فأصغر ، لقد اختفوا تماما عندما انعطفت السكة الحديد . وتبدو اسطنبول غشاء خفيفاً أزرق . إنه يتستر على الأنقاض ومواقع الحرائق والحانات البائسة .

القطار المتجه الى أضنه قطار بطيء ، يتوقف عند كل محطة ، حيث تغادره أو تنضم اليه في كل محطة تركيبات بملابس قاتمة وقد شددن رؤوسهن بشالات أنزلت حتى الحواجب . وفي كل يد يحملن صرة فيها طفل في الاقل . في المحطة القادمة والتي بعدها وما بعد بعدها سوف يتدفقون من القطار ليركب غيرهم . قبيل حلول المساء لم تعد فلاستا تلاحظ تغير المسافرين معها ، وأصبحت تخلط بينهم . هذا الطفل علي الذي أعطته قطعة من الحلوى المزروجة بالنعناع ، صبي أسود العينين يرتدي بنظالا مشدودا بالحبل عبر الكتفين . البنطال كبير جدا ، لدرجة أنه يصل الى ماتحت أبطيه . لا ليس هذا هو فإن الصبي الذي تلقى الحلوى قد غادر القطار في وقت الظهيرة ، والأن حل ما قبل الغروب . وقد اختفى البحر والبساتين الواقعة بعد اسطنبول وبرد الجو . القطار يمر عبر مرتفعات جبال طوروس ، القمم الصخرية للجبال . فوق القمم العالية ترقد الثلوج - هنا وهناك يميل لونها الى الحمرة بفضل انعكاس الشفق .

هنا في هذا الركن الصخري الخالي ، حيث لاتستطيع البحث إلا عن الطيور الجارحة ، يتوقف القطار ، ويهبط منه الناس الذين يتعجلون السير في المسالك المتعرجة الى الأعلى أو الى الاسفل إلى مكان ما بين الاحجار والبيوت . ولايعلم غير الله ، كيف يستطيع هؤلاء العيش هنا وعلى اي شيء يعيشون

حل الليل . من السقف يتأرجح مصباح ضعيف الاضاءة . الظلمة خارج القطار حبست المسافرين في الضوء الخافت الأصفر داخل المقصورات . وإذا ما أردت النظر عبر النافذة ، فإن المرأة المشوشة تعيد لك بسخرية مجرد صورة وجهك المتعب

فلاستا تلف جسدها بمعطفها وتنظر بشيء من الحسد للتركية النائمة بطمأنينة . فهي لاتغمض عينيها إلا لحظات متقطعة قصيرة في نوم خفيف مليء بالاحلام والاشباح . إنها في القطار متجهة مع مارينا الصغيرة الى كلينتشي . سيصلون الى هناك ، إنهم هناك لكن من غير الممكن فتح باب عربة القطار ، حقا إنه من غير الممكن فتح الباب . السيد الوالد تاور ، عم الصغيرة مارينا يهز رأسه لهما مرحبا ، جاء ليستقبلهم بالعربة الخشبية ولكنه لايدري لماذا لايعادرون القطار . القطار يواصل سيره وهنا استيقظت فلاستا بفرح . لقد كان القطار حقا يغادر محطة صغيرة ذات اضاءة ضعيفة ، النساء على رصيف المحطة ، يحزمن ما تبقى من بسطاتهن ، البيض المسلوق وقطع الباذنجان المطبوخة والكعك الحلو والجبنه . لقد بعن ما استطعن بيعه أما ما تبقى فلسوف يأخذنه معهن الى بيوتهن لأن القطار القادم لن يمر قبل يوم الغد . ها هي المحطة تبتعد في الظلام ولا يبقى من جديد غير العتمة ووجهك على سطح زجاج النافذة .

١٦

في اسطنبول اكدوا لفلاستا ، أنها ستجد في أضنه قطارا يسافر الى حلب عند وصولها في الحال ، ووصلت الى أضنه يوم الثلاثاء لتجد أن أقرب قطار سريع يتجه الى حلب سيصل يوم السبت ، وهي محظوظة ، لأنها ستسافر في القطار المدني الأخير والذي سينطلق قبل بدء العمليات العسكرية ضد الاكراد المتمردين

أربعة أيام من الإنتظار ، خسارة لامبرر لها في الوقت والنقود . استأجرت عربة ووضعت عليها أمتعتها ، غير أنها واجهت مشكلة جديدة . فإن جميع الفنادق في أضنه مشغولة وعددها هنا ستة أو سبعة فنادق . في كل منها وجدت الجواب نفسه .

"ماذا ستفعلين ؟" سأل الحوذي مشبكا أصابع يديه ، في تلك اللحظة سهل الحصان أيضا ، وفجأة وجدت فلاستا أن كل شيء مثير للضحك . فقد حسنت مواساة الحصان لها مزاجها . أرجع الى فندق بني توركيا ، إذ تبدى أنه الأفضل هناك . وفي الوقت نفسه قررت بعناد : إنهم لن يستطيعوا إخراجي من هذا الفندق حتى ولو اضطررت الى النوم على الحصير .

"إننا لن ندعك على قارعة الطريق" قال صاحب الفندق بعد اقناع طويل . " يمكن أن نجد

غرفة فارغة ، لكن ليس لدينا سرير . " لا بأس ، هل لديهم طاولة ؟ طاولتان ؟ هذا أفضل .
والى أن تناولت فلاستا وجبة الغداء هياؤا لها في غرفة ضيقة سريرا من طاولتين

في العادة يبدو أن هذه الغرفة مخصصة للسطل والمكانس . النافذة تطل على الدرب الضيق للبازار . الآن في الظهيرة كل الحوانيت مغلقة ، حيث يستمتع التجار باستراحة الظهيرة .

في مكان ما في الدار المقابلة لمحت شيئا حُيِّلَ لها أنها تعرفه ، شيئا مس برقة وود حدود الوعي . نظرت فلاستا باستقصاء . بعد ذلك اكتشفت على باب المتجر اسم المنتج وقد كتب تحته بحروف كبيرة مجسمة اسم الشركة : براها (براغ)

براغ ، كيف يمكن أن يشعر الإنسان بالإرتياح خلال النظر الى باب حديد متحرك يعطيه الغبار

في اليوم الثاني لإقامة فلاستا في أضنه وقع تعقيد جديد غير منظر : فإن مديرية البوليس لم ترجع جواز سفرها الذي أرسل من الفندق الى البوليس لتسجيل إقامتها في الفندق . في البداية لم يكن الأمر ليوحي بأنه يمثل أي إشكال ، وبدا في الاغلب على أنه مجرد تماهل مألوف . لم ننته بعد من إجراء التسجيل تعالني غدا

حسنا سوف تأتي غدا ، لدينا متسع من الوقت . ولكنهم قالوا يوم الخميس ايضا غدا . كانت فلاستا تمشى في المدينة بدون هدف محاولة التغلب على قلقها . يوم الجمعة ؟ ليكن يوم الجمعة . فإن القطار سيغادر يوم السبت .

يوم الجمعة طردوا شغيل الفندق : ألا تعلم أن يوم الجمعة عطلة رسمية ؟

ذهبت الى هناك بنفسها . وقد نادوا القائد ، إنه فتى ذكي من الاناضول عيناه معتمتان . لم يفسح لها في المجال للتكلم . وبدأ حديثه بالانجليزية معاتبا : لماذا تريدان دراسة الطب في العراق ؟ فإن الطب في تركيا على مرتبة ارفع بكثير ، الطب التركي هو الافضل في العالم .

آه ، لهذا إذن ، بسبب من وطنية البوليس كانت على وشك التخلف عن القطار وضحت له باللغة التركية ، إنها لاتذهب الى العراق من أجل دراسة الطب وإنما من اجل دراسة الأمراض ، وفي هذا كما يدرك ولاشك فرق كبير . إنها تقدر الطب التركي تقديرا لاحدود له ، ولهذا بالذات قضت الآن نصف سنة في مستشفى اسطنبول

ولقد ذاب هذا الوطني أمام عيني فلاستا كما تذوب الزبدة على المدفأة . وفي الحال ختم جواز سفرها بكل الاختام المتوفرة في المكتب ، بل واتصل تلفونيا وبمبادرة ذاتية بمحطة القطار ، ليتأكد شخصيا من أن القطار سيتجه الى سوريا يوم السبت حقا ، رحلة سعيدة أيتها السيدة الطيبة والمزيد من التوفيق . صباح الغد سأرسل لك أحد فتياننا ليساعدك في حمل الامتعة .

ولم يكتف بالوعد فقط وإنما انجزه...

١٧

سادت العتمة تماما ، عتمة وسخة حليبية اللون واصفرت الشمس وكأنهم أحلوا مكانها مصباحا ضعيف الإضاءة يكاد يحترق . رَفُّ من الحمام الابيض يصفق بأجنحته فزعا ويحاول عبثا الخلاص من شيء ما . قالو لفلاستا " إنها العاصفة الرملية " كان ذلك صباح السبت وهي تستعد للذهاب الى محطة القطار المتجه الى حلب .

تناولت فطورها في مطعم الفندق . وكانت تنظر الى أشعة الشمس الارجوانية المائلة الى الحمرة تتراقص بين حين وآخر على النور المنتشر الداكن الصفرة . الغبار الرملي الدقيق لايعترف بعدم إمكان إختراق المادة فهو يتسرب عبر الباب وستارته المخملية الثقيلة ، ويتقدم في الغرف من النوافذ الموصدة ، وينزل على الطعام وعلى غطاء الطاولة ، على شعر فلاستا وعلى يديها المسكتين بالمعالق ، ويحدث صريرا بين أسنانها

قال صاحب الفندق بكآبة : " كانت أضنه مدينة جميلة"

"إنها مدينة جميلة حقا " أجابت فلاستا معترضة .

"ربما ، ولكنها كانت أجمل بكثير " اصبر بعناد على رأيه " اكثر بهجة وحيوية وأقل هموما " هز كتفيه كأنه يريد القول انه لايستطيع إيضاح ذلك بشكل أفضل .

كنت فتيا أيها السيد اللطيف . فكرت فلاستا ، ولكن من يدري لعل أضنتك حقا أجمل وأكثر بهجة وأقل هموما . أما الآن فيخيم عليها وربما الى الابد ظل ذلك العام ١٩٠٩ عندما قتل الاتراك سبعين ألف أرمني .

لم تتوقف العاصفة الرملية الا قبل ظهر الأحد . فوق سهل كيليكه تقوَس النهار المشمس واضح الزرقة . هنا وهناك كانت ترى من القطار فلاحا وراء محراثه

صباح يوم الاثنين وصل القطار الى محطته النهائية - حلب ، المدينة البيضاء في شمال غرب سوريا . من هنا اصبح من الممكن السفر الى بغداد في منتصف عشرينيات القرن العشرين في السيارة فقط ، أو على ظهر البعير

فلاستا تحمل معها من اسطنبول عنوان " وكيل السفريات الاجدر بالثقة في حلب " أخذ وكيل التسفير سلفة محترمة ووعد بأن يضمن للمدام ولأمتعتها مكانا في السيارة التي سوف تنطلق متجهة الى بغداد صباح الغد في تمام الساعة الثامنة .

في تمام الساعة الثامنة صباحا قال إنه يشعر بالأسف . فبعد مطر الامس ، من غير الممكن حتى التفكير ببدء الرحلة ، ربما غدا ، اذا لم يتساقط المطر الى ذلك الحين .

لم يهطل المطر ، غير أن السيارة لم تنطلق رغم ذلك . فقد اعلن وكيل السفريات الأكثر جدارة بالثقة في حلب وبدون أية توضيحات عقيمة أنّ السيارة ستبدأ الرحلة بعد الظهر . وبعد الظهر أجّل السفر الى يوم الخميس . وعلى الرغم من وقوف سيارة الفورد مهيأة للسفر صباح الخميس في ساحة المرآب ، إلا أنّ صاحب السيارة وسائقها جلسا يفكران ، فيما إذا لم يكن من الأفضل تأجيل السفر الى ما بعد الظهر

قالت فلاستا مطالبة :

"حسنا ، ضعوا أمتعتي فوق العربة وخذوني الى وكيل سفريات آخر ، فإنني لن أنتظر أكثر من ذلك"

"ما لصبرك قد نفذ" قال صاحب المرآب مدمدما . لم يكن راغبا في النهوض وقد لوح برأسه للسائق الذي تبعه بغير حماسة . ولعل من غير الدقة القول إنهم وضعوا الامتعة في السيارة ، فمن الاصح القول انهم وضعوا السيارة في الامتعة . ربطوا الحقائب بالعديد من الحبال والأحزمة الى جانب واحد من السيارة ، بعدها ذهبوا الى المدينة بحثا عن بقية زبائنهم الاكثر صبورا

وكان آخر من حضر ، يغطيه ، عدد هائل من العلب ، بانع الاحذية في حلب والذي تحسنت أحواله ، وها هو في طريقه الى بغداد ليفتح فرعاً لشركته هناك كان هذا الإسكافي ، تمشياً مع تقاليد حرفته كثير الكلام . وبفضل ذلك علم المسافرون أن التأخير لم يكن بسبب الامطار في منطقة الفرات وإنما كان بسبب عدد من أزواج الاحذية التي أراد الانتهاء من إنتاجها لفرع بغداد الجديد

حوالي الظهرية بدا أن كل شيء قد أصبح جاهزاً الى حد ما . في داخل السيارة كومة هائلة من الحقائب والصناديق والعلب وهي محزومة بخطوط متقاطعة بالحبال . هكذا كان حال الحافلة الفورد . وفي داخل الحافلة اربعة مسافرين وعدد كبير من الامتعة الصغيرة . وكان الدخول الى السيارة والخروج منها يجرى عبر النوافذ الصغيرة . هكذا انطلقوا عبر صحراء بنية سوداء ، طينية و موحلة حقا باتجاه الجنوب الشرقي نحو بغداد

١٩

عندما أصبحت حافلة الفورد المنتفخة على مقربة من نهر الفرات كانت الشمس قد غابت ، وقد امتد النهر في الطبيعة كأنه شريط عريض . لونه الآن عند الغروب ارجواني ذهبي . فرضت فلاستا فرصة للاستراحة وخرجت من نافذة الحافلة . هذا إذن هو الفرات . النهر الذي عرفته من دروس التاريخ ، إنه شاهد على الحضارات العريقة وهبة الحياة للسلاسل القديمة . مساء الخير أيها النهر ، إنني لسعيدة بالتعرف عليك . فلقد اختفت السلاسل وسلمت الثقافات مشاعلها للأجيال اللاحقة غير أن النهر يواصل تدفقه ، مثلما كان قبل آلاف السنين . عادت فلاستا الى مكانها في الحافلة ، منسلة عبر النافذة وكانت تائرة العواطف وقد تمزق جوربها

وصلوا الى مسكري لقضاء الليلة الاولى . كانت ردهة النوم وراء الحانوت المحلي . الغرفة الوحيدة مجهزة بسريرين عريضين من الخشب المنجور بفظاظة . إنها كافية لاربعة رجال ولكن أين سترقد السيدة ؟

كان التاجر يعدد امكانات السكن في القرية . لكن تعابير وجهه تشير الى أنها إمكانيات مشكوك في امرها . " إنها مسافرة معنا فهي إذن أختنا " قرر الرجال وتركوا لفلاستا مضجعا كاملا ، صلبا وعريضا

في الصباح غادروا عند الفجر ، اختفت الصحراء البنية السوداء لتحل بدلا منها الخضرة : الطريق الضيق يمتد أمام السيارة وكأنه مسلك للمشبي في مراعى لانهاية لها . ما اشد الهدوء هنا ، وكان السهل الاخضر قد ابتلع صوت المحرك .

عندما كانوا في اليوم الثالث للرحلة ، اختفت خضرة الفرات ، وها هي الصحراء من جديد ، هنا وهناك يرقد على جانب الطريق هيكل حافلة مقلوبة ومحتركة . ما الذي حدث ياترى للناس الذين كانوا داخل تلك الحافلة ؟ هل نجحوا في الخروج منها في الوقت المناسب ؟ واذا كان الامر كذلك فالى اين استطاعوا الوصول ؟

في الهواء المرتجف ينعكس في المدى البعيد سطح الماء . ابحيرة ام خليج بحري ؟ وتلك البقع المعتمة في الأطراف ، هل هي سفن ام اشجار نخيل ؟

ابتسم السائق الصحراوي المجرب ، الآن بالذات نلت ياسيدتي الدكتورة شرف انك اصبحت ضحية لخداع السراب .

في اليوم الثالث من ايام الرحلة وفي الساعة الثالثة بعد الظهر وقفت سيارة الفورد منهكة ملفعة بالغبار والطين عند حدود العراق . وقد جاء حراس الحدود الخيالة لمقابلتهم . رجال تغطي رؤوسهم اليشاميع الحمر المثبته بدائرة سوداء . أنزلت الى ما فوق الجبين .

ويطلق على هذه الدائرة اسم العقال ، وقد ثبت عليه الخيالة نجمة معدنية ، هي نجمة عشتار ، اشارة الشرطة العراقية .

كان الاستقبال وديا . غير ان الأمر كان دقيقا : يحق لكم اليوم الوصول الى النهيجة فقط . وهناك تقضون الليل .

"لماذا الى النهيجة فقط " دمدمت فلاستا " فالساعة تشير الى الثالثة للتو ويمكن أن نقطع العديد من الكيلومترات حتى المساء "

إنهم بيتسمون وتلمع أسنانهم البيض ، غير أنهم لايقبلون أي اعتراض : ليس من المسموح للسيارة أن تبقى خلال الليل في الصحراء ، ولا بد لجميع المسافرين أن يكونوا تحت سقف آمن قبل ساعتين في الأقل من غياب الشمس . وفي حالة أخرى لن تستطيعوا الوصول الى أي مكان ثان .

"الى اين تتمعجلين السفر يا خاتون ؟ " قال حارس الحدود الشاب لانما فلاستا

ومتعجبا . هؤلاء الاوربيون على شاكلة واحدة ، لقد شاهد عدداً منهم هنا " لاتخافي أيتها السيدة ، فلسوف تكونين موضع اهتمام كبير هناك ؛ يعدون لك غرفة خاصة وفراشا نظيفا وتناولين الشاي وتستريحين . وهل أتيت لك قبل هذا فرصة المكوث في النهيجة ؟ أتريين ، لماذا إذن كل هذا الاستعجال ؟ في كل الاحوال سوف تصلون غدا او بعد غد بإنشاء الله ، المهم وصولكم بالسلامة"

النهيجة . أروها هناك الناعور ، وهو وسيلة ضخ الماء لنظام الري القديم جدا . عجلة خشبية ربطت في محيطها قوارير من الطين تمتلئ عندما تكون في الاسفل بالماء لتصبه عندما ترتفع الى الاعلى في الساقية التي تنقله الى الحقل . اليوم كما كان قبل آلاف السنين . في كل مكان تتفتح بين الصخور الزهور الزرقاء

كان حارس الحدود محقا . فهل كان بمقدورها أن تزور النهيجة لو لم يكن الأمر كذلك .

قبل ظهر يوم الاثنين الخامس عشر من شهر آذار اقتربت حافلة الفورد من العاصمة العراقية . بعد عاصفة الرمال الصباحية كان للحافلة والامتعة والمسافرين لون موحد . إذ اصطبغوا باللون الأبيض المتسخ ، غير أن الهواء كان طريا والشمس تضيء بوضوح . أصبح من الممكن بالعين المجردة تمييز بساتين النخيل في الضواحي . من الممكن أن يصلوا بعد نصف ساعة ، لا لن يصلوا ، فقد انضموا الى قافلة الحمير . وكانت الحمير محملة بالطريقة نفسها على الجانبين نحو العرض مثل السيارة القديمة وهي تسير بثبات ولكن بمنتهى البطء . " لماذا هذا الإستعجال ياخاتون ؟ ماذا في الأمر أن تصلوا هذا اليوم أو بعد الغد . الشيء الاساس أن تصلوا بالسلامة"

موكب الحمير انحرف جانبا عند مفترق الطريق . وأصبح بمقدور حافلة الفورد أن تزيد في سرعتها . ها هي بساتين النخيل والطريق المعبدة . ضاحية المدينة . بين الدور الارضية (المكونة من طابق واحد) مقابر غير مسيجة . حول مطبخ متجول يحتشد عرب وهنود بدشاديش طويلة . إنهم يتناولون الغداء فقد حلت الظهيرة . ظهيرة الخامس عشر من آذار . تحت عجلات حافلة الفورد تثير ضجة الواح الجسر الخشبي عبر نهر دجلة وكأنها خشخاشة عيد الفصح . ألف وأربعمائة كيلومتر من البوسفور حتى دجلة خلال خمسة عشر يوما .

حين سيسافر بعد سبعة وثلاثين عاما طبيب تشيكي آخر الى بغداد ليكون خلفا لفلستا وهو صديقها الشاب وتلميذها بشكل ما ، سيفادر بالطائرة صباحا من براغ ليسير

في المساء في شوارع بغداد المضاءة من المطار الى الفندق . وسيكون الطريق طويلا هكذا بسبب التوقف . ولو كان الطيران بلا توقف لقطعت هذه الـ ٢٣٠٠ كيلومتر في زمن أقصر ولكان بمقدوره أن يكون هنا عند الغداء

اللقاء الأول

حوالى عام ١١٠٠ ق . م كانت هنا على الشاطئ الأيمن لنهر دجلة ، في تلك المواقع التي يقترب فيها من الفرات الى اقصى حد ، قلعة للملوك المصريين . وبعد ذلك مرت العصور وجرت مياه الأنهار وعبرت السحب في السماء - هذا هو الأمر الاكيد لا أكثر ولا أقل .

الفان من الاعوام تقريبا منذ أن انقطعت الأخبار . هل انهارت القلعة واصبحت أنقاضها مأوى للقطط المتوحشة والرحالة المعوزين ؟ أم عاشت قرية صيادي الاسماك هنا حياتها البانسة والهادئة

مرت العصور وجرت مياه الانهار وعبرت السحب في السماء ، هذا هو الامر المؤكد الوحيد ، وما سواه مازال ملفعا بالاسرار

في عام ٧٥٠ من التقويم الميلادي وبعد مرور ١٣٠ عاما على وفاة محمد قتل العباسيون الاسرة الاموية الحاكمة واستولوا على السلطة . وكانت دمشق عاصمة الحكم الى ذلك الحين . وقد قرر العباسيون نقل مركز الامبراطورية نحو الشرق . ولعل دمشق لم تكن رائعة في نظرهم ، ولعلها لم تكن آمنة بالدرجة الكافية لهم . ولذا اختاروا موقعا على شاطئ دجلة ، حيث يشتد اقترابها من الفرات . وما إن وضع المنصور حجر الاساس حتى بدأ آلاف العمال والحرفيين وكذلك المعماريين عملهم .

شيدوا مدينة دائرية وكان قطر الدائرة وفق مقياسنا الراهنة حوالى ثلاثة كيلومترات وأحاطوا المدينة بثلاثة دوائر من الحصون وفي الوسط بنوا قصرا دائريا للخليفة . ومن البوابات الاربع رصفوا الطرق نحو الجهات الاربع للامبراطورية هكذا نشأت بغداد ، مدينة السلام

وخلال خمسين عاما فقط من وضع حجر الاساس بلغ عدد سكانها كما يقال مليوني نسمة وكانت فيها آلاف المتاجر والطواحين والحمامات ، ومدت فيها بضع مئات من الجسور فوق دجلة وعبر نهر ديالى الذي تصب مياهه في دجلة هنا . كانت مدينة كبيرة حيوية ومرفهة . واجتذبت كالمغناطيس الفنانين والعلماء والتجار ، والباحثين عن السعادة ذوي الجيوب الخاوية . وكان لمعتقي دين محمد الحق في الإقامة في داخل المدينة ، أما النصارى واليهود فقد أقاموا امام الحصون . في ذلك العهد ، في بداية القرن التاسع كان يحكم بغداد خليفة اسمه هارون الرشيد

٢

الدور الصفراء المائلة الى الخضرة بشناشيلها وشرفاتها تزين من الجانبين النهر العريض الهادئ بلونه الحليبي الأخضر ، ترتفع بينها رؤوس أشجار النخيل وأشجار الحور الغامقة الرشيقة . وعلى الشواطئ تقف المدرجات الخشبية للمقاهي التي لا يرتادها غير الرجال . وفي الأسفل تقوم النسوة بغسل الملابس وملء الجرار النحاسية الكبيرة بمياه النهر . وعند الأفق حيث تُلقى العين نظراتها تُرى في كل مكان الشرفة الدائرية المصبوغة بالأصفر او الأزرق لمنارة واحدة في الأقل .

توقفت سيارة الفورد أمام الفندق «ها قد وصلنا يادكتور» . أخيرا وصلنا الهدف . وصلنا الهدف ؟ هيهات ، فما زال الهدف بعيدا . للفندق من الخارج جدار باهت اللون ، غير جذاب فيه بضع نوافذ مشبكة للزينة ولكن يكفي أن تخطو نحو الحوش حتى تجد نفسك في أجواء حكايات ألف ليلة وليلة . الممرات المقنطرة بلونها الأزرق الفاتح تطرز الطوابق الثلاثة وفي وسط الحوش حديقة مزدهرة الألوان تنطلق فيها نافورات المياه وتشمخ فيها نخلة سامقة ترتفع فوق سطح المبنى . الدخول الى الغرف مباشرة عبر القناطر الدانتيلية هذه ، وقد صفت موائد الطعام في الظل تحت الأقواس الممتدة حول الحوش .

اغتمستت فلستا ونزلت الى أسفل لتناول الغداء . كان حفيف مياه النافورات يهددها سيكون من الرائع هنا أن تستسلم للنوم وتغفوا حتى الغد . أو أن تنطلق خارج الفندق وتتسكع على مهلها في المدينة وتشم روائحها الطيبة والكريهة وأن تقول : إنني في بغداد ، أخيرا انني هنا

بالطبع ، لن تفعل فلستا هذا ، لأنها من المعتاد أن لاتفعل ما سيكون رائعا وإنما تفعل ما سيكون رشيدا . ومن الحكمة أن تضطجع لتستريح فترة نصف ساعة وأن تدخل بعدها تحت رشاش الماء البارد وأن تذهب لزيارة الأسرة التي حصلت على عنوانها في اسطنبول

حصلت على العنوان بمجرد المصادفة . كانت في زيارة دير لتشاهد الرقص الديني للدراويش ، وخلال فترة الاستراحة دخلت في حديث مع التركية التي تجلس الى جانبها ، وبشكل غير مقصود أشارت الى أنها تنوي السفر الى بغداد

" الى بغداد ؟ " لمعت عيون التركية " لاتدريين كم أعبطك على ذلك ؟ إنني ولدت هناك وعشت هناك طفولتي وشبابي ، ولكن مر وقت طويل دون أن اكون هناك من جديد

سبع سنوات في الأقل ، حسب ذلك فلستا بسهولة . وفق كل الدلائل أنها ابنة ضابط أو موظف حكومي - فحتى عام ١٩١٨ كان العراق تحت الادارة التركية . ولم يخلف الأتراك هناك ذكرى طيبة من بعدهم . فقد كان الجنود الأتراك عاما بعد عام يقتلون " وباسم المحافظة على النظام " أكثر من مائتين من العراقيين . ولكن لعل السيدة قدريه لاتتحمل جريرة ذلك ، إنها لطيفة وأنيسة وتشعر بالحنين الى المدينة التي ولدت فيها

" لديّ هناك أصدقاء طيبون ، ياسيدة فلستا ، المحامي مصطفى كامل واخواته... إذا لم يكن الأمر مضايقا لك ، إذهبي لزيارتهم وابلغيهم تحياتي"

توقفت العربة عند مسجد مزخرف في حي الحيدر خانة ؟ وأشار الحوذي الى دار ذات شناسيل وأقواس تستند الى أعمدة رائعة ذات لون رمادي فاتح .

"السيد على ما أعتقد غير موجود في المنزل " نبه باحترام الحياط الذي يعرف كل شيء والذي تقع ورشة عمله تحت الأقواس .

ما العمل ، مادمت هنا لأطرق الباب . من الواضح أنها ستكون مجرد زيارة مجاملة شكلية ، أنقل لهم التحية وأشرب فنجان القهوة وأسمع دعوة غير مؤكدة : أطلبي علينا مرة أخرى ، شرفي منزلنا بزيارتك ثانية أيتها السيدة...

طرقت الباب بالمطرقة النحاسية وقد انفرج الباب في تلك اللحظة تقريبا ولكن عن فتحة بعرض راحة اليد فقط . من وراء شق الباب نظر شيخ أبيض اللحية . السيد ليس في المنزل ، ولكن على الخاتون أن تنتظر فلسوف أطلع شقيقة سيد المنزل على وصولها
أمن باب المدخل بالمزلاج وخطا على غير عجلة منه عبر الحوش نحو باب الحريم .

"منو؟" من هذا؟ سمعت من بعيد صوتا نسانيا

"جاءنا حُطّار . أعلن الخادم .

وعاد على مهله كما ذهب . وسمح لفلاستا بالدخول الى القسم الثاني الأرحب من الحوش ، حيث تسلمتها الخادمة . رواق الطابق الأول يمتد الى غرفة صغيرة مفتوحة ، فيها مقاعد غطيت بالشراشف البيض . النوافذ تقود الى الشرفة المطلة على الشارع ولكنها مغطات بستائر كثيفة . وحتى هذا النوع من الاتصال بالعالم هو اتصال نادر ، إنه مظهر من مظاهر الاصل التركي لهذه الاسرة : ففي الاسر العربية تطل النوافذ على الحوش الداخلي ولا تتجه نحو الشارع غير النوافذ العالية والجدران العارية .

"استريحي" وجهت الخادمة العجوز التي قادتها الى هنا الدعوة الى السيدة فلاستا لتستريح قليلا "الخاتون هسه تجي" ان سيدة المنزل ستحضر بعد قليل .

اللغة العربية المحبوسة لسنوات عديدة في الكتب المدرسية وحصص الدرس في الكلية ، تبعث حية ، حيوية ولذيذة في فم هذه الخادمة الحافية القدمين ، ويبدو الأمر بالنسبة لفلاستا كالمعجزة

جاءت شقيقة المحامي ، ملفعة بعباءة سوداء ، لاتظهر منها غير عينيها ، من فجوة لاتزيد عن اصبعين . ولكنها بعد برهة قصيرة تركت العباءة تنزلق من الرأس الى الكتفين .إنها مستديرة ذات عينين بنيتين مبتسمتين ويبدو أنها تشعر بالسرور حين تأتيهم زيارة .

قومية الضيفة تثير بعض الحيرة " لاهستان"

" لا ، بولندا ، لا ، إنها جارتنا من الشمال الشرقي"

"روسيا؟"

" لا ، ليس روسيا"

"سأنظر بعد ذلك الى الخارطة" وعدت بمرح .

هل يعيش عندكم عرب ؟ لا ؟ كيف إذن تعلمت العربية ؟ في المدرسة .

إنهم علموك بشكل جيد . الأب والأم على قيد الحياة ؟ كيف سمحوا لك بالسفر الى هذه المسافات البعيدة .

سمحوا . ولكن بصعوبة كبيرة أيتها العزيزة . والغريب أن أكثر الإعتراضات كانت من قبل أبي ، الذي ورثت عنه هذه الجرأة والنشاط والذي كان يتوق في زمن مضى لأن يصبح طبييا ولكنهم لم يستطيعوا تحمل نفقات دراسته لتلك الفترة الطويلة ، ولهذا كان عليه أن يقبل راضيا مهنة التعليم .

"لو كنت رجلا لما كنت أعترض على شيء ، بل على العكس..."

كانت تسمع منه ذلك منذ أن كانت طفلة صغيرة : لو كنت فتى ، كان ينبغي أن تكوني صبيا . ربما كان في ذلك شيء من الشكوى . ابنتان ، ورغم أن الواحدة لاتشبه الثانية أبدا ، كان لهما شيء مشترك : الطاقة الهائلة والجرأة على اقتحام السبل غير المطروقة من قبل . أما الابن فإنه صبي خجول وهادئ ونفور .

كان الوالد يقول نفس مايقوله زملاءه في الكلية : " لماذا أنت بالذات وليس الآخرون ، إنهم في كل الأحوال رجال"

جاءت أمها مرة وبصورة استثنائية تماما ، لمقابلتها على الدرب الممتد بين الحقول حتى الغابة الصغيرة لأشجار الصنوبر حيث اعتادت فلاستا تحضير دروسها وهي تتمشى . وعندما عادتا بعد ذلك معا خلال عتمة الغروب المائلة الى الزرقة ، قالت الأم مفكرة :

لكل الحق في أن ينظم حياته وفق تصوراته ، المهم أن يقوم بالعمل الذي يبعث السعادة في نفسه .

إننا سوف نحزن ونشعر بالحنين اليك ولكننا لن نستطيع منعك من السفر .

عندها أدركت فلاستا أن أمها قد تحدثت مع أبيها وأنها أفنعتته بإسلوبها الحكيم والهادئ .

امتلات غرفة الإستقبال في قسم الحرم بالدار بصورة تدريجية . فكلهم يريد الترحيب بالضييفة القادمة من أوروبا . السيد مصطفى كامل سيعود يوم الغد ولكن هنا أخواته وأمه ونسيبه .

" لماذا تقيمين في الفندق ياخاتون ، إنتقلي للسكن عندنا ، فإن وجودك بيننا سيكون شرفا عظيما لنا وفي الدار متسع كما ترين " قال النسيب المحامي موجها الدعوة لفلاستا كانت تعلم أن الضيافة أحد التعاليم الأساس للاسلام ، غير أن هذه الدعوة كانت مخصصة وعفوية ، ولم تكن مجرد تنفيذ واجب ديني

" لا ، أشكركم ، أشكركم جدا على الإستقبال الودي ، وسأكون ممتنة لكم تجاه كل نصيحة تقدمونها لي ، غير انني لا أريد المساس بهدوء بيتكم . إنني لن أبقى في الفندق ، فإن ذلك سيكون باهظ التكاليف ، أريد البحث عن سكن مستقل للايجار وسأكون سعيدة إذا ما ساعدتموني أو قدمتم النصيحة لي في هذا الاتجاه"

طوال فترة جلوسها كانت تشعر بأنهم ينتظرون أحدا ما ، يتوقعون وصول قادم ما . الآن سمع صوت المطرقة النحاسية في الاسفل واعلنت الخادمة العجوز وصول ضيف آخر .

توقفت سيدة رشيقة بملابسها الاوربية عند العتبة وأمسكت بأطار الباب وكانت تتنفس بصعوبة . إبتسمت معتذرة ، فقد انهكتها الطريق عبر السلالم الى الطابق الاول . لها عينان واسعتان لامعتان وقد علت وجهها الحمرة التي جعلت منها أكثر فتوة . إنها حمرة غادرة تسمى حمرة المسلول .

السيدة ايطالية . كانوا ينتظرون وصولها ، فقد أرسلوا من يدعوها ويقول لها أن عليها الحضور بالتأكيد ، لوصول أحد من " عندكم " وكانوا يريدون بذلك القول من أوربا . وقد اعتقدت هي بوصول أحد من ايطاليا .

صافحت فلاستا اليد الصغيرة الحارة . لالست إيطالية ، لكنني أستطيع إدخال السرور الى نفسك بأن اكلمك بلقنتك الأم .

« أنت تجيدين الايطالية ؟ هل عشت في ايطاليا ؟ »

تعلمت الإيطالية في بلدي ، عندما كنت مع والديّ في جنوب الاراضي التشيكية . عثرت في حينها على كتاب مدرسي لتعلم اللغة الايطالية من كتب أبي وخلال الاجازة الصيفية حفظت الكتاب عن ظهر قلب . بعد ذلك عندما سكنت في براغ عند شقيقتي عرقتني على أسرة إيطالية ، أسمها أسرة كالديني . وكان السيد كالديني معلما في المدرسة الثانوية وله ابنتان في عمري تقريبا . وقد قامت بيننا علاقة صداقة . بعد الحرب انتقلوا الى مدينة بولونا

وقد قمت بزيارتهم ومكثت عندهم شهرين في العام العشرين ، حيث رتبوا لي تطبيقا عمليا في قسم الجراحة في مستشفى مدينة بولونا

السيدة تستمع وعيناها ذات الاهداب السوداء شبه مغمضتين . لعلها ترى في الخيال مدينة بولونا ومسالكها الضيقة والجدران القديمة للجامعة و البرجين المائلين نحو بعضهما كأنهما عجوزان تهمسان بالنميمة .

" لعلك لاتستطيعين تقدير مدى السرور الذي اشعر به بفضلك الآن ، فلقد كنت هناك وقبل وقت ليس بالطويل ، يكاد لا يكون بضع سنوات . وهل كنت في فيرونا؟"

" كذلك ، ذهبنا الى هناك مع أسرة كالديني ، إنها لمدينة جميلة"

إنها تنظر الى فلاستا محدقة وبلهفة ، وكأنها مازالت تستطيع أن ترى عليها انعكاس صور المدن الايطالية والدور الريفية الفاتحة الالوان بنوافذها الصغيرة الخضراء

"كنت دائما على أمل العودة الى هناك في نهاية الأمر ورغم كل شيء" قالت وهي تبتسم بحزن " لو كنت في وضع صحي أفضل لرافقتك بسرور هنا ولقمت بمساعدتك في البحث عن دار للسكن ، ولكن كما ترى ، لا أستطيع ذلك . ولكن إذا كنت بحاجة ما أعلميني ، إبعثي لي خبرا بالتأكيد ، فإن زوجي أو إبني سيقدم لك المساعدة في كل مجال"

قدمت لفلاستا بطاقة التعارف وودعت الحاضرين . رافقوها الى العربة . وقد اختلط مع وقع أقدام الخيل صوت السعال المؤلم و المدمر

ماهو اسم هذه السيدة ؟ تأملت فلاستا بطاقة التعارف التي بيدها : دي لوتي ، السيدة لوتي .

٣

الطبيبة الفرنسية الدكتورة بين ، التي اشار اليها الدكتور دونلوب في رسالته التي بعث بها الى فلاستا في اسطنبول ، عيادتها لم تكن هدفاً لعدد كبير من المرضى ، فهي تقع في الشارع الرئيس بالضبط عند الحدود بين الحي المسيحي والحي اليهودي . غير أنها لاتتكلم اللغة العربية . ولذا فإنها تتفاهم مع المرضى بمساعدة المترجم .

قالت لفلاستا : " يزور عيادتي النساء بصورة رئيسة . وإذا كنت قد سمعت بأن المسلمة تفضل الموت على أن تكشف جسدها أمام رجل غريب ، فصدقي ذلك . وعندما أقول تكشف عن جسدها لا أعني أن تتعري تماما ، وإنما مثلا أن تكشف عن المرفق أو الركبة أو أن تمد حنكها الى أمام . كما أن زوجها وأسررتها يفضلون رؤيتها تموت وهي غير ملوثة على أن تستعيد صحتها بعد أن يلوثها نظر الرجل الغريب . بعض النساء من الشيعة والبدو لا يرغبن بنزع ملابسهن حتى أمامي ، على اية حال سترين ذلك بنفسك . فالمرأة حين تأتي يرافقتها عدد غير قليل من الاخوات والعمات وكلهم في غاية الحذر من أن تكشف أكثر من الموقع الصغير المؤلم ، حتى ولو ملمتراً واحداً . وفي كثير من الأحيان يتم قطع فتحة صغيرة في الملابس ولايحق لك النظر الى موقع الألم ، إلا من خلالها

كان بمقدوري أن أكسب مزيدا من المرضى لمراجعة عيادتي ، غير أنني كنت مضطرة لرفض الكثير منهم لأنهم بحاجة الى إجراءات جراحية وأنا لست طبيبة جراحة . كنت أرسلهم الى المستشفى وكانوا يحنون رؤسهم موافقين غير أنني اتمك في أنهم ذهبوا بعد ذلك الى هناك"

إنني طبيبة جراحة ، فكرت فلاستا ، وشعرت بالارتياح لأنها حينذاك وقبل سنوات نجحت في الكلية بفرض إرادتها بأن تدرس الجراحة رغم معارضة بعض الاساتذة .

ولقد أخذت درسا آخر من زيارتها للدكتورة بين . فهي لن تفتح عيادة في مركز المدينة ، حيث يوجد عدد كبير من أطباء بغداد ، وإنما في أحد أطراف المدينة ، ولكن بعد الحصول طبعا على ترخيص بذلك .

"إذا كنت تريدين الحصول على الرخصة ، فاعلمي بسرعة " نصحتها الطبيبة اليونانية الذي حملة مصيره الى بغداد خلال الحرب العالمية " إذ يجري الاعداد لأصدار قرار حكومي يجعل من الصعب على الأجانب الحصول على رخصة لممارسة مهنة الطب في العراق . لماذا ؟ أنت تسألين ، بالله عليك ؟ تعلمين أن ذلك ليس بسبب كثرة الأطباء أو قلة المرضى هنا ، فإن الاوضاع هنا تبعث على اليأس وسترين ذلك بنفسك . وإذا كان العراقيون وراء السعي لإقرار مثل هذا الاجراء فانه بدافع المنافسة أو الوطنية والأمر سيان من حيث الجوهر ، لكنني ارجح ان للانكليز أصابع في ذلك : فإنهم سيمنحون الرخص لأطبائهم ويرفضون منحها لآخرين"

في صباح اليوم التالي ذهبت فلاستا الى قصر الإدارة السياسية للقطر ، وقد نصحتها

مصطفى كمال بأن تطلب مقابلة الأنسة جيرترود بيل ، سكرتير الشؤون الشرقية لدى
المندوب السامي
"أذهبي أولاً لمقابلتها ، فانها سيدة الظل ، ولها أصابع في كل أمر . ومن المؤكد أنها
سوف تغضب إذا ما علمت بأنك قمت بتجاهلها . وأنت لن تفزعي منها"
إنه لتشجيع جيد قبل المباحثات الرسمية ، كلهم يخاف منها لكنك لن تفزعي منها
إنحت السيدة الضعيفة البنية والمدببة الأنف في كرسيها المريح وتأملت الزائرة لفترة
طويلة .

وضعت رجلا فوق رجل محرقة حذاءها المنزلي المصنوع من الحرير . هذه القطعة الرقيقة
من الحرير المطرز بالذهب (والتي لا تلائم أبداً رجليها العظمتين) تعكس حقا إعجابها
بالشرق

"جئت لاستشارتك باعتبارك أوربية وعارفة بالأوضاع التي تعيش فيها النساء العراقيات
هكذا بدأت فلاستا حذرة من أن ترفع صوتها لأكثر مما ينبغي ومن أن تكشف عن إتفالتها
وغضبها " وهل تعتقدين بأن في بغداد حاجة للطيبات؟"

رفعت السيدة بيل حاجبيها " لا أدري ، من الممكن أن يجيب على ذلك فقط مفتش
الخدمات الصحية أو مدير مستشفى"

"هل لي أن أسألك اللطف بأن تكتبي لي بضعة سطور ليستقبلني مفتش الخدمات
الصحية؟"

"لا أستطيع تقديم الوصية لأحد باستقبالك أو تقديمك لأحد ، فأنا لا أعرفك"
الاستقبال الجليدي يشرف على نهايته . فلاستا تحاول أن تكون مجاملة ، لكن الانسان
يتحكم في الأغلب بالكلمات وليس بنظراته . فقد تقاطعت النظرات وتطاير منها الشرر . إن
هاتين السيدتين ستكرهان الواحدة الاخرى كراهية صادقة .

٤

قدم المساعدة من جديد الدكتور دونلوب رئيس أطباء المستشفى الملكي . حقا إنه
واحد من الملاكات البريطانية ولكن ، لأنه إرلندي تنقصه سمة التسلط الاستعمارية
البريطانية .

ولقد ظهرت صعوبات جديدة وغير منتظرة عند معادلة شهادة تخرج فلاستا في كلية

الطب . جامعة كارل ؟ لعلها ستكون في الغالب مدرسة خاصة ، لا ؟ هل نستطيع مطلقا الاعتراف بشهادة الدكتوراه هذه ؟ وعلى الرغم من تأكيدات الدكتور دونلوب لمفتش الخدمات الصحية ، أن فلاستا كالالوفا طبيبة بمعنى الكلمة " all right " فقد طلب من السفارة البريطانية في براغ ان تتحرى بعناية من هو كارل هذا وما هو مستوى جامعته .

ويبدو أن الجواب جاء إيجابيا ، لأن فلاستا حصلت على الرخصة .

بعد ذلك بأربعة أيام تم إصدار القرار الحكومي الذي حذرنا منه الدكتور أناجنوستيديس

فلاستا كالا لوفافا ...
الامبراطور

عندما كانت فلاستا تبحث عن دار لعيادتها الطبية المقبلة ، لم يكن ليتوقع حتى أقرب أصدقائها أن مجمل التجهيزات الطبية التي كانت في حوزتها حينذاك تتكون من صيدلية سفرية وبضعة أزواج من القفازات المطاطية ومن علب الادوات الطبية لاجراء العمليات الجراحية الصغيرة .

لم تكن تتوقع أن الأمور ستجري . أو سيكون عليها ان تجرى . بهذه السرعة . لم تكن مترددة في أي وقت من الأوقات ، لكنها أرادت ان تُلقي نظرة لفترة وجيزة وأن تتعرف وأن تحدد الإتجاه ، الى أن تصل من تشيكوسلوفاكيا الصناديق التي تحتوي على التجهيزات والادوات للعمليات الجراحية ، وفي الخريف سوف تصل الممرضة التي اتفقت معها قبل سنوات والتي تكرس جهودها الآن بصورة كاملة في براغ لتعلم اللغة العربية .

غير أن كل الامور وقعت بصورة أخرى . ها هي الرخصة بيدها وعليها أن تتصرف . فإنها اذا ما تاهلت في افتتاح العيادة ، قد يسحبون الرخصة منها بصورة قانونية . بالطبع إنها الآن بدون ممرضة وبدون تجهيزات لاتستطيع حتى مجرد التفكير بافتتاح المستشفى الصغير ، كما كانت تخطط لذلك من قبل .

كانت القوانين العراقية تعترف بنوعين من المستشفيات : المستوصف ، الذي يعمل فيه طبيب واحد ويحتوي على عشرين سريراً كحد أقصى ، والمستشفى ويعمل فيه طبيبان في الأقل ويحتوي على عدد أكبر من الأسرة . إذن عندما ستصل الممرضة روث . سيكون مستوصفاً . ستكون فلاستا مع الممرضة الوحيدة التي تحمل شهادة التمريض

وحيدتان وبلا مناوب لهما للقيام بكل الأعمال في الليل والنهار وفي الأعياد والعطل
وبعد أن تنجح في كسب طبيب آخر من تشيكوسلوفاكيا للعمل هنا سيملكان الجرأة
على تحقيق المستشفى
ولكن في تلك اللحظة تتجلى الجرأة بمجرد إفتتاح العيادة - مع طاقم من القفازات
المطاطية ومع صندوق ميداني يحتوي على أدوات الجراحة خلال الحروب .

٢

في بداية نيسان استأجرت فلاستا دارا صغيرة في القسم الشمالي من المدينة والمسمى
بالميدان كانت دارا جديدة تماما وكانت شرقتها الخضراء تطل على جادة السراي ، أي شارع
القصر . في كل مكان تنتشر المساكن الاسلامية الخاصة ، وفي كل منها عدد كبير من النساء
وليس من المنتظر أن تكون ثمت شحة بالنسبة لعدد المريضات .

عند تجهيز البيت والعيادة بالأثاث وعند العثور على الحد الأدنى من العاملين ساعدها من
جديد مصطفى كمال وأسرته بنكران ذات... وقد عثروا على التجهيزات الاساس عند
الصيدلاني القديم طويق ، الذي اشترى بحكمة بعد الحرب بقايا الاحتياطات الصحية
البريطانية . ففي ممر بيت طويق ظهرت بين اكداش الاشياء القديمة صناديق فيها أدوات طبية
وصناديق معدنية صغيرة للعيادة . وفي الحوش أخرجت فلاستا بحماسة حرصت على اخفائها
لأجل أن لا يرتفع السعر طاولة للفحوص الطبية جديدة تماما قد طمرت بين الاشياء القديمة .

أرادت أن ترسل في طلب سيارة أو عربة للنقل غير أن السيد طويق أوقفها : لاجبة
لذلك فقد أرسل السيد طويق في طلب الحمالين الاكراد من السوق .

حمل الرجال الحفاة بقاماتهم الطويلة وكأنهم تماثيل قديمة ، على ظهورهم الصناديق التي
يزيد وزن الواحد منها على الطن ومشوا بها بين الناس والحمير في الشوارع الضيقة . وخلال
يوم واحد نقلوا الى دار العيادة ليس التجهيزات الطبية من طويق حسب ، وإنما أيضا صهريجا
من الطين لتصفية الماء وكذلك الارائك والكراسي والطاولات ودرجا للملابس ، والمصابيح
وأواني للمطبخ .

وقام الخياط اليهودي الشاب الذي يقع دكانه تحت أعمدة بيت كمال بخياطة الستائر للعبادة من القماش الابيض وقام قسم الكيمياء لأكبر مركز تجاري في بغداد بطلب الادوية حسب القائمة من بضعة مصانع تشيكية لاتتاج الأدوية . لقد تمت كل هذه الامور بسرعة وبدون مصاعب وبأسعار رخيصة نسبيا جعلت فلاستا تشعر بالدهشة والارتياح والهدوء

٣

أول شغيل جاء به مصطفى كمال للعمل عند فلاستا هو الخادم : " وافقي على ذلك فأنت امرأة وهنا لايمكن أن تسيري في الشوارع وحيدة : حتى في وضح النهار لاتستطيعين ذلك فكيف في المساء . ولايتعلق الامر بخطر ما يمكن أن يداهمك ، من المؤكد ليس أكثر من أي مدينة اخرى في العالم ، ولكن الأمر يتعلق بتقليد عربي يكاد يكون قانونا : لا بد للخادم أن يسير على مسافة ثلاث خطوات من السيدة النبيلة . وفي المساء يسير أمامها وينير لها الطريق . وفي الازدحام يسير الخادم أمامها ليشق لها الطريق ، لأجل أن لاتضطر السيدة النبيلة شق الطريق بين الناس . ولا بد من احترام هذه التقاليد والا فإنك ستخسرين كل شيء عند الناس . ليس عند النخبة فإن هؤلاء ربما سيفهمون الأمر الى حد ما ويعلمون أنك أوربية ولكن وبالدرجة الاولى ستخسرين الأمر عند الناس البسطاء "

أدركت أنه على حق وخضعت للامر الواقع ، رغم أن صورة أن يكون لها مرافق دائم كانت تتعارض ورغباتها ، لأنها تحب أن تكون طليقة . كان الخادم مهدي شيخا طويلا ونحيفا . لقد جلب مصطفى كمال هذا الخادم من قرية غير بعيدة عن بغداد واستمع إليه وهو يؤدي القسم في إداء الخدمة باخلاص وعلى احسن وجه .

طوى كمال ساعديه عند المرفق وراحتا يديه الى أعلى وكأنه يهدد طفلا صغيرا بين يديه " هكذا إعتن بها "

" سوف أعتني بها كما أعتني بابنتي " قال الخادم العجوز

وأعتنى بها حقا

غير أن الامر كان اسوأ بالنسبة للطباخات . فقد كن يتناوبن الواحدة بعد الاخرى . وكلهن كن يهيئن خليطا من الأرز والخضروات يكاد لا يؤكل ، وحتى هذا لم يحسن طبخه . كانت سيدة البيت أبعد ما تكون عن الذواقة للطعام ، غير أن هذا كان حتى بالنسبة لها أكثر

من ان يحتمل . وهكذا كانت الطباقات في تغير دائم أما الخليط فقد بقي على حاله
ولقد أصبح السيد توفيق ، أحد العاملين عند المحامي كمال ، المساعد المخلص في كثير
من الأحيان . فإن هذا التاجر السابق ، الذي كان يذُكر فلاستا بهيئته وصوته بعطيل فويان
كان يرافقها عند الذهاب الى السوق للتبضع وكذلك عندما تذهب لعيادة مرضاها
كان يقدمها في كل مكان بصوته الجهير الشبيه بصوت فويان - ممثل مسرحي تشيكي
معروف* - "الدكتور فلاستا كاللوف الامبراطورة"

ولقد مرت فترة من الزمن قبل ان تدرك فلاستا ما الذي كان يعنيه توفيق بذلك .
تذكرت فيما بعد - عندما سألتها ما الذي يعنيه الطبيب الجراح قالت له انه الطبيب الذي
يقوم باجراء العمليات الجراحية أي الاوبراتور . وقد لفظ الكلمة بالشكل الذي سمعها فبدلاً
من أوبراتور كان يقول امبراطور .

وحاولت تصحيح ذلك " ياتوفيق أفندي لانقول إمبراطور وانما أوبراتور"
"عندنا نقول إمبراطور " أجاب فويان البغدادي بهدوء وزهو .

٤

مازالت العيادة غير مكتملة وها قد ظهر أول المرضى .

" في البداية سيحضر للعيادة اولئك الذين سبق لهم أن زاروا كل العيادات " قال
الدكتور ستافروس أناجنوستيديس ساخرا " إنهم يزورون كل الأطباء ولا يتمسكون بنصائح
أي منهم . والدواء الذي يصفه لهم الطبيب لا يشترونه مطلقاً أو أنهم يشترونه لكنهم لن
يستخدموه وبعد ذلك بالطبع يبدأون الشكوى ، بأنك مثل الاطباء الآخرين لا تستحقين
شيئاً"

" أعتقد بانك تبالغ يا ستافروس " لوحت فلاستا بيدها .

" لا أبداً ، لا مطلقاً ، كل ما في الأمر أنني أعرفهم ، وأنتي في نهاية الامر أحبهم تماماً .
إذا كان لي أن أقدم لك النصيحة ، أقول لك حاولي أن تكسبي مفسري القرآن وفتاحي الفال ،
لأن كل ثاني مريض يذهب أولاً ليستشيرهم فيما إذا كان عليه أن يقوم هو بزيارتك أم لا

* المترجم .

وخاصة الشيعة فإنهم لا يقدمون على اية خطوة بدون الخيرة " . الخيرة ؟ ما هذه ؟

"البخت ، يفتح المفسر القرآن بشكل عفوي ومن محتوى الصفحة التي يهتدي إليها مصادفة يستنتج ما إذا كان على السائل أن يذهب لزيارة الدكتورة كاللوف أو الدكتور أناجنوستيديس أم أن لا يذهب الى أحد"

" لاشك بأن البعض يقومون بزيارتك بدون قراءة الخيرة " قالت فلاستا مستفزة ، لأنه سبق أن قال لها بأنه عمل طبيباً في السجن

كان أحد أوائل المرضى صبي ، رفسه الحصان ، ولم يكن متسع من الوقت للخيرة ، إذ كان الصبي في حالة إغماء وقد صبغه الدم وفي وسط وجهه جرح ينزف . ما الذي ينبغي عمله أولاً ؟ حمايته من التلوث وإجراء فحص ولو أولي للتأكد من حالة الجمجمة والعيون وتجيير عظم الانف المكسور وإجراء عملية تجميل . كل هذا ينبغي أن تنجزه وحدها بدون مرضة أو مساعد . ولم يتسبب العرق في حينها على ظهر فلاستا بسبب حرارة الجو فقط

انتظرت بتوتر شديد ما إذا كان الصبي سيتعرض لتسمم الدم وقد تسمرت حين فتحت الضمادات لإجراء الفحص الأول . كان الفوز حليفها ، إذ نمت العظام بشكل سليم ونجحت العملية البلاستيكية وكانت جراح الصغير مهدي تلتئم بشكل جميل وكان أبوه تاجر الجلود ينادي ابنه في كل مناسبة : " تعال ليرك السادة ، تأملوا لم يكن لهذا الطفل أنف ، كان مجرد جرح ينزف والآن أنظروا اليه اليوم"

لم يكن بمقدور فلاستا ان تتمنى بأن تجد داعية أفضل .

في كل صباح كانت غرفة الإنتظار تزدهم بالنساء المحجبات . وإذا كان عدد الجالسات اثنتى عشرة أو خمس عشرة فإن ذلك لايعني أن في العيادة اثنتى عشرة او خمس عشرة مريضة تنتظر الفحص الطبي . فإن كل مريضة تصطحب معها فى الاقل مرافقة ومخففة للمهوم ولكن من المعتاد أن يكون العدد أكبر ، بل وأن يرافق المريضة موكب بكامله . بعضهن تأتي برفقة زوجها الذي يدخل العيادة ليتأكد أن جميع النوافذ قد غطيت بالصورة المطلوبة ، بصورة تحول دون أن ينتظر أحد من مكان ما ليرى زوجته . وحين يطمئن من سمك الستائر يجلس في الرواق أو في الحوش وينتظر .

الولادة الأولى التي دعو فيها فلاستا لتقوم باجراء عملية التوليد كانت قد استغرقت قبل دعوتها أكثر من عشرين ساعة . فإن القابلة (الداية) جربت مع الأقارب والجيران كل الأساليب المعروفة بما في ذلك الخرافات والتعاويذ قبل أن يقرروا أخيراً إرسال من ينادي رب البيت من المقهى . إنها لمشكلة كبيرة ، ليجد السيد طبيباً . طبيباً ؟ رجلاً ؟ وهذا الرجل سيرى زوجتي وهي تلد ؟ في المقهى تذكر احدهم ، إن طبيبة حلت هنا قبل فترة من الزمن قصيرة

حقاً إنها امرأة مثل نساتنا غير أنها من البلاد ، يعني من أوروبا . ياللاترياح ، لن يُصنَّ الشرف فالطبيب امرأة .

غرفة في أرضية المنزل يُدخَلُ إليها مباشرة من الحوش . وقد خصصت كمخزن للأشياء التي يستغنى عنها . في الوسط بين الاثاث العتيق و النسيج والخرق البالية والأكواب المكسرة تجلس دجاجة فوق البيض ، إنها هلعة ولكنها مصرة على مواصلة جلستها . سرب من الاطفال يطارد بعضهم بعضاً ، وقد ظهر عليهم الإنفعال بسبب الحدث الفريد وظهرت على وجوههم بوادر الضجر لأن الحدث الفريد يستمر أطول مما ينبغي . في الزاوية مقابل المدخل حشد من النساء وفي وسطهم المرأة الفتية المتعبة التي تلد

في اللحظة التي تجاوزت فيها فلاستا عتبة الغرفة صرخت الأم الجديدة وتلقت القابلة تحت تنورتها وفي الحضائن الطفل الوليد ، إنها بنت

إنه لفرح عظيم ، لقد حملت لنا الدكتوراة الحظ السعيد ، ما أجملها من طفلة صغيرة ، إنها بلون الورد ، كلهم يشعر بالفرح لذلك ، لا ، البشرة السمراء هنا تعبر عن خشونة غير مرغوب فيها ، الحمدلله وشكراً للدكتوراة ، لقد تحققت الأحلام الحلوة لئاليهم .

لم تتوصل فلاستا في تحقيق النجاح لعملية التوليد الثانية بالسهولة نفسها . إذ دعوها الى دار غنية شرقية رائعة الجمال ، في الكاظمية . وكان صاحب الدار يعيش ، كما هي حال ثلث رجال بغداد في حالة تعدد الزوجات . فبالإضافة الى الزوجة التي ولدت للتو ، كانت له زوجتان اخريان بصورة شرعية . ولأجل تحقيق الطمأنينة ، كانت كل منهما تعيش في بيت مستقل وفي طرف آخر من أطراف بغداد . ويقال أنه يحب هذه بالذات اكثر من الأخريات

ويريد أن تلد له ابنا . غير أن حالي الولادة السابقتين إنتهيتا بكماشة سحب الوليد وبطفل ميت .

إنها شابة جميلة هذه الخاتون الفارسية . (خاتون هنا ليس لقباً للمجاملة وإنما الاسم الأول للسيدة الشابة ، إنها ببساطة خاتون) ترقد على سرير عريض تحيط به أعمدة نحاسية ذهبية اللون علقت عليها ستائر حرير مطرزة بخيوط ذهبية اللون . هنا أيضا الغرفة ملاءى بالنساء بل إن إحداهن تجلس القرفصاء على سرير المرأة التي تلد . تأكدت فلاستا قبل كل شئ، ما إذا كانت هناك آفاق لولادة طبيعية وارسلت بعد ذلك مهدي الى الدكتور كورديان ليجلب لها منه الكماشة الطويلة . كانت تعلم أنها لديه فقد وقع نظرها عليها في الدرج حين قامت بزيارة لزميلها هذا . السيدة الوالدة تئن بألم وبصوت منخفض والنساء يندبن بأصواتهن العالية لينتقلن في الحال الى الشكوى من غلاء لحم الضأن ومن السلوك السيئ، للخادومات . تلك الجميلة ذات الشعر الاحمر والصفائر الطويلة ، القابلة المفضلة لدى النخبة الشيعية ، تدخن نرجيلتها بهدوء وتتأمل بعينين شبه مغمضتين صراع فلاستا العميق مع النوم . لقد حل الليل وقد طال انتظار مهدي وفلاستا عاشت نهارا صعبا وأمامها الآن مهمة لم يسبق لها أن قامت بها ، فهي لم تستخدم بصورة مستقلة كماشة الولادة الطويلة .

أخيراً ها هو مهدي هنا وفي الرواق يهدر صوت البريمز الرتيب وعليه القدر التي وضعت فيها الكماشة لتعقيمها بالماء الفائر ، الهدير الرتيب ينيما . استعادت فلاستا مجبرة نشاطها : الآن يتعلق الأمر بسمعتها لدى الشيعة وبحياة الطفل الذي تنتظر ولادته وربما أيضا بحياة المرأة التي سماها والداها المغروران باسم خاتون والتي توقفت الآن عن الأنين ولكنها تهتز بتشنج بين حين وآخر .

كم مر من الوقت والماء الذي فيه الكماشة يغلي ؟ ثلاثون دقيقة ؟ هذا يكفي . طلبت ماء لتغسل يديها . النساء يصبن الماء على يديها وينظرن كيف أنها تحك يديها حتى الكتفين . المزيد ؟ حسنا عندنا كفاية من الماء . بل وكان ذلك يرضي كبرياءهن الى حد ما . الطبيبة تعلم بأنها غير متدينة ولذا فإنها في البيت الشيعي "غير نظيفة" وعليها أن تغتسل جيدا قبل أن تمس من هو متمسك بالايمان . بعد ؟ لقد اصبح لون البشرة احمر تماما

" هذا يكفي أيتها السيدة " قالوا لها بتلطف .

القابلة ذات الصفائر والشعر الاحمر تنباهى بمعرفتها بالنظافة الأوربية " إنها تغتسل كل هذه الفترة الطويلة بسبب الميكروبات " . تحاول إلقاء درس على النساء ، وقد سبب لها ذلك شيئا من خيبة الأمل .

لقد تم إدخال الكماشة الطويلة والآن لا بد من سد فكيها بحذر . ألا تنزلق ؟ فإن ادخالها من جديد يتطلب التعقيم من جديد ومزيديا من التأخير ومزيديا من الصراع مع النوم ومزيديا من المعاناة للأُم التي تلد . فلاستا تشعر بانهايار رجلها وبارتخاء يديها - هذا عمل لرجل حقيقي ، ولكن ماذا ؟ ألا أستطيع القيام به ؟ إعتراها الغضب على نفسها بالذات ، لانها ضعيفة هكذا ، لانها ليست جميلة وقوية مثل شقيقتها ميلادا (رائعة ، كانوا يقولون دائما : ميلادا رائعة) وشعرت بالغضب أيضا على جميع الذين كانوا يقولون لها : أين تحشرين نفسك ، أيتها الفتاة ، ليس هذا عمل للنساء ، فهنا يوجد آخرون ، إنهم رجال - حقا ألا أستطيع تحقيق ذلك ؟

ظهر الرأس الصغير ، رأس أسود الشعر مبتل وكبير بالنسبة للطفل المولود للتو ، وبعد لحظات كان المولود الذكر بكامله . ميزان ؟ لا لن تجد هنا ميزانا تحت اليد ولكن من المؤكد ان وزنه سيزيد على أربع كيلوغرامات ، هذا أمر غير مهم ، لقد خُدشَ قليلا وراء أذنيه ، إنني سوف أطببه ، عدا ذلك إنه على مايرام الخاتون أيضا على مايرام . إنها سعيدة تعلق وجهها إبتسامة الامومة ، النساء من حولها يحتفلن بولادة الطفل بطريقة خاصة ، بالهلال العالية التي تشبه غناء الطيور

القابلة ذات الشعر الاحمر غسلت الطفل ، في حوض فارسي جميل من المعدن المطوع وبعد قليل تم الباسه الثياب الفاخرة المعدة من قبل . قبة صغيرة من القماش الأطلس المطرز بالورود والمزين بالمرجان . فوق الملابس الداخلية الصغيرة البسوه صدرية حرير حمراء وفوقها الزبون ، معطف طويل باكامام واسعة ، إنه نسخة مصغرة لزبون أبيه ، وبعد ذلك تم ربطه بالقماط كما تقضي العادات والتقاليد لهذه الفئات من الناس .

تعثرت فلاستا وهي تنزل درجات السلم . العربة تنتظر أمام الباب الخارجي الكبير ، فقد أرسلوا في طلبها وهذا لطف منهم . انزوت في ركن العربة مرهقة متعبة .

بدا نور الفجر ينتشر وفي حوانيت بيع الخبز والحليب أشعلوا المصابيح . هل يستحق الامر ان تترقد في الفراش ؟ بعد ساعتين سيصل اول المرضى .

" لا ادري ما إذا كانت هناك حاجة لطبيب آخر " هزت الأنسة بيل الموظفة في إدارة الانتداب كتفها (الكثير ممن التقوها يتحدثون عنها باحترام ، غير أنها بالتأكيد لم تتعامل مع الدكتورة كاللوف بتعاطف) وقد أدركت فلاستا بدهشة عدم مناسبة إجابتها مع مرور الزمن وبعد التعرف على الاوضاع الصحية هنا

باستثناء الحالات القديمة والمساوية في الأغلب للأمراض النسائية كانت تظهر في غرفة الانتظار بالدرجة الاولى حالات الإصابة بأمراض الجهاز الهضمي . ففي قنوات الري في كل أنحاء البلد وكذلك في مياه دجلة تنشر الطفيليات التي تضع بيوضها في المثانة وتسبب البهارزيا . ولهذا لا يستحم في نهر دجلة حتى في أشد الايام حرارة غير القليل من الناس ، غير أن الجميع يشربون الماء من هذا النهر بالذات . فمنه تأخذ الماء مؤسسة الاسالة ومن لا تصل الى بيته أنابيب إسالة المياه يعترف ماء النهر بالجرة . وتجري تصفية مياه النهر للشرب ، ففي محطة ضخ مياه المدينة يقومون بتصفية المياه وفي المنازل تجري تصفيتها بأوان فخارية خاصة . غير أن هناك من يقوم بتصفية الماء بعناية فائقة ومن يقوم بذلك بعناية أقل .

وتحمل الكلاب على شعرها وعلى أنوفها بيوض الدودة الوحيدة . الكلاب المنزلية هنا قليلة غير أن قطعان الكلاب السائبة تنتشر في الضواحي وتتجه الى المدينة بحثا عن الفضلات والقمامة في الاسواق والمزابل .

وتلعب الأحوال المناخية وعدم كفاية أجهزة التبريد وكذلك المفهوم المتناقض للنظافة ادوارا مهمة بالنسبة لانتشار أمراض الاسهال . فإن التلوث وعدم الطهارة يتمثل بالدرجة الاولى بلمس أصحاب الديانة الأخرى . هل شرب عندكم نصراني أو يهودي كأسا من الماء ؟ الأفضل أن تحطموا القدح الذي استخدمه لأنه غير طاهر . وكل قدح آخر طاهر وتستطيعون استخدامه لشرب الماء دونما قلق حتى ولو كان مليئا بالغبار

في إيوان كل دار يوجد لغرض الزينة حوض للماء يكون ماؤه في العادة ساكنا ولايستخدم هذا الحوض للزينة فقط وإنما أيضا لغسل الأيدي والأرجل قبل كل صلاة . ويغسل أعضاء الأسرة في مياه الحوض أيضا أحذيتهم الملوثة بعد دخولهم الخلاء . ويغسلون فيه الفواكه والخضروات . وتقوم الأسر البخيلة بغسل الاواني التي لمسها اناس من ديانات اخرى

بمياه الحوض لأنهم يأسفون على كسرها أو رميها في القمامة
كانت فلاستا عند النظر الى أحواض الماء هذه تفكر بياس : ماذا ستري لو تأملت بضع
قطرات من مياه الحوض تحت المجهر ؟

الأمراض المعدية التي كانت تحصد عشرات الآلاف من الناس ، قد رُوِّضَتْ الى حدما
بفضل التلقيح الإجباري . ورغم ذلك يموت في العراق في منتصف سنوات العشرينيات بسبب
الطاعون والكوليرا حوالي خمسمائة شخص سنويا . وتؤدي الحصبة و الجدري الى موت ألف
عراقي سنويا

وتؤثر فترات الحر تأثيراً قاتلاً في الأطفال بالدرجة الاولى . فإن الإصابة بالاسهال
المألوف ، الذي يتشافي منه الطفل بسرعة في الظروف المناخية الأخرى كثيراً ما ينتهي في
حرارة الجو التي تزيد على الأربعين درجة مئوية بالموت السريع الذي لا يمكن تجنبه . ففي
سنوات العشرينيات والثلاثينيات لم يبلغ العمر المدرسي غير نصف الأطفال المولودين في
العراق

في عيادة المستشفى الملكي يضطر الطبيب الواحد الى اجراء الفحوص الطبية خلال
ساعتين او ثلاث ساعات لأكثر من ثلاثمائة مريض . وفي الفترة التي كانت فيها الدكتوراة
كالالوفا في العراق كان هناك ما يزيد بقليل على المائتي طبيب لثلاثة ملايين نسمة من
السكان .

٧

في شهر أيار تكون درجة الحرارة في الظل عند الصباح حوالي ٣٠ درجة مئوية . وعند
الظهيرة يرتفع مؤشر المحرار الى الأربعين . الصحراء تنفخ أنفاسها الحارة على المدينة من كل
الجهات وكأنها فرن مستعر النار . أما السماء فكأنها من صفائح القصدير . أغلب الناس
يلجؤون الى السرايب . إنها غرف معتمة تحت مستوى أرضية المنزل مجهزة بفتحات التهوية
(البادغيرات) وكل بيت يحتوي على سرداب . فلاستا مازالت قادرة على الصبر والتحمل ،
فإنها تستطيع تصور الجهود التي يتطلبها نقل العيادة .

إنها تمارس عملها في الطابق الأول ، لكنها تذهب للنوم على السطح . ففي المساء
تصعد الى السطوح بغداد برمتها . وفي عتمة الليل تُسْمَعُ أصوات الأطفال ورنين الأواني ،
وتوقد المصابيح الصغيرة وتظهر التاموسيات الواقية من البعوض . فهنا على السطوح يتناول

من رسالة الى مارية تاووروا ٢٠ ايار ١٩٢٥

... الليالي جميلة جدا فوق السطح فمن وراء حجاب الناموسية الواقية من البعوض ترين في المساء نجوم السماء وفي الصباح أسراب الحمام التي توقظك بحفيف أجنحتها . وفي بعض الاحيان يحلق فوق رأسك الكروان أو اللقلق وتقف القمرية على جدار السطح عند بزوغ الشمس"

الليل تحت السماء العالية الفسيحة شيء رائع ولعل هذا ما أوحى بالاسم الانثوي ليلي - الليل - الذي يعتبر من أجمل الاسماء .*

٨

كأنهما الآن قد تبادلا الأدوار وأخذ كل منهم دوره الصحيح : رسائل الوالد الآن تتسم بالتعقل والموضوعية . هكذا وهكذا نعيش وأنت اكتبي لنا عن أحوالك . والأمر الرئيس أنه يهتم الآن بتفاصيل من تاريخ وادي الرافدين ، فهو يسأل عما تكشف عنه الحفريات الأثرية وعن الأوضاع السياسية والاقتصادية . أما رسائل الأم فإنها تنم عن القلق على ابنتها . ألم تضعفي ؟ تناولتي الطعام بوفرة من أجل ان تتجنبي الاصابة بالتدرن الرئوي . إنني أخشى أن تصابي بأحد الأمراض المروعة هناك...

خسرت شيئا من وزني يا أمي ربما بمقدار اربع أو خمس كيلوغرامات ، لا أعرف بالضبط ، أفضل أن لا ازن نفسي . ولكن كيف يستطيع الانسان تناول المزيد من الطعام في هذا الحر الشديد ؟ ربما الفواكه ، فليس للانسان من شهية لتناول سواها . نعم إنني أشعر بالخوف أحيانا من أن أصاب بالتدرن الرئوي مثل العديد من الأوربيين الآخرين ، غير أنني لن اكتب لك ذلك مطلقا ياماما . لا : حالتني جيدة جدا ولحد الآن يجري كل شيء على مايرام ، غير أن الجو حار الى حد ما ولاشك في أنني سوف اعتاد على ذلك ، لاتقلقوا من أجلي .

* تتصور الكاتبة ان اسم ليلي مشتق من الليل - ملاحظة المترجم .

مرة كانت فلاستا تنتظر المرض حتى أنها عرفت متى سيظهر . عندما ينضج التمر ستبرز فجأة وفي الجزء المكشوف من جسمها بقعة حمراء وربما سيظهر عدد أكبر من البقع الحمراء . وبصورة تدريجية تتورم وتنمو . إنها الأخت البغدادية -leismanioza- أو ماتسمى أيضا دملة الجريح أو الدملة الشرقية ، لأنها تظهر في مدن أخرى في الشرق الاوسط . ويقدم الأثر الذي يبقى بعدها - في اغلب الاحيان على الوجه - دليلا لا يتسرب اليه الشك على أصلها أي أن الأنسان المعني قد عاش هنا لفترة من الزمن . تسبب الأخت البغدادية طفيلية أحادية الخلية سوطية تتطفل على القوارض الصغيرة ويقوم بنقلها مؤكدا نوع من الذباب الذي يتكاثر وقت نضوج التمر بالذات . الذبابة من هذا النوع صغيرة جدا لدرجة أنها تحترق الناموسية الأشد كثافة . وعندما تلسع الانسان على الوجه او الرقبة او الذراع تكون قد ضمنت الختم البغدادي عليه .

هذه البقع الحمراء تنمو تدريجيا وتتورم وتتحول الى دملة مزعجة ومتقيحة . ويستغرق علاجها ثمانية أشهر وربما سنة ونصف السنة . في عهد إقامة فلاستا في العراق كان أهل بغداد يعتبرونها صنوا لهم حتى أنهم اطلقوا عليها صفة -الأخت .

كيفية الوقاية منها ؟ عن طريق التلقيح فقط . الأسر اليهودية كانت منذ القرون الوسطى تلقح الأطفال بقيح الدملة . كانوا يصيبون بالعدوى الجانب الداخلي للفخذ ليضمنوا عدم تشوه الوجه .

ظهرت على فلاستا عند نضوج أول التمر على الساعد والأرجل أربع عشرة بقعة حمراء مرة واحدة . وعندما كبرت وأصبحت بحجم حبة الحمص أحرقتها ولم تترك غير واحدة منها على الرجل ، تركتها تتطور بحرية لكي تكتسب المناعة .

في بداية أيار أصيبت بالإسهال المعوي والمعدني الذي استنزف قواها . وقد شددت من إجراءات التنظيف والوقاية وواصلت العمل في العيادة في وقت كانت فيه أشد مرضا من الكثير من مرضاها . وقامت بإجراء أول عملية جراحية في بغداد وهي تعاني ارتفاع الحرارة الى ٣٩ درجة مئوية . كانت حتى اللحظة الاخيرة تفكر ما إذا كان من الأفضل تأجيل العملية الجراحية . فإن أي أمر لن يقع إذا لم تكن الحالة ملتهبة ولا خطيرة وكان من الممكن أن تنتظر بضعة أسابيع . ولكن كم عانت المريضة الخوف . فالناس هنا يخافون من أية عملية جراحية

مهما كانت صغيرة أكثر من خوف الناس عندنا . إنهم يتساءلون بضيق وقلق ، ما إذا كانت العملية مؤلمة وهل سيسيل كثير من الدم . فهل عليها أن تؤجل العملية وتسمح بأن تعاني المريضة كل هذه المخاوف مرة أخرى ؟ غسلت يديها أطول من المعتاد وللتأكد طلبت شد لثام مزدوج على فمها . لثام مزدوج على الفم والأنف وفي جو تزيد درجة حرارته على الأربعين مسحت جلد المريضة باليود وشعرت أن كل شيء سيكون على مايرام وأن العملية ستكون ناجحة . قرأت مرة عن أحد الرسامين أنه كان مصابا بمرض سبب له إرتعاش اليدين ، لدرجة أنه كان لا يستطيع رفع كأس الشاي أو الملعقة الى فمه . ولكنه في اللحظة التي كان يأخذ فيها ريشة الرسم بيده تصبح يده هادئة وثابتة .

سيتم ذلك لولا تلك الدوائر السوداء التي تظهر أمام عينيها . تحققت العملية ولم تكن المريضة لتعلم بالحالة السيئة التي كانت الطبية تعانيها

١٠

"إنك على عجل دائما أيتها السيدة " يدمدم مهدي عندما يكونان معا في الشارع قالت فلاستا مع نفسها : " إنني أستعجله دائما هذا العجوز المسكين"

غير أن الرجل العجوز لم يحتج لأنه يشعر بالتعب وإنما احتج لسبب مبدئي : ففي السوق تجري الكثير من الأمور الممتعة ، وهي تمر من هناك بسرعة خاطفة . إنها تركض نحو أحد المتاجر لتشتري أناء السكر وتسرع نحو غيره . إنها لاتعرف مطلقا كيف تشتري . في الأقل إنها تساوم رغم أنها لاتساوم الا قليلا . فلو ساومت أكثر لحصلت على إناء السكر بنصف القيمة التي دفعتها . كلما طلبت فلاستا من مهدي ، أن ينفذ أمرا بسرعة أجابها بالقول : يواش - على مهلك - وكان يلقي عليها نظرة لوم .

وحين لا يكون لديه ما ينبغي عمله يجلس هذا العجوز القرفصاء عند الباب ويلف أطراف الزبون حتى الركبتين ويراقب الشارع . إنه يحيي الاصدقاء والمعارف وبين حين وآخر يجلس القرفصاء الى جانبه أحد الاصدقاء ليتبادل معه أطراف الحديث . وفي بعض الاحيان يجلس بتلك الوضعية (التي تثير لدى فلاستا بمجرد النظر الاحساس بتخشب رجليها) صف كامل من الشيوخ في حديث بطي، وهادئ وحكيم .

خمسون درجة في الظل

إننا نمتطي الخيل ونذهب في الصباح الباكر قبل ارتفاع درجة حرارة الجو الى الصحراء
 ألا ترغبين في الذهاب معنا بعض الأحيان ؟ قالت السيدة دونلوب ، زوجة الإيرلندي الطيب
 القلب ، مدير المستشفى الملكي ، موجهة الدعوة لفلاستا . وكانت فلاستا تريد ذلك ، لكن
 ليس لديها حصان . لا ضير في ذلك فلسوف نستعير حصانا . سنقول للسيد دي لوتي ، فهو
 خبير بكل مايتعلق بالخيل ولسوف يجد لك ولاشك حصانا جيدا .

"سنقول للسيد لوتي ، قولوا للسيد لوتي ، السيد لوتي يقدم لك النصيحة... " هذا ما
 تسمعه من كل جهة ، لدرجة أنه أصبح يثير أعصابها . ثمانية وعشرون سنة ونصف السنة
 استطاعت الإستغناء عن السيد دي لوتي وفي نهاية الأمر حققت ماتصبو اليه ، فلماذا عليها
 الآن أن تبحث عن السيد دي لوتي ؟ عرفتة مرة عندما جاء برفقة زوجته المريضة التي
 أصبحت قبل فترة قصيرة من الزمن من مراجعي عيادة الدكتورة فلاستا . مسكينة هي السيدة
 دي لوتي ، فليس بمقدور أحد أن يعمل من أجلها أكثر من تخفيف آلام الإحتضار كان لايد
 أن تكون امرأة جميلة ، قبل أن تلتهب هكذا بسبب الإصابة بالترن الرئوي في الجو القاتل
 للخليج الفارسي . وهو كذلك إنسان لطيف ، إيطالي رشيق و طويل القامة ، وغامق العينين .
 إنه عميق الثقة بنفسه وفي غاية الاعتداد بالنفس . إنه واثق من نفسه لدرجة أن حضوره يشير
 فلاستا ويخرجها عن الطور

"أشكركم ، ولكن لاجابة لتكليف السيد دي لوتي سأقول لمحمود وهو سيستعير لي حصانا بالتأكيد " وبعد ذلك نسيت الأمر

اتفقوا على صباح الثلاثاء وانطلقوا ، انطلقوا في وقت مبكر ، حين بدأت النجوم تشحب في السماء العميقة الزرقة .

جيورجي دي لوتي ، إستعار بسرعة فائقة من قبيلة شمر لفلاستا حصانا عربيا أصيلا بني اللون كانت فرسا حيوية ومطواعة . حقا أن السيد دي لوتي يعرف الخيل . الصحراء ، كانت فلاستا تتصورها وربما مثل أي أوربي آخر ، صفراء غرينية مستوية الى حد كبير ومملة ، تلال لا نهاية لها من الرمل .

منذ زمن طويل أصبحت تدرك أن ذلك التصور لم يكن صحيحا . فإن للصحراء الوائاً تتغير خلال العام بل وخلال اليوم الواحد . وفيها تلالها الصخرية وكهوفها المنفردة الكبيرة

تكون الصحراء المحيطة ببغداد ، في الربيع الباكر خضراء تفتتح فيها زهور صغيرة بيضاء . أجمل ما فيها شجيرات أحراش الكبر : على الأغصان الشوكية الدقيقة تجلس الزهور البيضاء كأنها فراشات كبيرة . وعندما تتساقط الفراشات الكبيرة وتنفجر الثمار يخيل أن الشجيرات تفتتح للمرة الثانية - تفتتح هذه المرة عن زهور حمراء غامقة . وفوق هذا كله من الأفق حتى الأفق قبة السماء الزرقاء الهائلة .

فوق التل تزلوا عن ظهور الخيول في انتظار شروق الشمس . في البداية ظهر شريط ضيق أصفر وبعده ظهرت ببطء ، وكأنها تخرج من الامواج كرة هائلة حمراء إنها آلهة عظيمة ومهيبة ، إنها سخية ونذيرة بالشر قليلا . كان لا يجمعها إلا القليل بالشمس المحلية في جنوب الأراضي التشيكية ، الشمس الصغيرة الصفراء ذات الاشعة الطويلة والفم المبتسم من الأذن حتى الأذن ، كما يرسمها الاطفال في دروس الرسم .

في طريق العودة لكزوا الخيل لتسرع من أجل أن يتخلصوا من وطأة حرارة الشمس مروا بجانب الريفيات و بائعات الحليب من القرى الصحراوية حول بغداد . كن يسرن في مجموعات ، فخورات ، مترفعات كأنهن ملكات وعلى رؤوسهن أهرامات الأواني كن يغنين . هكذا يحملن كل يوم الى المدينة الحليب واللبن والقيمر الابيض (القشطة) . بعضهن يقطعن ثلاث ساعات ذهابا وثلاث ساعات إيابا في هجير الظهيرة الصحراوية . قيمر ...

قيمر ، بهذا الغناء يرتفع الصوت العميق الرنان لبانعات الحليب ما إن يصلن الى أول البيوت في ضواحي بغداد

عشقت فلاستا تلك المسيرات الصباحية كما عشقت الفرس العربية الرشيقة البنية اللون . وإذا لم تكن لديها مهمة اجراء عملية جراحية - ففي هذا الوقت لا يمكن اجراء العمليات إلا في الصباح الباكر - كانت تذهب الى الصحراء كل صباح . في بعض الأحيان مع اسرة دونلوب وفي بعض الاحيان برفقة جيورجي دي لوتي . وغني عن القول انه ربما عرض عليها مرافقته لها : فهو في الأغلب توسل فيما إذا كان من الممكن أن يرافقها بعض الاحيان كان يحب الذهاب الى الصحراء سابقا مع زوجته عندما كانت بصحة جيدة ، غير أنها الآن لاتستطيع وابنه ؟ لعلكم تعرفون كيف هم الصبيان من أمثاله ، ربما يمكن إغراؤه في الذهاب لمشاهدة لعبة الغولف . أما شروق الشمس في الصحراء فهو بالنسبة له رومانطيقية عاطفية . والذهاب الى الصحراء بصورة منفردة أمر غير مفرح . قال الرجل المعتد بنفسه والمتكبر الى حد ما ذلك بتواضع كبير جعلها لاتستطيع الرفض .

٢

في مدرسة التوعية الشعبية إلتقت فلاستا بابانوثيل . في اللحظة الأولى في الأقل لم يساورها أي شك في ذلك : كهل طويل القامة ، أريحي الوجه ضحوك ، ذو لحية بيضاء يرتدي عباءة بيضاء طويلة تمتد حتى الأرض - لم يكن ينقصه غير قبعة رئيس القسس وعصاه - غير أن هذا ما يفوت على الملاحظة أحيانا

قدموا أحدهما للآخر : الدكتورة كالالوفا طبيبة ، السيد نعمان الأعظمي الواعظ مدير المدرسة الحنفية . كان مدير المدرسة الحنفية قبل خمس أو ست سنوات سجيناً . ففي عام ١٩١٨ عندما حرر الأنجليز العراق من السيطرة التركية ، قاموا بنفي نعمان وعدد آخر من الشخصيات العراقية الى الهند . وقضى هناك ثلاث سنوات في السجن . وبعد أن اعتقد المحررون أن مواقعهم في العراق أصبحت قوية بدرجة كافيهِ أطلقوا سراح المعارضين المحتملين وسمحوا لهم بالعودة الى وطنهم .

"هل تسمحين لي بأن أدعوك لسماع خطبة الغد ؟ فلسوف أتحدث فيها عن النساء العربيات " . في اليوم الثاني جاء قبيل الظهرية أحد تلامذة نعمان . كان المسجد

مليئا بالناس . إذ يزور هذا الخطيب حتى الناس الذين كانوا يتجنبون بيوت الله لسنوات طويلة . فإن هذا الامام لا يجبرهم على الانحناء للرسول بلا تفكير ، وهو يبحث معهم عن حلول للمشكلات التي تمس حياتهم بصورة ملحة .

"الرجل المتعلم لا يستطيع الشعور بالسعادة مع الزوجة الجاهلة " يقول بصوت هادئ رنان " . والرجل البسيط كذلك بحاجة الى أن تجيد زوجته فن الطبخ وأن تعنى بصورة سليمة بالاطفال وأن تدبر أمور المنزل . وبصورة عامة فإن تعليم الفتيات ضرورة ملحة فكيف تريدون تحقيق الإنسجام في الأسرة إذا لم توفرنا لذلك الشروط اللازمة اقتصاديا وروحيا؟"

بعد الخطبة يتقدم أحد تلامذة نعمان بين الناس ليجمع شيئا ما . ماذا ؟ هل يجمع نقودا ؟ لا ، إنه يجمع اوراقا كتبت عليها الاسئلة المختلفة . فإن الإمام نعمان يجيب عن اسئلة الناس علنا وهذا ما لا يتسامح معه الانمة الآخرون . مناقشات في المسجد ؟ من سمع بمثل هذا وفي اي زمن عموما يقال إنه يفسر القرآن كما يريد " هذه حرية تفوح منها رائحة الكفر" ، أعلن ذلك عدة مرات كبار رجال الدين محذرين

كان نعمان يتساءل بحماسة : "هل أرسل الله القرآن للبشر أم للحيوانات ؟ . اذا كان قد أرسله للناس فإنما من أجل ان يفكروا به . وحين نفكر بالقرآن فلا بد لتفسيره أن يتغير ، إذ لا بد للتفسير أن ينسجم مع الزمن ومع تقدم البحث العلمي"

تحت قبة المسجد البيضاء ، حيث يوجد مقر المدرسة الحنفية كان التدريس مقتصرًا على الاسلام واللغة العربية . وعندما أصبح نعمان مديرا لهذه المدرسة نجح في أن يدخل في برامج التعليم المواضيع الدنيوية - الرياضيات والفيزياء والجغرافية والاقتصاد الوطني والصحة . "إننا بحاجة الى دعم العلم فإن الجهل يفرق في حين يقود العلم الى التفاهم ويربط الأمم والشعوب ببعضها"

ألقت الطبيبة التشيكية في المدرسة الحنفية محاضرة عن الطبيب العربي القديم الرازي ، وفي المرة الثانية تحدثت عن الأوضاع الصحية في العراق . لا بد من توجيه الشكر للأب الذي أنجب هذه البنت . فكر نعمان وفي ايلول ١٩٢٥ كتب الى السيد يان فاتسلاف كالال رسالة طلبت فلاستا راجية من ماريا تاور ترجمتها ، لأنها لم تجرؤ على ترجمة الرسالة المكتوبة بمثل تلك اللغة العربية الرفيعة .

"باسم الله

من أخيك العربي نعمان بن أحمد الاعظمي ، مدير المدرسة ، الإمام الأول ، الى الاخ
المحترم التشيكي كالال ، نبع الثقافة وبحر المعرفة وكوكب العلم . الرجل المتميز بحرية الفكر
وسلامة الاستنتاج ، رجل الكمال والمعلم الرائع والمربي

(الى هنا مقدمة الخطاب . وبكلمات المجاملة الغنية والشاعرية هذه تكتب الرسائل في
البلاد العربية منذ عهد الخليفة هارون الرشيد وربما قبل ذلك بزمان طويل . أما الاسلوب
الأوربي المختصر والموضوعي للمراسلة فإنه يقبل هنا بنوع من التسامح الصامت وكأنه ضرب
من مجاملة الاطفال غير المقصودة)

وأشار نعمان في الرسالة الى أنه يتوي السفر في وقت قريب الى الغرب ويزور براغ
أيضا " لأنني أرغب في لقائكم شخصيا . ولعلنا سوف نزرع بين الشرق والغرب بذورا تخرج
منها سبع سنابل تعود بمئات الفوائد على البشر ، ويأتي اليوم الذي يتعانق فيه سكان الغرب
مع سكان الشرق ويصبحون أخوة ، كما تريد ، دون أن يمسه مصير الفرقة والعراك أو مرض
الخلاف وظلام عدم التفاهم ، الذي خلق له الناس شبكة من الإيمان يصطادون فيها ضعاف
العقول..."

وفي الختام : يوم أمس وصلت ابنتنا الطيبة فلاستا الى جامعتنا وقامت بزيارتها
فظهرت أخلاقها السامية مثل البدر في وسط السماء وشرقتنا شمسها وفرح الجميع بمقدمها ،
ولذا فإن طلبة جامعتنا يشكرون أباه وأمهات معلمتها مارياتاور ، التي ربت لنا ابنتنا
العزيرة وعلمتها اللغة العربية وجعلتها حلقة وصل تربط العراق وتشيكوسلوفاكيا ... شكرا لك
ايتها المعلمة وشكرا لك يا كالال لأنك ربيت هذه الابنة وشكرا لام فلاستا أنا - ولأختها
المحترمة وطابت أوقاتكم جميعا

المخلص مدير الجامعة والإمام الأول

نعمان

أخطأ نعمان في أمر واحد ، فإن الدكتورة مارياتاور التي يشير إليها في الرسالة لم
تكن معلمة لفلاستا بل كانت اقرب صديقة لها وقد درست اللغة العربية معا على يد
البروفسور رودولف دفوژاك .

في السنة التالية لم يقم نعمان بالسفر ولم يقم بزيارة " الغرب " وربما لم ينفذ ذلك فيما

بعد ، غير أن صداقته مع فلاستا كاللوافا استمرت لسنوات طويلة . كان يقول لها " يابنتي
وكانت تعالج تلامذته وأسرته

٣

إنه لمصير غير سهل أن تكون الفتاة ابنة لأسرة رفيعة . فإن القرويات يكدحن ولكنهن
يتحركن بحرية وبدون من يرافقهن ، وفي كثير من الأحيان بدون حجاب . ولو تجرأت امرأة
في المدينة مثلا زوجة أو ابنة لتاجر أو لموظف على الخروج من منزلها بدون حجاب ، لأثارت
الفضيحة نفسها التي يثيرها خروجها الى الشارع في أوروبا عارية .

تقول إحدى أغنى الأسر ، التي هي من مراجعي فلاستا ، إنها تنحدر من أحد الأئمة
المسلمين ، ولهذا فإنها تحظى باحترام لاحدود له . ويحج الى قبور السلف الأقدم لهذه الأسرة
سنويا مئات آلاف الحجاج . وإن أصغر الاحفاد في هذه الاسرة يمنع من الخروج من المنزل .
إنه يعيش كالسجين وقد حكم عليه بأن يبقى طوال حياته عذريا . وكان لاحدى الاسر التي
تقترب من سمو الأسرة المذكورة ولدان . وقد تزوج الولدان من الاختين الاكبر للحفيد
ولم يكن الحظ قد حالف منيرة الجميلة والذكية بعد . إنها تجلس مع الأعمال اليدوية تحت
الممرات المقنطرة في مسكنها الذي ولدت فيه وسعة عالمها مساوية لسعة إيوان الدار خمسة
عشر مترا مضروبة في خمسة عشر مترا وربما أكثر من ذلك بقليل . في الوسط حوض للماء
مع نافورة وأشجار النخيل في المزهريات وفوق السطح خمسة عشر مترا في خمسة عشر مترا
من السماء . وهكذا عليها أن تعيش بقية أيامها هنا حتى نهاية العمر .

قال نعمان في موعظته : " في عهد ازدهار الاسلام كان هناك الكثير من النساء
المتعلمات . كانت هناك قاضيات في المحاكم الدينية ، وكانت هناك شاعرات وواعظات . ومع
تدهور مكانة المرأة في المجتمع تدهورت الامة العربية » .

بدأت فلاستا الحديث حول هذا الموضوع عندما ذهبت مع جيورجي دي لوتي الى
الصحراء

"لديّ إنطباع أن هذا الوضع يلائم أغلبية النساء هنا " هز كتفه معبرا عن شكه " ينبغي
أن لا تنظري الى الأمر من زاوية نظرك فقط . فأنت جنت من عالم مختلف تماما وجرت
تربيتك بشكل آخر ، إنك لم تعنادي بطبيعتك على القناعة هكذا . أرجو أن لاتغضبي ، لم اشأ

توجيه الاهانة لك - فهذا ما أحبه فيك تماما"

(فلاستا رغم ذلك غاضبة بصمت . ما الذي تعرفه عني ، أيها السيد المحترم ؟ أتعلم شيئا عن التواضع الذي أحس به أمام بعض الناس ؟ أمام الناس الذين يعرفون أكثر مما أعرف والذين أنجزوا أمرا ما ؟ عموما أنا لا أهتم بما يروق لك فيئ وما لا يروق . أنا مثلا لا أحب فيك هذا الإعتداد بالنفس و إدعاء معرفة كل شيء ، . في المرة القادمة سأخرج الى الصحراء مع أسرة دونلوب) .

"لو أعلن اليوم الملك أو الإمام الأكبر قائلا : على جميع النساء التخلي عن الحجاب - فمن الذي سيعارض ذلك حسب إعتقادك ؟ الرجال ؟ لا ، بل النساء بالذات " . واصل حديثه وكأنه لم يلاحظ مطلقا وجهها المتجهم .

لعله على حق . فإن فلاستا تعرفهن من العيادة . كم اضطرت الى قص دائرة في الملابس وفي ثلاث أو أربع طبقات حين كانت تريد غرز حقنة الدواء ، إنها العادة ، الخجل...

"لكن هذا أمر مُرَوَّع ، إذ لا تستطيع الشمس الوصول لهن مطلقا . وتكون النسوة في بغداد تسعين في المائة من مجموع المصابين بالتدرن الرنوي " . توقفت فجأة ما إن لفظت هذه العبارة . وأوشكت فزعا أن تضع راحة يدها على فمها . فإن زوجته لم تتبرقع بالحجاب مطلقا وكانت الشمس تصلها... كانت تصلها كثيرا ورغم ذلك فإنها سوف تموت بسبب التدرن الرنوي .

أصلح شيئا ما على الركاب وتظاهر بأنه لم يسمعها . وتجنب في الطريق الضيق القرويات اللواتي يحملن الحليب ، ومرت برهة من الزمن قبل إمكانية مواصلة الحديث .

"تقولين إن الحجاب سجن . حسنا . ولكنه مريح لدرجة كبيرة : فهو يتستر على الملابس المنزلية وعلى شعر الرأس غير المصفف . فالعربية تتناول العباءة وتكون على استعداد للذهاب الى المدينة . بالاضافة الى ذلك فان جميع النسوة ملفعات بالغموض . وراء كل حجاب تستطيعين توقع جميلة " قال ذلك وكشر عن أسنانه .

"على وجه التحديد ، ليس للعربي بصورة إعتيادية أن يرى في أحسن الأحوال أكثر من عشرة الى خمسة عشر وجهاً نسوياً : الأم والأخوات والزوجة والبنات ، هذا إذا ما استثنينا القرويات والكرديات والاوربيات ، غير أن هؤلاء خارج حلبة السباق . وهذا أمر لا يمكن الاستهانة به حين لاتكون للزوج غير فرصة قليلة للمقارنة ، ألا تعتقدين ؟ "

عرجوا على الشارع الذي تسكن فيه أسرة دي لوتي

"غدا؟" طرح السؤال

"غدا" هزت رأسها متسامحة

إنحنت من على ظهر الحصان لتمد له يدها . وقد شق صمت الشارع سعال ناحب ويانس مثل نداء الغريق .

"سأذهب معك ، لالقي نظرة على المريضة " قالت فلاستا بصوت مرتبك . على السلام مر بهم شاب طويل رشيق . أوجستو لوتي ، ألقى التحية ولكنه لم يتوقف . ولبرهة قصيرة فقط كما يلمع البرق صَوَّبَ نحو فلاستا نظرة غير ودية من عينين جميلتين .

٤

"تعالني ، يامارينكو ، في الخريف أوفي مطلع الربيع ، تعالي بالتأكيد " . في كل رسالة تحاول فلاستا إقناع ماريا تاور " تعالي لثلاثة أشهر في الأقل ، ليكون ذلك كافيا ، لعلهم سيمنحونك في المكتبة اجازة طويلة ، فإن ما سوف تتعرفين عليه هنا سيكون إغناء لهم أيضا . وفي حالة إعتراض ماريا بان المسافة الى العراق طويلة ، كانت تقول لها مقنعة " أرجوك ، لماذا لاتصلين الى بغداد إذا كنت تصلين الى برنو ، فهي مجرد مشوار آخر"

كم تتوق الى أن تكون معها . ماريا بالذات . فإن مارينكا لاتتكلم كثيرا ولا تتساءل ، ولكنها تتفهم الآخرين .

"كم أريد أن أعرفك على بغداد " كتبت فلاستا وعلل ماريا قد فهمت : كم أريد أن أعرفك على إنسان واحد وعلى بغداد كذلك .

منذ اليوم الذي إلتقت فيه مع أوجستو على السلام لم تعد تذهب في الصباح الى الصحراء . إنها في الأقل تطيل اضطجاعها في السرير وتمطى تحت الناموسية . تتأمل السماء وتسمع أصوات المدينة في الصباح الباكر .

أول الأصوات هي أصوات بانعات الحليب " قيمر ، لبن ، لبن " . هذه بالتأكيد هي الصغيرة البدينة . إنها لاتحمل البضاعة فوق الرأس مثل القرويات الأخريات ، بل تنقلها على الحمار . في كل جانب جرة كبيرة ، في واحدة منها اللبن وفي الثانية القشطة .

بعد لحظة أخرى يرتفع غناء الحياز يابا خوش صمون . أهلك مايدرون ، أبيض و حار الصمون - بالكلة ينامون"

"سمك...سمك" يعرض بائع السمك باختصار . وفي سلتة تلمع فضة السمك الذي اصطاده خلال الليل من نهر دجلة أو ديالى

"خشب... خشب يابس " ينادي الرجل الذي يبيع أغصان الطرفة اليابسة . غير أن زبائنه في تناقص لأن المطابخ النفطية بدأت تقضي على المواعد القديمة في المطابخ .

"زبل" . ضربات قصيرة قوية على مطارق جميع الأبواب " جييو الزبل ، هاتو القمامة" وبعد قليل تهيمن على عرض الزقاق الحمولة الطرية والملونة على رأس بائع الخضرة الملفوف القرناييط و الكرنب والكوبر والكرفس والكراث والجمار الطري .

صوت طفولي يعرض مكانس من سعف النخيل وخلفه وبصوت غليظ يعرض فنه قارئ الحظ " فتاح فال . فتاح فال " يفتح أمامكم أبواب المستقبل وتعرفون ما الذي ينتظركم . تعالوا لمعرفة فألكم ، مقابل بضعة قروش سترون حياتكم بكاملها وكأنها في المرآة ، ولكن هل هناك ما يستحق شيئا ؟

لابد لماريا أن تأتي . وينبغي أن تأتي في وقت مبكر

لماريا هبة خاصة . فإنها تساعد الإنسان على فهم نفسه

٥

بعد ستة أسابيع من بدء عملها في العيادة دعا فلاستا لمقابله ملك العراق . جاءت الدعوة على غير انتظار : يرغب صاحب الجلالة في التعرف عليك ، لذا يرجى حضورك في الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة من صباح الغد في القصر الملكي . اطلبي هناك حيدر بيك فانه سوف يقودك في القصر .

في اللحظة الأخيرة استطاع مهدي تلميع حذائها الابيض .

الحذاء الذي اشترته قبل سنة في متجر باتا في مدينة بيرنارتيته يتغمر الآن في السجاد عالي الوشائج . سبق لها أن مثلت بين يدي رئيس الجمهورية ولكن بين يدي الملك لم تقف مطلقا . إنه كائن أسطوري ، له برودة من الهرملين ، ويمسك بإحدى يديه الصولجان

ويحمل في الثانية تفاحة الامبراطورية ويجلس متربعا على العرش

بدلة الملك رمادية غامقة مفصلة وفق الأسلوب الانكليزي ، وقد استدار حول طاولة المكتب الكبيرة ليستقبل فلاستا : كيف أعجبتك الحياة في بغداد ؟ ممتاز ، أشعر بالارتياح لسماع هذا ؟ وماذا عن العمل ، عساه يجري بانتظام ؟ إنك تتحدثين بعربية رائعة أيتها السيدة الدكتور

كانت تلك زيارة قصيرة ، لكنها لم تكن الأخيرة (أنا ، التشيكية الصغيرة من طابور ، استقبلني الملك بنفسه . حين سأكتب ذلك لأهلي ستعزيهم الدهشة والعجب) . على اية حال لم تتوفر للإحساس بسحر الزيارة واحتفائيتها غير تلك الدقائق القليلة في العربة ، فعندما وصلت الى منزلها وجدت الماء يغلي في قدر التعقيم وقد امتلأت العيادة بالمرضى . إنها تبدأ العمل اليوم في ساعة متأخرة عن الوقت المعتاد بساعتين ، ولن تنتهي قبل الساعة الواحدة ظهرا ، وقبل الظهر من المنتظر أن تبلغ درجة الحرارة خمسين درجة مئوية في الظل ، في الأقل .

ما العمل لكل لعبة ثمناها حتى لزيارة صاحب الجلالة .

٦

"ليس هناك أجمل من المساء على شاطئ دجلة" كتبت فلاستا مرة بعد سنوات عديدة "فإن الأنوار تنعكس بخطوط لامعة على أمواج النهر ، وتمتزج الموسيقى بهدير الماء وحفيف سعف النخيل"

وللنهارات على شواطئ دجلة سحرها أيضا . على سطح ماء النهر العريض الهادئ والأخضر كأنه شراب موز الجنة ، تعوم الزوارق البخارية والعوامات المدورة لنقل الحمل (القفف) . عدد لا يحصى من زوارق صيادي السمك ترسو على سطح النهر . هنا لا يصطادون السمك كهواية رياضية ولا للتسلية . هنا يسرعون في الحال بالسلة المليئة بالسمك الى السوق أو يدخلون المطعم من بابه الخلفي ، وإذا كانت الأسماك صغيرة جدا أو أن اصطيادها تم في وقت متأخر ، فإن صاحب الكشك سوف يشتريها بسعر مخفض ليقوم في المساء بشي الأسماك الصغيرة على المشبك ، أما الأكبر حجما فيتم شويها على العيدان فوق النار التي ترتفع السنة لهيبتها عند الشاطئ مباشرة .

السلك المشوي ينشر رائحته ، في حين تنعكس النار الذهبية اللون على النهر المعتم . البدر كامل في السماء وقد دعت أسرة البروفيسور عز الدين فلاستا للقيام في رحلة ليلية

نزلوا الى الزورق الذي يشبه الجندول ، عبر مسلك طيني منحدر ، قبل زمن كان هنا رصيف منتظم من الأجر . وغير بعيد من هنا مازالت بقايا جدار الشاطئ التي تحمل كل قطعة من الأجر فيه ختم الذي أمر ببنائه : ختم الملك نبوخذ نصر

حمل عز الدين ابنه الأصغر الى الزورق . وقام صاحب الزورق بمساعدة الابن الأكبر وفلاستا . أما زوجة عز الدين الشابة النشطة أدبية فإنها تنزل الى الزورق مترددة حذرة ، تعير أقصى الإنتباه لكل خطوة تخطوها ، وقد عاد زوجها بسرعة لمساعدتها

وهنا كشف المسلك المنحدر عما تخفيه العباءة ، إذ أن أدبية تنتظر طفلها الثالث

"ماذا سيكون اسمه " سألت فلاستا همسا

"ريم " أجابت بصوت خافت لا يكاد يسمع وابتسمت إحداهما للأخرى بتفاهم نسوي صامت .

ريم ، تعني الغزالة البيضاء . ولعل عزالدين وزوجته لايشكان في أنها ستكون طفلة هذه المرة .

النهر يرطب الهواء ، والآن بفضل برودة الجو أصبح من الممكن أخيرا التنفس بحرية ، سطح ماء النهر مليء بالمصايح والمصايح الصغيرة ، اذ يضيئون على الزوارق مصايح ملونة ، وهنا وهناك تتأرجح على الأمواج أنوار شمعتين وكأنهما عينان غريبتان تلتهبان فلاستا تعرف الآن هذا التقليد : فعندما يصاب أحد أفراد الأسرة بمرض خطير يقوم أقرباؤه باشعال شمعتين مثبتتين على لوح من الخشب ويتركانهما تطفوان على سطح الماء . وفي حالة انطفاء شمعة واحدة لا يكون ذلك بشير خير ، إذ أن ذلك يعني أن المريض سيعاني المرض طويلا ولسوف يقاسي الآلام . وفي حالة انطفاء الشمعتين أو انقلاب اللوح ، ينطلق من الشاطئ عويل ونواح طويل . أما إذا طافت الشمعتان طويلا وبقيتا تشعان النور فإن المريض سيشفى في وقت مبكر ويستعيد صحته . قال البروفيسور عز الدين بشيء من السخرية مشيرا الى نور شمعتين مرا بهما : لعلهما تعودان لأحد مرضاك ، ومر قائد الزورق ، حول الشمعتين بمنتهى الحذر ومن بعيد - خوفا لاسمح الله من أن يقرر بتطويحة المجداف مصير أحدهم .

التفتت أديبة نحو طفلها ، ورفعت حجابها وبدأت تتحدث بصوت خفيض رقيق . إنها تروي حكاية علاء الدين والمصباح السحري وحكاية التجار والجنى وحكاية الحصان السحري وحكاية علي بابا والجارية الذكية . طاف الزورق على سطح النهر على طول بغداد من أحد طرفيها الى الطرف الآخر وعاد راجعا . ومشى القمر الراعي بين قطعان النجوم الفضية واستسلم الطفلان منذ فترة للنوم ، غير أن أديبة كانت تواصل حكاياتها . وكانت فلاستا والبروفيسور عزالدين وحتى صاحب الزورق يستمعون مسحورين وبامتنان

إنني لسعيدة . أدركت فلاستا إنني سعيدة إذ نجحت في الامساك بموقع هنا ، سعيدة لأن الناس هنا قبلوني بينهم بهذه الصورة ، سعيدة لأنني أستطيع الآن سماع حكايات الف ليلة وليلة على سطح مياه دجلة في الليل في مدينة هارون الرشيد

دارالبواقين

في الخريف أزيّف موعد البحث عن دار جديدة ، تتسع لأن تكون فيها ليس العيادة حسب وإنما أيضا شقة للسكن وغرف لرقود المرضى . فقد كتبت الممرضة روث أنها أرسلت صناديق الأدوات والأجهزة الطبية للجراحة وأنها تزعم السفر في الأيام القليلة القادمة .

هذه المرة بحثت فلاستا عن دار في مركز المدينة . فقد بدا أنها حققت مكانة ثابتة تجعلها لاتخشى المنافسة . بعد ذلك فإن العيادة شيء والمستوصف شيء آخر . إذ تكتفي العيادة بسكان المنطقة الاقرب المحيطة بها ، أما المستوصف فإنه بحاجة الى دائرة أوسع ، ولذا فإن المكان الأفضل هو في المركز في وسط الدائرة . قبل فترة قصيرة تم إلغاء المستوصف الخاص الوحيد في بغداد والذي أسسه هنا طبيبان أرمنيان . وكان لحقيقة تأسيسه في طرف قصي من المدينة نصيب كبير في قصر حياته . فالسكان في بغداد (خاصة النساء المسلمات المعتادات على العيش في منازلهن والمحيط الأقرب لها فقط) يعتبرون الأحياء الأخرى في المدينة مناطق غريبة وبعيدة ويفضلون عدم مراجعة المستشفى للعلاج على الذهاب إليها .

بالإضافة الى ما تقدم لم يكن لدى فلاستا الحد الأدنى من الرغبة في إقامة المستشفى في مبنى حديث أو في فيللاً مشيدة وفق الاسلوب الاوربي ، كالتى بدأوا يشيدونها الآن في ضواحي المدينة . فبان الإسلوب غير المألوف للبناء يمكن أن يصد المرضى المحافظين عن المراجعة . وأخيرا فإنها بالذات تشعر براحة أكبر في السكن في بيت تقليدي ذي إيوان .

بعد بحث طويل ومشاهدات عديدة وقع اختيارها على دار أسرة البرزنجي في دربونة الراهبات . دار البرزنجي تعني دار البواقين ولعل هذا الاسم قد ساهم في قرار فلاستا باستنجاهه . إذ أن إسم جدتها من ناحية الأم كان تروباتشوبا (أي من أسرة البواقين) وهكذا بدت دار البواقين وكأنها ذات صلة بالأسرة منذ زمن طويل .

الجدار الضخم العاري المطل على الشارع كان أشبه ما يكون بالحصن غير أن صحن الدار الأكثر حميمية وبهجة كان وراء الأبواب المزدوجة وكان قد رصف ببلاط أصفر تتوسطه حديقة لأشجار البرتقال . للدور الارضي ممران تحت الأقواس ذات الأعمدة المحفورة السماوية الزرقة ، وفي الطابق الاول تمتد بشكل دائري الشرفة ذات الأعمدة الخشبية السماوية اللون السرداب ، الذي تنخفض أرضيته بمقدار متر عن ارضية الحوش مكون من ثلاثة اقسام وله سقف حجري معقود كأنه قاعة أحد قصور القرون الوسطى .

الغرفة الواسعة في الطابق الأول هي الأكثر ملاءمة كغرفة للعمليات الجراحية . إذ أن لها أربع نوافذ عالية متجهة نحو الشرق وقد طليت جدرانها كما طلي السقف بطلاء زيتي فاتح اللون من الممكن غسله بسهولة . والى جانب قاعة العمليات مباشرة ستكون الغرف المخصصة لرقود المرضى وفي الطرف الآخر من الممر تكون غرفة الإنتظار والعيادة . أما شقة السكن فلسوف تخصص لها الغرف التي تقود إليها درجات السلالم الثانية .

إنها لدار جميلة ، واسعة وبهيجة ومكينة . ولكن لماذا غادرتها أسرة البرزنجي ورحلت الى حي الميدان ؟ يقال إن ابنة لهم كانت في ريعان الصبى قد توفيت في هذه الدار ولذا اعتقدوا أنها تحمل لهم النحس

٢

"اليوم من الممكن أن تكون في حلب " فكر مهدي بصوت مرتفع .

"في حلب ؟ من ؟ " سألت فلاستا شاردة الذهن وفي الأغلب بدافع المجاملة . فقد قضت يوما متعبا ، قبل الظهر عملت في العيادة وفي الظهيرة ذهبت على عجل الى المدينة لترى كيف تتقدم أعمال الترميم والإصلاح في الدار الجديدة . بعد ذلك قامت

بزيارة المرضى وفي الحتام عند المساء بالذات مصاب بحادث ، لحسن الحظ لم يكن الأمر سيئا جدا ، جرح في الرأس ، وكان بمقدورها أن تتحكم بالامر بسهولة لو لم يحضر كالعادة مع المريض حشد من أقاربه الذين ترتفع أصواتهم بالنواح والشكوى وتلك الاسئلة ، ياربي ، آه من تلك الاسئلة يادكتورة ألم يكسر عظمه؟ لا لا ؟ جمجمته سليمة كالجرس أيتها الدكتوره ألم يصب بهزة في الدماغ؟ لا إنه لم يصب بهزة دماغ لا تخافوا . ما ذا يمكن أن يأكل يا دكتورة؟ ماهو الرجيم الذي ينبغي أن يتبعه للأكل؟ لماذا الرجيم؟ لأنه مريض وللمرضى عادة ريجيم للتغذية . أليس كذلك؟ لا ليأكل ببساطة كل ما يشتهي . حتى الوجبات السميثة يادكتورة؟ وماذا عن التوابل؟

إنقاعهم بأن المريض ينبغي أن لا يتبع نظاما معيناً للطعام بسبب ثلاث غرزات على الجبين ، كان امراً يفوق طاقة فلاستا . عادوا ثانية من درجات السلالم : حقا إنه يستطيع تناول كل انواع الطعام؟ اللحوم أيضا؟

هزت رأسها مرهقة : " لتعيشي ألف عام أيتها الدكتورة . لتنامي بسلام يادكتورة ماء الورد على وجهك يادكتورة"

لنأمل أن لا يعودوا في الليل ويضربوا على مطرقة الباب " المريض يشتهي شرب الحليب ، فهل نستطيع إعطائه له يادكتورة؟ فقد سبق أن حدث لها ذلك ، تنهدت الصعداء وابتسمت .

عليها الآن أن ترتب العيادة وأن تقوم بغلي الأدوات الطبية . مهدي يساعد حسب معرفته ، ولكنه يعمل كل شيء ، بمنتهى البطء . ماذا قال عن حلب؟ آخ روث . لتكن هنا أخيرا

مهدي أيضا لم يعد قادرا على الإنتظار . يسأل عنها يوميا عشر مرات . إنه يشعر بالقلق ، كيف سيتفاهم معها؟

"سوف تتفاهمان بصورة جيدة ، فإن الممرضة روث تعرف العربية يا مهدي ، تعلمتها في براغ ، وتجد الكتابة بالعربية أيضا "

"والكتابة أيضا"

"هكذا ، إنها فتية ومن بلد بعيد وهي تجيد الكتابة باللغة العربية وأنا كالحمار العجوز لم أتعلم ذلك"

أعد لها أجمل الغرف ، الغرفة الوردية ذات الشرفة المطلة على شارع القصر ، وتعلم كيف يقول باللغة التشيكية : (فيتام فاس) أرحب بكم

وصلت في الثاني من تشرين الأول ، بيدها باقة ورد ذابلة . روث ، من أين لك هذه الورود ؟ تهز كتفيها وتبتسم : أهدها لي يوم أمس في إحدى محطات الإستراحة ، حتى أنني لا أدري ما اسم ذلك المكان . كنا على وشك الإنطلاق . وفجأة ركض أحدهم وأعطاني باقة الورد . " هكذا فقط ؟ ولم يقل شيئا ؟ "

"قال بعض الكلام ولكن هل بوسعي أن افهمه ؟"

هذه حقيقة . درست العربية على يد البروفيسور موسيل . كان يعلم اللغة العربية الفصحى التقليدية . ويوسع الانسان أن يقرأ في القرآن ولكنه لا يفهم ما يقوله أحدهم في قرية في بلاد ما بين الرافدين .

أما فلاستا فقد تعلمت في مدرسة دفوژاك وهي لذلك تفهم اللغة الشعبية . ولكن من الممكن هكذا أيضا فهم لماذا تلت روث باقة الورد : ببساطة لأنها جميلة . لقد وهبت بالضبط ذلك النوع من الجمال الذي يعجب به الشرق بشغف . طويلة ورشيقة ذات بشرة بيضاء وردية ولها ضفائر طويلة وكثيفة وعينان زرقاوان .

عانقتها فلاستا عناقا قصيرا : " اليوم عليك أولاً بالسكن والإستراحة وغدا تبدئين العمل في العيادة ، لا أريد بعد أن تحمل الأمر وحدي ولو يوماً آخر "

"إنني غير متعبة لدرجة كبيرة يا فلاستا ، سوف أستحم وبعد ذلك بودي أن أذهب لأتجول في المدينة " . كان نفاذ الصبر يطفح من عينيها

"ليس بودي أن أصيبك بخيبة أمل . فالأمر غير ممكن بدون مرافقة رجل لك . ومهدي سيذهب معي لزيارة المرضى . وسوف تتمتعين بالمدينة كما تريدين لاحقاً . وغدا علينا القيام بعمليتين جراحيتين صغيرتين . وإذا كنت تريدين أن تكوني نافعة بشكل ما فتأملي الأمر واستريحي بشكل جيد "

حتى الى ما قبل ساعة من الآن كان تصور كل منهما لهذا اللقاء مختلفا . لماذا انفجرت بها بكل هذه الشدة ؟ فكرت فلاستا في طريقها نحو المرضى . ولكن ماذا في الأمر ، ربما كان هذا هو الأفضل . لتدرك منذ البداية أن أول ما ينتظر الانسان هنا هو العمل الصعب . روث إنسانة مثقفة فوق المعدل وممرضة ممتازة ، هذا مالا يساور فلاستا فيه أي قدر من

الشكوك . المهم أن لا يسمح الله بأن تكون رومانطيقية .

٣

اللجنة الرباعية للدائرة الصحية للمدينة ، التي قامت بزيارة دار البرزنجي في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني عبرت بكثير من الإعتراف عن تقديرها لتجهيز القاعات والغرف والحلول الوقائية والصحية فيها وأكدت بشكل خاص إرتياحها لتأسيس هذا المعهد الصحي الجديد في بغداد ، والمقام حقا وفق الاسس الصحية الحديثة . وجرى التعبير عن ذلك كله شفها وتحريريا

وبعد الختم قام السادة بالتوقيع . وفي اليوم نفسه ظهرت في قرنة دربونة الراهبات وشارع الرشيد لوحة كتب عليها باللغة العربية " مستوصف تشيكوسلوفاكيا " للدكتورة فلاستا كالوفا

لقد أصبح المستشفى التشيكوسلوفاكيا في العراق حقيقة واقعة

٤

رسالتان مضتا وهما الآن في مكان ما من الطريق الذي يمتد ثلاثة آلاف كيلومتر . رسالتان حول الانتقال من دار الى دار .

"اخترت لنفسي غرفة الاستقبال السابقة لأسرة البرزنجي : فإن لها طاقات ذات مرايا وسقف علبي من الالواح المذهبة ، وعلى الجدران صور بارزة فارسية ، وورود وسوسن في مزهريات عالية . بالمناسبة هنا الآن الكثير من الورود ، الطرية ، إن دارنا تطفح بها . حملها لنا الاصدقاء عند افتتاح المستشفى ، ويحملها لنا المرضى في كل يوم..."

"الدار التي في بيرناريتسه أغلقناها الآن ، ولعلنا سوف نؤجرها في وقت لاحق ، وإذا ما وجدنا راعبا مناسباً لشرائها فلسوف نقوم ببيعها . اشترينا دارا صغيرة في مدينة بيسك ، في الطابق الارضي ولكنها دافئة ومجهزة بشكل جيد ، ستجد فيها الوالدة راحة أكبر . لذا اكتبني لنا على العنوان الجديد..."

تركت الرسالة تسقط على الطاولة : إنهم إنتقلوا من بيرنارتيتسه . كيف أستطاعوا فعل ذلك ؟

شعرت أنها قد عُذِرَ بها وُحِدَتْ : فهي لحد الآن وأينما انتهى بها المطاف ، كانت تعود دائما الى بيرنارتيتسه . إذ كان هناك بيتها الحقيقي والوحيد ، وها هم قد انتقلوا منه .

كيف يمكن الآن أن تتذكرهم إذا لم تكن قد شاهدت مطلقا الدار التي يعيشون فيها ؟ كيف تستطيع تصور أمها ، في غير المطبخ الكبير في بيرنارتيتسه أو في الحديقة أو في الحوش عند قن الأرناب ؟ إنهم لا يكتبون شيئا عن الأرناب لعل أبي لم يقم ببيعها ؟ ماذا فعلوا بالنحل ؟

الآن وللمرة الأولى - ربما للمرة الأولى على الإطلاق ، خطر ببالها أن والديها أصبحا عجوزين . تقدم بهما العمر وبقيما وحدهما . لا يعني هذا أن ليس لهم في البلدة ما يكفي من الأقارب والاصدقاء ولكن ابناءهم وبناتهم قد انطلقوا في حين أنهما بقيا وحدهما في تلك الدار الحجرية الكبيرة ، في تلك الحديقة الواسعة الصامتة . لا بد أنهما شعرا بالوحشة ، الوحشة الكبيرة ، عندما هجرا الدار التي رسم ابي بنفسه خارطتها وشيذاها بأيديهما . هجرا الحديقة التي كم زرع فيها أبي و طَعَمَ من الأشجار وحيث كان يقص الاقواس الخضراء . إنهما لم يكتبتا قط ما إذا كان لديهما في مدينة بيسك جزء من حديقة .

أطلت روث على الغرفة : " فلاستا ، هنا امرأة ما مع ابنتها وتزعم أن الفتاة قد جرحت "

أدخلت الرسالة بسرعة في درج الطاولة وهرعت الى العيادة

٥

جلسن في قاعة الإنتظار ، الآن في الظهيرة بقين وحدهن ومع ذلك بقين محجبات . وفي الإيوان إتكأ على الجدار رجل فتي كئيب الوجه . هو أخ المريضة .

ما الذي حدث " سألت فلاستا . تمتت المرأة المسنة تحت الحجاب مضطربة ، في حين كانت الشابة ترتجف .

"إنها تعاني الحمى"

لا... لا ستكون في الأغلب مصابة بصدمة . لتشد عزمها وتنزع العباءة لاستطيع فحصها

"سبق لها أن وقعت . وقعت على السلالم في السرداب" قالت الام موضحة "سقطت على الابريق"

"وأين أصيبت ؟ " لم تقل شيئا إنها ترتجف وتبكي فقط .

لم يكن هناك أي جرح ومن الواضح أنها لم تصب بأية كسور للعظام وهي لاتنرف دما ولا أثر حتى للرضوض .

"وقعت على الأبريق المخصص لرش السرداب بالماء " كررت الأم بتأكيد شديد . هل ستفهم هذه الدكتوراة الأمر أم لا ؟

"إنني لا أرى شيئا عليها ، لعلها وقعت ولكن لم يحصل لها شيء ، ليس لديها حتى ولو بقعة زرقاء ، كالتى تخلفها الرضوض ، لقد اصبتم بالهلع عبثا"
الفتاة تبكي أكثر فأكثر .

"وقعت منذ زمن طويل عندما كانت صغيرة"

"هكذا هو الأمر ، وعليها الآن أن تتزوج" سألت فلاستا

تنفست الأم الصعداء بشكل مسموع . نحبت الفتاة بضع مرات أخرى مسمرة نظراتها الدامعة على الدكتوراة .
إنها ليست باكرا .

منذ القدم جرت هذه العادة : حين يتبين الزوج أن العروسة عذراء يضع بعد ليلة الزفاف من النقود ما يمكن وضعه تحت الوسادة . وهذه النقود مكافأة للوالدين لأنهما حافظا على عذرية الفتاة وطهارتها . أما إذا لم تكن عذراء فإنها الطامة الكبرى والفضيحة والطرده من المنزل . وكان في السابق باستطاعة الزوج المخدوع أن يقتل العروسة دون ان يطوله العقاب . ولكن منذ عشرينيات القرن العشرين لا يسلم الرجل الذي يقتل زوجته من العقاب ، إذ يحكم بالسجن لمدة سنتين او ثلاث سنوات . فالقانون العربي متسامح تجاه مثل حوادث القتل هذه .

رفعت الأم حجابها وألقت نظرات معذبة متعبة على الدكتوراة : هل سيكون الامر ممكنا ؟

"لاتخافي ، سيكون ذلك ممكنا ، سأقوم بإجراء عملية تجميل جراحية لها ولا بد لها أن ترقد في المستشفى عشرة ايام .

- وهل سيأتيها الحيض بعد ذلك ؟

- نعم ولن يعرف أحد أي شيء

مكثت الأم مع الفتاة في المستشفى وكان أخو المريضة الكنيب الصامت يزورها صباح كل يوم .

في اليوم العاشر انتظروا حتى الفجر . وبعد أن وضعتا البراقع على وجهيهما بعناية فانقته انسلتا من باب المستشفى تحت جناح العتمة .

الظلام أمامي والظلام خلفي

ولم تكن تلك آخر مريضة من مريضات فلاستا اللاتي وقعن على الإبريق .

٦

في وقت ما من أيام خريف عام ١٩٢٥ وصل الى الشرق الاوسط شابان يرتديان ملابس رثة من الناس الذين يطلق عليهم في المنطقة المحيطة بدافلا وشتيخوفيتسه ولوك بود مدنيكم لقب الجواله . وكان أحدهما قد أنهى قبيل ذلك بقليل دراسته في كلية الطب في حين إنتهى الآخر من إقامة معسكر للجواله . وتعبيرا عن إرتياحهما لتحقيق الأهداف المطروحة قررا الانطلاق في أرجاء العالم .

وكان من سوء الطالع أن مؤسس معسكر الجواله يوسف بيتيركا ، الذي عرف فيما بعد بلقب بوب هوريكان ، بدأ يعاني في مكان ما بين دجلة والفرات ألم الضرس . وجرب بصورة متكررة معالجة الألم بوصفة الجوالين الأكثر شيوعا ونجاحا ، وهي تناول كؤوس من شراب الروم غير أنها لم تنفع . وفي بغداد لم يعد يطبق احتمال الألم ، لذلك أحصيا ما تبقى لديهما من نقود وتحريا ما إذا كان ذلك كافيا لتغطية تكاليف إقتلاع السن السادس في يمين الفك العلوي . وعندما توصلا الى نتيجة إيجابية أخذوا يبحثان عن طبيب أسنان .

- تريدان طبيبا ؟ أشار واحد من المارة الى دار في الزقاق المجاور تماما والمتفرع من شارع الرشيد . فتح الباب لهما عربي متقدم في السن فارح القامة . قال لهما إن وقت الدوام في العيادة قد إنتهى غير أنهما لم يفهما شيئا ، لذا قادهما الى داخل العيادة وذهب لدعوة

يا الهي ، لعله لا يتصرف بشكل جدي . فإن هذا الدكتور امرأة و فوق ذلك قمينة لم يعد هنا متسع للتراجع فاستسلما وأوضحا عن طريق الإشارات الى حد ما وعن طريق شيء من الانجليزية أن هذا المسمى بوب يعاني آلام الضرس .

نظرت الى الضرس بمرآة طبيب الأسنان وغرزت شرنقة التخدير الموضعي وذهبت الى زاوية أخرى في العيادة لاعداد شيء ما

"اسمع ايها الاخ العزيز ، إذا شعرت بأن هذه الفتاة غير قادرة ، لاتتركني أتألم ، خذ منها الكلابتين وانتزع السن بنفسك " قال بوب بغم متخشب محاولا اقناع صديقه هنا حلت بدلا عن الانكليزية الضعيفة اللهجة السائدة في منطقة التقاء نهير سازافا ونهر فلتافا وما يحيط بها .

" لاتخف أيها الفهد ، فأنا معك في اللحظة الأصعب " ردد الصديق مؤكدا إخلاصه .

"تأملها بربك ، فإن لهذه قوة كقوة العصفور المتزوج ، وإن لضرسي جذورا ملتوية .

لم تقل الدكتور شيئا . طافت على شفاهها ابتسامة غير واضحة وأعدت أدواتها الطبية وانتظرت مفعول شرنقة التخدير . بعدها بدأت تسأل باللغة الانجليزية : من أين اقبلوا والى أين يتجهون .

"لاتثرثري واقتلعي أيتها الببغاء " قال بوب لانما في حين حاول صديقه مواصلة الحديث بالانكليزية .

" هل قلت شيئا ؟ " سألت بالانكليزية .

"نو ناثينك - لا لا شيء ، أنكر بوب بحزم .

اقتلعت السن برقة ومهارة .

"هل تم اقتلاع السن تماما ؟" لم يستطع المعذب التستر على دهشته . وحاول صديقه التعبير عن الاعتراف والتقدير لزميلته لما قامت به من عمل بلغ حد الكمال .

"ثانكيو فاري ما تش مس دكتور ، شكراً جزيلاً لك أيتها السيدة الطيبة" قال في النهاية بصوت ثنائي .

"لاداعي للشكر أيها الشباب" لوحت بيدها وذهبت لتغتسل .

لم يكن النمر أمام الكوخ الريفي ليثير فيهما هلعاً أشد من ذلك الهلع الذي أثارته تلك الكلمات التي قيلت بما لا يدع مجالاً للشك باللغة التشيكية
"يا للمسيح هل أنت تشيكية ؟ ونحن كنا نتحدث بتلك البذاءة . إنني لأتمنى لو أن
الأرض تبتلعني الآن أيتها الدكتورة"
"لا شيء، أيها الشباب في الأقل تلقنتم الآن درسا . إعلما أن التشيك موجودون في كل
مكان"

قبلاً يدها . وكانت شفاه بوب مازالت متشنجة . وأقاما أربعة أيام في غرفة فارغة من
غرف المستوصف قبل أن تودعهم فلاستا مع الكثير من النصائح والتوصيات في رحلتهم
الأخرى .

على فكرة ، لو أن بوب هوريكان عانى بدلا من آلام الضرس المفاجئة سقوط شيء في
عينه ، لأمكن ان يحدث لهذا الجواله شيء مشابه أيضا إذ أن هناك على مسافة غير بعيدة
من مستوصف الدكتورة كاللوف عيادة طبيب العيون التشيكي الدكتور أميل روبيتشيك
المولود في براغ . وهذا تأكيد لما قيل سلفا من أنه من الممكن العثور على التشيك في كل
مكان .

حينذاك في بغداد لم تلتق مع الدكتور روبيتشيك إلا لماما وأتسمت تلك اللقاءات
بالبرودة . ربما بسبب أن من بين اصدقاء الدكتورة كاللوفا المقربين زميل الدكتور
روبيتشيك ومنافسه طبيب العيون من أصل هندي هو الدكتور شاكر ولم يقربها الى
الدكتور روبيتشيك - ولكن على بعد آلاف الكيلومترات - غير مصيريهما المتشابهين
لدرجة كبيرة .

٧

في بداية شهر كانون الأول وفي شتاء بغداد المعتدل ، الذي يقدم للمواليد الجدد أكبر
فرصة لمواصلة البقاء ، ولدت لأسرة عز الدين طفلة "رغم كل شيء إنها ريم" قالت فلاستا
بفرح عندما نقلت اليها السيدة دونلوب هذا الخبر المفرح . غير أنها لاحظت أمرا غير
طبيعي ، فقد احست بشيء من التردد والحيرة في هذا الخبر .

"هل حدث مكروه ما ؟ هل وقع مكروه للوالدة؟"

"لا ، يقال إن السيدة أدبية على مايرام . غير أن الأمر أسوأ بالنسبة للطفلة ، لدرجة أنهم يفكرون في التخلص منها بالقائها في نهر دجلة . فهذا تقليد سائد منذ القدم حين يولد الطفل مشوها

انفلاق الفك العلوي والشفة العليا ، وهو ما يسمونه في الأراضي التشيكية بشفة الأرنب . لعل بمقدور الولد أن يعيش مع مثل هذه العاهة أما البنت ؟ الأفضل لها نهاية سريعة دون أن ترى المصير الذي ينتظرها

هذا أمر غير ممكن . هذا ما لا يمكن أن تسمح به فلاستا . هل سيكون بعد ذلك بمقدور أدبية ان تروي الحكايات على نهر دجلة في المساء ، حين تدرك أن جسد طفلها يرقد في قاعه ؟

"من الممكن إجراء عملية تجميل جراحية ، دعيهم يحضرون الى هنا..."

"في المستشفى الملكي يسود الاعتقاد بأن الصغيرة لن تتحمل العملية الجراحية " قاطعتها السيدة دونلوب " لعل ذلك سيكون ممكنا بعد عام أو عامين"

من الصعب معارضة زوجة رئيس الاطباء . ولكن ما كادت السيدة دونلوب تغادر حتى أرسلت مهدي ليطلب من أسرة عز الدين الحضور . ليحضروا . . ليحضروا في أقرب وقت ممكن . . الأفضل في الحال .

ولكن ماذا لو أنتي لم أفلح ؟ ماذا سيكون في حالة أن أعطيهم الأمل وأخيّب ظنهم في نهاية الأمر ؟ فليس بحوزتي حتى جميع الأدوات الطبية اللازمة لاجراء عملية التجميل . غير أنها أدركت أن من الضروري أن تحاول ذلك . ولن تغفر لنفسها في حالة عدم محاولة ذلك .

نجحت عملية التجميل ، كان الانفلاق عميقا ولكنه لحسن الحظ كان في وسط الشفة تماما وهكذا اختفى الجرح في منخفض الشفة .

وعندما بلغت ريم الثالثة من العمر حملت بنفسها للعمة الدكتورورة صورتها الفوتوغرافية : إنها طفلة واسعة العينين ، رزينة قليلا ومرعوبة في اللحظة الاحتفالية لأول صورة فوتوغرافية لها . إنها طفلة جميلة . أما نهر دجلة فإنه لم يتلق ضريته هذه المرة .

برج بابل

في الصباح تكون درجة الحرارة حوالى الصفر وعند الظهيرة يرتفع مؤشر المحرار الى الدرجة ١٥ مئوية . وفي كل يوم يهطل المطر لكن الشمس تظهر مدة ساعة في الأقل يوميا هذا الشتاء المعتدل يلائم الممرضة روث تماما ، غير أنها لم تعاني بنفسها بعد أي صيف قاس يدفع ثمنا لذلك .

إنها تكتب الى أهلها في راكوفنيك رسائل تطفح بالارتياح وبالحنين الخفي . ولعل ارتياحها لاينبع من إنطباعاتها الأولى في بغداد وإنما في الأغلب من رحلتها الرائعة الى هنا ومن إحساسها بأنها أخيرا تعيش في مكان بعيد في هذا العالم .

الرحلة الى هنا كانت هبة مباشرة من السماء : في البداية كان من المفروض أن تسلك الطريق نفسه الذي سلكته فلاستا . غير أن صداما مسلحا وقع في مكان ما في تركيا ولعله كان بسبب الخلاف حول النفط أو حول تحديد أي الاديان هو الدين الصحيح والأفضل ، ولم يكن أمام روث إلا أن تُطَوَّف على ظهر باخرة إيطالية حول مجمل آسيا الصغرى . كانت تلك نزهة غير منتظرة ، وكانت رائعة أيضا بفضل خطأ واحد ، فقد سألها أحد ضباط طاقم السفينة الإيطالية عن هدف رحلتها . وحاولت أن توضح له أنها متجهة نحو دكتورة تعمل في العراق لمساعدتها هناك . غير أن كلمة دكتور في الانكليزية تطلق بصيغة موحدة على الرجل والمرأة . وهكذا استخلص خيال الإيطالي الرومانطقي أن روث مسافرة الى العراق للزواج من دكتور يعمل هناك . وهكذا أثارت قصة الحب هذه الحماسة لدى الجميع في السفينة ومن بينهم

الكابتن وأحاط الجميع هذه الشقراء الجميلة بعنايتهم ومجاملتهم الفائقة .

أوصلتهم السفينة الى ميناء الاسكندرونة قرب حلب ، ومن هناك سافرت روث بسيارة فورد سوداء محشوة بالمسافرين شأن فلاستا

آه لو كان بمقدور الانسان أن يسافر دائما في أرجاء العالم ، ويتجول في المدن الغريبة ويرى المناطق التي لايعرفها ويلتقي بأناس لايعرفهم . قبل الحرب عاشت روث أربع سنوات في سويسرا ، في أحد البنسيونات ، وكانت تشعر بحزن كبير الى الوطن . ولكن بعد مضي عام على وجودها في بلدها شعرت بالرغبة في السفر الى مكان ما . وحصلت عبر المراسلة على منحة دراسية في المدرسة الصحية في فيلاديلفيا . ولكن قبل أن تستطيع خياطة طاقم من الثياب وأن تطرز عليها الحروف الاولى من اسمها حل عيد القديسة أنا وانفجرت الحرب حزمت أمتعتها ووضعت في الحقيبة ثوبها الأخير قبل أن تخطط أكمامه كما تقول حكاية الغريان السبع وغادرت . غير أنها لم تصل الا الى درسدن حتى أعادوها من هناك . هذه الفتاة الصغيرة والجميلة تريد الذهاب الى هامبورغ " والسفر على الباخرة الى أمريكا ؟ الأنسة جميلة ، غير أن الأمر ليس على مايرام في رأس هذه المسكينة . إنها الحرب أيتها العزيزة ، هناك يطلقون النار... بوم...بوم . عودي الى أمك في الحال .

واليوم هاهي روث في بغداد وبدأت تعتاد على الناس وعلى المريضات الخجولات وعلى صخب أفواج الأقارب المرافقين في غرفة الانتظار وعلى تحريمات الشيعة . اعتادت على اللهجة العامية وعلى أساليب فلاستا الموضوعية والمقتضبة والعملية .

وعندما تتوفر لها لحظة فراغ أو عندما تكلف بتنفيذ مهمة عمل تتجول في المدينة مع مهدي أحيانا وفي أغلب الاحيان تفضل أن تكون مع فوزي . وفوزي ابن لأسرة من معارف فلاستا . وقد توصل الى القناعة بعد وصول روث بفترة قصيرة أن عليه ان يتعلم اللغة التشيكية ، فإنه يريد أن يعمل مثل أبيه في التجارة وليس من السيئ في شيء ان يوجه نشاطه التجاري نحو دول أوربا الوسطى . وقد وافق أبواه على مبادرته بتفهم وتقدير . ووافقت فلاستا بحماسة على ذلك متأكدة ان هذا القرار جاء نتيجة نشاطها الدعائي . وهكذا أصبح بمقدوره أن يقضي فترة ساعتين ولمرتتين في كل اسبوع مع روث ، يستمع الى صوتها وينظر الى جدائلها الذهبية مثل سنابل القمح الناضجة .

كان فوزي يحضر مرتين في الاسبوع لتعلم اللغة التشيكية و يحضر أربع مرات بدون

كانا يتجولان في المدينة بلا هدف ، ويذهبان للتبضع . التجار العرب انتقلوا في فصل الشتاء من الأرصفة الى المتاجر الصغيرة ذات السقوف العالية ، حتى أن المرء يشعر فيها وكأنه في قعر بئر . بعض تلك الأبار تفوح فيها روائح التوابل الرائحة وفي بعضها كانوا يبيعون الحلويات المحشوة بالجوز واللوز والفواكه المسكرة والتي صبت عليها شيرة ملونة صلبة مثل الخزف . كل ذلك اثار الاعجاب الشديد لدى روث ولكنها وبعد بضعة أسابيع لاحظت أنها تتردد في كثير من الأحيان على المتاجر الكبيرة المضاءة في الشارع الرئيس للمدينة والتي مازالت تفوح منها رائحة الجدة والتي كانت تبدو من الخارج والداخل متاجر أوروبية تماما . كان زبائن هذه المتاجر من الأوربيين ومن الأثرياء العرب . ولم يدخل فوزي معها الى تلك المتاجر ، كان ينتظرها في الخارج موجها نظرات لانمة رافضة ذكرتها بنظرات أخيها الأصغر .

"لماذا لاتدخل معي الى المتجر " سألته مرة . كان المطر يهطل بغزارة وخيل لها أن الانتظار في المطر مدة عشر الى عشرين دقيقة لتكتمل مشترياتها أمر عقيم . " لديهم هناك الكثير من الاشياء الممتعة"

"أريد أن أصدق ذلك " انفجر فوزي " فإن الانكليز يحملون الى هنا الكثير من الاشياء الممتعة ، حتى أنهم يحملون الى هنا الأشياء التي كنا نتجها . إنهم يقضون على صناعتنا الحرفية وعلى متاجرنا ، وماذا يقدمون مقابل ذلك " الويسكي الرخيص . لاحظي فقط كم من الاعلانات للويسكي ، إنها عند كل منعطف . اشربوا الويسكي الاسكتلندي يبدو لكم العالم رائعا . إنك تنسين بانك تدفعين لحكومتين وكتيها غالية"

منذ ذلك الحين كانت تطلب مرافقة مهدي حين تريد الذهاب الى المتاجر الأوروبية . لعل مهدي يفكر بطريقته ولكنه كان متقدما في السن وحكيما ويستطيع مهادة الكثير من الأمور - كان يتأمل رفوف المتاجر المليئة بالبضائع ، يتأمل كل ذلك دون أن يقول شيئا

بدأت أيام أعياد الميلاد . إنها أعياد الميلاد الثانية منذ أن غادرت فلاستا وطنها . من

الصعب أن تقاوم المزاج العاطفي لاسيما في ساعات المساء . روث تعزف كل مساء على البيانو الاغاني الدينية لعيد الميلاد والالحان الرومانطيقية الطويلة التي تعلمت عزفها خلال اقامتها في البنسيون

تلقتا الكثير من الدعوات لحفل عشاء الميلاد . وكانت الأولى من أسرة لوتي : تعالا كلاكما . فسوف تدخلان الفرح الى قلوبنا

الفرح كانتا هناك قبل شهر ، حين احتفل الزوجان لوتي بالذكرى العشرين لزوجهما . اعتذر الابن ، بالقول أن عليه ان يدرس استعدادا لاختبار البكلوريا . إلتقى هناك عشرة أشخاص تقريبا وقدمت الطباخة فراخا مشوية مع البيتزا والطماطم والزيتون وكانت هناك صحنون الفاكهة : العنب والخوخ والدوندرمة والشمبانيا ، كل شيء كما هو في إيطاليا تقريبا . تقريبا كما هو في إيطاليا كانت كلييوبا ترتدي ثوبا حريريا بلون المشمش (كان هذا اللون مناسباً لها في زمن ما بلاشك) وكانت تحاول تجنب السعال . وعندما تناولوا قليلا من الشراب تناول جيورجي القيثارة وبدأ يعزف . عزف أغاني إيطالية والحانا تركية ويونانية وعراقية . إنها الخليط المألوف لمن هم بلا وطن . فجأة فقد قدرته الكريهة على معرفة كل شيء . كان مجرد إنسان حزين عاش الكثير وفقد الكثير وهو يعلم الآن بأنه لا ينتظر غير مزيد من المصائب . كلييوبا اعتذرت وتمددت على الأريكة وكانت تتابع زوجها بعيون مشعة مخلصة بلا حدود .

إنتهى من العزف ووضع القيثارة في حضنه ونظر نحو فلاستا . التقت نظراتهما لحظة خاطفة فقط

يا إلهي ، هذا ما لا أستطيعه ، هذا ما لا أستطيعه ، فإنني لا أستطيع أن أحبه وهي مازالت على قيد الحياة ، إنها هنا وتنتظر إليه بهذه الصورة . شعرت فلاستا بالهلع . نهطت من مكانها على عجل واعتذرت بسبب عملية جراحية ما ينبغي أن تقوم بإجرائها في الصباح الباكر . حاولت روث الإعتراض بالقول إن موعد العملية هو بعد الغد ، غير أن فلاستا أصرت على موقفها لدرجة أنها جعلتها تشك في نفسها

وفي البيت إعترفت بعد ذلك بخطئها . أجل ياروث ، كنت على حق ، ففي التقويم أرى أن موعد العملية هو بعد الغد ، لاشك بأنني توهمت . في كل الأحوال كان هناك الكثير من الضجر ، ألا تعتقدين ؟

إنها لا تريد تكرار ذلك لاسيما في عشية عيد الميلاد واحتفال العشاء الكريم ، حيث يسود المزاج العاطفي كل الناس وحيث من الصعب أن يتعلل بالدروس ذلك الصبي ذو العيون النافذة التي تعرف كل شيء ،

من الممكن أن تذهبا الى النادي الانكليزي فقد وجهت لهم الدعوة . عندما أقلت فلستا تلك الدعوة الجميلة المذهبة بسلة المهملات لاحظت ان روث تتابعها بنظرات الأسف . لاشك في أنها كانت تريد أن تذهب ، ولعلها كانت ستخيط ثوبا جديدا لتلك المناسبة ، لاشك في أن الثوب الازرق الفاتح مناسب لها . سيكون هناك الكثير من الضيوف وتكون الثريات الكريستالية ، وعند منتصف الليل سوف تستطيع هذه الشقراء الجميلة أن تقبل من تشاء تحت الأغصان المطلية بلون الذهب . غير أن تلك الدعوة كانت ممزقة في سلة المهملات .

أمرت فلستا الطباخة إستعدادا للعشاء الكريم عشية عيد الميلاد بأن تقوم بشي سمكة في الفرن وأن تشتري شيئا من البرتقال والجوز . بعد العشاء رددنا بعض أغاني عيد الميلاد وعزفت روث على البيانو . ثم تبادلنا الهدايا وتمنت أحدهما للآخرى ليلة سعيدة...

إرتقت فلستا درجات السلم الى الطابق العلوي نحو غرفتها . كانت تتوق لذلك ، فإنها سوف تجلس القرفصاء في الكرسي الوثير ، وتقرض الجوز وتقرأ كتاب القبرة للكاتب يندريخ شيمون بار ، الذي أرسلته لها ماريا كهدية عيد الميلاد . وسوف تتذكر كلينتشي وبيرنارتيته .

نعم انها سوف تتذكر بيرنارتيته وليس بيسك ، فهي متعصبه ضد بيسك .

"ماذا ستعملين ياروث؟" سألت وهي على نصف السلم

"لا أدري - ربما سوف اكتب بعض الرسائل .

إذن أتمنى لك ليلة سعيدة وجميلة .

أجل ليلة سعيدة . على الانسان أن يتعلم العيش وحيدا ، إذا كان يريد تحمل البقاء

هنا

إذا كان الانسان يريد تحمل البقاء هنا ، عليه أن يتعلم العيش وحيدا . هذا ماكانت

تردده فلستا

وكانت لتلك العبارة ظلال مختلفة من التقرير الحزين حتى اللوم الشديد .

يا إلهي... لماذا على الانسان أن يعيش وحيدا مادام هذا العدد الكبير من الناس في

كل مكان حوله ؟ ثارت روث بصمت ، بصمت فقط دون أن تنبس بكلمة مسموعة
في الدار عند أهلها لم تكن وحيدة بتاتا ، في الدار كان عددهم كبيرا ، تسعة أطفال
وكان دائما بعض التلامذة الذين يزورون أباهم لتلقي الدروس الاضافية . لم يكن في
راكوفنيك بيتا ملينا بالشباب مثل بيت أسرة توبولار

في أيام الأعياد كان الطلبة يزورونهم لتهنئة "السيد البروفيسور وأسرته الموقرة وكانت
بنات توبولار الكييرات - وروث هي الوليد البكر لأسرة توبولار - يرتدين الصدريات البيض
المنشأة فوق الثياب ويقمن بتوزيع الحلويات ، وكانت حمرة الخجل تعلق وجوه الطلبة الذين
ينحنون لهن إحتراما وتقديرا

كان الصمت الذي لا يطاق يسود المنزل ، داعبت البيانو للحظة أخرى ، لكنها لم تعد
تحتمل ولو استمرت لانفجرت باكية . لا لن تكتب أية رسائل الآن ، فهي لو كتبتها لما
أرسلتها . لأنها لو كتبت اليوم رسائل وأرسلتها لتلقت من أهلها بعد ايام برقية تدعوها
للعودة في الحال .

الغرفة التي في قرنة البيت هي الغرفة الوحيدة في الدار التي تُطل شرفتها على الشارع ،
لعلها ستري من هناك في الأقل بعض النوافذ المضاءة في الدور الأخرى ولعل بعض الناس
سيمرون في الشارع

عرض الشارع تحت الشرفة لا يكاد يكفي لأن يمد الانسان ذراعيه الى الجانبين ، ويسود
الشارع ضوء خافت وهو خال تماما . يتساقط الرذاذ الدقيق البارد . لعل من الممكن أن يمطر
الانسان رذاذا كهذا في داخله ، مثلا في روحه أو قلبه أو أين ؟ . روث تشعر بشيء كالرذاذ
يتساقط في مكان ما وراء عينيها

هذه اللحظات لاتعني بالنسبة لأغلبية الناس في بغداد شيئا - أمسية شتائية كالأمسيات
الآخري . فالمسلمون لا يحتفلون بعيد الميلاد

أغلقت النافذة ذات القضبان المشبكة (مشبك القضبان للزينة ، غير أن القضبان تبقى
قضباننا رغم أن عليها زخارف للزينة) وهنا سمعت صوتا من بعيد

"ياربي أنت كريم يا الله ، أيها الرحمن الرحيم ، ليبارك الله بيتكم ويحفظ أطفالكم
ويبعد المصائب والاعداء عنكم " انه متسول أعمى ، يمر هكذا كل مساء ويردد مغنيا توسلاته
وشكره لوجبة العشاء . ففي كل مساء يقدم يدعوه أحدهم لتناول العشاء لأن تعاليم القرآن
تأمر بحسن الضيافة .

الصوت يقترب ، إذا ما وصل الى بيتنا سوف أدعوه . قررت روث سأقوده الى المطبخ وأسخن له السمك

فهذه أيام أعياد الميلاد زمن الرحمة وقد تلقت روث من أهلها تربية تأمرها بعمل الخير ، غير أنها لا تريد أن تكذب ، فإن حاجتها الى هذا المسكين الأعمى الآن أكبر من حاجته الى العشاء الذي تقدمه له ، وليكن مايكون .

صمت الغناء المتوسل ولم تعد تسمع نقرات العصا على الأرض . لقد استضافوا الأعمى في دار أخرى .

ازداد العمل حتى أن المستشفى كان مزدحماً في الشتاء أيضا رغم الوهم السائد بأن العلاج لا يكون فعالا في الشتاء وان الجراح لاتلتئم . ويمكث في المستوصف مع المرضى بعض من افراد أسرهم أو أقاربهم . إنهم يصلون في الصباح ويخرجون في المساء . هكذا هو المعتاد هنا . حتى المستشفيات العامة تكتظ بالأقارب دائما . وهم في بعض الاحيان يمثلون مساعدة معينة : يقدمون الماء ويفسلون المريض ويحملون له الطعام ويطعمونه . ولكنهم في كثير من الأحيان يضيفون مزيدا من العمل كان على روث أن تراقبهم لأجل أن لايتعرض المريض للأضرار نتيجة تمسكهم بالخرافات السائدة ، ولأجل أن لايحملوا العدوى الى المستشفى

الأمر الواضح هو أنهما لاتستطيعان تحمل عبء العمل بكامله وحدهما . فها هي روث بعد بضعة أسابيع تكاد لاتستطيع نقل أقدامها ، وفلاستا رغم كل ما لديها من شجاعة وقدرة على التحمل تغفو وهي تتناول الطعام . لهذا عينوا مساعدة لهم . إنها الماس الأرمنية الشابة التي وجدوا فيها فتاة شاطرة وسريعة الادراك والحركة . علمتها روث إعداد الأسرة للمرضى وتغيير البياضات من تحت المريض . وهم الآن يتناوبون الخدمة الليلية عند أسرة المرضى في الحالات الخطيرة .

إن لأغلب النساء هنا أسماء شاعرية . ليلى - من الليل وريم أي الغزال وأديبة تعنى الجمالة ، وتوجد هنا أسماء مثل لؤلؤة وزهرة ونور وتفاحة .

"اختار لك أبواك اسما جميلا يا الماس" قالت روث ممتدحة .

"وأنت كذلك ياروثة خاتون " أجابت الفتاة مبتسمة .

لم تقل روث شيئا فهي لاتدري كيف توضح لها بأنها اختارت هذا الاسم بنفسها إذ اختاروا لها عند الولادة اسم أميليا تيمناً بعمتها في الولادة وكانوا ينادونها للتحبيب بأميلكا وإيما وإيمتشا وميلوشكا وميلي . لم تكن تحب هذا الاسم ناهيك عن صيغه المصغرة التي كانت لاتطبقها وعندما ظهر في بداية أول سنة دراسية في مدرسة الممرضات أن في حصة الدرس معها خمس فتيات يحملن اسم أميلكا ، أمسكت بالفرصة المتاحة حسنا خاطبوني بإسم آخر؟ كيف؟ بحثت عن اسم يروق لها وبالأخص عن اسم لايمكن تصغيره ، واختارت روث . بالطبع بقيت بالنسبة لأمها أميلكا غير أن الاسم روث سرعان ما أصبح اسمها في المدرسة وبين صديقاتها كانوا ينادونها باسم روث واحيانا بصيغة روتينكو وروتيتشكو

٤

الأمر الذي لم تنجح في تحقيقه هو كسب طبيب تشيكي آخر للعمل في بغداد . لهذا قررت فلاستا توجيه الدعوة في الأقل لزميلتها في المدرسة الثانوية الصيدلانية إيفا كوسكوبا . فإن الصيدلانية نصف طبيبة ويمكن أن تساعد في الكثير من الأمور في الحال ويمكن أن تتعلم الكثير في وقت مبكر لاحق

حينذاك لم تتوثق في مدرسة سميخوف الثانوية علاقات الصداقة بينهما . إذ لم يتوفر لدى فلاستا الوقت اللازم لنشوء الصداقات ولو توفر لها الوقت لما اختارت إيفا بالذات . فقد كانت في الثامنة عشرة من العمر حينذاك خفيفة الطبع ومندفعة في نظر فلاستا . ولكن لقد مرت منذ ذلك الحين عشر سنوات تقريبا . ولعلها قد أصبحت جادة ، الأمر الجوهري يكمن في أنها أبدت إهتماما بالشرق . منذ تلك الفترة كانت تقرأ كل كتاب يقع بين يديها وسواء كان جيدا أم ردينا وفي نهاية الأمر اشترت من فلاستا كتاب تعلم اللغة العربية للمبتدئين وكانت مصممة على تعلم اللغة العربية .

ورغم شكوك فلاستا في أن تواصل إيفا دراسة العربية لأكثر من الدرس الخامس ، فإنها باعت لها الكتاب ، إذ كان من عاداتها بيع الكتب المدرسية القديمة .

قبل فترة قصيرة كتبت ميلادا رسالة من براغ تقول فيها إنها إلتقت إيفا التي أصبحت امرأة لطيفة ومرحة وسيدة شابة محترمة . لقد درست الصيدلة وتعلمت الفرنسية والالمانية

وتستطيع التفاهم بالعربية ولم تتخل بعد عن اهتمامها بالشرق الأوسط . وعندما سمعت أن فلاستا تعيش في بغداد كادت تفقد سيطرتها على نفسها وقالت : حين تكتبين لها أرجو أن تسألها فيما إذا لم تكن هناك فرصة عمل لي ، فإنني سوف أذهب في الحال ، فليس هنا ما يعيقني عن السفر حالا

تلك الكلمة (في الحال) عكرت مزاج فلاستا قليلا . يا إلهي لعل إيفا مازالت متسرعة كما عرفتھا من قبل ؟ ربما قالت ذلك في لحظة الحماسة أو أن ميلادا قد اضافت تلك الكلمة من عندها

بدأت الصيدلانية إيفا رحلتها مباشرة تقريبا بعد أن تسلمت رسالة من فلاستا كان في حوزتها جواز سفر ولم تكلف نفسها كثيرا في الاستعداد للسفر . فقد طلبت انهاء عملها في الصيدلية حالا وقد أعارت مسكنها الصغير لابنة عمتها وسحبت من صندوق التوفير كل ما ادخرته من قبل وسافرت . وقد جاءت هذه العجالة ملائمة للمستوصف . فعندما وصلت كان في المستوصف اربعة مرضى بعد اجراء العمليات الجراحية لهم وكانت روث وألماس تسهران عند أسيرة المرضى كل ليلة وهكذا وصلت إيفا كمساعد مطلوب قوبل بالاحتفاء

٥

كانت نهاية كانون الثاني وقد بدأ الربيع . غير أن فلاستا لم تعتد بشكل جيد بعد على هذا التغير في التقويم كما أنها لم تعتد على كون يوم الجمعة يوم عطلة نهاية الاسبوع

"ألا تتعرضين لتيار الهواء ؟ حقا لا ؟ ألا ينبغي عليّ غلق النافذة الصغيرة ؟"

"لا ، شكرا ، إنني أشعر بالارتياح التام يا جيورجي"

"هذا ما أريده ، سأكون سعيدا جدا اذا كنت حقا تشعرين بالراحة التامة"

كانت السيارة تستقبل عبر نوافذها الهواء الرطب المعطر ، إنهم في الطريق الى بابل .

أنت لم تقومي بزيارة بابل بعد ؟ حقا لا . لا ، هذا ما ينبغي أن نصحه في أقرب وقت ممكن . سوف نتفق مع أسرة دونلوب ومع الفتيات العاملات عندك أيضا فهن سيذهبن بالتأكيد . أليس كذلك ؟

وأنت تستطيعين الاتفاق مع الدكتور شاكر ليقوم بالخدمة بدلا منك في ذلك اليوم

في النهاية ذهبا وحدهما : فقد اعتذرت أسرة دونلوب وبقيت إيفا في الخدمة لأن الدكتور شاكر ، الذي كان يساعدهما في كثير من الاحيان قد سافر الى البصرة . وكانت روث تود السفر معهما . غير أن ايفا قالت لها وقد رفعت حاجبيها تعجبا : لعلك لاتريدين ان تكوني لهما ذيلًا . وهكذا قالت روث لفلاستا إنها تفضل البقاء في البيت . فإن الصبي في الردهة رقم ٢ ذلك الذي أُجريت له عملية الزائدة الدودية كان في الليل غير هادئ الى حد ما

"يسود عندكم الآن جو المرح ، أليس كذلك ؟ فمنذ أن جاء تكم التشيكية الاخيرة بدأنا نسمع الضحك يتعالى عندكم"

أجل ، الضحك والابتسامات هي السائدة . ربما هو الضحك أو السخرية أو الاستخفاف ياعزيزي جيورجي . الآن أيضا إنني أسمعه يتأهى الى هنا . إنها إيفا المرحه كل شيء يثير الضحك عندها ، كل شيء يثير الهزل لديها باستثناء الأمور التي تشكو منها ، فهي تشكو بصورة رئيسة من كثرة العمل ومن فقر التغذية ومن قلة فرص التسليه واللهو . وعندما تضحك إيفا تضحك معها روث ، إنها تضحك مثل الطفلة الصغيرة . تضحك ساخرة من الأشياء التي كانت الى ما قبل شهر فقط تقدرها أو تحترمها في الأقل . وما لا يثير فيها السخرية والضحك يثير فيها الخوف والكراهية . فهي تخاف جنير البعير في الليل عندما تمر القافلة مصادفة أو تتوقف قرب الدار وتكره لحم الضأن ورائحة عرق البدو ، ولعلها تكره رحلاتي هذه معك .

"ما الذي اعتراك يا فلاستا إنك لاتنظرين الى الطبيعة أبدا تأملي فقد ازهرت الصحراء"

"حقا إنها لكذلك ، أصبحت الصحراء بيضاء وكأن الثلج قد تساقط عليها في كل مكان يقع عليه النظر تفتحت زهور صغيرة بيضاء ، تشبه زهرة كاسر الحجر

"كنت أعتقد أن الفتيات سوف يشاركن معنا في الرحلة"

فهمت مايريد أن يقول - كان يعني : قلت في البيت إنكم ستذهبون ثلاثكم في هذه الرحلة .

جلست إيفا في غرفة الطعام ومدت رجليها على الكرسي المجاور لها . وأخذت بعناية تطلي الخبز بسمنة الجاموس المائلة الى الصفرة .

"لو رأتك فلاستا تأكلين قطعة الخبز بهذا السمك الكبير" قالت روث مبتسمة بشيء من اللوم وشيء من التأمّر

"ما لاتراه العين لايؤلم القلب" قالت إيفا منفعلة ومدت يدها لتتناول كأس الكاكاو

صبت روث الكاكاو الى نصف الكأس فقط وشعرت بمراتته في فمها . إنه لخطيئة كل هذا البذخ . عند أهلها كانوا يهيئون الكاكاو في المناسبات فقط ، عندما يحتفل أحدهم بعيد الاسم أو بعيد ميلاده ، وهذا ما كان بالطبع يتكرر في كثير من الأحيان ثماني عشرة مرة في العام

"تأملي ، إذا كان عليّ أن أنجز كل العمل الذي تريد مني القيام به فلا بد لي ان آكل بشكل جيد ، أليس هكذا ؟ هذا ما يفرضه العقل ، إنني لا أفهمك ، كيف بلغت بك الحماسة لدرجة الاكتفاء بقطور يتكون من التين والخبز فقط"

"فلاستا اكتفت بذلك أيضا " حاولت روث الاعتراض . كان الكاكاو جيدا جدا ،
الاتصين المزيد

"إنني أعلم جيدا ، في الصباح تتناول الخبز والتين وبعد الظهر يدعوها ذلك الإيطالي الى المطعم أو إنها تقبل الدعوات لتناول الطعام في بيوت المرضى . وهي لاتكاد تزور بضعة مرضى حتى تشبع مما لذ وطاب ، وفي البيت تكلل ذلك بالتين"

"إيفا ، أنت لاتعرفين فلاستا ، إنها في الحقيقة متواضعة لدرجة مذهشة . ولابد لنا ان نقتر في مصاريفنا ، إذ أن عليها أن تعيد ذلك القرض"

"ومن الذي قدم لها القرض"

أطلقت إيفا صغيرا تعبيراً عن الدهشة والاعتراف "كم؟"

«ثمانون الفا ، ولكن الرجاء أن لاتعلم بأنني كشفت لك ذلك . ثمانون الفا وهي تريد تسديدها هذا العام"

"هذا العام؟" فتحت إيفا عينيها "إذن فهي مجنونة ، عليها إذن أن تركز الصراصر وأن تعمل في العيادة ثلاثين ساعة في اليوم . على أية حال انني لن أقف عقبة أمامها ولكنني لن أعلك الصراصر من أجل طموحها " . وكأنها ارادت ان تضع علامة تعجب وراء هذا التصريح ، إذ وضعت على بقية الخبز المطلي بالزبدة ملعقة من مربى البرتقال "بالمناسبة إذا كانت تريد تسديد ثمانين ألفا خلال سنة واحدة فهذا يعني أنها سوف تضع في جيبها كل عام لاحق ثمانين ألفا . إحسبي عدد السنين المطلوبة لتصبح مليونيرة"

لم تجب روث على ذلك . وبحركات بطيئة وطويلة نظفت الطاولة وكانت تخطو بخطوات غير مسموعة تقريبا كما هي دائما ومنذ صغرها عندما كانت تشعر بالذنب

حقا عند أهلها كان عددهم مع الخادمة اثني عشر حول طاولة الطعام . وكان بمقدورهم التقدير أكثر ما يمكن في مجال الطعام . ففي أي مجال آخر يستطيع التقدير معلم المدرسة المتوسطة في مدينة صغيرة ، إذا لم يقتر في مجال الطعام؟ كانت أمها تقول ليس من أحد يرى ما في المعدة . ألتار من الحساء الشخين والمعكرونة مع الخشخاش والبطاطا مع الشحم المسول والقطائر الحلوة وفي أيام الأحد كانوا يأكلون اللحم المفروم مع الملفوف أو اللحم المفروم مع القشطة . وكان ذلك الطعام لذيذا ولم يعانون الجوع . لم تعرف روث الجوع إلا خلال الحرب في مدرسة المرضات . وبعد ذلك هنا .

٧

كانت قبة السماء زرقاء فيروزية ، شفافة مثل جرس زجاجي هائل .إنها صامتة احتفائية وحانية سماء بعد ظهر يوم الأحد . فهي أيضا تدرك أن عطلة الأحد هنا تحل يوم الجمعة .

عند أهلي في برنارتيته وفي مثل هذه الظهيرة الربيعية لعطلة الاسبوع كانت أمي تطل من نافذة المطبخ على الحديقة لتحرك الملعقة في الكوب وبخفة متناهية محدثة رنيننا خافتا " لأجل ان لايبعد الرنين فظاً " ولكنهم كانوا يسمعون حتى ولو أنهم في الطرف الاخير للحديقة ، في ركن الغاية . عندها يهرعون لتناول الغذاء ولم تعد الأم تدق الملعقة بالكوب بل انها تواصل اطالقتها من النافذة مسبلة عينيها في مواجهة الشمس .

"أخيرا تأملني كيف يليق بك الابتسام" قال دي لوتي فاهتزت وكأنه انتزعها من حلم .

تركوا السيارة عند مقصورة الحارس . وقد نهض الحارس تاركا غداءه بلا تردد ليرافقهما لمشاهدة الحفريات

لم يكن المنقبون هنا هذا اليوم ، فقد ذهبوا في الصباح الى بغداد ولعلكم قد التقيتم بهم على الطريق . لم يلتقوا بهم وكان ذلك قد أثار أسفا شديدا لدى فلاستا ، فقد كان بينهم الكثير من معارفها بل إنها قامت بمعالجة أحدهم . ومن المؤكد أنهم سيقدمون لهما شرحا وافيا اوسع مما سيقدمه هذا الحارس الذي يبدي استعدادا لذلك ولكنه يفتقر الى الكفاءة والتعليم .

ولكن لم تكن هناك حاجة الى الشروح المتخصصة ، فإن جيورجي دي لوتي الملم بكل شيء ، كان ملما أيضا في الخليط الحجري لحفريات بابل . حصون المدينة وبوابة عشتار وقصر نبوخذ نصر . على هذه الطريق نحو بوابة عشتار كانت المواكب تسير قبل ٢٧٠٠ سنة لتقدس الإله مردوخ ، ولم تكن تلك طريقا وإنما في الغالب شارعا عريضا بين الأسوار تزيينه من الجانبين الرسوم البارزة على الأجر الملون المطلي بألوان زاهية .

"أترين هذا الشبح المروع على البوابة ؟ إنه تنين بابل ، كان هذا حيوانا مقدسا وكما يقول كولدوي فإن الإله مردوخ قد باركه ولعله كان أحد الأجسام التي حل بها الإله مردوخ"

هذا شيء جيد أن تكون الطبيعة قد طورت الحيوان بصورة تدريجية وبطيئة عبر تطور اختياري ولم يكن الانسان هو الذي كونه ، فكرت فلاستا . فإن لسيروش الحيوان الذي صوره الانسان جسداً تغطيه حراشف السمك قوادهم الخلفية قوادم نعامة في حين أن قوادهم الامامية قوادم غمر وعلى رقبة طويلة مثل رقبة الحية رأس صغير له قرون تحيط به هالة من الشعر وقد مد لسانه . كان يبدو غريبا ومثيرا للأسف في تلك الظهيرة الربيعية لعام ١٩٢٦ كيف ستبدو الاشياء التي تثير فينا الاحترام بعد سبعة وعشرين قرنا ؟

وصلا الى مرتفع صغير شديد الإنحدار ، تقود اليه سلالم ذات درجات عالية من بضع جهات . توقف دي لوتي وأتخذ هيبة احتفالية . نظرت الى اسفل وقد اصابتها الدهشة لتشايبك هذه المتاهة من الأجر . يقال إن هذه كانت أكبر مدينة في العالم . حاولت أن تتصور الحياة هنا ، الحركة في هذه الشوارع وفي دور السكن وإيواناتها . وأدركت ادراكا تاما شغف عالم الآثار كولدوي ، الذي عمل هنا ثمانية عشر عاما وأخرج بابل من تلال التراب

والنسيان وتوفي في العام الماضي في مكان ما في المانيا وهو يشعر بالأسى لأن الموت لم يتح له فرصة العودة إلى بابل

كان جيورجي قد لَمَّحَ خلال الطريق الى أنه عرف كولدوي شخصيا

قبل وقت قصير كانت مثل هذه الإشارة ستثير ابتسامة التهكم والسخرية ، بالطبع دي لوتي يعرف كل شئ كما يعرف الجميع ، أما اليوم فقد شعرت (وربما على هامش الوعي فقط) بشيء من الإرتياح : جيورجي يعرف الكثير من الناس البارزين ويفهم الكثير من الأمور ويستطيع تدبير كل شيء

"حسنا ، هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجا تلامس قمته السماء " قال جيورجي

الآن فقط ادركت أين تقف : عند قمة برج بابل .

عادا في وقت متأخر وتحت جناح الظلام ، سارا عبر الصحراء وكانت السماء ملامى بالنجوم وحول الطريق كانت تضيء العيون الخضراء للحيوانات السائبة . في فناء الدار أوقف فلاستا مهدي ليقول بصوت منخفض شاكيا : لمرتين هذا الاسبوع قامت الخاتون إيفا بارسال الطباخة الى المتجر ، مرتين لشراء الزبدة والمربى والبيض .

لمرتين سراً وفوق ذلك الى المتجر ، لو كانت أرسلتها الى السوق في الأقل ، ولكن الى المتجر حيث كل شيء أعلى بكثير .

وجدتهما في غرفة الطعام . كانت إيفا تقشر البرتقالة الثالثة في الأقل وفق كومة القشور في الإناء وكانت روث تحيك صدرية الدانتيل الفاتحة الزرقة . إنها بالنسبة لذوق فلاستا شفاقة أكثر مما ينبغي كان واضحا أنهما تستمتعان في حديث متواصل ، ولكن ما إن ظهرت حتى التزمتا الصمت المطبق وكان شيئا قد بتر الحديث . كاتتا تتحدثان عني ، تغتاباني .

قالت لإيفا بدون مجاملة ما تعتقده بشأن المشتريات السرية :

"أنظري ، لديك راتبك الشهري ، وحين تشعرين بحاجة الى المزيد اشتره بنقودك . فنحن في هذه الدار نعيش بتواضع وأنا ليس لديّ ما أذره . إن عمل المستوصف يتطلب الآلاف وعندما يضطر الانسان لتوفير الآلاف فإنه مجبر على أن يوفر يوميا حتى بالنسبة للأشياء الأكثر ضرورة قرشا في الأقل .

وضعت إيفا بصورة تظاهرية البرتقالة المقشرة في الصحن

هل لي أن أسأل ماذا كان لنا أن نتناول اليوم كوجبة للعشاء ؟

سحبت روث انشوطة الحياكة بعصبية وأدركت أنها قد أخطأت وعليها أن تعيد حياكة الصف الأخير من إنشوطات الحياكة .

"للعشاء ؟ هناك الخبز والزبدة وهذا البرتقال"

"الزبدة التي هناك اشتريتها دون إذن منك ، ولم يكن هناك هذا البرتقال أيضا فقد حملته لنا أم أحد المرضى . وهكذا بقي لعشاء ، يوم الإجازة الاحتفالي الخبز واللبن يا للروعة"

هدأت فلاستا ، فقد أدركت أن ذلك حقيقة ، رغم أنه في نهاية الأمر ، ما الشيء السيئ في الخبز واللبن ؟ وعندما لا يأكل الإنسان في المساء حتى التخمرة فإنه ينام بشكل أفضل .

"إدركي يا إيفا ، إنني لا أفعل ذلك لنفسني ، فأنا لا أسعى هنا من أجل أن أصبح غنية . والأمريسيان بالنسبة لي حتى ولو عدت بدون قرش واحد ، غير أنني أريد أن أشيد معهدا جيدا وحديثاً تشيكوسلوفاكياً..."

"لاتكذبي ، جئت من أجل كسب المال لتأسيس مصح في تاترا أو كالوئي قاري . قالت لي هذا ميلادا" قالت إيفا بنبرة حادة . هل لي أن أسأل ماذا تناولت اليوم في وجبة العشاء ؟ كان هذا سؤالاً بلاغياً لم تنتظر صاحبه الإجابة عنه ، بل خرجت من غرفة الطعام . وقفت فلاستا بلا حراك : كل هذه الصفاقة وفي دارها . وروث بدلا من أن تنهرها تواصل النظر الى الحياكة ملتزمة الصمت وكأنها مقطوعة الرأس .

"إنه لأمر طيب أنك لم تعودتي وحيدة وأن معك بناتاً من وطنك" قال جيورجي ممتدحا عندما كانا يتناولان العشاء ، في مطعم الأسماك المحبب إليه قرب دجلة . هل عليها أن تقول له إنها كانت بحال أفضل مائة مرة عندما كانت وحدها ؟

"ونزل على الأرض ولبلب السنتم فلم يفهم أحدهم الآخر" *

إنه برج بابل وربما أسوأ : أن لا يفهم الإنسان أبناء شعبه وبلغته .

* إن المؤلف تشير هنا الى الاسطورة القائلة بأن الناس في عهد بابل كانوا يتكلمون لغة واحدة . وعندما انهار برج بابل على رؤوسهم انطلقوا في كل الاتجاهات ، وكل فريق منهم يتكلم لغة لا يعرفها الفريق الآخر - المحرر

فلاستا تتفاهم بشكل رائع مع مصطفى كامل وليس مع إيفا ، تتفاهم مع أسرة عز الدين ولكن ليس مع روث . في براغ عندما كانوا يلتقون في المستوصف كانوا يفصحون في أحاديث حميمة خلال ساعات النوبات الليلية عن تطلعاتهم الى العالم وعن مشاريعهم وأحلامهم (مع المحافظة على المسافة بين الطبية والمرضة) وفي كل مرة كانوا يتفقون على هذا الشرق . أما الآن فليس من المنتظر حتى التفكير بأن تبوح روث بشيء لفلاستا . حقا كانت الرسائل الحميمة والموضوعية تنتقل بينهما من اسطنبول الى براغ وبالعكس : أما اليوم فإن كلا منهما في صومعتها . إنهما تتعاملان بأدب أحيانا ولكنهما في دار واحدة أبعد عن بعضهما مما كانتا عليه بين براغ واسطنبول

على الإنسان أن يعرف كيف يعيش وحيدا ، إذا كان يريد أن يصمد هنا . هذا هو مبدأ فلاستا

ينبغي على الانسان أن يعرف كيف يتسلى في ليالي الوحدة الطويلة ، بالقراءة والخطابة ، وفي بعض الأحيان لا يستطيع حتى هذا ، إنه يسقط اعياء ويستسلم للنوم غير أن معرفة كيفية قضاء وقت الفراغ بالتسلية والقدرة على العيش وحيدا ليس الشيء نفسه .

فلاستا تكتب رسائل طويلة الى الوطن وبصورة رئيسة الى ماريما

”كم بودي أن أحملك لبضعة أيام الى هنا ، الى مدينة الطين والصحراء والتي سوف تحتضنك ولاشك بحبها وتفهمها . وعلى الرغم من أن أغلبية الأوربيين يتوهمون أن من واجبه المعنوي رفع أنوفهم تعاليا على كل ما يرتبط بأرض العرب...فإنك ولاشك لن تسخري حين سماعك السكان المحليين وهم يشكرون الله عند ذكر اسم دجلة ، بمائها الأخضر الرمادي المبارك بلون الطين الذي تحمله ، وإنك لن تنظري باحتقار الى الأزقة الضيقة التي يظل عليها عدد لا يحصى من الشرفات والشناشير لدرجة أنك في بعض الأحيان لاترين بين سقوف المساكن غيرفسحة لاتزيد على ثلاثين ستمترا تتجه نحو السماء ولن تنزلي اللعنات إذا ما شاهدت كيف أن هذه الأزقة تتحول الى مجاري للجداول والنهيرات التي تتدفق بارتفاع نصف متر طينا ناعما غريبا ، ولكنك ستمدحين الله كما يفعل إنسان الصحراء البسيط الذي يعرف أن هذا سيخلف في الغد بساطا أخضر يغطي كل الأرجاء التي تمتد إليها البصر وراء اسوار المدينة . لو اصطحك في مشوار للتمشي لما

اشتكيك لأنك لاترين الجبال... والتلال التي تغطيها أشجار التفاح والكرز والكمثرى ، ولعلك سوف تقنعيني بأن أسمح لك بالتحدث الى الراعي البدوي الذي سيختار لك بعد ذلك أجمل حمل في قطيعه للملاطته ومداعبته . وعندما تكونين في طريق عودتك ربما تلتقين بفتاة بدوية ترتدي العباءة وتعلق في أنفها حلقة كبيرة زرقاء وهي تصرخ عجا ، إذ تمر بك على ظهر حمارها : ماذا تفعلين هنا يا عمتي ؟ هل تركت الطرميل - السيارة - بعيداً ؟ وعندما تقولين لها إنني أتمشى قليلا ، سوف تسمعين من بعيد - لأن حمارها كان قد ابتعد عنك - "يا للعجب إنهم يتمشون..."

ماريا لو أنها هنا . لو كانت هنا لفهمت كل شيء . بغداد وأهل هذه الديار وحتى فلاستا . في الأقل إنني أكتب لها هذه الرسائل الطويلة ، أرادت أن تحسن كتابتها باللغة العربية وفي الحال توسطت لها فلاستا في إيجاد فرصة للمراسلة مع الدكتور أنيس ، الشاب الذي تعرفت عليه في أسرة عز الدين .

كان أنيس يحاضر في دار المعلمين وكان قد أصدر أول مجموعة من القصص القصيرة ، وكان يتدرج في طريق الشهرة بشكل واعد الى ما قبل صدور أول كتاب من تأليفه .*

فقد أثار كتابه حول الامويين ضجة كبيرة في المؤسسات الرسمية المسؤولة عن التعليم وفي الجامعة ، إذ حاول أنيس القيام بما لا يمكن العفو عنه : أراد أن يحطم وربما يطمس إسطورة ما . وقد ذكر الشخصيات - التي تعتبر مقدسة - بأسمائها المجردة ، فلان ابن فلان أي بدون ذكر مقدمات المديح والثناء واللقاب الرنانة .

وشمل بكلمات التشكيك الأشياء المعصومة : هذا يراد له أن يُدرَسَ في المدارس ؟ أن يؤلف الكتب ويفسد أبناء المهذبين ؟ .

* تقصد المؤلف الكاتب السوري أنيس النصولي الذي كان مدرسا في العراق . وقد أصدر يومذاك كتابا بعنوان "الدولة الأموية في الشام" اعتبره الشيعة طعنا في المذاهب الاسلامية مما أدى الى فصله من التدريس . وقام الطلاب في بغداد بمظاهرة ضد خنق الحرية الفكرية توجهت في الثلاثين من كانون الثاني ١٩٢٧ الى "ديوان وزارة المعارف" وفرقتها قوات الأمن باستعمال القوة . في حين إحتج الأهالي في مدن الفرات الأوسط خاصة على السماح للنصولي وزملاء له بالتدريس في مدارس العراق . وأدت تفاعلات القضية الى فصل ثلاثة مدرسين سوريين آخرين هم درويش المقدادي وعبدالله مشنوق وجلال زريق باعتبارهم المحرضين للطلاب على التظاهر في بغداد / كما فصل عدد من الطلاب وربما كانت هذه القضية مظهراً من مظاهر الصراع الشيعي - السني في العراق . راجع : الاستاذ عبد الرزاق حسني في تاريخ الوزارات العراقية - الجزء الثاني ص ٨٨ - ٩٨ الطبعة الرابعة الموسعة - عام ١٩٧٤ دار الكتب - بيروت .

وقد حمل الشيعة النافذون وزير التعليم على طرد أنيس من دار المعلمين . واحتج الطلبة وجاء ثمانئة منهم من الشيعة والسنة في مظاهرة مشتركة للاحتجاج أمام وزارة التعليم ، غير أن الوزير القى كلمة فيهم دعاهم فيها الى التفرق بهدوء . ولأجل التأكد وتجنب مزيد من الاضطرابات منح الطلبة عطلة مدة أسبوعين

جاء أنيس لتوديع فلستا قبل سفره من بغداد بيوم واحد

"ماذا ستعمل يا أنيس؟"

"لدى نسبي متجر كبير في بيروت ولسوف أساعده لأنني أجيد لغات اجنبية"

"ليكن النجاح حليفك في هذا"

"شكرا ولكن إذا سمعت في يوم ما أنني أصبحت تاجرا فلا تصدقي ذلك . أنت ولاشك تعرفين جيداً أن هناك مهنا لا يختارها الانسان وإنما هي تختاره ، ولن يستطيع الهرب منها . إنني سوف أكتب ما دمت أملك قصاصه من الورق وقلما . وإذا لم يتوفر لي الورق والقلم فلسوف أكتب بعود من الخشب على الرمال . أنت تعرفين ذلك . فإنك لو حرمت من عيادة المرضى لقدمت الأمصال الوقائية لجسدك ولكرست جهودك لعلاج نفسك في الأقل"

"هل تعتقد أنني أيضا على هذا الأصرار في ممارسة مهنتي؟"

"بالتأكيد هذا ظاهر عليك "

ضحكا وقد نهض أنيس وشد على يدها مودعا ومضى .

"انتظر قليلا ، لماذا تغادر على عجل : سألت محتجة خلفه .

في عهد هارون الرشيد كما يقال انتشرت حكمة تقول : إن حبر العالم أثنى من دم

الشهيد

لابد أنه كان حكيما ذلك السيد الاسطوري .

٩

تعرفت إيفا على صديق لها . إنه صاحب متجر لتجارة الجملة وهو في الاصل من فيينا إنه يأتي كل أمستين أو ثلاث بسيارته دايلمر الملمعة والتي فيها الكثير من الأجزاء المطلية

بالتصدير ليصطحبها هي وروث الى مختلف الحفلات ولمشاهدة أحدث الافلام . بالطبع ليس في دور السينما العامة وإنما في قاعات خاصة لعرض الأفلام في إحدى السفارات حيث له معارف جيدون وزبائن

روث كانت مسحورة ، فقد توقفت عن حياكة صدرية الدانتيل واشترت ثوبين للسهرة من الموسلين الرقيق المحقق . وبعد ذلك اشترت ثوبا ثالثا للسهرة من قماش التفتة الحريري الصقيل المتلون كان ذلك عندما أقامت الكلية الانكليزية حفلة في الحديقة (جاردن بارتي) ، هذه هي الحياة أخيرا ، تغيير مفيد بعد الحياة اليومية الملأى بعمليات الزائدة الدودية والقرحة و... الفرج ، وبعد نوبات العمل الليلية عند أسيرة المرضى الذين يشكون ويعتقدون أنهم يموتون عند كل حقنة .

قبل أن تصل إيفا ، كانت متعة روث الوحيدة هي المشي في شوارع المدينة أو القيام بسفريات الى الصحراء بعض الأحيان . وقامت مرة واحدة بزيارة شيخ يقيم مع أسرته بعيدا عن بغداد في حصن متين . ووراء الحصن كان يعيش في خيام سود من شعر الماعز افراد أسرته الواسعة ومجمل عشيرته .

كانت رحلة ممتعة . هذا ما لا يمكن إنكاره . فقد كان للشيخ حسن الكثير من الأبناء الجميلين وقد جاء هؤلاء على ظهور الخيل لاستقبالهم . وكانت النسوة حينذاك يقمن بسحن القهوة بإيقاع خاص يُعلن أن القهوة تعد لضيوف نادرين . بعد ذلك جلسوا مع الرجال المضيفين على السجاد الجميل واحتسوا القهوة من الدلال في فناجين جميلة .

ولكن ما قيمة هذا بالمقارنة مع حفل الجاردن بارتي تحت أشعة البدر المكتمل وفي ظلال أشجار البرقوق المزهرة .

في شهر آذار أخرجت فلاستا إيفا من دارها . ولم تشعر إيفا بالأسى ، لأن صديقها عثر لها على بيت وفتح في متجره قسما خاصا للصيدلة والعقاقير

وفي كل أمسيتين أو ثلاث تأتي معه على ظهر سيارة الدايلمر السوداء لأصطحب روث الى الحفلات الساهرة . وقد طلبت روث من فلاستا زيادة مرتبها الشهري .

أيام الصيف الثاني الخانقة

بصعوبة فائقة قررت فلاستا البقاء خلال الصيف في بغداد فقد شعرت بالاسف إن هي تركت المرضى والمستوصف الذي انتظم عمله للتو . وتعني مغادرتها غلق المستوصف مدة شهرين والعودة الى استئناف العمل من جديد بعد ذلك . في الشتاء سيكون الامراقل خطورة ، اذ ان الناس يمرضون على نطاق اضيق ، وفي كل الاحوال انهم لا يرغبون كثيرا في زيارة الطبيب اثناء الشتاء لاعتقادهم بان الجروح لاتلتئم بسرعة وان الانسان يشفى من مرضه بصعوبة اكبر في فصل الشتاء . انهم بلاشك سوف يتحملون غيابها خلال الشتاء بسهولة ولسوف تجد هي الفرصة لقضاء اعياد الميلاد بين اهلها ومشاهدة الثلوج من جديد .

مما يشير دهشة اصدقائها العرب والاوربيين حبها للعواصف الرملية التي كانت تتأملها عبر النافذة مغلقة عينيها في شبه اغماضة متصورة انها ترى الثلوج تتساقط ، انها تهبط بغزارة وقد ربط هذا الحجاب الابيض الافق مع الارض وانت لاتعرف اين ينتهي الافق واين تبدأ الارض وربما ستبدأ بعد لحظات تلك الدوامة اللامعة البطينة والدوارة لنتف الثلج ، رقصة الشتاء في عهود الطفولة . انها عتمة الغروب ولسوف تبدأ نتف الثلج رقصها حول مصابيح الطريق لتلبس كل مصباح قبعة بيضاء مضحكة .

كم تطلعت الى زيارة اهلها ايام اعياد الميلاد . وكالعادة سوف يأتي الى محطة القطار في فيسيلييتشكا ، سيفيرين الاخ الاصغر لابيها ممتطيا الزلاجة ليلفها في فرو الخروف . ولسوف ترن اجراس الخيول طوال الطريق .

لا لن يأتي الى اي فيسيليتشكا : هاهي نسيت مرة اخرى ان والديها يعيشان الآن في مدينة بيسك . شعرت بالاسف لدارهم في برناريتتسه ، احست تماما بشعور تلك الدار ، حين بقيت صامته مهجورة ، وقد اعترتها الدهشة : كيف استطاعوا بعد تلك السنوات الطويلة تركها وهجرها بمثل هذا العقوق

لن يأتي العم الفتي سيفيرين بقامته الطويلة وفرو الخروف وخبوله التي يتعالى صهيلها سيحضر والداها لاستقبالها في محطة القطار في مدينة بيسك ويقودانها الى بيت غريب . ولعل هذا هو في النهاية سبب عدم سفرها

بعد نصف سنة ، وفي شهر ايار القناظ والخالتي من الريح حيث كان من العيب فتح النوافذ لان الريح كانت بلا حراك في الداخل وفي الخارج ، غادر بغداد اثنان من اعضاء الجالية الاوربية هما اوتو هوهينبرج صاحب السوق التجارية سابقا والصيدلانية ايفا كوسكوبا . سافر كل منهما على انفراد . فقد باع اوتو السوق التجارية ودفع ماعليه من الديون وعاد الى فيينا مع ما تبقى لديه . وكتبت ايفا الى ابنة عمها ان عليها ان تخلي شقتها الصغيرة في فينوهرادي واتجهت الى براغ الى صيدلية قرب ماتكا بوجي اوصيدلية قرب سلفاتور او صيدلية قرب زلاتي هاد

قالت وهي تودع روث مبتسمة بحزن وبشيء من الامل : ماذا في الامر فمن فيينا الى براغ مجرد قفزة صغيرة ، بضع ساعات في القطار .

ياتفاحة تيشين* ، أيتها الفتاة الذهبية . فكرت روث وادركت الآن فقط ان ايفا كانت تحب هذا الرجل من فيينا وان الامر لم يكن مجرد امسيات مرحة ورحلات الى سقائف على ضفة النهر . كانت ستبقى معه رغم افلاس تجارته . كانت تحبه أما هو فكان معجبا بها . وهنا بالذات يكمن الفرق . فعندما يستقر قليلا في فيينا ويثبت اقدامه ويتأمل ماحوله ستكون موضع اعجابه نساء أخريات .

٢

قبل ان يغادر ذاك الاثنان بوقت قصير وفي بعض ايام اذار الباردة ، التي تسمى هنا

* تيشين : منطقة تقع في سيليزيا الشرقية تعاونتها أنظمة حكم كثيرة . وفي عام ١٩٢٠ قسمت الى سيليزيا البولندية وتيشين التشيكية التي الحقت في عام ١٩٣٨ ببولندا . وضُمَّت الى الامبراطورية العظمى في أعوام ١٩٣٩ - ١٩٤٥ . ومن هنا فإن الاستعارة تعني أن ايغا ثمرة تتلقفها أيدي الطامعين والمعجبين . المحرر

بايام "برد العجوز" وقعت في المستوصف اول حالة للوفاة . جاؤوا بمریضة تشكو من حالة فتق مرت عليه ثلاثة ايام . اجرت لها فلاستا عملية جراحية لانتزاع المصران من موضع الفتق . وقد أعاد ذلك للمریضة الراحة بشكل رائع ، ولأول مرة بعد تلك الايام القاسية استسلمت للنوم . وقد توفيت وهي نائمة

ماذا يفعل الاهل والاقارب عندما يموت المریض بعد العملية الجراحية ؟ يقولون : الطبيب قتله ، ومن العبث ان يدافع الطبيب عن نفسه بالقول انهم احضروا المریض بعد فوات الاوان وان التسمم قد انتشر في مجمل جسد المریض وان الطيبة نبهت الى النسبة الضئيلة والضئيلة جدا من الامل .

قبل العملية كانت امي حية وقد توفيت بعد العملية الجراحية لهذا من الواضح انكم قتلتموها بهذه العملية . هذا هو منطق الاهل والاقارب في كل انحاء العالم . وهنا يضاف الى ذلك الصراخ والنحيب المرتفع للنساء من الاهل والاقارب ومن الجيران . انهن يندفعن الى غرفة الميت ويمزقن ملابسهن متمرغات على الارض . شاهدت فلاستا لأول مرة مظاهرة الحزن هذه وقد اصيبت بالهلع لدرجة كبيرة . كانت تدرك انها لا تتحمل اية جريرة بالنسبة لموت السيدة العجوز غير انه لم يكن بمقدورها التخلص من الاحساس بانها هي بالذات السبب في هذا النحيب المسرحي . كانت تتذمر مع نفسها وفي رسائلها من المهنة التي أحبتها كثيرا

ما أسعد المستشرقين وما أسعد شغيلة المكتبات والخياطين وصانعي الاحذية . فما الذي يمكن ان يحدث لهم ؟ اقصى ما يمكن ان يقوموا بترجمة سينة او ان يفقدوا كتابا ثمينا او يحرقوا قطعة القماش عند كيتها او ما شابه ذلك ، اما من اختار مهنة الطب فانه يلعب طوال الليل والنهار لعبة الشطرنج مع الموت . هذه المرة خسرت الملك وما زالت تحت تأثير الضربة .

ولكن كانت هناك احداث مفرحة ايضا . مثلا تلك المرأة التي جاءت وقد لفت رأسها بالفوطة على نحو غريب وكأنها وضعت الفوطة فوق عمامة صغيرة . كان الورم السرطاني الذي يشبه الزهرة قد اعتلى سمت رأسها بالذات . وكان سطحه الخارجي في حالة تساقط باعثة رائحة كريهة مفرقة . كانت المریضة تتضرع من اجل تقديم المساعدة لها . إنها لا تشكو من اي الم ولكنها تشكو من تلك الرائحة الكريهة . لعل السيدة الطيبة تستطيع عمل شيء لتخليصها من ذلك . فهي ارملة بلا اطفال وتعيش مع اسرة اخيها ولكنهم جميعا يتجنبونها بسبب تلك الرائحة .

"عدا ذلك فإني والحمد لله يادكتورة في صحة تامة وانجز الكثير من العمل - تلك الرائحة الكريهة فقط . قمت بمراجعة المستشفى الملكي ولكنهم قالوا لي انهم لا يستطيعون عمل اي شئ لمعالجتي " فيما عدا ذلك فإنها لا تعاني شيئاً . أيتها المسكينة ترى كم يبقى لها من فسحة العيش ، إذا لم يكن بالإمكان استئصال الورم اسنصلا تاما ؟

وعلى خلاف اغلبية المرضى وافقت هذه المرأة على اجراء العملية الجراحية . ولكنها لاتستطيع البقاء في المستشفى فان عليها العودة الى منزلها في الكاظمة مساء اليوم . لايعلم غير الله لماذا كانت ترفض المكوث في المستوصف ، ولعلها خافت من ان يكلفها ذلك الكثير من التقود

استأصلت فلاستا الورم بشريط التخثير الطبي . وكانت تترقب بقلق شديد ما اذا كان الورم قد سبب تصدعا في الجمجمة وما اذا كان قد امتد الى المخ
نجحت العملية الجراحية نجاحا رائعا ولم تخلف غير بقعة وردية في سمت الرأس ، وقد اكد البروفيسور شيكل الذي بعثت له بجزء من انسجة الورم لاجراء الفحوص المختبرية توقعها بان الاصابة كانت بنوع من السرطان محوري الخلية .

وبعد ذلك اضطرت تلك البدوية الشابة الى تحمل عملية جراحية اخرى لأنها كانت مصابة بالدودة الوحيدة الكلبية . انها جميلة وراقية وتحمل في اطراف جداولها الطويلة السوداء اجراسا مخرمة صغيرة للزينة ، فهي ما ان تتحرك قليلا حتى ترن الاجراس وكأنها تضحك . غير انها كانت قليلة الابتسام بل انها تكاد لاتبتسم مطلقا ، انها تبتسم مرعوبة بعينها الواسعتين .

لقد اتحدت من اسرة غنية وربما من شيوخ البدو الرحل ، تحمل في ارنبة انفها حلقة ذهبية غالية الثمن مزينة بالآلئ والخرز الازرق . وقد احبت في المستشفى الكهرباء فعندما اصبح بمقدورها ان تمشي بعد العملية كانت تدير زر الكهرباء لتشعل النور وتطفئه بصورة متكررة وبفرح طفولي . وكانت تقترب من صنوبر الماء بحسد شديد لان الاسر البدوية تنقل الماء من الابار التي تبعد خمسة الى عشرة كيلومترات . عدا هذا لم يكن يعجبها في المستشفى ولا في بغداد نفسها اي شئ آخر . انها طفل الصحراء الحر الذي تسحقه جدران المدينة وازقتها الضيقة وتشعر بين جدران الغرفة الاربعة كأنها حبيسة في قفص .

إنها تتحدث بلهجة ناعمة طويلة المقاطع ، وتفيض احاديثها بالمقارنات والامثال الطبيعية . ولقد احبتها ايضا روث التي لا تحب البدو بسبب رائحة اجسادهم ولانهم يزينون اجسامهم بالوشم وبسبب الخزامات التي يزينون بها انوفهم وكذلك بسبب النفور الحبيب الصامت الذي يذكرها بنفور الحيوانات . وقد شعرت هي ايضا بصعوبة توديع هذه الفتاة

فلاستا تكن للبدو الاحترام وهي معجبة بالقيم الرفيعة لتقاليدهم وعاداتهم القديمة فحين يتناول البدوي القهوة عند احدهم يشعر بأن واجبه يقتضي حماية المضيف طوال اليوم القادم والليله التالية وحين يتناول الغداء يكون من واجبه حماية المضيف طوال اسبوع كامل ، ويمتد واجب الحماية لشهر كامل حين يتناول عند احدهم الغداء والعشاء ، كما تمتد الحماية لسنة كاملة اذا قام مضيفه بنحر خروف على شرفه . وطوال هذه الفترة لايسمح البدوي ببقاء ضيم او اهانة توجه الى مضيفه او تمس شرفه دون عقاب

وبموجب التقاليد القديمة على البدوي اذا ما تقدم منه انسان يشعر بالخطر وعقد طرف كوفيته او منديله ان يحميه حتى ولو اقتضى ذلك التضحية بالحياة من اجله . لان العقدة في طرف الكوفيه تعنى رجاء صامتا : دخلك خذني تحت حمايتك وليس من الممكن رفض مثل هذا الرجاء

ومن اسوأ ما يمكن ان يوصف به الانسان بين البدو هو أن يقال عنه : ما له وفاء أي أنه ليس مخلصا

٣

"السيد البروفيسور المحترم ، لا أدري ما إذا كنت تتذكرني . ، فقد كنت من الطلبة الذين يستمعون الى محاضراتك حول الطفيليات في السنة الدراسية ١٩١٩ - ١٩٢٠ وبعد التخرج في الجامعة عملت في بعض المستشفيات التشيكية وبالدرجة الاولى في مستشفى القديسة "انا" في برنو . قبل سنة وصلت الى العراق ، حيث نجحت معتمدة على نفسي و مسؤوليتي الشخصية فقط في تأسيس مستوصف تشيكوسلواكي صغير ولكنه ناجح . وكان لي هدفان من وراء تأسيسه : تقديم الخدمة الطبية والصحية للسكان المحليين لاسيما النساء وتوفير قاعدة للمؤسسات الصحية التشيكوسلواكية لدراسة

امراض المناطق الاستوائية ولكن ولأجل ان ينجح هذا المستوصف في اداء المهمتين اجد نفسي بحاجة ماسة الى طبيب آخر فعلى الرغم من تكريس كل جهودي وقواي اكاد لا استطيع تلبية حاجة المرضى . وهذا هو ما دفعني الى الكتابة اليكم والانتقال عليكم بهذه الرسالة . وارييد ان اسألکم برجاء شديد : ألا تعرفون احدا من بين من تخرجوا على ايديكم يرغب في العمل في بغداد؟"

بمخابرة وعناد كتبت الرسائل ، المرة تلو المرة ، ولأنها لم تتلق اي رد من المؤسسات والمعاهد فقد عمدت الى توجيه الرسائل الى الاساتذة والاطباء الذين عرفتهم في المستشفيات والى زملائها في كلية الطب .

هل من العسير حقا العثور على احد يرغب في السفر للعمل هنا ؟ فلقد هيات كل شيء ، وانجزت كل ما هو أساس . ويكفي ان يتفرغ احدهم مدة سنة او سنتين وبعدها يمكن ان يحل مكانه آخر غيره . ليكون طبيبا شابا وكفءا له شيء من الشجاعة والطموح . اجل من الافضل ان يكون رجلا ، فقد كانت دائما تفضل العمل مع الرجال وهي تتمتع بتدريب الرجال وانضباطهم . انها تفهم الرجال بصورة افضل . لم تكن قد ادركت ذلك بهذا الوضوح كما ادركته في الشتاء الماضي حين عملت مع روث وايفا...

غير انها بحاجة الى الممرضات ايضا . فليس من الممكن احتمال الوضع الذي لا تتوفر فيه قبيل اجراء العملية الجراحية غير ممرضة واحدة لتقوم باعداد وتحضير المريض وغرفة العمليات والتعقيم واعداد كل ما يلزم .

قامت مع روث بتدريب فتاتين محليتين وهما شاطرتان وخدمتان ، غير انها لاتستطيع تكليفهما بعمل معقد

نجحت في الحصول على ممرضة ممتهنة تحمل شهادة دبلوم هي ماريانينوفا ، التي كانت تريد الذهاب الى الهند ، غير انها استجابت لاقناع اصدقاء فلاستا في براغ وبدأت تستعد الى السفر للعمل في العراق . اما دعواتها المتكررة للحصول على طبيب فلم تحظ بالاستجابة . كان الاساتذة يردون على رسائلها برسائل جميلة ، فهم يعبرون عن الاعجاب بشجاعته ويشعرون بالاعتزاز بطالبتهم السابقة ، غير انهم الآن لا يجدون ، ويا للأسف ، من هو ملائم لتلبية طلبها . أما الزملاء فانهم اما لم يكتبوا اي ردود على رسائلها ، أو انهم كانوا يشرحون لها الامر : حاولي ان تفهميني يا فلاستا لم

يمض وقت طويل على زواجي ، وليس من المعقول ان اطلب الى زوجتي ان ترافقني الى بلد فيه مثل هذا المناخ ومثل هذه الظروف المناخية غير الملائمة حقاً للمرأة . يكتبون هذا وكأنهم قد نسوا أنها امرأة ايضاً

فهل عليها ان تتخلى عن هدف اساس جاءت من اجله الى هنا وهو دراسة الامراض الاستوائية؟

قررت ان تتحمل وان تقوم الى جانب العناية بالمرضى بمهمة جمع المواد للبحث العلمي فهي في كل الاحوال تذهب كل صباح الى الصحراء لتشاهد شروق الشمس . ولذا فإن بمقدورها ان تجمع بين ما هو ممتع وما هو مفيد حين تمضى بضعة كيلومترات ابعد الى حد مربع البدو . ففي كل منها سوف تجد كل انواع الامراض الاستوائية .

وهكذا وبصورة غير ملحوظة تحولت السفرات الصباحية الهادئة الى مهمة جديدة كانت فلاستا تجمع نماذج من قيح الاخت البغدادية وعينات من الدم ومن سوائل الجهاز الهضمي وعينات من اللعاب مأخوذة بمسح الخنجر وترسل المواد بعد تغليفها بعناية فائقة الى براغ بالبريد السريع . كل شئ يصلهم دون اية متاعب الى تحت الانف كما يقال في براغ . فلعل هناك من يقوم في الاقل بوضع تلك العينات تحت المجهر .

بعد الارسالية الاولى تلقت رسالة تتسم بالحماسة من زميل عمل لاتعرفه من براغ لذا فإنها لم تتوقع ان تكون تلك الرسالة هي كل ما يفعله ذلك الزميل . ففى النهاية ورغم ما ابداه من حماسة واعتزاز لاحدود لهما بتلك الزميلة ترك جميع النماذج تفسد على احد رفوف المختبر .

ووقعت مفارقة غريبة من تلك المفارقات التي يحتفظ بها القدر في خزائنه - فإن فلاستا كالالوفا الطبيعية التي تحتل الامراض الاستوائية مكان الصدارة من اهتمامها العلمي ، والتي حققت في هذا المجال تقدماً معيناً ، دخلت على نطاق واسع فرعاً علمياً آخر لم تدرسه اكثر مما درست علم الاحياء في المدرسة المتوسطة .

ففي أحد ايام عام ١٩٢٦ علمت من الصحف التشيكية التي كان يرسلها بين الحين والآخر اخوها ياروسلاف ، أن المتحف الوطني التشيكي يريد توسيع مجموعة الحشرات الموجودة لديه عن طريق اغنائها بالدرجة الاولى بنماذج من الحشرات التي تعيش في بلدان

اجنبية ، ولهذا فإنه يدعو المواطنين التشيك الذين يعيشون في الخارج الى التعاون في هذا المجال .

في الحال حررت رسالة ملى بالاسئلة : كيف ينبغي عليها جمع الحشرات ؟ وكيف ينبغي تغليفها ؟ وماهي الانواع التي تحظى بالاهتمام ؟

وبسرعة تلقت ردا من رئيس قسم الحشرات الاستاذ يان أوبينبيرغر الذي تلقى استعدادها للتعاون بحماسة بالغة . في الاقل لأن منطقة وادي الرافدين ممتعة بصورة استثنائية من وجهة نظر العلوم الطبيعية ، اذ تعيش هناك وتلتقي الحيوانات التي تعيش في اوربا بالحيوانات التي تعيش في منطقة البحر الابيض المتوسط ، وتوجد هناك ايضا ، لاسيما في المراتب الدنيا للاحياء عدة انواع هي في الاصل من الهند . ويرجو الاستاذ الزميلة ان تفضل و تقوم بـ ...

تلي ذلك خمس صفحات مكتوبة بخط جميل وعناية فائقة تتضمن التوجيهات الخاصة بهذه المهمة .

وبفضل تشجيع الاستاذ أوبينبيرغر بدأت فلاستا العمل لجمع الحشرات بحماسة منقطعة النظير . وكما هي عاداتها عملت على اشراك كل المحيطين بها للاسهام بذلك : روث وتوفيق وفوزي وجيورجي دي لوتي وفي بعض الاحيان مهدي والطباخة

غير أن حصاد الحملات الاولى لجمع الحشرات انتهى نهاية بانسة . اذ قام موظفو الجمارك المصرية عند الحدود بافراغ محتوى العلب مكونين منها كومة واحدة ، لأنهم لم يستطيعوا ادراك الدوافع لأن يحمل احدهم معه علبا ملى بالحشرات الميتة . ولعلمهم كانوا على يقين تام بأن الامر يتعلق بأسلوب جديد لعصابات التهريب . فمما لاشك فيه انهم اخفوا تحت الحشرات وربما في داخلها الحشيش لتهريبه .

لم يجدوا أي حشيش . اعذرنا ايتها السيدة الطيبة ، فانت تعلمين ان تهريب المخدرات يتسع وعلينا ان نكون في منتهى الحذر . على اية حال اننا سوف نساعدك في اعادة هذه الاشياء الى العلب .

اعادة ذلك الى العلب ؟ هذا الخليط من الارجل والاجنحة والمجسات . لا القوا بهذا كله في سلة القمامة . قالت ذلك وكانت تبذل جهدا كبيرا من اجل ان لا تنفجر باكية . رغم ذلك فانها لم تكن من الذين يشبط عزيمتهم الفشل الاول . ففي قسم الحشرات في

المتحف الوطني التشيكاً وتحت الرقم ٥٠٢ / عام ١٩٢٩ كتب بخط الاستاذ أوبينييرغر من الدكتور كلالوفا من بغداد ٢٠ الف نموذج في ١٧ علبة وفي نهاية عام ١٩٢٩ بلغ العدد ٢٠ الف نموذج من الحشرات النادرة من بينها نوعان غير معروفين من الانواع الجميلة . وهكذا أتحت للاستاذ أوبينييرغر فرصة لأن يكون اول عالم متخصص بالحشرات يقوم بوصفهما وقد سمى النوع الاول على شرف الدكتور كلالوفا باسم CYPHOSOME LAWSONIAL ssp. KALALAE واقترن اسم النوع الثاني باسم الانسان الذي اصبح اقرب الناس اليها والمساعد المخلص - رغم تدمره احيانا - لمساعدتها ومحاولاتها

٤

بدأ صيف ١٩٢٦ بصورة محبطة ، فقد اتسم في البداية بهرب الاوربيين نحو الشمال : الدكتور بينوفا رحلت الى طهران ، وقد قالت انها لن تستطيع تحمل صيف بغدادى آخر . بعدها رحل اوتا هوهينييرغر وايفا وتبعهم مباشرة عشرات آخرون وبخاصة من أسر موظفي إدارة الانتداب البريطاني . وسافرت ايضا الاسر العربية الموسرة التي كانت لها منازل صيفية في الشمال .

ولم تشعر بالارتياح لسماعها يوما القول : لا تعلقى الآمال على مكيفات الهواء فان الاوربي يتحمل الصيف هنا بصورة اسوأ سنة بعد اخرى . ويقال ان صيف هذا العام سيكون شديد الحرارة .

حقا سيبقى صيف هذا العام بالنسبة لفلاسنا مقترنا بالايقاع المروع لقرع الطبول وألسنة لهب المشاعل في الليالي الخائقة .

بدأ ذلك في نهاية شهر حزيران . وقد خلد نسيم حزيران الى السكون وصممت المدينة وتوقفت الحركة فيها ولم تنظم اية فعاليات مسلية وسكتت الموسيقى في المقاهي الممتدة على شاطئ النهر . وتوقف الناس عن اقامة الاعراس ودخل العالم الاسلامي شهره الحزين . الشيعة بملابسهم السوداء يترنحون في الطرقات المهجورة وقد اضعفهم الصيام الطويل .في العاشر من شهر محرم بدأت السبايات : المراسيم الاحتفانية الشيعية تخليدا

لذكرى الشهداء . أنه الاحتفال التأسيني الذي يقام كل سنة في ذكر الاحداث التي وقعت قبل ثلاثة عشر قرنا

ففي عام ٦٥٦ عندما جرى اغتيال الخليفة عثمان كان هناك رجلان يطمحان الى وراثة الخلافة : علي ، ابن عم محمد ومعاوية نسيب محمد . وكان لكل منهما كثير من الانصار وهكذا وقعت الحرب الاهلية التي تمخضت عن انتصار معاوية بعد معركة حاسمة وعن اغتيال علي . ومنذ تلك اللحظة قسمت العالم الاسلامي حدود لا يمكن رسمها على الخرائط غير انها اكثر ديمومة : فقد فصلت تلك الحدود بين السنة انصار معاوية والشيعة انصار علي . ووقف على رأس الحركة الشيعية الحسين بن علي ، الذي قاد انصاره من مكة الى كربلاء ليطالب بالخلافة باعتباره الوريث المباشر من سلالة النبي . غير ان انصار معاوية قمعوا تلك الانتفاضة وقتلوا الحسين . وتعرض من رافقه من المقاتلين الى التعذيب والقتل . وقام انصار معاوية بقتل جميع الذكور من اسرة الحسين ولم ينتج من الموت حتى الرضيع في المهد . إن القرن الثالث عشر يخطو يوم ذكرى انتفاضة كربلاء ، في شوارع المدينة على هيئة مواكب حزينة . الا تريدن مشاهدة السباية معنا ؟ وجهت أسرة محمد الدعوة لفلاستا . إنها أسرة سنية ورغم ذلك تذهب هذه الاسرة بكاملها لمشاهدة السباية . إنهم يشاهدون كل شئ من مسافة آمنة ، من شرفات وسطوح منازل الاصدقاء.

المساء يقترب وقد امتلأت الشوارع بالناس وخيم عليها صمت ثقيل وغريب وكان حشود الناس تحاول كتم انفاسها . الشيعة يتمسكون بالصمت الحزين ولا ينصح غير الشيعة بالكثير من الكلام .

مع حلول الفسق خرج من مسالك وازقة السوق الخفية ، حيث تنتظم صفوف مواكب السباية ، حملة المشاعل ومعهم صفوف المقيدين بالقيود والسلاسل رمزا للاسرى . بعد ذلك ظهرت الخيول بدون الفرسان تخليدا لذكرى الذين لم يعودوا من القتال ، وقد رفعت على جوانب الخيل اعلام سود وخضر وحممر وهي الوان النبي .

الرجال الذين يرتدون الدروع المزينة بصورة رائعة والمطعمة بالذهب والفضة نالوا اكبر نصيب من الاحترام والتقدير لانهم يرمزون الى الحسين والمقاتلين معه . انهم يشعرون بهذا التقدير والاحترام فهم يتقدمون باعزاز وفخر ، بخطوات مهيبة متمهلة في هذا الموكب الحزين ، خلفهم يمشي رجال آخرون وقد حملوا الشمعدانات والزهور

ورجال يرفعون فوق الرؤوس مهذا صغيرا تذكيرا بابن الحسين . وقد شق صمت
حشود المشاهدين الحزينة صراخ النساء وعويلهن . طوال ثلاثة عشر قرنا تبكي النسوة
الوليد القتيل .

حلت العتمة تماما ولم يعد هناك غير المشاعل والفوانيس التي تنير بوميضها المتوهج
حشد الناس والوجوه والحركات .

الايقاع المتمهل وغير المنتظم للطبول يعلن عن قسم آخر من الموكب وهو القسم الاعظم
والأكثر عددا - انه موكب - جالدي انفسهم ، اللطامة . الرجال يتقدمون بصفين بخطوات
راقصة غريبة ومروعة : كل ايقاع للطبل يعني خطوة الى الامام وكل خطوة تعني ضربة
بالسلاسل الحديد على رقبة الضارب أو ظهره العاري ، وبعد كل خطوة تالثة يعود الرجال
ثلاث خطوات الى الوراء و ترن السلاسل ثلاث مرات . ثلاث خطوات الى الامام وثلاث
خطوات الى الخلف ورغم ذلك فإن الموكب يتقدم ببطء بشكل محير . في الصفوف الاخيرة
صبيان صغار لا يكاد منهم يبلغ عامه العاشر ، يمارسون عملية الضرب بالسلاسل
الحديد وقد علت وجوههم سمة احتفائية .

المجموعة الاخرى من حملة الطبول تتقدم مجموعة من الرجال الذين يضربون صدورهم
بقبضاتهم . صوت الطبول - وفي ضوء المشاعل ترتفع منات الأذرع العارية . الضربة الثانية
على الطبول ، وقد نزلت الضربات بالقبضات على الصدور محدثة دويا غطى على اصوات
الطبول - بوم...بوم ... بوم ... بوم .

القارئ الذي يرتدي ملابس سوداء يروي بصورة غنائية قصة الانسان الذي رق قلبه
وأراد ان يقدم الماء لاسرة الحسين الاسيرة والتي تعاني العطش : حمل قربة الماء باليد اليمنى
فقطعوها... رفعها باليد اليسرى فقطعوها ، وعندما نظر الى الطفل الذي يعاني العطش تمدد
على الارض وحمل قربة الماء بأسنانه ليروي الطفل فقطعوا رأسه بالسيف .

اشتد الاحتياج على الارصفة وسمع بكاء ونحيب النساء الشيعيات والصراخ الغاضب
للشيوخ .

يبدو وكأن كل هذا مازال قليلا . فكأنهم يريدون في هذه الليلة والليالي اللاحقة الاخرى
ان ينغمروا في النحيب والبكاء والخروج منه وقد خضبت الدماء اجسادهم حتى الاكتاف .
فريق من الرجال يحمل تابوتا مفتوحا ومن الكفن تظهر رقبة بلا رأس . وقد استعيض عن

جسد الشهيد الذي قطع رأسه بجسد خروف قد سلخ جلده ، الامر الذي يعرفه الجميع ورغم ذلك فإنه منظر مُرَوِّعٌ

الليلة الاخيرة قبل ذكرى موت الحسين كانت بغداد خالية من الناس ، فإن ذروة السبابة تقام على مقربة من الموقع المقدس في الكاظمية

قبيل الصباح يأتي دور السيوف . موكب ثُماني الصفوف ، الصف تلو الآخر . وبايقاع واحد وصوت اشبه شيء ، بصوت فرقة السوط ترتفع الايدي حاملة فوق الهامات السيوف التي تلتمع في نور الفجر وتقدم الدروع الصفيحية الايقاع : ليضرب الرجال رؤوسهم بالسيوف .

في اللحظة التي يكاد فيها حد السيف أن يلتقي الهامة ليشق الجمجمة يضع الحمالة من الصفوف التالية الألواح الخشبية لتلقي السيف . غير ان هذا التنسيق الدقيق للحركات لا يتحقق دائما بالدقة نفسها . ولكن حين يموت احدهم في ذلك اليوم بحد السيف فإنه يصبح شهيدا ويقام له تشييع مهيب مع كل مظاهر التبجيل والاحترام ، ويتجه نحو الجنة مباشرة . وعلى الرغم من ذلك تنتظر في الشوارع المجاورة سيارات الاسعاف .

وصلت فلاستا عائدة الى دار البرزنجي قبيل الظهر ، وكانت متعبة من السهر ومن مشاهد الليلة الرهيبة . كان الدم يتدفق في شرايين صدغيها وفق ايقاع طبول السبابة بوم... بوم ... بوم ... بوم .

"أمل ان لا يكون هنا اي مريض في انتظاري" قالت متأوهة عندما كان جيورجي يساعدها للخروج من السيارة . كم كانت تتوق الى ان تستحم وتتناول حبة اسبرين وتضطجع لتستسلم الى النوم حتى المساء .

"إنك لتأملين عبثا ، اعتقد بانك ستعملين طوال اليوم في خياطة جروح الرؤوس"

كان محقا . فما إن فتحت الباب حتى وقع نظرها على وجه مدمى لرجل يدخن لفاقة بيضاء وقد جلس خلفه اخرون بصمت وبحالة تشبه الغيبوبة ، وهم في الغالب مصابون بجروح في الرؤوس .

"حسنا ، إنه لشيء رائع أن الاصابة غير كبيرة وهي في موقع مرتفع لدرجة كافية تمكن من ان يغطي شعر الرأس الشرخ الذي تخلفه ، ولن يراها احد " . قالت فلاستا باقتضاب لاحد المرضى عندما كانت تضع المشبك فوق الجرح . القى عليها نظرة هلعة وغاضبة : فهو يريد أن يكون الشرخ ظاهرا .

في الفترة التي عملت فيها الدكتور كلالوفا في العراق ، كان هنا كل ثالث وليد يموت في السنة الاولى من العمر

كان العدد الاكبر من الاطفال يموت في الصيف . اذ يكفي ان يصاب بالاسهال الاعتيادي للامعاء او الناتج عن التهاب معوي ليفقد الجسم بسرعة الماء وتحل النهاية .

"لقد بدأ يخطو للتو" قالت الام باكية . الى ما قبل ثلاثة او اربعة ايام كانت تسمع من الشرفة رنين الاجراس الصغيرة في حجل كاحليه .

تعيش هنا نسوة بلا اطفال . انجبت الواحدة منهن اثني عشر طفلا ومات اطفالهن اثنتي عشرة مرة . سنة بعد سنة كما تطفأ الشموع

"كانت لهم عيون واسعة هكذا : قالت الام التعيسة وقد قربت رأس سبابتها من رأس ابهامها مكونة اكبر حلقة ممكنة . كل واحد منهم كانت له مثل هذه العيون وكانت بشرته بيضاء وناعمة كالحرير . انها لم تعد تبكي .

وبسبب من قسوة النسبة العالية لوفيات الاطفال نشأت هنا واستمرت الكثير من الخرافات والعادات المرتبطة مع ولادة الطفل ، الكثير من الخرافات والاساطير التي يراد لها ان تضمن للطفل الوليد عمرا طويلا وحياة موفقة .

اذ لا بد من حماية الوليد والام المنجبة له سبعة ايام من الارواح الشريرة ومن الغرباء اما حشد العمات وبنات الخال والعم والجارات اللواتي يحضرن الولادة ويمكنن باعداد كبيرة في البيت بعد ذلك فإنهن لا يمكن ان يسببن أضرارا للطفل الوليد لانهن لسن غريبات . ويكمن مصدر اكبر خطر لأصابة الطفل بعين الحسد في الناس ذوي العيون الزرق ، والناس الذين توجد فجوة بين اسنانهم الامامية القاطعة ، والناس ذوي الاقدام المسطحة .

العيون الزرق يمكن ان تصيب اما اللون الازرق للملابس او الحلبي فإنه على العكس يحمي من الاصابة . ولهذا نجد في العراق وفي مجمل الشرق الاوسط اقبالا على اللون الازرق والسماوي الشذري . فحين يتلقى الطفل في وقت مبكر عقدا من الاحجار الكريمة الزرقاء أو في الاقل قلادة من الشذر الازرق لا يمكن ان يصيبه اي مكروه . (بالمناسبة يضع سائقو

السيارات في العراق حتى اليوم الخرز ذات اللون الازرق زينة لسياراتهم)

في الايام الاولى لابد للنساء ، من زيارة المدينة مع الوليد الجديد ، إذ لابد للطفل ان يتعرف في وقت مبكر على العالم ، لاجل ان يتجنب فيه كل الشرور التي تهدده

وتحمل الامهات اطفالهن الرضع الى الحي التاريخي القديم المعروف بحي الميدان ويقمن معه بالدوران حول المدفع التاريخي القديم ثلاث دورات ويدخلن رأس الطفل في فوهة المدفع لثلاث مرات ايضا ، وذلك لاجل ان لا يصيبه بالشر اي سلاح ، بعد ذلك يسلكن مع الطفل الزقاق المؤدي الى النهر ليرى ماء المائل الى الخضرة وبذلك يتقي ضرر كل انواع المياه . ويأخذن الطفل الى السوق لاجل ان لا يغشه اي تاجر و ينظرن معه الى مبنى مقر الحكومة لكي لا يتعرض الى مشكلات مع الدوائر الحكومية .

يوجد هنا عدد لاحصر له من التعاويذ القادرة على طرد الارواح الشريرة . فإن المرأة التي أُجريت لابنتها عملية جراحية صغيرة في الصباح عادت بعد الظهر وطلبت أن يسمح لها بنشر البخور في الغرفة وقد حملت معها كومة من الجمر المتوهج لفحم خشبي موضوعة في اناء معدني وقليلاً من النخالة المملحة .

وعندما سمح لها بذلك قامت بنشر النخالة على الجمر المتوهج ومشت ناشرة الدخان المتصاعد حول الاجهزة الطبية وحول سرير العمليات .

"ياملانكة الرحمة ياسالمين ، هذا بخوركم ، لاتزورونا ولا نزوركم"

ايها الملائكة الطيبون هذا الدخان لكم لاتؤذونا ولا تؤذيكم ، الدخان لكم وابنتنا لنا

لو توقف امر التعاويذ عند حد نشر البخور في العيادة بعد العملية الجراحية لهان الامر ففي كثير من الاحيان يصل قارئ التعاويذ الى المريض قبل الطبيب . ويبدأ تصاعد الدخان فوق رأس الطفل المصاب بالتهاب الامعاء . وفي اليوم الثالث ، عندما يتبين ان الملائكة الطيبين لايقدمون المساعدة المنتظرة وترتفع درجة حرارة الطفل الذي يأخذ في الذبول امام الانظار ، يبعثون بأحدهم راكضا في طلب الطبيب . وفي كثير من الاحيان يأتي ذلك متأخرا لقد شاهدت فلاستا الكثير والكثير جدا من الاطفال وهم يموتون في بغداد ، وكان اكثرهم قد مات في هذا الصيف الحار لعام ١٩٢٦

من اشباح ذلك الصيف حالة احدى العمليات ، التي كانت في البداية اعتيادية وبسيطة . ففي شهر اذار حملوا الى المستشفى مريضة تعاني التهابا حادا في الزائدة الدودية " هياوا كل شئ لاجراء العملية الجراحية " قالت فلاستا للفتيات مؤكدة باشارة من رأسها ، وارسلت مهدي الى الدكتور ياروزيليمسكي ترجوه الحضور لمساعدتها . وكان ياروزيليمسكي طبيبا مجربا متقدما في العمر متخصصا بالامراض الداخلية ، وقد مارس مهنته لسنوات عديدة ، وهو في الاصل من اوديسيا

اذا كان هناك ما لا تحب عمله فهو العمليات المرتبطة بفتح الجوف البطني . ليس بسبب العملية بحد ذاتها وانما بسبب ما سبقها . ففي المستشفيات التشيكية كان المريض يوقع على اقرار بأنه يوافق على اجراء العملية وتحمل مخاطرها على مسؤوليته . اما هنا فكثيرا ما يطالب اقارب المريض الطبيب بأن يقدم لهم تعهدا مكتوبا في ان تكون العملية ناجحة وانها لا تتحمل اية اخطار . كيف لاتريد الدكتورة التوقيع على اي تعهد ؟ هل هي غير متأكدة من معرفتها وقدرتها ؟

هذه المرة لم يكن الامر سيئا جدا . فقد كان المريض عربيا وغنيا من بغداد وكانت أسرته حريصة على سمعتها وهيبتها لدرجة لم تكن لتسمح باثارة اية مشكلات . وتم اجراء العملية بشكل جيد . وكان المريض هادنا وقد التأم جرحه في وقت مبكر نسبيا وبدا أن كل شئ على مايرام . بعد بضعة اسابيع وكان المريض في مرحلة النقاهة في بيت أسرته بدأ يعاني الذبول وظهر تجمع للماء في البطن وحدثت الازمة .

وعلى الرغم من ان الاطباء الذين اجتمعوا حول سرير المحتضر قد اعلنوا ان سبب الوضع المتأزم هو اصابته بتدرن الامعاء الا انهم توصلوا في الوقت نفسه الى الرأي القائل بأن الاثر الذي خلفته العملية ناعم للغاية ، الامر الذي قادهم الى استنتاج ان الجوف البطني لم يفتح بتاتا وان المسألة لم تتجاوز التظاهر باجراء العملية . وهذا اتهام خطير . ولو ان الطبيب اقدم على هذا العمل لكان مكانه الطبيعي امام المحكمة وليس في العيادة الطبية .

شعرت فلاستا كاللوف بالاهانة والغضب ودافعت عن نفسها قائلة : كيف استطاعوا

اتهامها بمثل هذا الامر؟ كيف يمكن أن يتهمها بذلك الدكتور دونلوب الذي كانت تعتبره من اصدقائها؟ هل عليها ان تخطط المريض كما يخططون الاكياس ليرى كل انسان من بعيد ان عملية جراحية اجريت له؟ لقد كان البروفيسور بتريفالسكي في مستشفى مدينة برنو لايقصر في الثناء عليها لانها كانت تخطط الجروح بعد العمليات بعناية فائقة ودقة .

لم يصدقوها وقدموا القضية الى المفتش الصحي العام ، وعلى الرغم من انه كما يقال(كنس القضية برمتها من الطاولة) فقد ادركت فلاستا بان هذه القضية يمكن ان تطرح من جديد حين يكون ذلك ملائما لاحد ما . فانه لمن الملائم لاحد الزملاء او المنافسين ان تكون بيده ورقة مثل هذه يمكن ان يطرحها متى يشاء . إذ أن الدكتورة كالالوفا بدأت تكتسب جماهيرية واسعة غير مريحة للبعض . وفي الفترة الاخيرة بدأت تعالج حتى افراد العائلة الملكية . وشعر البعض بضرورة اعطائها درسا تحذيريا (قرض اصابعها في الباب) .

٧

لاكثر من مئة مرة قاموا خلال الليل برش الشرفة بكاملها بالماء ولمائة مرة قاموا برش الحاجز القصبي . غير ان الأجر الحار للارضية كان يمتص الماء خلال لحظة واحدة ليعيده حارا كالزفير من فرن عالي الحرارة . وعندما كان اوغستو يستسلم لبضع دقائق من النعاس يخيل له في الحلم ان الأجر العطشان يتنفس بعجالة وسرعة وشخير .

في الشرفقات المجاورة يتقلب الناس الذين لا يستطيعون النوم في الليلة الخائقة ومن الممكن سماع احاديثهم المنخفضة وبكاء الاطفال وكذلك الضحكات الرنانة والهمس . وفوق هذا كله تنفس الأم المتعب والمتسارع .

لقد جلس الوالد مسندا وجهه الى راحتيه ، لعله نائم ، لقد بدأ الشيب يدب في شعر رأسه ، فوده ابيض تقريبا . يقال ان الصدغ الفضي يثير اعجاب النساء ، اما الصبي فانه يلوي شفتيه باحتقار .

لعله يتعذب حقا . ولعل اوغستو قد غبنه حينذاك في الشتاء ، عندما صرخ به قانلا ، انه ينتظر حتى تموت الام ليستطيع الزواج من اخرى في الحال .

على اية حال ، لقد كان عندما قال ذلك يشعر بأنه قد ظلمه ، ولكنه كان يفعل ذلك بفرح قاس ، فقد كان الاب يحب الوالدة . إنه كان يحبها بالتأكيد . عرفها عندما كان عمره

واحدًا وعشرين عامًا وكانت في الثامنة عشرة من العمر . بعد ذلك أحب نساء أخريات يعرف أوغستو بعضهن ، غير أنها كانت دائمًا الأولى ، كانت الأثيرة لديه .

يا الهي ، لماذا تحدث بصيغة الماضي ؟ هلع لذلك ، فهي مازالت على قيد الحياة ، انني مازلت اسمع انفاسها ، لقد حركت رأسها الآن وتبلبل شعرها من العرق المتصبب ، هذا العرق ايضا من مظاهر الحياة .

نهض وأخذ ماسورة الماء وقام برش الأجر للمرة الواحدة بعد المائة في هذه الليلة وكانت الارضية تجف وراء اقدامه . سيستمر الوضع هكذا . حرارة ساكنة ولزجة وثقيلة لمدة ساعة او ساعتين . وستنخفض درجة الحرارة عند اقتراب الصباح ، عند الصباح يبرد الجو دائما

استيقظت كليوفا عندما كان يرش الطرف الآخر للشفرة ، سمعت خرير الماء ونظرت صوبه ، انه لامر حسن ان يكون قد كَبَّرَ هكذا ، فهو يستطيع الاستغناء عن الأم ، كانت تفضل لو انها استطاعت التعرف على المرأة التي سيعيش معها أوغستو . هل سيعود ابنها في يوم ما الى الوطن ، الى ايطاليا ، فليس هناك شيء اصعب من حياة المقرب .

لاحظ انها تنظر اليه بتينك العينين الكبيرتين الجميلتين اللتين كانتا تنموان خلال الاشهر الاخيرة يوما بعد يوم . كيف انها قد يبست وهزلت . اقرب منها : " أَلَسْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ يَا مَآمَآ ؟ " الا تريدين جرعة من الماء ؟

هزت رأسها رافضة . في هذه الليلة كان سعالها اقل ، فكر بارتياح متفائل ، وفي تلك اللحظة بالذات عاودها السعال من جديد

قفز الوالد ورفعها قليلا ، سمحت له بأن يرفعها ولكنها ادارت رأسها الى الجانب الآخر وامسكت المنديل بيدها لتواصل السعال به . كانت كتفاها الهزيلتان تتأرجحان كأنك تسحب دمية بالخيط . اخيرا توقف السعال فابتسمت منهكة القوى وهي بين ذراعي زوجها . كانت تبتسم هكذا في كل مرة معتذرة لانها مصابة بالسعال ولأنها تعذبهم على هذا النحو .

عندما كانت مضطجعة وقد اسندت رأسها على كتفي الوالد كان منظرهما مثل عاشقين ، ولهذا احنى الصبي رأسه اذ خيل اليه ان من غير اللائق ان ينظر اليهما " يا أوغستو " قالت بصوت واضح قديم وقد مدت اليه يدها وعبثت بشعر رأسه ، ومسح هو وجهه بقفا يدها . كانا يتلاطفان هكذا دائما ، وقد شعر الآن بأن جلدها قد احدث صوتا

عند هذه المداعبة وكأنه من الورق اليابس

"يا جيورجي" قالتها بذلك الصوت الواضح القديم نفسه والفتي ، وقالت ذلك وكأنهما يلتقيان بعد وقت طويل جدا
وبعد ذلك توفيت

في تلك الليلة الخانقة من آب ، وقبيل ان تنخفض حرارة الجو في النهاية ، توفيت في بغداد كليوفا دي لوتي الايطالية المولودة في تركيا ، حفيدة غاريبالدي بيرتي المولود في فيرونا ، وكانت في التاسعة والثلاثين من العمر

"بقينا وحيدين ايها الفتى " قال جيورجي دي لوتي .
انتي بقيت وحيدا ، فكر بمראה أوغستو ، أما أنت فلا .

الخاتمة

حيث ما يقع نظرك ، في كل البساتين الممتدة على شاطئي دجلة ترى الزهور البيضاء والوردية والارجوانية للاشجار المزهرة وكأن سحابة ملونة تسبح على ارتفاع منخفض فوق الارض . وتتفتح براعم عشوق اشجار نخيل الزينة واشجار النخيل التي لاتمثل مجرد وعد بالزهور والثمر الحلو وانما ايضا رمزا للحياة منذ اقدم الازمنة .

بعد اسبوع او عشرة ايام ستكون اشجار النخيل في ذروة ازدهارها ولسوف تملأ المنطقة برمتها تلك الرائحة المسكرة الحلوة

في العريشة المغلقة من الجهات الثلاث بجدران من فروع الاشجار المضفورة بكثافة شديدة والتي تفتح فقط جهة النهر نزعنا النسوة احجبتهن وجفن العرق المتصبب وتمددن بارتياح تحت اشعة الشمس . غير انهن الآن ايضا يحرصن على وجود العباءة على مقربة منهن حذرا من ان يمر زورق من هنا حتى ولو كان بعيدا في وسط النهر العريض . في مثل هذه الحالة سوف يتحجبن بسرعة فائقة لانهن يعلمن بوجود المنظار

نزعنا فلاستا ستره بدلتها ومدت بامتنان يدها نحو سلة الفاكهة الجميلة والمغرية وكأنها قد رسمت في لوحة هولندية توحى بالهدوء

انهم يقشرون البرتقال وينهشون باسنانهم الخوخ (البرقوق) ويتحدثون بارتياح ولذة في هذا اليوم الدافئ من ايام شباط

أنا الفتاة التي تبلغ السابعة عشرة من العمر هي البنت الصغرى لأسرة محمد ، لاتعرف الاستقرار ولا تريد الجلوس على الكرسي الوثير وهي بالتأكيد ترغب في الركض فوق الارض المعشبة نحو النهر ، غير ان هذا امر غير ممكن ، الا اذا تبرقت بالعباءة

إنها لخسارة ان يغطي الحجاب هذا الوجه الجميل ، فكرت فلستا ، وكأنهم قد غطوا لوحة جميلة بقطعة من القماش الاسود او انهم غطوا هذه الاشجار المزهرة"

قالت أنا حاملة " آه لو استطيع الذهاب معكم الى اوربا ، انني اتوق بشدة للذهاب الى هناك في يوم ما . فلقد قرأت مؤخرا كتابا عن باريس... " نظرت الفتاة نحو فلستا بعينين واسعتين متلهفتين كأنهما نجمتان سوداوان

وقعت عليها نظرة الام اللائمة : عليك التخلي عن مثل هذه الافكار المغامرة ياابنتي وتأوهت اننا نواجه كل هذا لاننا سمحنا لها بتعلم القراءة . لقد قلت للوالد انه لايمكن ان يفضى ذلك الى أي شيء ايجابي .

يا إلهي ، انهم اغنياء ، اغنياء لدرجة ان بمقدورهم القيام برحلة لكل الاسرة حول العالم ورغم ذلك فهم لايعرفون غير سفرات يوم الجمعة هذه الى بيتهم الصيفي عند نهر دجلة والقيام بعض الاحيان بزيارة الأماكن المقدسة . في الصيف سوف يأتون هنا للاقامة مدة شهرين وسوف يواصلون الجلوس هنا في العريشة او على الشرفة ، وسوف يمارسون اعمال التطريز ويتحدثون حديثا لانهاية له عن الزيجات في أسر الاقارب وعن فيضانات تشرين الثاني في بغداد وعن ما شابه ذلك من الامور المثيرة . فهل امر النبي محمد يمثل هذه الحياة المنعزلة ؟ بالتأكيد لا

نعم سوف تسافر فلستا هذا العام الى اوربا ، ليس الى باريس التي تتوق أنا ذات العينين السوداوين الى زيارتها وانما الى براغ والى بيسك وكذلك الى برنارتيته . ومن المؤكد انها سوف تتوقف في طريق العودة في بولونا وفي فيرونا . بعد اربعة اشهر سوف تسافر . ان ذلك امر مؤكد هذه المرة .

"لديك خاتم جميل ياد كتورة" قالت ذلك ليلى نسيبة أنا وقد أخذت كف فلستا بين يديها ذات الاصابع الدقيقة " كنت اعتقد أنك لاتترينين بالخلي"

زوجة محمود الابن الثاني للأسرة والمحامي الناجح تقدر هذه الاشياء . فإن ليلى غير جميلة . حقا لها عينان جميلتان تتدفقان حيوية غير ان وجهها ضيق وحاد التقاطيع يتوسطه

انف طويل ، لذا فإن الحجاب رحمة لها . ولعلها بسبب افتقارها للجمال تحب الاشياء الجميلة وتفهمها . ولعلها ايضا تشعر بشيء من الغضب ، ففي شهر رمضان الماضي اهدت فلاستا سوارا فيروزيا ولكنها لاتتزين به .

كيف تستطيع ان تفسر لليلى وللنسوة الارباع اللواتي يتحلقن لمشاهدة الخاتم وحجره البيضاوي الشكل ذي اللون المائل الى الخضرة ، انها لاتحمله لمجرد الزينة ؟ انه في الواقع . ؟ رمز ، ام انه وعد والتزام ؟ هل يعرفون هنا على الاطلاق خاتم الخطوبة "

"تلقيته هدية" ابتمت "انه جميل اليس كذلك ، وقد خطر لي ان اتزين به اليوم . لانني لن اضطر الى غسل يدي باستمرار"

حقا إنها لاتلبسه في الايام الاعتيادية . فإن حمل الخواتم غير ملائم لغسل الايدي باستمرار وارتداء القفازات المطاطية . وهي لاتلبسه حين تقوم بعمل آخر ايضا

في احد الايام وكان عمر ميلادا حينذاك عشر سنوات او إحدى عشرة سنة جاءت من احتفال شعبي وكانت تتزين بخاتم جميل . اعجبها كثيرا وكان له حجر من الزجاج الاحمر .

"انزعي هذا الخاتم في الحال" امرها الوالد بهدوء وحزم . زيني يديك بالعمل وليس بالاشياء التافهة للماعة"

نزعت الخاتم باكية وقام الوالد برميها من النافذة .

في المساء خرج ياركا خلسة من الدار وعثر على الخاتم تحت احدى الاشجار وقامت ميلادا باخفائه وراء عارضة السقف . ولعله مازال هناك حتى اليوم

٢

قبل شهر وفي نهاية كانون الثاني ، ذهبت مع جيورجي وقد امتطيا ظهور الخيل الى بابل . الفرس الاصيلة الطيبة البنية سعده والحصان الرمادي الأرقش أدهم يخبان إلى جانب بعضهما ، وبين حين وآخر ترن الحدوة عند اصطدامها بصخور الطريق . عدا ذلك يسود السكون كل شيء ، ولعل ريح الصباح الرملية التي هدأت للتو قد اسكتت كل الاصوات . جيورجي يلتزم الصمت هو الآخر . لماذا ؟ هل يواجه مصاعب جديدة مع أوغستو ؟ القت عليه نظرة من طرف عينها كان يحدق امامه مقطباً وكأنه يفكر

عندما خيل اليها ان الصمت قد استمر اطول مما ينبغي بادرت الى الحديث

تحدثت عن ابويها وكيف كان ابوها يزرع مع تلامذته صفوف اشجار الزيزفون في المدينة الصغيرة ، وتحدثت عن اشجار السرو الاربعة امام دارهم والتي تصل حتى نافذة الدور الاول . كما تحدثت عن عزمها على ان تقنع والدها في الصيف بالتخلي عن فكرة بيع دارهم في برناريتيسه مهما كلفها ذلك من جهد

نظر اليها بعينين قلقتين : " فلاستا ، هل ستعودين الى هنا ثانية ؟ الا تقررين البقاء في تشيكوسلوفاكيا ؟ "

"كيف خطر لك مثل هذا الامر ؟ " قالت مدافعة " هل تعتقد انني تحملت الكثير خلال مراجعة الدوائر الرسمية وخلال إقامة المستوصف ، لأترك بعد اقل من سنتين كل شئ هنا في مكانه وأهرب ؟ "

"إنني لسعيد بهذا" قال ذلك وعاد الى الشكوك من جديد " المهم ان لاتستجيبى لمحاولات اقناعك في البقاء هناك"

"ليس من السهل اقناعي كما تعلم ، الم تقل لي انت بالذات اكثر من مرة أنني عبيدة ؟ "ابتسم . والتقت بعينيه البنيتين العميقتين اللتين كان في عمقيهما شئ من الحزن وشئ من السخرية حتى عندما يبتسم .

"انتي اعرف حبهم لك ، الوالدين والاخوة والاخوات وحتى ماريا . غير انني احبك اكثر يا فلاستا . لا تسخري ، إنني افكر بذلك بصورة جدية ما بعدها من جدية في العالم . وبودي ان اسألك : هل تقبلين بي زوجا لك ؟ " قال ذلك وسحب عنان الحصان دون تفكير ، فتباطأت سعدة ايضا التي اعتادت الخطو الى جانب ادهم بالوتيرة نفسها

"اعتقد أنني استطيع الاجابة بنعم " لكز جيورجي الحصان ادهم بركبتيه وحفزت فلاستا فرسها البنية . وهكذا وصلا الى بابل عدوا

عندما إتكا على انقاض الجدار القديم لينظرا الى اسفل حيث الحفريات اخرج جيورجي من جيب سترته حجرا عقيقيا كبيرا لونه حليبي مائل الى الاخضر وله شكل بيضاوي ووضعه في راحة يد فلاستا كان مايزال دافنا بفضل حرارة جسمه .

"اسمعي يا صغيرتي ماريا ، اريد ان اقول لك ما ارجو ان لاتطلعي احدا عليه . الآن في الاقل ربما سوف اتزوج في نهاية المطاف الرجاء ان لاتفزعني ولاتبكي عليّ كما تبكين لضياح جديد ، لانك لن تفقديني حتى حين يقع ذلك . الانسان الذي يأمل ان اتزوجه ، إيطالي في الاربعين من العمر وهو حفيد ثوري من البندقية في عام ١٨٤٨ اضطر جده الى مغادرة ايطاليا لاسباب سياسية إنه الانسان الذي اعتقد انني استطيع الزواج منه دون خوف من تعرض العمل والمهمات التي اخذتها على عاتقي الى اي ضرر بعد الزواج .

منذ بداية اقامتي هنا والاصدقاء المسلمون يعبرون لي عن رغبتهم في ان اتزوج في هذا البلد لأنني كما يعتقدون سوف اتحمل البقاء هنا بصورة افضل . ولعل من الاسلم ان أملاً حياتي الانسانية هكذا . ففي الوقت الراهن حيث اعيش بعيدة عنكم جميعا يا أهلي واسرتي اجد من السليم ان أبني هنا أسرتي الخاصة لاضع بذلك حجرا جديدا في بناء البشرية .

ولسوف نرى"

لم تكن فلاستا قد فكرت قبل ذلك في الزواج قط . فقد كتبت في احدى رسائلها الى

ماريا تاور

"لم اكن اثق بأنني سوف التقى مرة برجل يتحلى بالاخلاق والشفافة التي تؤهله لأن يصلح زوجا لي . كانت تقيم نفسها تقييما رفيعا ولم تحاول إخفاء ذلك . " ينبغي ان يكون انسانا استطيع احترامه وتقديره دون ان ينتظر مني الاطراء والمبالغة في الاعجاب به"

بصورة عامة كانت تعتقد انها حين تريد الزواج ينبغي ان تتزوج رجلا تشيكيا . والآن وقد لعب معها القدر على هذا النحو ، ارادت ان تصحح الامور بما يمكن : " لن اتزوجك قبل ان تتعلم اللغة التشيكية . " قالت لجيورجي وبدأت تعلمه .

وافق سليل غاريبالدي الفخور بنفسه على هذا الشرط ، وكان موهوبا في تعلم اللغات . حفظ الكلمات الجديدة بمشاهدة وعزم . وبعد بضعة اشهر فقط حمل البريد الى تشيكوسلوفاكيا ظروف الرسائل التي تتضمن ما يلي

تم عقد قران السيد جيورجيس سيلفيو دي لوتي والدكتورة فلاستا كالالوفا

في بغداد يوم ٢٧ حزيران ١٩٢٧

كان يوم التاسع عشر من حزيران يوم احد ، وهو يوم عمل اعتيادي في المستوصف الاسلامي . وكانت العيادة تغص بالمرضى منذ الصباح الباكر . فقد كان عدد المراجعين في ذلك اليوم يزيد على عددهم في الايام الاعتيادية بخمسة اضعاف ، لانهم علموا ان الدكتوراة سوف تغادر غدا الى اوربا لمدة ثلاثة اشهر .

وهكذا انغمرت العروسة في العمل بالعيادة بدلا من ان تنصرف لارتداء بدلة العرس . وعلى عجل ارتدت البدلة في اللحظة الاخيرة وقامت بتمشيط شعر رأسها في السيارة .

ساد الصمت دار البواقين طيلة ربع سنة . مهدي والممرضتان المساعدتان اخذوا اجازة . وبقيت الطباخة فقط في الدار اذ لم يكن لها مكان آخر تتجه اليه . وكانت روث تنوي السفر مع الزوجين الجديدين ولكنها لم تنتظر وغادرت الى اوربا قبل زواجهما باربعة عشر يوما

رحلة الزواج

ثلاثة اشهر ، عندما يكون الانسان في البداية ، تبدو له - لنقل ربما ليس كبحر من الزمن ، وانما مثل بحيرة فضية كبيرة . وانه سيجد الوقت الكافي لانجاز كل شيء في العالم قبل ان تنفذ قطرات تلك البحيرة ثانية بعد ثانية :

سنذهب الى كل مكان ولسوف اريك كل شيء ، ولسوف نزور الجميع ونتحدث الى كل منهم ، ونستريح بشكل رائع . سنقوم بسفرة الى شومافا ونقوم بزيارة سلوفاكيا ونستلقي في حديقة برناريتسه ونتحدث بالتفصيل مع الوالدة والوالد ونقرأ الكثير من الكتب .

وتنزل القطرات الفضية للأشهر الثلاثة لتجد انك لم تكدي تنجز العشر : اسبوع واحد في براغ ، ثم قفزة قصيرة الى بيسك ، وعشرة ايام في هاراخوف (خمسة ايام منها قضتها فلاستا في فراش المرض لاصابتها بالتهاب الحنجرة) ثم الى بيسك ثانية ، ولم تتحقق الرحلة باللاتوييس الى شومافا وخودسكو . ووجدا الوقت لقضاء يوم ونصف اليوم في برناريتسه ، وبعد ذلك لحظة في براغ وانتهت الاشهر الثلاثة تقريبا . وفوق ذلك " نريد ان نتوقف خلال طريق العودة مدة اسبوع في القدس وان نزور بيروت زيارة خاطفة"

رغم ذلك استطاعت فلاستا تحقيق الهم من الامور . فبعد ثلاث سنوات التقت بأبويها وعرفتاهما على زوجها ونجحوا جميعا في اقناع الوالد بالعدول عن بيع الدار التي تقع في برناريتسه لاناس غرباء .

"قولي رجاء ما الذي يشدك الى تلك الدار ، فهي ثلاجة من الحجر ، انني لسعيدة اذ غادرتها ، هناك فقط اصبت بالروماتيزم " احت الام بصورة لاثتمل

كيف يتسنى لفلاستا المعروفة دائما بالموضوعية والحكمة ان تعترف بعاطفيتها ؟ اشارت بصيغة تغلب عليها السخرية الى كيف انها في صيف بغداد الحار كانت تتذكر الغرف الباردة لدار برنارتيتسه . وكيف انها لاتريد مفارقة بستان ابوها وما فيه من عرائش اللبلاب واشجار الفاكهة والورود وزاوية الغاب الرومانطيقية تحت اقدام القمة المقدسة ، حيث كانت تحب الجلوس .

ترك اطراء البستان اثرا طيبا في الوالد وحسم هذا الامر . فكرت فلاستا ، حين سيكون لي اطفال ، سيكونون هنا سعداء كما كنت انا

أطلعت جيورجي على براغ وقاما بزيارة فيشهراد والقلعة والزقاق الذهبي والبنر الذهبية . واطال زوجها اطراءه لجمال براغ - هو الذي عرف اسطنبول واثينا وبيروت وبغداد وتجول قبل بضعة ايام في القاهرة ونابولي وروما والبنديقية . وكانت فلاستا سعيدة لانها هنا ثانية ولأنها هنا معه بالذات مسحورة بجمال جيورجي سيلفيو دي لوتي .

قالت بارتياح بان نسيبها ، الذي تعتبره الاسرة مليحا ، يبدو الى جانب جيورجي متوحشا ، كما ان سلوكه رغم كونه واثقا من نفسه ومجاملا يثير الانطباع بانه يفتقر الى الظرف الى جانب الانيق والفاتن جيورجي سيلفيو دي لوتي .

وقد اعتقد بعض اقاربها ممن لم تحدثهم عن مهنته بانه دبلوماسي

على اية حال ، انها ليست بالفكرة السيئة . فإن الجمهورية التشيكوسلوفاكية تحتاج في كل الاحوال الى قنصل في العراق ، ومن الصعب ان تجد احدا يعرف الاوضاع في العراق كما يعرفها هو ، ومن المؤكد انه يستطيع تقديم خدمات مهمة للجمهورية التشيكوسلوفاكية اذا ما اصبح قنصلا لها . ولسوف يتعلم اللغة التشيكية كما سيطلب بمنحه الجنسية التشيكوسلوفاكية في اقرب وقت ممكن

في وقت مبكر بعد وصولها تعرفت فلاستا في براغ على المريضة المتخصصة ماري ماريينونفا ، التي ارادت ان تسافر معهم الى بغداد . وقد اعجبت المريضة ماري فلاستا كثيرا . فهي لطيفة ومقبولة رغم انها غير رومانطيقية وليس ذات جمال خارق ، وهي مرحة وعملية ولاشك في أنها ستعمل بشكل جيد

وافقت ماريا ايضا على الاقتراح في ان تكون اول من تختبر فلاستا عليها الطريقة الجديدة للوقاية من الدملة البغدادية . وكانت فلاستا الى ذلك الحين تزيل الدملة التي تخلف الاخث البغدادية عن طريق الاستنصال الكهربائي

فقد استخدمت تلك الطريقة القديمة لتصفية دملة الاخث البغدادية في بدايتها عندما اصيبت بها هي بالذات وكذلك عندما اصيبت بها الممرضة روث وعشرات المرضى الآخرون ولأول مرة جربت على ماريا الطريقة الشبيهة بالتلقيح

ففي تموز عام ١٩٢٧ قام احد المساعدين في مستشفى البروفيسور يراسيك في براغ بنقل شريط ضيق من جلد فلاستا القريب بصورة مباشرة من اثر الاصابة بالاخث البغدادية في كتفها الى كتف الممرضة الجديدة . وتكلفت عملية النقل هذه بالنجاح . ولم تصب الممرضة ماريا طوال السنوات الثلاث التي عاشتها في بغداد بالاخث البغدادية . بعد ذلك قامت فلاستا بتلقيح اطفالها واثني عشر مريضا آخر ضد الاصابة بالاخث البغدادية بهذا الاسلوب نفسه .

لقد نجحت ماريا تاور في التحرر من المكتبة لبضعة ايام والمجيء الى بيسك لتلقي فلاستا

تجولتا معا في الطرق الضيقة بين الحقول . وقد التزمتا الصمت اكثر من الحديث . فقد كان لهما اسلوبهما المتميز في التلميح والتفاهم التام .

ولم تكشف فلاستا حتى لماريا ، التي اصبحت بعد سنوات عديدة الانسان الاقرب اليها بعد والديها ، واقع انها تزوجت رجلا له ابن في العشرين من العمر .

بعد زواج الاب اختفى أوغستو وكان الارض قد ابتلعتة . هل بقي في العراق وعاش وحيدا معتمدا على نفسه ؟ ام انه غادره حينذاك واتجه نحو اقاربه في ايطاليا ؟

الاثر الوحيد الذي خلفه هو عنوانه في (جانوف) المكتوب في دفتر مذكرات فلاستا

٢

في طريق العودة توقفت اسرة دي لوتي في بيروت لزيارة انيس . دار جديدة في حي حديث . يبدو واضحا ان الاستاذ السابق في دار المعلمين ، لايعاني العوز المادي . خرج لاستقبالهم مرتديا بدلة اوربية صيفية بلون رملي فاتح وكانت رائحة التفصيل ، وقد اوشكت

فلاستا ان لاتعرفه .

"كيف حالك يا أنيس " سألته عندما انفردا لحظة قصيرة

"كما ترين" فتح ذراعيه مشيرا الى ما حوله . وابتسم بمראה

"إنني اكتب الطلبات والعروض التجارية باللغات الاجنبية واستقبل الممثلين التجاريين الاجانب . وبالإضافة الى المسكن والغذاء اتلقى راتبا جيدا . ولأقل الحقيقة فإنني أتسلم ضعف ما كنت اتلقاه كأستاذ"

"أحنى رأسه وكان يعبث بغطاء قلم الحبر " لو كنت استطيع التدريس ، لفعلت ذلك حتى ولو مجانا . صدقيني

صدقته ، فإنه سوف يتخلى عن كل المستلزمات الحديثة لتوفير الراحة . لقاء حصة درس للأطفال الذين حلقت رؤوسهم . شعرت برغبة جامحة لأن تمد يدها لتمررها على وجهه ، لكنها لم تفعل ذلك خشية ان يفسر الامر بغير ماتريد

"عندما غادرت يا انيس . سمعت اسمك ربما مائة مرة في اليوم ، كان يتردد اكثر بكثير من السابق ، فلقد حققت لك تلك القضية شهرة واسعة"

"أعلم ذلك ، فإن الكتاب الذي شردت من اجله تم بيع جميع نسخه خلال يوم واحد ، للأسف انني لم استطع طبع اكثر من خمسمائة نسخة منه حينذاك ، فلم تتوفر لدي في وقتها القدرة على تغطية تكاليف الطباعة والنشر للمزيد"

"أنت قمت بأصدار الكتاب على نفقتك الخاصة؟"

"وهل كان لي خيار آخر ؟ هل تعتقدين بوجود صاحب دار نشر واحد يجرو على ذلك؟"

"مما لاشك فيه انه لن يخسر لو فعل ، فقد باع التجار النسخة منه حتى بعشرين روبية"

"هكذا اذن . قام التجار ببيع الكتاب وحشروا النقود في جيوبهم وذهبوا الى المقهى ليشتموا ذلك المرتد الغادر أنيس "

ابتسم وابتسمت فلاستا ايضا . لتوادع ونحن نبتسم .

في نهاية ايلول عادا الى بغداد وعندما فتح مهدي الباب الكبير وأحست من الحوش برائحة البلاو . طعام شرقي يتكون من الأرز واللحم والتوابل) الذي تعده مريم قالت بلا تفكير "إننا الآن في دارنا"

ما هذه الحماسة . فعندما غادرنا قبل ثلاثة اشهر الى اوربا قالت اننا نساغر الى دارنا وكنا هناك في دارنا واليوم نعود الى دارنا

رغم ذلك فإنها لا تستطيع عدم الاحساس بشعور العودة المريح . رحبت بلقائنا الاشياء القديمة : جرة الماء الخضراء ، في الطاقة فوق السلام ، وحصيرة ألياف القصب في الشرفة والحصيرة المزينة بالرسوم التي زينت بها أرضية البيوت السومرية قبل ستة آلاف سنة .

في سقف غرفة النوم التقت بصورتها التي ضاعفتها وكسرتها عشرات سطوح المرايا "يا إلهي ، انني ابدو بهذا الشكل" مررت يدها فوق شعر رأسها وكأنها تستطيع بذلك تحسين اي شيء،

احتل جيورجي الحمام cara mia لن تكادي تغيري ملابسك ، حتى أكون قد خرجت من الحمام) . كانت هنا المغسلة ، إناء جميل من القصدير المطوع وقربها ابريق من القصدير فيه قليل من الماء العكر المتبل والعطر من نهر دجلة . من جديد عاودها الاحساس بالامتنان لانها التقت من جديد الاشياء الحميمة التي تعرفها في المنزل . لقد اعتادت الحياة هنا . فكرت في دخيلتها كنت عموما اعيش في كثير من الاحيان خارج دارنا : في فيينا وبراغ و سلاني وبرنو وبولونا واسطنبول . كما يلعب دورا في ذلك ان الابوين قد غادرا دارنا في برناريتيسه ، وقد تزوجت ، خطر في ذهنها فجأة ، هنا بالذات يكمن التحول الرئيس تزوجت وسوف اعيش بعد الآن هنا مع جيورجي وربما مع الاطفال إن سمح الله بذلك . هكذا لقد اسست اسرتي . الآن هنا هي داري .

خلعت ملابس السفر المغبرة مشتة الافكار . غسلت وجهها . بعد ذلك لاحظت كومة الرسائل على الطاولة الصغيرة . لا بد ان تكون الصفرة قد اعتلت الكثير من رسائل وبطاقات التهنية بالزواج وكذلك الفواتير . فوق الكومة تماما كانت هناك برقية . وقد كتبت بخط غير واضح اضطرت إلى قراءتها ثلاث مرات لتفهم مضمونها

توفي الوالد يوم ٩/١٤ على إثر نوبة قلبية . أنا كاللوفنا

الرابع عشر من ايلول ، اي بعد مغادرتهم لمدينة بيسك باسبوع واحد . في الرابع عشر من ايلول كانا في القدس يتجولان بلا هدف في المدينة مثل السياح الآخرين ، دون ان يتوقعا أي شيء ، أي شيء ، على الاطلاق .

خيل لها ان الوالد في صحة جيدة تماما . كان نشيطا ومرحا عندما رافقهم خلال التمشي لمسافات طويلة في ضواحي مدينة بيسك . وكان يلحق بالجميع ويسبقهم . وكانت مشية جيورجي غير المتعجلة ، وهو غارق في افكاره ، مجرد تسكع في نظر الوالد

اليوم هو الخامس والعشرون ، من المؤكد ان التشييع والدفن قد تمّا . وقد نقلت ميلادا الوالدة الى براغ . فكلما تطرق الحديث الى هذه الاشياء كان الوالد يؤكد انه يحرص على ان تجري مراسيم التشييع والدفن بهدوء وبدون اية ضجة او ابهة . " على الانسان ان ينعم بالافراح خلال حياته وان يخلد الى الهدوء بعد موته . " كانت هذه مقولته .

من المؤكد انهم دفنوه في بيسك . لو انهم دفنوه في مقبرة برنارتيته في الاقل تحت اشجار اليزفون التي غرسها هو بالذات . الآن فقط انفجرت بالبكاء .

لا بد أن تخبر جيورجي بذلك . كانت تسمع من مكانها عبثه بالماء في الحمام وترديده لبعض الاغان .

لقد دخلت دار طفولتها في عداد الماضي الى الأبد

ليهك الله ابناً يبقى حياً

عند مدخل السرداب ، تنمو شجرة صنوبر صغيرة ، غرست في اناء الاسماك المملحة (البستوقة) . ونستطيع اليوم القول انها بدأت تنمو حقا . فقد تحولت البراعم العليا الى نجوم فاتحة الخضرة للاغصان الجديدة . ولكن كم تطلب ذلك من الرعاية والقلق ونبش التربة ورش الماء برقة وعناية من اجل ان لاتذبل ومن اجل اقتاعها بأن تمد جذورها الدقيقة ، مادامت ستحظى بشرف ان تكون في الأغلب شجرة الصنوبر الوحيدة في بغداد

من الممكن إبقاؤها هنا خارج السرداب مدة اسبوع او اسبوعين ، حيث تثير اعجاب المرضى والزوار كشجرة نادرة بعد ذلك ترحل الى السرداب من اجل ان لاتعرض الى اليبوسة بسبب حرارة الصيف العالية وفي سبيل ان تبقى حتى ايام اعياد الميلاد في العام القادم حيث سنكون بأمس الحاجة اليها

وصلت الينا هذه الشجرة الصغيرة قبيل اعياد الميلاد من مدينة برنو ، وقد غلفت جذورها الدقيقة بالطين واحيطت بالطحالب قبل ان ترسلها لنا ماريا تاور . واهتم بهذه الارسالية العلمية الخاصة الموظف بدائرة البريد في مدينة برنو فلاديمير فاشيك - الذي عرف فيما بعد باسمه الادبي كشاعر كبير بيتر بزروتش - .

"أتمنى لكما باسمي واسم الوالدة ، اعياد ميلاد جميلة والكثير من السعادة في العام الجديد وفي جميع الاعوام القادمة " كتبت ماريا في رسالتها وازافت " كثيرا ما اتذكر ما

بعد ظهيرة احد الايام قضيتها معكم في مدينة بيسك ، وكيف واجهتنا العاصفة عندما كنا تمشى للنزهة ، واتذكر ذلك القوس قزح الرائع الذي انعقد فوق المنطقة كقوس كبير . لم اكن قد شهدت قوس قزح كهذا من قبل ، خيل لي انه بوابة الجنة . واعتقدت انه بشير خير لك يافلاستا ، فلسوف تكوني سعيدة"

إن الرسائل التي ترسل من بغداد الى تشيكوسلوفاكيا تؤكد ان فلاستا سعيدة حقا

إنها سعيدة بين الفحوص والتحليل والبلهارزيا وأورام والتهابات الكلى ، إنها سعيدة رغم الاستيقاظ في الساعة الثالثة صباحا لتستطيع قبل الرابعة بدء اجراء العمليات الجراحية مستغلة برودة الجو . وحين لاتتضمن خطة عملها اليومية اية عملية جراحية ، تنهض قبل انجلاء الظلام لتستطيع الذهاب مع الفجر الى الصحراء لجمع الحشرات ، لأن الألف الاول السابق من نماذج الحشرات ، انتهى نهاية مأساوية في دائرة الجمرك .

كما أنها اكثر من مرتاحة للممرضة الجديدة .

إن الممرضة ماريانينوفا لطيفة ومرحة وعملية وجريئة بدون تبجح . في الاصل كانت تريد السفر الى الهند لتعمل هناك بضع سنوات . ولم يكن في ذلك اي شيء من الرومانطيقية او اي ميل للتضحية . فقد فكرت ببساطة أن على الانسان ان يساعد ولو لفترة قصيرة في المكان الذي تكون فيه الحاجة للمساعدة على أشدها . وعندما كان رابندرانات طاغور يلقي محاضرة في براغ سألته بعد المحاضرة عما اذا كان بمقدورها العمل في الهند

"من المؤكد أن هذا ممكن " قال الشاعر " ولكن فكري في الامر جيدا . اذ يوجد فرق واحد بين آسيا وأوربا ، بين الشرق والغرب . في الغرب يعيش الانسان بسهولة ويموت بصعوبة . وعندنا يعيش الانسان بصعوبة ويموت بسهولة كبيرة

غير أن الممرضة ماريانينوفا لاتقتنع بسهولة في التراجع . اذ انها وافقت ولو بوقت متأخر الى حد ما على العرض الذي قدمته فلاستا واخذت بنصائح الاصدقاء مستبدلة العراق بالهند

"ماريانينوفا من طينة اخرى ، انها مختلفة تماما عن الاثنتين السابقتين " قالت فلاستا بسرور ، ونسيت ان وضعا آخر يسود الآن في دار البواقين . لايمكن القول ان دخول جيورجي يعني اقامة مهرجانات باخوس ، فهذا ما لايمكن ان تسمح به ولكنه وضع نهاية لليالي التقشف . كما حلت نهاية الوحدة المضجرة والامسيات الكئيبة . كان لجيورجي سمع

مرهف لدرجة مطلقة ولم يتنكر لأصله من مدينة البندقية ، فهو كثيرا ما يفني ويعزف على مختلف الآلات الموسيقية من البيانو حتى البانجو . وكانوا يستقبلون الزيارات ويذهبون لزيارة الآخرين . وكانت الناسكة فلاستا (على الانسان أن يتعلم العيش وحيدا ، اذا كان يريد تحمل البقاء هنا) تزدهر امام الانظار كانت ايضا كوسكوبا في وقتها تفكر متأملة : " انه أنيق وجميل وكأنه ممثل سينمائي كم اود ان اعرف ما الذي يجذبه فيها ؟ ولم تكن روث متأكدة فيما اذا كان ذلك اقرارا ام تساؤلا . غير انها تذكرت بضعف : " ان لفلاستا عينين جميلتين وتستطيع النظر بلطف حين تريد ذلك "

ولقد فاتهما - ربما بسبب جو الوحدة وعدم الرضى السائد حينذاك في بيت البرزنجي - أن لدى فلاستا هبة لانتوقف على الجمال وهي بشكل ما تعني اكثر من الجمال : كانت فلاستا تتسم بالفتنة . وهذه الفتنة بالذات تجتذب جيورجي سيلفيو وضيوف داره الذين يعرفون كيف يقيمونها

٢

كانا يردان على اسئلة الاوربيين عما اذا كانا سيحضران الى اوربا في صيف هذا العام بصورة مراوغة : هذا العام لن يكون ذلك ممكنا ، فهناك امور لايمكن تأجيلها تفرض بقاءهما في بغداد

لم يكن ذلك مجرد تبرير . فليس هناك من امر لايقبل التأجيل مثل الولادة . كان من المنتظر ان يولد الطفل في منتصف الصيف ، في الفترة الاقل ملاءمة للمولود الجديد . كان القلق عليه يقض مضجعا قبل ان يشهد النور

في السابع والعشرين من تموز ، وفي الليل دعوها لعيادة طفل في حالة مرضية خطيرة . كانت تنزل السلالم من الشرفة لتتجه نحو السيارة حين احست بألم طفيف . ولكن من المفروض ان يكون ذلك بعد ثلاثة اسابيع

السيارة تشير ضجة كبيرة خلال سيرها نحو الحي البعيد بسبب سوء نوابضها . هاهو الالم يعود من جديد . يعود ذلك الالم الذي يجلد الانسان وكأنه سوط من الفولاذ

اجتمع حول سرير الطفل المريض ثلاثة اطباء . عبثا كان الصبي يحتضر ، دون ان

يتوقف ذلك على عدد حملة شهادات الطب المجتمعين حوله والذين يشاهدون احتضاره بمنتهى العجز

مرة أخرى - هذه المرة لم تستمر الفترة الفاصلة اكثر من عشر دقائق . الفترة الفاصلة بين الموجات الكهربائية للألم تتقلص . هل ستستطيع الوصول الى البيت عموما ؟

لو انها تستطيع في الاقل ايصال خبر الى ماريانينوفا ، لتنهض من الفراش وتستعد جيورجي سافر الى البصرة ، ربما هذا هو الافضل . فلقد شاهدت فلاستا الكثير من حالات الولادة و هي تدرك ان لا جدوى من حضور الآباء

عادت بالسيارة التي تسيير بضجيج كانت تغرس اظافرها في قماش مقعد السيارة ، ها هي تتابع حركة عقارب الساعة : الالم يعود الآن كل خمس دقائق

أيقظت ماريش (ماريش هو الاسم المصغر لماريانينوفا - المترجم) وساعدتها في اعداد كل ما ستحتاجان اليه ، كما لو كانت تستعد لاجراء الولادة لامرأة اخرى .

وعندما عاد جيورجي بعد ثلاثة ايام من رحلته الرسمية قدمت له ماريش ابنه .

استقبله استقبالا عاصفا ، لم يتذكر مطلقا توفقه لأن تكون له ابنة . كانا يريدان بنتا حتى انهما لم يهيئا اسما للابن .

"لابد لاسم الولد ان يتضمن حرف الراء ، لأجل ان يكون رجلا وشديدا " قال الأب مدافعا "إنني لا احب الاسماء الناعمة ، ولا اسماء الرجال الحلوة"

اجل إن له اسما يتضمن حرف الراء ايضا . إنه جيورجي . حتى لو نادته مائة مرة في اليوم باسمه كما يلفظ باللغة التشيكية حيث يكون الراء ناعما ومخففا ، فإن فلاستا تقوم بمحاولتها الساذجة في هذا الصدد بدافع من وطنيتها الملتهبة ، اذ ليس بمقدور الانسان ان يغير قوميته في الاربعين من العمر حتى ولو كان ذلك بدافع الحب .

حتى ولو أنه سيحدث مرة ، عندما يتعلق الامر بكل شيء ، هناك بين الحقول خلف برنارتيتسه ، سيهز جيورجي رأسه رافضا في رده على السؤال : " هل انت ايطالي ؟ ويقول "إنني تشيكي"

منح اسم رادبور ، تيمنا بالاسم الاول للجد كالال ، لأجل ان لا يستطيع يوما ما انكار اصله التشيكي ولأنه كان شبيها بجده فكرت فلستا ، بعد فطامه علينا ان ننقله الى اوربا وأن نعهد به إلى أسرة ريفية في منطقة خودسكا لتربيته ، حيث الطبيعة الصحية والجميلة والناس الاشداء والغذاء البسيط والعادات البسيطة . وسوف يقومون بتربيته مع اطفالهم الذين سيصطحبونه معهم الى الحقول حيث يبددون طاقاتهم وهما سوف يسافران في كل صيف لزيارته .

كانت فلستا تحلم منذ زمن طويل ، في ان ينشأ اطفالها ، اذا ما أصبح لها اطفال في يوم ما في منطقة خودسكا ، حلمت بذلك حينذاك في اسطنبول حين قرأت رواية "سكريفانيك" للكاتب بارا

"أيها الاطفال قدروا بوروفنا" قال الاب سكريفانيك بعد ان عاد من مسخرة ضجيج براغ وفوضاها "إنني شعرت بالأسف اكثر ما شعرت به للاطفال بالذات هناك . توجد هناك حدائق جميلة وبساتين أيضا وفيها الكثير من الحراس أيضا . هناك ممنوع على الصبي ان يتسلق شجرة وان يستلقي على العشب وان يرمي حجرا او يبحث عن اعشاش الطيور ، وان يشعل النار . هناك ممنوع تنظيم سفرات الصبيان الى البساتين ، ولا يحق لهم قطف باقة زهور او تذوق ثمرة كمثرى ، او اجاصة او تفاحة او قرنة . ممنوع عليهم الركض نحو الغابة لجمع الفراولة والبلوط والجوز

وهناك لاترى العين دجاجة ولا أوزة ولا ثورا ، لاشئ غير الاحجار فوق الاحجار . هذه هي براغ ويقول لي عقلي السليم ان أكبر المساكين هناك هم الاطفال"

احبت فلستا كلينتشى وبوروفنا بار (نسبة الى الكاتب يندريخ شيمون بار - المترجم) فهي عندها في المكانة الثانية بعد برنارتيته وربما في المكانة نفسها كان الاب سكريفانيك يقرأ افكارها ، الاقامة في المدينة غير ملائمة للاطفال وخاصة ليس في المدينة التي يسودها مناخ مثل بغداد . ما الذي يمكن ان ينتظر مثل هذا المخلوق البشري الصغير ؟ الاسهال بسبب الحرارة او الكساح والروماتيزم بسبب السرداب البارد والرطب .

ارسلت ماريا تاور الى فلاستا بضعة عناوين لاسر موثوقة يُعْتَمَدُ عليها في كلينتشي ، حيث يمكن ان يعتنى بالطفل عناية فائقة ، ولكن عندما اطلعت فلاستا جيورجي على مشاريعها اصطدمت بمعارضة شديدة : الريف ، لم لا من المؤكد ان الوضع هناك سيكون صحيا للطفل ، ولكن هذا يتطلب ان نكون هناك نحن ايضا . فلا بد للطفل ان ينمو عند والديه وليس عند اناس غرباء . واستدعت فلاستا بصعوبة الصورة الشعرية لبار عن خودسكا ، مع تصورهما لطفلها وهو يدرج بين الاقحوان القمري في المروج تحت المرصد . لقد ذكرت تلك الصورة الى حد كبير بصورة طفولتها في جنوب الاراضي التشيكية . ولكن حقا كانت على بعد خطوات منها في تلك المروج اسرتها : امها وابوها واشقاؤها ، كان هناك الاحساس المألوف بالامن والطمأنينة بين احضان الاسرة

استسلمت لاعتراضات زوجها : حسنا ، سيكون معنا هنا في بغداد . ولكن ينبغي ان لا تتعلق به كثيرا . فإن من الخطر ان يكون الانسان سعيدا لدرجة كبيرة ، بالارتباط مع الطفل الذي ينشأ في قيظ بغداد ، اذ من الممكن ان يكون الحزن اشد بعد ذلك .
لم يكن عبثا أن يضاف الى الدعاء : " ليهبك الله ولدا " عبارة " يبقى حيا "

٤

عندما بلغ عمر الصبي اربعة اسابيع كان وزنه كيلوغرامين ونصف الكيلو غرام ، وعندما بلغ عمره الشهرين صار وزنه اكثر من ذلك بقليل فقط . انه صغير وضعيف ، مجرد قبضة وركبة وكانت له تحت العينين دوائر سود ، رغم ذلك كان حيويا وكان زقاق الراهبات وما يجاوره على علم برغبته حين يريد تناول الطعام كلما حدث ذلك .

كتبت فلاستا مرة " انه يصرخ بشكل رائع مطوحا في الوقت نفسه بيديه ورجليه . ولديه قدرة رائعة على التعبير بالاشارة الى جانب التقطيب والتجهم في لحظات التأثيرات المعدية غير المريحة . ويبتسم احيانا بشكل حبيب لدرجة تجعل من الصعب على من هم حوله عدم الاعتقاد انهم المقصودون بهذه الابتسامة . وفي احيان اخرى يبتسم بخبث ويقطب جبينه ويتجهم كما كان يفعل ابي ... "

وفي رسالة اخرى كتبت : " إنني مازلت انظر اليه كما انظر الى من سوف افقده في

وقت مبكر ، إنني أخشى التعلق بشدة به ..."

غير ان فلاستا لم تستطع منح نفسها اجازة امومة طويلة جدا ، فقد عادت الى العمل في العيادة قبل ان تنتهي الاسابيع الستة . في الثامن والعشرين من ايلول وبعد يوم واحد من بلوغ رادبور الشهرين كتبت الى ماريا

"اعتقد الآن انه لمن الخطيئة ان لاتضع الدولة قانونا لحماية الامهات وان يجرى العكس بتسريح النساء الحوامل من العمل او أن يمنحن لهن من باب الرحمة اجازة مدة ثلاثة اشهر فقط . ربما ستوافق الدولة بعد بضع عشرات من السنين على منح مكافأة مالية للولادة ، باعتبار بلدنا بلداً يعاني تناقصاً مستمراً في عدد سكانه . على اية حال ، انه لأمر محزن دائما حين تمتد اليد نحو العلاج بدلا من الوقاية . وبعد شهر من ذلك كتبت " ان ذلك واضح بالنسبة لي ايضا ، فقد كان من الضروري ان اصبح بنفسى أمّاً لادرك مصاعب الامهات الأخريات . فحين كنت اعيش مثل الرجال ، كنت مثلهم لا أحس بذلك ..."

انها الآن لاتجد وقتا لأي شيء ، . كم من الكتب قرأت قبل ذلك وكم كتبت من الرسائل . اما الآن فانها تقتصر على الاكثر ضرورة . وعندما يحين وقت الرضاعة تضطر الى ايقاف العمل في العيادة وعليها ان تبرمج العمليات الجراحية بما يمكنها من انهاؤها قبل ان يشعر رادبور بالجوع . لحسن الحظ ان الناس هنا يحبون الاطفال بهذه الصورة . فهي لن تستطيع السماح لنفسها بذلك في اوربا ، هناك سوف يتدمر المرضى ويتوجهون في المرة القادمة الى عيادة اخرى وربما الى عيادة رجل لا يضطر الى الارضاع . من المؤكد انهم سوف ينظرون اليها بتعالٍ وأن دور الامومة سيضعف مكانتها . اما في الشرق فإن الامومة فقط تزيد في هيبة المرأة .

عندما يسمع المرضى بكاء الطفل ، يبادرون الى ارسالها نحوه : اذهبي اليه يادكتورة ، اذهبي وارضعيه ، فنحن بالطبع سوف ننتظر .

٥

بقي الطفل وحيدا لفترة طويلة : نظر الى اوراق سعف النخيل المرتجف والقلق وتأمل الغيوم المحلقة عاليا فوق الشرفة . وتابع بعينيه السوداوين طيران الحمام ، بعد ذلك جاء

الاب . حمله بين يديه ورمى به عاليا حتى لهث الطفل من شدة الخوف والضحك " رادبوريللو كارو بيللو خاطبه باللغة الايطالية ، رادبور الصغير العزيز ، الجميل . كما كان يقول له كذلك " بوفيرا بيستوجيا " أيها المسخ اللعين

الاب يتحدث اليه بالايطالية وتحدثه امه والعمة ماريشا بالتشيكية ويخاطبه مهدي والطباخة بالعربية ويكلمه السائق بالارمنية او التركية . وعندما تكون عندهم زيارة يتحدثون حول الصبي بالفرنسية او الانجليزية . وقد حل الصغير الامر بطريقته الخاصة . فما إن بدأ النطق حتى اختار من كل لغة الكلمات الاكثر بساطة . ومع النطق بدأ الغناء ايضا : ورث عن ابيه السمع المرهف لدرجة كبيرة . كان يلتقط كل لحن حين يسمعه لأول مرة ، لا اهمية لأن تكون الاغنية يونانية او تركية ؟ وحين تغيب عن ذاكرته كلمة تركية يستعوض عنها بكلمة لها ايقاع مشابه من اللغة التشيكية او الايطالية

وتثير رطانته الدولية هذه السخرية والمرح لدى الجميع .

كانت نهاية سنوات العشرينيات - ولم يكن العالم قد اخذ بشيء من الجد رطانة هذا الانسان الصغير ، فلاشك انه بعد ان يكبر ، سوف يميز بين مختلف اللغات ومختلف المعاني . أما الاكتشاف العلمي لحقيقة ان تطور النطق لدى الطفل يرتبط ارتباطا وثيقا بتطور التفكير وان هناك لغة واحدة هي لغة الام الوحيدة التي تلعب دورا تنظيميا مهما بالنسبة لتطوير العقل البشري ، فقد جاء متأخرا لدرجة كبيرة وجاء بالنسبة لرادبور متأخرا للغاية .

دربونة النمل

في تشرين الثاني ١٩٢٩ تم نقل المستوصف التشيكوسلوفاكي من شارع الراهبات الى دربونة النمل . لم تكن فلاستا راغبة في التخلي عن دار البرزنجي القديمة غير انها لم تعد تتسع للأسرة وللمستوصف معا . وفي النهاية سهل إتخاذ القرار السيد البرزنجي نفسه ، اذ استمر بمطالبته بزيادة الايجار رافضا في الوقت نفسه دفع تكاليف الترميم والاصلاح .

الدار الجديدة التي تصل بين شارعين حيويين ، دار واسعة وجميلة بصورة عامة ، غير ان اجمل ما فيها المنظر الذي تطل عليه : على مقربة مباشرة منها ، بل وفي متناول اليد تقريبا ترتفع فوق اشجار النخيل السامقة منارة الحسكة بقامتها الذهبية الرشيقة تزينها فسيفساء ناعمة . وفوق الطوق المتحلق حولها كأنه الخاتم الجميل يرتفع برج صغير تزينه الزهور ويعلوه تاج فيروزي الزرقة . ومن شرفة السطح نستطيع ان نرى على مسافة كبيرة من منارة الحسكة ، منارة اخرى تفوقها جمالا . يحيط بها طوقان كأنهما خاتمان احدهما فوق الآخر

أحب رادبور هذين البرجين الشرقيين الاسطوريين لدرجة التعلق بهما . فهو يجلس القرفصاء عند مشبك الشرفة لساعات طويلة لينظر اليهما وكانت كلمة المنارة من أكثر الكلمات ترددا في قاموسه الدولي .

فلاستا تعلمه في الفترة الاخيرة كلمة الجدة ... جدتي ، لأن السيدة أنا كلالوفا بدأت

اول رحلة في حياتها نحو العالم ، فاتجهت في رحلة طويلة نحو العراق . لم يسبق لها مطلقا أن سافرت خارج حدود بلدها ونادرا ما ذهبت الى ابعد من مدينة طابور . وعندما تزوجت ميلادا سافرت الجدة في بعض الاحيان الى براغ ، ولكن لفترات قصيرة . يومين الى ثلاثة ايام . فلم يكن الوالد قادرا على البقاء بدونها فترة اطول

لم يستطع البقاء بدونها ، كما لم تستطع البقاء بدونها الأرناب والحقل الصغير ومهمات البيت والمطبخ . طوال حياتها لم تتمتع بالاجازة . اللحظات الوحيدة للراحة الحقيقية التي عرفتتها في حياتها تمثلت بتلك السويكات التي كانت تقضيها في حديقة الدار ايام الربيع والصيف ، حيث كانت تقوم ايضا برتق اغطية الافرشة واستكمال خياطة الثياب الجديدة للبنات . كانت تزين الياقات ونهايات الاكمام بالتطريز الدقيق والجميل . وهو عمل كانت تكرر له باحتفائية ساعات الظهيرة لايام الأحاد . اما زوجها فقد عرف بنشاطه المتنوع لدرجة تكاد لاتصدق . فحين لا يكون في رحلة لالقاء المحاضرات ، تجده منهمكا في البناء او الترميم او بتطعيم الاشجار او الطلاء

وكانت الام مساعدا له لا يستطيع الاستغناء عنه في اي عمل يقوم به من هذه الاعمال . وربما لانه كان يحرص دائما على ان تكون الى جانبه .

فلاستا التي كانت تشبهه في مجالات عديدة لم تغفر له حقيقة انه ربط الام على هذا النحو في البيت . كان يسافر بين لحظة واخرى في الجمهورية التشيكوسلوفاكية وفي سلوفاكيا . كما سافر الى فرنسا ويوغسلافيا ايضا في إطار رحلات مشتركة للمعلمين في حين بقيت زوجته الذكية والتي تحب الاستطلاع رهينة البيت ، مشدودة بسلسلة المهمات التي كان يلقيها على عاتقها

٢

كانت أنا كاللوفات تتطلع الى زيارة بغداد . سوف ترى جزءا من هذا العالم ، وسوف تشاهد الاماكن والناس الذين كتبت لها عنهم ابنتها الكثير والكثير ، وسوف تحظى بصورة خاصة برؤية حفيدها

هذه الطريق الطويلة فقط ، لو انها لم تكن . انني لا استطيع التفاهم مع الآخرين ومن يدري الى اين سيأخذونني . قالت متشكية . سوف استيقظ لأجد نفسي في مكان ما في

في بيروت ذهب جيورجي سيلفيو لاستقبال حماته حجز غرفة في الفندق وأقترح على السيدة العجوز المكوث مدة يومين لتستريح من عناء السفر وبعد الظهر سيأخذها في السيارة للقيام بجولة في المدينة لتتعرف على بيروت

"في السيارة لا ، أيها الصبي ، لأنني عندئذ لن أرى شيئا . في السيارة يمر كل شيء مجرد مرور ليختفي بسرعة " عارضت الجدة بحزم عليّ أن امشي قليلا ، فلقد جلست خلال هذه الرحلة ما يكفيني لسنة كاملة في الاقل .

هكذا انطلقا في شوارع بيروت مشيا على الاقدام . امرأة ريفية اعتادت ان تذهب في يوم واحد الى القرية خلف احدى التلال لشراء الاوز والى القرية الاخرى وراء التل الثاني لشراء الشتائل ، ثم الى الطاحونة وراء التل الثالث لأخذ الطحين ، وهي على استعداد لأن تقسم لكم في المساء انها لم تذهب الى اي مكان - ومعها نسيبها الاصغر منها سنا بعشرين عاما غير انه قد إعتاد على استخدام السيارة

خلال نصف نهار انهكته تماما جسديا ومعنويا . لم تكن لتكتفي بان ترى ، كانت تريد معرفة كل شيء : ما هذا ، ما الذي يعمله هذا الانسان وماهو المكتوب هناك

جيورجي يجيب ويوضح وحين تعجز لغته التشيكية يستعين بيديه . وكثيرا ما اضطر لأن يعترف بانه رغم معرفته لبيروت معرفة جيدة ، فإنه كان يعجز عن تفسير وشرح بعض الاشياء ولم يخطر في ذهنه بتاتا ان يسأل عنها من قبل .

مرا بجانب مقهى صغير يشبه مرآبا مفتوح الابواب : على الرصيف بضع طاوولات تحت المظلات .

"نستطيع ان نشرب شيئا ؟ " توقفت السيدة أنا

" ليس هنا ، سنذهب الى مكان آخر

"لماذا ليس هنا ، فهنا مقاعد شاغرة (ربما قد شعرت اخيرا بألم الرجلين) .

"هذا المقهى اسلامي ، وهنا لايسمح للنساء بالدخول . نحن بالطبع اجانب وربما سوف يفضون الطرف عنا ولكن من يدري " غضبت السيدة العجوز . اعادت الكرسي بحزم الى مكانه عند الطاولة . تفضلوا ، انهم لم يسمحوا لها حتى بشرب الماء ، لمجرد انها امرأة .

"على اية حال عندنا ايضا لا يرتاد الحانة غير الرجال " قالت بعد قليل وبشيء من المهادة .

قادها الى مقهى في الشارع الرئيس ، يرتادها الاوربيون في الأغلب . وبشعور من الارتياح سقطت على الاريكة المفروشة بقماش القطيفة

"قل لي يا جيورجي شيئا ما عن فلستا : هل هي زوجة طيبة مالت السيدة العجوز نحوه وهمست بحميمية بعد ان طردت العطش الشديد

"إنها لكذلك يا امي ، إنها طيبة للغاية"

ابتسمت السيدة العجوز ، لعله قال لها لأول مرة يا أمي

"ألا تلح عليك بطلباتها كثيرا يا جيورجي ؟"

"أجل إنها تلح " اعترف بتردد " فانا لم اجلس هكذا في المقهى منذ ان تزوجنا . ما إن نجد لحظة فراغ حتى نذهب لجمع الحشرات وفي المساء نقوم بتصنيفها واعدادها... "

"إنها من اسرة كالال ، أعرفها " لوحت الجدة بيدها واستمرت لحظة اخرى تهز رأسها وهي صامتة . عرفتهم جيدا هم بالذات لا يتعبون ويدفعون جميع الآخرين من حولهم الى العمل .

النهار يشرف على نهايته ويتحول لون السماء الى بنفسجي وتبدأ الانارة في المدينة . وحلت بدلا من حركة العمل النهارية نزهة المساء الاستعراضية . كان ذلك ممتعا للغاية وعند الساعة التاسعة فقط اعترفت الجدة بحلول وقت العودة الى الفندق .

وعندما كشفت لنسيبها في ساعة متأخرة من الليل انها تعاني تقرحاً في القدمين وان المشي سيكون مؤلماً لها غدا ، تنفس الصعداء وشعر بالارتياح .

٣

منذ اللحظة التي ظهرت فيها الجدة في بغداد ، استولى عليها رادبور تماما - ينبغي ان لا تبعد عنه او بدونه ولو خطوة واحدة . وفي هذا ايضا يشبه الحفيد جده كالال .

في صباح أول يوم سبت ، وقبل ان يستيقظ الصبي خرجت أنا كالالوفا من الدار ،

واخلاصا منها لعادتها كربة بيت ذهبت الى السوق برفقة الطباخة مريم . أكوام الفاكهة والخضروات الغريبة ، لم تكن لتتوقع حتى اليوم ان شيئا مشابها لما تراه ينبت وينمو في العالم ، ولكن لو ان هذا الذباب تجنب الجلوس على كل شيء ، . ورغم ذلك اوصتها ابنتها قائلة : يا امي ارجوك ان لا تلمسي اي شيء ، يكفي ان تشيرى على ما تريدين عن كذب ، وهم سوف يقدمون لك ما تريدين

بالطبع انها لن تمس اي شيء ، فليس من عادتها انتقاء البضاعة ، غير انه نظام غريب للوقاية والنظافة ، اذ لايسمح للانسان بان يمد يده على البضاعة في حين لايضيرهم كل هذا الذباب والغبار

بل اضطرت مريم عند القصاب الى رمي النقود في طاسة فيها ماء ، فقد مد الطاسة نحوها فقط ، اما بقية الزبائن فقد كانوا يضعون النقود في يديه

"اسمعي يبدو ان هذا القصاب يعلم أننا من المستوصف وهو يخاف من المكروبات"
سألت ابنتها عندما عادتا الى البيت .

"المكروبات لا ، " ابتسمت فلاستا " ربما أنه لايعرف شيئا عن الميكروبات . فان مريم مسيحية وهو شيعي . لهذا قلت لك لا تلمسي البضاعة ابدا ، ولأنك لست مسلمة تعتبرين في نظرهم غير طاهرة "

"أنا لست طاهرة؟" انزعجت الجدة ولم يستطع احد بعد ذلك اقناعها بالذهاب الى سوق الخضرة او الى القصاب .

٤

خلال ايام العطل كانوا يأخذون الجدة في السيارة لمشاهدة المواقع الممتعة في بلاد الرافدين . كانوا ينطلقون في الصباح الباكر ومعهم صندوق من الكارتون وضعوا فيه الطعام وقنينة كبيرة من الالمنيوم للماء المصفى . لعل الوالدة تفضل الجلوس في المقعد الخلفي ، غير انها اعتادت بتواضع الجلوس الى جانب السائق ، لأن حفيدها اصر على امرين : ان يرى عجلة القيادة وان يجلس في حضن الجدة .

إن الأماكن المقدسة لدى العالم الاسلامي كانت تتناوب المواقع مع الاكتشافات الاثرية .

مساجد كربلاء والنجف كانت تلمع من بعيد تحت الشمس بقببها المطلية بالذهب الخالص . واستقبلتهم الحفريات الاثرية في اور وكيش بأكوام الرمال فقط . ولكن عندما كان الانسان يقترب وينحني كثيرا امام ذاكرة الارض هذه يستطيع ان يرى في قاع الحفرة شظايا من الاسرار التي اخفتها آلاف السنين

"آه لو كان الوالد هنا " قالت السيدة العجوز متأسفة " هو الذي كان ينبغي ان يرى كل شيء ، وليس انا ، المرأة البسيطة " وفقدت الصورة وضوحها للحظات بسبب الدموع

في النجف التقوا بالحمالين الذين يحملون اشياء ضيقة وطويلة وملفوفة بقماش ابيض . انها أجساد الاموات من الشيعة في العراق او ايران بل وحتى الهند ، وهم في رحلتهم الاخيرة نحو الموقع المقدس لاجل ان يدفنوا على مقربة من قبر الشهيد علي ابن عم النبي وخليفته . الاسر الغنية القادرة على دفع تكاليف النقل والدفن ، تنقل الموتى من اقاربها بصورة علنية محققة جميع مراسيم التشييع المهيبة ، اما الاسر الفقيرة فانها تسعى الى تهريب موتاهم الى النجف . يُخفي الرجل عظام ارجل جده في بنطاله ويخفي اخوه او صديقه عظام الذراعين في بنطاله ، في حين تخفي المرأة الجمجمة تحت تنورتها وكأنها حامل .

وحين يحالفهم النجاح ولايراهم الحراس ويقومون بدفن العظام سرا . يحظى الراحل بالهدوء الدائم والهناء الابدی . كما لو انه قد تم تشييعه ودفنه بهيبة ولقاء الرسوم العالية . فان الامام علي المتوفى منذ اثني عشر قرنا لم يعد يهتم بالرسوم .

وعلى العكس من ذلك حوّل العديد من اتباعه الأماكن المقدسة الى مصلحة مربحة . فمن الممكن هنا كسب النقود من كل شيء ، : غرف النوم - وهي غرف عارية باستثناء قطع من الحصير هنا وهناك - وارغفة الخبز الحلو والفاكهة وكوب الماء الصافي .

على الرصيف قبيل مدخل المسجد يجلس عند الطاومات الصغيرة المنخفضة بائعو بطاقات البريد . بطاقة البريد التي صور عليها مرقد الامام علي لا تستطيعون هنا شراءها وحسب وانما ايضا يبدي البائع استعداده لكتابة التحية والعنوان عليها لكم . ويتوقف السعر على عدد الكلمات . فالذين لايجيدون القراءة والكتابة يريدون ايضا ارسال بطاقات بريدية الى اصدقائهم الذين سيجدون بلاشك من يقرأها لهم .

وفي بغداد يجلس الكاتب عند كل ثاني قرنة ليكتب الرسائل والعرائض والطلبات الى الدوائر الرسمية . وقد اقتنى البعض منهم ، لاسيما الذين يجلسون قرب دوائر الحكومة

عند المساء تتجه السيارة عائدة نحو المدينة . وقد فقد رادبور الاهتمام بمقود السيارة واستسلم للنوم في حضن جدته ، بعد أن غمر ارنبة انفه في كتفها . وقد حرصت الجدة على ان لا تتحرك لكي لا توقظ حفيدها

طريق الحج المترية تمر حول القرية . من التناير المخروطية الشكل بين البيوت يرتفع اللهب ، حيث تقوم النسوة باعداد ارغفة الخبز للعشاء من عجبن غير مختمر . انهن قرويات لا يحجن وجوههن ولكن عندما يلحن سيارة عابرة يسرعن في التسلل الى الكوخ او يختفين وراء التنور في الاقل .

العجوز السمراء الشاحبة التي ترتدي معطفا غامق الحمرة فقط واصلت نبش النار في التنور متابعة السيارة بعينين سوداوين تنظران خزرأ

"هل لاحظت كيف انها تنظر الينا بكراهية ؟ " همست الجدة . هزت فلاستا رأسها موافقة " في الأغلب اعتقدت أننا انجليز"

٥

في بداية كانون الاول قررت الجدة ، إقامة احتفالات تشيكية اصيلة باعياد الميلاد ، رغم ان المحرار كان يشيرالى أن درجة الحرارة هي ثماني عشرة درجة فوق الصفر . وقد دعمتها في تحقيق ذلك الممرضة ماريشا بحماسة ومبادرة .

قبل حلول الاعياد باسبوعين كان كل شيء في البيت يزهو وقد انتشرت في الحوش رائحة الكعك المعطر بالفانيلة ، وكانت قائمة الطعام واضحة : ليلة عيد الميلاد يتكون العشاء من حساء السمك والسمك المقلي مع السلطة . وتتكون الوليمة الربانية ظهيرة يوم الميلاد من سمكة مجهزة بالفرن مع اقراص العجين المسلوقة والكرنب المطبوخ .

أوشك كل شيء ، أن ينى بالفشل بسبب رأس واحد من الكرنب وهو ذلك الذي اشترته مريم من السوق . اذ كان متعفنا ومشطورا . باختصار لم يكن نافعا على الاطلاق . وعندما

ذهبت الى السوق ثانية عادت برأس كرنب آخر اتضح انه أسوأ من الاول بكثير

أخيرا انقذ الاحتفال التشيكي بأعياد الميلاد الامام المسلم نعمان ، الذي كان يزور الدار في كثير من الاحيان وقامت بينه وبين السيدة العجوز رابطة صداقة . في البداية قامت بالترجمة بينهما فلاستا او مريم ، غير ان السيدة العجوز وجدت ان ذلك يتطلب وقتا طويلا لهذا بدأت تعلم الامام اللغة التشيكية . اشارت باصبعها الى نفسها وقالت " أنا " واشارت الى الكوب وقالت " هرنك " وتقدم هذا الاسلوب لتعليم اللغة بنجاح

دخل الامام نعمان الاعظمي الى المطبخ في اللحظة التي كانت فيها الجدة تتذمر بسبب رأس الكرنب المتعفن .

اشارت الى رأس الكرنب وقالت " زيللي " وتجهمت بصورة معبرة وقالت " فوي - تفو " سأل نعمان بادب ومجاملة : " تسلي " ؟ صححت الجدة " زيللي " وازافت بلغتها انه متعفن بالكامل . بعد الظهر جاء رسول من الامام نعمان الاعظمي يحمل في السلة رأس كرنب طري وسليم من بستان الامام . وكانت في السلة ورقة مطوية كتب عليها : زللي . لقد ادرك الفيلسوف كل شيء

في اليوم الكريم (اليوم الذي يسبق عيد الميلاد - المترجم) ، وفي اللحظة التي كانت فيها ماريش تعلق الزينة على شجرة عيدالميلاد جاء ساعي البريد ليسلم رزمة الى فلاستا من ماريا تاور . كان فيها الكثير من كتب الحكايات لرادبور . وبدلا من اعداد السمكة للطبخ انصرفت فلاستها وامها الى قراءة تلك الحكايات لسمعها رادبور الذي جلس على السجادة تحت البيانو . كان ينظر اليهما حينما ويحاول حينما آخر مضغ بطاقة التهنئة التي ارسلتها ماريا بمناسبة اعياد الميلاد . فقد كانت تحمل صورة نافذة وراها شجرة صغيرة وتحت النافذة صورة طفل وقد رُشَّ حوله في كل مكان شيء ابيض هو السكر بعينه ، لذا اراد رادبور ان يختبر بصبر طعم هذا الشيء ، الابيض وهل هو حلو المذاق حقا

٦

في الفترة الاخيرة فكرت فلاستا بماريا اكثر من اي وقت مضى . اذ حملت الام عنها اخبارا سيئة : ماريا تعاني الهزال وتشعر بالم شديد في العينين كما تقول .

"انه التعب" فهي في المكتبة تطيل النظر في الحروف ، ومن المؤكد انها تواصل انجاز عمل المكتبة في البيت . وحين تريد الاستراحة فهي لا تعمل شيئا آخر كما اعرفها غير أن تقرأ كتبت الى مارييا رسالة طويلة ، ضمنتها جملة من النصائح والتوصيات الملحة وهي تأمل باخلاص ان يتحسن وضعها في وقت مبكر

لم يتحقق ذلك الامل ، وبعد بداية العام الجديد بوقت وجيز جاءت الاخبار مشيرة الى ان مارييا مصابة بتمزق الشبكية الامر الذي يتطلب اجراء عملية جراحية لها هذه الرسالة التي كتبتها يد مرتعشة و اودعتها ام مارييا صندوق البريد حملت الحزن الى دربونة النمل .

حاولت فلاستا كتابة رسائل ملأى بالتطمين والتشجيع ، غير انها كانت تدرك ما الذي يعنيه هذا المرض بالنسبة لماريا . فهو يعني نهاية العمل العلمي وربما الاضطرار الى تغيير الوظيفة ويعني تشويه الوجه الدقيق الناعم بنظارات طبية سميكة الزجاج

ماذا سيكون مصير مارييا في حالة ان يحول المرض دون مواصلتها الدراسات الشرقية . كانت تشعر باليأس ورغم ذلك تكتب رسائل زاخرة بكلمات التشجيع : الحياة غنية ومتنوعة لدرجة انه من الممكن ان نجد فيها السعادة والفرح حيثما كنا ننتظر الحزن والحمران . تذكرى هذا وتذكرى ايضا ان المهمة الاولى للانسان العاقل تكمن في ان يمضي في الحياة بنيات طيبة وخاصة حين يواجه اكبر المصاعب .

كلام...كلام...كلام ، فكرت فلاستا بعجز وهي تغلق غلاف الرسالة .

٧

"إنك لم تفهمي ذلك ايتها الزميلة العزيزة " فقد كان الدكتور شوكت يتحدث بين الجد والهزل على عادته . إنه يتحدث بهذه الطريقة دائما تقريبا ، وقبل ان يعرفه الانسان لا يستطيع حدس ما اذا كان جادا ام هازلا في كلامه .

"لماذا تكشفين لكل شخص ومنذ الوهلة الاولى حقيقة وضعه الصحي وماالذي يمكن عمله وما لايمكن عمله من اجل شفائه ؟ هذا ما لايجوز لك . قولي للسيدة انها مصابة بالورم الغدي او السرطان ، وأن شفاءها يتطلب إجراء عملية استئصال جراحية ، وسوف تفرح وتخاف من

آلام العملية ولن تريها ثانية . فهي سوف تذهب الى القابلة العجوز التي تعدها بالشفاء من المرض عن طريق وضع راحة يدها على موقع الألم . ام انها سوف تجد الشجاعة وتقومين انت باجراء العملية الجراحية لها . وسوف ترقد بضعة ايام في المستشفى وتأتي مرتين للكشف والفحص وتعرف كيف حالها . الطبيب الحكيم يربي مريضه ويعتني به كما يعتني المزارع بالنبتة الصغيرة . يستقيه بالقطرات ويقدم له السماد بالحبوب ليحمل له الثمر في النهاية ، فإن اجراء العملية الجراحية ممكن في اي وقت لاحق"

ابتسمت فلاستا . فهي على علم بأنه لايمارس هذا الاسلوب رغم ان هناك الكثير من الاطباء الذين يمارسونه .

أسوأ العواقب هي تلك التي يخلفها عمل العجائز اللواتي يدعين القدرة على العلاج . هل تريد السيدة أن تحمل ؟ استخدمني هذا السائل الحار . وهل تريدين تجنب الحمل ؟ إذن استخدمني جرعات من هذا السائل البارد . وبعدها تأتي الى العيادة النسوة المصابات بالتهابات خطيرة للرحم او المبيض . اما في حالات الاصابة بالاورام السرطانية والتي عولجت بالبخور والزيتون فكثيرا ما تأتي المصابة الى العيادة في وقت متأخر للغاية أي بعد فوات الاوان

في عام ١٩٢٧ عندما اصبحت فلاستا كاللوافا عضوا في اللجنة الطبية لتحديد وفيات الاطفال ، قدمت اقتراحا يدعو الى عدم قبول اية امرأة لم تكمل الدراسة الابتدائية العامة في دورات اعداد القابلات .

إنك ساذجة يا دكتورة . تريدين شهادة التخرج من المدرسة الابتدائية ؟ ربما سوف يكون ذلك ممكنا بعد عشر او خمس سنوات . فان اغلب اللواتي قدمن طلب الانضمام الى دورات الاعداد هذه اميات لايعرفن الكتابة ولا القراءة .

في عام ١٩٢٧ نفسه تم تأسيس الكلية الثانية في جامعة بغداد - كلية الطب (لم يكن الى ذلك الحين في الجامعة غير كلية واحدة هي كلية العلوم الدينية) . ففي نيسان افتتح الملك فيصل الاول الكلية الجديدة ، التي تم بناؤها للتو وهي كلية الطب الملكية .

حضر الاحتفال الوزراء والنواب والاعيان واعضاء السلك الدبلوماسي الاجنبي وكبار الانمة وأعضاء الجمعية الطبية في بغداد . خطابات ومراسيم احتفانية . وقدم عميد الكلية الطبية والطبيب الشخصي للملك ، الاسكتلندي الدكتور سيندرسن باشا ، الى صاحب الجلالة

المفتاح الذهبي ، وقام جلالته بفتح الباب ليدخل مئات الضيوف وخلفهم مجموعة صغيرة من الشباب المسلمين واليهود هم الطلبة الجدد في الكلية الجديدة .

في السنة الدراسية الاولى التي تم افتتاحها عام ١٩٢٧ درس في الكلية الطبية عشرة طلاب وازداد عدد الطلبة في السنوات اللاحقة ، اذ اصبح من الممكن قبول حتى ٢٤ طالبا في السنة .

كانت رخص فتح العيادات الطبية لامتحن للطباء الاجانب باستثناء اطباء الانجليز والمصريين والسوريين . واستطاع هؤلاء ، فتح العيادات في بعض مدن المحافظات ، شرط ان يقوموا بأيداع تأمين مالي مقداره ٥٠٠ روبية . في عام ١٩٢٨ كان الخمسمائة روبية تعادل ستة الاف كرونة تشيكوسلوفاكية .

أربعة وعشرون طبيا غير اجنبي في العام في حالة تخرجهم جميعا . ورغم ذلك وضع حاجز امام عمل اطباء الاجانب بصورة قرارات المنع والاوامر ومنح الرخص والرسوم . كانت النسبة المعكوسة هي الافضل في اثناء الاحتفال بافتتاح الكلية . بضع عشرات من الضيوف والمئات من طلبة الطب الجدد ، لأن البلد بحاجة اليهم .

تحت أنوار النجوم الأرضية

عندما يشاهد الرقباء المكلفون بذلك ، طلوع هلال الشهر الجديد فوق الافق - يقدمون الايعاز لاطلاق النار من المدافع ، لأن هذا القمر الجديد ليس كغيره من الاقمار ، ولأن الشهر الجديد لن يكون مشابها للشهور الأحد عشر السابقة . انها بداية شهر رمضان ، الشهر التاسع في التقويم الاسلامي ، شهر الصيام الذي يسبق الاعياد المقامة تخليدا لذكرى اليوم الذي بدأ فيه إله محمد الوحيد انزال القرآن عليه .

في لحظة اطلاق المدفع اضاءت سلاسل المصابيح على حفافي المنائر التي تبدو مثل الخواتم المنيرة . فوق المدينة برمتها يرتعش الحجاب الرقيق للانوار المشعة من منارة مسجد عبد القادر في الجنوب الشرقي ، عبر القباب والقامات الرشيقة الاخرى حتى الشمال وصولا الى المنارة الزرقاء لمسجد السلطان مراد الرابع .

منارة مسجد الحسكة تنير عاليا فوق الشرفة بالوان رقيقة حتى ليخيل انه من غير الممكن ان تكون قد شيدتها يد البشر ، إنما هي وردة شرقية رائعة الجمال تفتحت في هذا المساء الجدير بالاعجاب .

من الشرفات المجاورة تُسْمَعُ اصواتٌ خفيضةٌ منفعة ، ، وقد انتقل هذا الانفعال الى هنا ، الى فوق سطح الدار التي يعيش فيها اناس لايتوجهون بالدعاء الى الله ولايتمسكون بالصيام الكبير في رمضان .

ودار في خلد فلاستا أن الجو هنا يتسم بالتوتر الاحتفالي ، فكرت فلاستا مع نفسها كأننا على ظهر باخرة وقد هيمنت علينا رجفة القلق قبيل إبحارها في رحلة طويلة .

ليس بين الذين يتكئون على مشبك الشرفة من يعيش هذه الامسية لأول مرة . حتى الجدة تعيشها للمرة الثانية . اما فلاستا فانها تبدأ رمضانها السادس في بغداد ، غير ان هذه الامسية لن تصبح مألوفة مطلقا . وهي في كل مرة تأسر الانسان بسحرها من جديد . شأنها شأن بزوغ الشمس او ظهور قوس قزح الملون

منذ فجر الغد تبدأ في مجمل العالم الاسلامي ايام الصيام . ومنذ الفجر حتى غياب الشمس لن يتناول المسلم المؤمن لقمة من الطعام ولا يشرب جرعة ماء ، ولا يدخن لفاقة تبغ . ولا يعفي الاسلام من الصيام غير الكهول والمرضى والذين يقومون بعمل شاق .

السنة الاسلامية سنة قمرية ، ولهذا فانها لا تتقيد بالفصول الاربعة للسنة وانما بمراحل دورة القمر . وتتكون السنة القمرية من اثني عشر شهرا وهي اقصر بأحد عشر يوما من السنة وفق التقويم المعترف به في كل انحاء العالم . لهذا فإن شهور التقويم الاسلامي الهجري لاتقع دائما في الفصل نفسه من العام . ففي عام ١٩٢٥ عندما وصلت فلاستا الى هنا حل شهر رمضان في نيسان وفق التقويم الاوربي ، اما هذه المرة فإنه يحل في كانون الثاني .

خلال شهر نيسان او كانون الثاني من الممكن عند توفر الارادة القوية الامتناع عن شرب الماء طوال النهار ، لكن صيام شهر رمضان حين يقع في تموز أو آب يتطلب نكران ذات وقدرة على التحمل تكاد لاتصدق . فان قواعد الصيام تحرم شرب السوائل بل وحتى غسل الفم بالماء

شهر رمضان يثير حقا الاعجاب من الناحية المعنوية : كم من الصبر وقوة الارادة والتحكم بالذات ، يؤكده الناس من الشباب والشيوخ يوميا . غير انه من الناحية الصحية يحمل عواقب مأساوية احيانا . اذ يعاني الناس منذ طلوع الشمس حتى غيابها الجوع والعطش . ولكنهم في المساء ومنذ سماعهم اطلاق المدفع التي تعلن غياب الشمس يقبلون على الاكل والشرب ويستمترون بذلك حتى ساعة متأخرة من الليل . وفي كثير من الاحيان تتراكم على الاسر الفقيرة ، الديون بسبب شهر رمضان والتي يضطرون الى تسديدها خلال عدة اشهر قادمة

من واجب المسلم الغني ان يقوم في شهر رمضان باطعام الفقراء . اما المعني من الصيام فإن عليه بموجب القرآن إطعام فقير واحد في الاقل يوميا . وعلى من يقطع الصيام بمحض ارادته ، حتى ولو بتناول جرعة ماء فقط ، ان يطعم ستين جائعا ليغسل خطيئته

عندما يعلن الهلال من جديد انتهاء شهر رمضان وبداية العيد يتبادل الاصدقاء الهدايا كما هي الحال عندنا في اعياد الميلاد

أسرة دي لوتي في دربونة النمل لم تتمسك بالصيام ولكنها تلقت الهدية . بل وقبل ان يتبادل الناس هدايا العيد بثلاثة اسابيع .

ففي اليوم السابع من شهر رمضان في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣١ رزقت فلاستا مولودها الثاني اذ وضعت بنتا دخلت هذا العالم في المساء حيث تشع مصابيح المنائر فوق بغداد بكاملها . وقد بدت مثل مجموعات صغيرة من النجوم الارضية . وكان النور يصل الغرفة التي ولدت فيها فلاستا من الخاتم المنير المتعلق حول منارة الحسكة .

كما هي الحال عندما ولد رادبور واصلت فلاستا العمل في العيادة حتى اللحظة الاخيرة ، اضافة الى قيامها بزيارة المرضى . وكانت الام كاللوف تضر بكنيها ببعضهما لائمة . رغم انها ولدت اطفالها وهي تركض بين اكوام الغسيل وزرع التوت الارضي : يا ابنتي كوني عاقلة والا فانك سوف تضعين وليدك في الشارع " وتضيف " انني اتوسل اليك يا جيورجي ان تقنعا بالتوقف عن هذا الركض ، او امنعها عن ذلك "

قام جيورجي بعدد من المحاولات الضعيفة لاقناع زوجته ، غير انه تخلى عن ذلك في وقت مبكر . انها لن تبدي اهتماما لهذا الامر ولن تستجيب لاي اقناع كان متأكدا من ذلك وكانت الام كاللوف تعرف ذلك ايضا

قالت فلاستا مدافعة : " ارجوك ياماما ، فقد كنت الى ما قبل شهرين من ولادة رادبور امتطي الحصان ، وها أنت الآن تشعرين بالهلع حين اريد الذهاب الى مكان ما في السيارة "

"صحيح...صحيح غير انني لم اكن هنا عند ولادة رادبور" ارادت الجدة ان ترد بالرفض غير انها تخلت عن ذلك : لو كنت هنا لامتطت الحصان ايضا ، فهي عنيدة .

منحوا الصغيرة اسم دراهوميل ليديا وكانت حيوية جدا . وشعر رادبور بفرح كبير . فعندما كانت في القماط كان يسترق اللحظات التي يكون الآخرون خلالها في غفلة عنهما ليدحرجها على أرضية الشرفة .

صيف في كردستان

في شمال العراق توجد جبال ، دروعها المسننة تغرز أسنانها في قبة السماء ، ويقال إن الثلوج تمكث في تصدعاتها حتى في أشهر الصيف . وتنحدر فيها المياه من الجبال مسرعة باردة هادرة بين الصخور ، يعلوها الزبد كما لو أنها تبرقت بالدانتيل الأبيض لتستقر تحت الصخور الكبيرة في البرك الصامتة الزرقاء المائلة إلى الخضرة .

بين سلاسل وفي سفوح التلال توجد بساتين العنب ، وفي السهول ينمو التبغ والحنطة والشعير . في الصيف يهب هنا النسيم ولا ترتفع درجة الحرارة لأكثر من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين درجة مئوية . أية صورة ساحرة هذه بالنسبة لمن يقصد الشمال والذي عاش الصيف الخامس في بغداد

في شمال العراق تقع كردستان ، بلد الرجال الأبية الذين يتسمون بسرعة الغضب والذين لا يترددون عن مد يدهم إلى السلاح حين يشعرون أن أحداً يمس كرامتهم . غير أن موظفي القصر الملكي أيضاً يذهبون إلى كردستان للبحث عن مصيف ملائم للأسرة الملكية . وإذا كان الملك لا يخشى الأكراد فلماذا علينا أن نخافهم نحن ؟ ! إننا لم نقم بأي عمل سيء تجاههم وكم عاجلت المرضى منهم . شعرت فلاستا بالهلع من صيف آخر في بغداد . فقد كان رادبور بعد حالات الاسهال التي أصابته في الربيع واهن القوى شاحباً ، تحت عينه دوائر سود ، أما الطفلة الصغيرة فقد كانت إلى الآن حيوية بشكل رائع ولكن كم من الأطفال هنا كانوا في الربيع في منتهى الحيوية غير أنهم لم يعيشوا حتى الصيف .

إنها لمغامرة أن تسافر مع طفل في الثالثة من العمر وآخر لم يتجاوز عمره الخمسة أشهر في مثل هذه الرحلة الطويلة التي لا بد أن يُحسب خلالها الحساب لعدم توفر وسائل الراحة وللنوم في الخيمة ، غير أن المغامرة الأشد خطورة تتمثل في البقاء في بغداد

يضاف إلى ذلك أن الدار موحشة وكأنها في مآتم منذ ذلك اليوم في أواخر نيسان ، حين غادرت الوالدة وماريشا وسافرتا إلى أوروبا

مع الوالدة كانت الحياة مفرحة ، أما الآن فإنك لا تسمعين في الردهة غير صدى وقع أقدامك . حتى طيور السنونو لم تصل هذا العام .

وفي كردستان من الممكن بالإضافة إلى ما تقدم الحصول على نماذج رائعة لمتحف براغ . فإن الحيوانات التي تعيش هناك ستكون بلا شك مختلفة عن تلك التي تعيش هنا في الجنوب . إنطلقوا في ساعة مبكرة من صباح السادس من تموز . وكانت الصحراء خلف بغداد وردية شفافة يحنو عليها جرس السماء الوردي .

٢

على مسافة سبعين كيلومتراً إلى الشمال من بغداد تقع بعقوبة المدينة التي تزينها بساتين البرتقال والنخيل تليها آلاف الهكتارات من السهول غير المستثمرة . فعند شهربان فقط تبدأ الطبيعة الخضراء

صفوف من أشجار الصنوبر تماماً كما هي الحال عندنا في الوطن وربما ستكون في الجبال أشجار الحور أيضاً . بين سيقان القصب في قنوات الري تتمشى اللقالق وفوق أسلاك التلفراف تصطف طيور الخضيراء ، وكأنها عقد من الزمرد . هذه المنطقة هادئة تبعث الإحساس بالطمأنينة . في عام ١٩٢٠ انفجرت هنا بالذات الانتفاضة ضد الانجليز وكانت أشد عنفاً من أية منطقة أخرى من العراق ، وربما لم يخرج حياً منها أي من الانجليز سواء كان من موظفي الإدارة البريطانية أو من الاختصاصيين في مجال الري .

عند الظهيرة اقتربت السيارة من تلال حميرين البنية الجرداء التي تشكل السلسلة

الجنوبية القصى من جبال كردستان . في الشتاء تغطي الثلوج جبال حميرين أما في الربيع فتغطيها الأعشاب ، التي أحرقتها الشمس الآن . ولن يحالف النجاح من يبحث عن مكان للاصطياف هنا ولكنه سيكون في الأغلب حليف من يبحث عن النفط

قضت الأسرة الليلة الأولى في ردهة للنوم تابعة لمحطة القطار في قرغان . دار اعتيادية على جانب الجبل ، غير أن شبكات قد ثبتت على النوافذ لمنع الحشرات من الدخول وفي داخلها أجهزة كهربائية للتهوية . وكان من الممكن الحصول على الحليب في القرية المجاورة كان الجو خلال الليل بارداً ورغم ذلك جلس جيورجي وفلاستا إلى جانب بعضهما لفترة طويلة على عتبة الدار تحت السماء المملأ بنجوم كبيرة من الماس المزخرف بالحفر

٣

في الساعة الرابعة صباحاً كانوا على الطريق من جديد ، تحيط بهم الطبيعة الجبلية الجميلة المائلة إلى الزرقة . إلى الشمال تتموج الجبال التي تشرئب حتى الأفق . الرعاة الذين يصارعون النعاس يسوقون قطعان الأغنام إلى المراعي في حين تنبح الكلاب بغضب على هذا الحيوان الغريب الأسود - السيارة .

الآن نحن في منطقة الكرد الجبلين الأشداء والمقاتلين والمثابرين في العمل . وهم لمئات بل وآلاف السنين ، يدافعون عن حرية أوديتهم الجبلية ومنحدراتهم الصخرية ومسالكهم الخطرة . ولعلنا لا نجد أحداً على استعداد للتضحية بحياته بلا تردد من أجل الحرية والكرامة مثل الكرد

بعد الساعة السابعة صباحاً تصبح الشمس محرقة بلا رحمة ، وتقوم السهول المجدية الجافة والطرق الصخرية باعادة الحرارة للشمس .

الحافلة تقفز على الطريق الوعرة التي تدمر النوايض . ولو حدث أمر للسيارة الآن لتحول كل شيء إلى مأساة .

رادبور يريد تناول الماء في كل لحظة في حين يوشك احتياطي الماء المقطر على النفاذ الطفلة على العكس منه ترفض شرب الماء رفضاً مطلقاً بل إنها ترفض حتى الحليب المخفف

لحسن الحظ لم تسمع فلاستا بعد شيئاً عن النهاية المأساوية التي واجهت رحلة الطبيب البغدادي الدكتور روبين . فقد بدأت أسرة روبين رحلتها في الوقت نفسه مع أسرة دي لوتي ، غير أنها اتجهت إلى سوريا ، إلى دمشق لزيارة الوالدين . كان ابنهم الذي يبلغ الثالثة من العمر يستمتع بصحة جيدة في الصباح ، وكان مرحاً يتطلع للسفر في السيارة . غير أن صحته تردت قبيل الظهرية بسبب شدة حرارة الجو ، وبدأ يتقيأ . استفرغ كل شيء حتى الماء الذي يُعطى له . وقد مات قبل أن يدخلوا الصحراء السورية .

على الطريق توجد واحة صغيرة . شجرة منفردة وحيدة وارفة الظلال على شاطئ جدول عكر المياه . الرعاة يستريحون تحت الشجرة وحول الجدول ترعى قطعان الغنم والماعز والأبقار . إنها لمعجزة صغيرة . فحيث يكون الظل يكون الحليب للطفلة الصغيرة أيضاً

توقفت السيارة . الرعاة الكرد ينظرون بلا اهتمام إلى فلاستا وهي تنزل من السيارة وتسحب معها الصحيفة المخصصة للحليب

حليب ؟ الآن ؟ لا أيتها السيدة فهذا وقت الاستراحة . ولن نعمل الآن ماذا ؟ أتريدينه للطفل ؟ إننا نستريح ولعلك قد سمعت ما قلناه .

جاء جيورجي وعرض تقديم مبلغ كبير لدرجة غير معقولة لقاء ابريق من الحليب . غير أن الردود بقيت بلا حراك . نظرات احتقار وصمت مطبق .

انفجرت الطفلة باكية في السيارة ، ربما الآن سوف يفعلون - ولكن الرجال تحت الشجرة أشاحوا بوجوههم إيداناً بانتهاء الحديث .

هذا ما لا يستطيع العرب فعله ، لا يمكن أن يرفضوا أمراً يحتاج إليه الطفل . وربما لا يستطيع فعل هذا أحد في العالم . فلاستا تتميز غيظاً شاعرة بالعجز . وقد تزعرع اعجاب فلاستا بصلافة كبرياء الكرد بصورة جذرية .

بعد الظهر سافروا إلى كركوك تحت إرهاب حرارة الجو وغبار الطريق والقلق والخوف مما يمكن أن يحدث لو تعطلت السيارة .

الفندق الوحيد في كركوك . إنه ليس هلتون بالطبع لكنه يتسم بالنظافة والبرودة ووفرة

الماء

نظرت فلاستا إلى طفلتها وكيف تمسك بيديها قينة عصير الليمون لتفرغها في جوفها

وقد أمالت القنينة إلى أقصى حد

يداها متسختان ملطختان . فكرت فلاستا أنه كان عليها أن تغسل يدي الطفلة ، غير أنها في النهاية رفضت هذا المطلب الأساس من مستلزمات النظافة والوقاية مفكرة : لا ، لا بد أولاً أن أدعها ترتوي حتى الكفاية ، وإلا فإنها سوف تشرب خلال الإغتسال الماء غير المقطر كما فعلت أمس في ردهة النوم ، حين كان قد ابتلعت الماء مع الصابون أيضاً

٤

في هذه المنطقة وغير بعيد عن كركوك ، اكتشف علماء الآثار الأمريكيون ، في نهاية سنوات العشرينيات بقايا المدينة الآشورية نوزي . قصر الحكام المشيد قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة عام برسومه الجميلة وجدرانه المشيدة بعناية . وتلتصق بالقصر الدور الواحية البناء للرعية . وهي مُجمَعٌ يتكون من أربعمئة غرفة لا يفصل بينهما شارع واحد إن الألواح الطينية المكتوبة بالحروف المسمارية والتي عثر على الآلاف منها هنا تروي الكثير عن مصائر الناس .

حينذاك وقبل آلاف السنين كان في الأغلب من المحرم بيع أو شراء الأرض . وبعد موت الأب الذي يملك أرضاً يتم تقسيم الأرض التي يملكها على أبنائه بحصص متساوية . وكان يعيش في ذلك العهد رجل ماكر اسمه تيهيبيلي ، توصل إلى فكرة خاصة : فقد عرض على الفلاحين ، مبلغاً من المال غير كبير لقاء أمر واحد هو أن يقوموا بتبنيه أي اعتباره ابناً لهم . إنه لمسكين هذا اليتيم . وفي النهاية كان له أكثر من مائة من أولئك الآباء بالتبني . وعندما مات هؤلاء كان له نصيب من الأرض يعادل نصيب كل ابن من أبنائهم . وقد اعتمد أولاده وأحفاده الذين تعلموا من سلفهم الماكر الأسلوب نفسه لتوسيع ممتلكاتهم . ولم تصل المحاكمات التي أقامها ضده الأبناء الشرعيون للآباء الذين تبنوه إلى نتيجة - ولم يتسم خلف تيهيبيلي بالمكر وحسب وإنما كانوا أيضاً على درجة عالية من الحذر والالتزام بالنظام : فقد احتفظوا بعناية بالألواح الطينية التي تتضمن التسجيل الرسمي لعمليات التبني . وهي التي بقيت حتى اليوم .

السيدة الفنية تولبنيه هي أيضاً احتفظت بأرشيف من الألواح الطينية . وكانت تتوق إلى أن تكون لها أسرة : تبنت عشرات الفتيات الفقيرات واتخذتهن بناتاً لها بشرط واحد هو أن

يحق لها عقد قرانهن على من تشاء لقاء رسم مالي معين . وحين يموت الرجل الأول للبت بالتبني يحق لها تزويج الأرملة للمرة الثانية والرابعة لقاء مبلغ من المال في كل مرة . منحت نفسها هذا الحق حتى الزوج الحادي عشر ، وإذا بقيت الأرملة بعد الزواج الحادي عشر يحق لها أن تخرج بحرية من دار السيدة تولبنيه ابنة شيلتونابيني ولا تقول الألواح الطينية شيئاً عما إذا كانت إحداهن قد نجحت في ذلك

في مكان آخر سجلت في الألواح الطينية قضية موظف مدني رفيع المقام اشتكى المواطنون منه لأنه يتسلم الرشوة . وعندما استدعي للمثول أمام المحكمة قدم تفسيراً فريداً لسلوكه : فهو عندما يريد الخروج من داره في الصباح للذهاب إلى مكتب عمله يجد في كثير من الأحيان أن باب الدار محاصرة بالأواني الكبيرة التي وضع فيها القمح والفواكه والكثير من الأشياء الأخرى . ولهذا فإنه يضطر إلى أن يأمر الخدم بإزالة الأواني وحملها إلى داخل الدار وإلا فكيف يستطيع الوصول إلى عمله ؟

الكتابة إختراع لم يعرف قدره حتى اليوم . هذا ما فكرت به فلاستا . فهي تحفظ للخلف شهادة عن عظمة وصغر السلف . عبر خمسة وثلاثين قرناً حملت لنا الحروف المسماة على الألواح الطينية تقريراً عن جشع السيد تيهيبيلي والسيدة تولبنيه وكذلك نقلت لنا عن وعي أو غير وعي الأخبار عن ارتشاء عمدة نوزي . وإنه لمن الرائع أن تبقى تلك الألواح الطينية غير المحروقة كل هذه الفترة الطويلة . فكم من الزمن يا ترى سوف يتحمل البقاء الورق الذي سوف يتحدث عنا لمن يأتون بعدنا ؟

كانت المحطة الثالثة لاستراحة اسرة دي لوتي في أربيل . وهي إحدى المدن الآشورية القديمة التي احتفظت باسمها وباستمرار إقامة الناس فيها بدون انقطاع

في وسط السهول الخصبة بين نهري الزاب الكبير والزاب الصغير تم وفق الطريقة الآشورية إقامة تل مصطنع أنشئت عليه المدينة المحصنة . من السهل تمتد إلى أعلى طريق شديدة الصعود ، وقد تجمعت الدور حول الأزقة المتعرجة .

في أربيل سوف تحاط الأسرة بعناية فائقة . فإن لنعمان الأعظمي هنا صديقاً قديماً وقد كتبت له بشأن وصولها مسبقاً

في وسط بستان للفاكهة تقف دار شيدت وفق الأسلوب الفارسي . إذ يتم الدخول إلى بهو الدار المرصوف بالمرمر بين أعمدة الأقواس المقنطرة . وخلف البهو ترتفع السلالم التي

تقود إلى الغرف . وتستخدم في الصيف للنوم الشرفات الواسعة حول الدار

سيد الدار رجل غني في الستين من العمر . في العام الماضي شيع الزوجة الرابعة أربع زوجات توفين الواحدة بعد الأخرى بسبب الإصابة بالسل . وبالإضافة إلى ذلك وارى تحت التراب ستة عشر طفلاً ، أحد عشر ولدأ وخمس بنات ، وبقي عنده خمسة أطفال

ما زالت الطفلة دراهوميلا ضعيفاً غير مؤدب بشكل جيد . فهي تعلن عن جوعها بالصراخ الحاد . ست بنات ركضن للتعلق حولها وفي الحال أرسلوا من يأتي بالحليب الطازج من حضيرة الأغنام . بعد قليل وضع القدر البرنزي لغلي الحليب على المنقلة .

غير أن نار الفحم الخشبي بطينة جداً بالنسبة لنفاد صبر دراهوميلا . الطفلة تنقل من ذراعي إحداهن إلى ذراعي الأخرى لكنها لا تهدأ

المهد . إتفقت النسوة . وفي الحال جأفوا بالمهد من مكان ما في قسم الحريم كانوا يطوِّحون المهد بعنف لدرجة أنها استغربت عدم سقوط الطفل عند كل تطويحة . أخيراً تشاورن فيما بينهن واتفقن على أمر ما . لم تفهم فلاستا شيئاً ، لهذا لم تستطع الحيلولة دونه .

فرشن قطعة قماش ووضعن الطفلة في وسطها ثم قمطنها بشدة وأخذن يطوحن الطفلة في قماطها بسرعة وقوة .

صمتت الطفلة لأن القماط خنقها والحركة السريعة رنحتها . هزّوها لحظة أخرى ، وبعد ذلك سلموا الطفلة لأمها منتصرين . ها لقد توقفت عن البكاء الآن .

لم تستغرب فلاستا الآن موت ستة عشر طفلاً في هذا البيت الثري . بل الغريب أن الأطفال الخمسة ما زالوا على قيد الحياة .

٦

في المرحلة الأخيرة من الرحلة كانت الطريق الجبلية تصعد ملتوية شديدة الارتفاع ، حيث تفتح آفاقاً جديدة وجديدة على سلاسل الجبال والصخور . شاهدوا مرتفعاً يعكس الألوان المائلة إلى الزرقة للقمم المحيطة به . إنه يحمل اسماً معبراً : السارق - الجبل الأحمر .

وفي الأسفل تحت جبل السارق تقع قرية شقلاوة ، حيث ستمكث الأسرة شهراً كاملاً
الحرارة شديدة في فترة الظهيرة ، والطريق تُخَوِّضُ مخترقة الجدول الضحل المياه . ما
أروع أن يداعب الانسان من جديد الماء الكريستالي الجليدي بين أصابع يديه . سجدت
فلاستا فوق الصخرة ولا تدري هل فعلت ذلك في محاولة منها لاغتراف الماء في راحة يدها أم
تعبيراً عن الشكر لرحمة السماء التي مكنتهم من الوصول الى هنا
« لا تشربي » صرخ جيورجي من السيارة .

التفتت اليه « لماذا ؟ تعال وانظر كم هو صافٍ هذا الماء » فهو يمر عبر الحصى وتشتع عليه
الشمس . ما الذي يمكن أن يصيب مثل هذا الماء ؟ إنهم متشابهون ذوو الثقافة السطحية
هؤلاء . وهم أكثر حرصاً من الأطباء . غير أنها لم تشرب
« في إحدى المرات كدت أن أشرب هكذا » أوضح لها عندما عادت الى السيارة . « كنا
في الأناضول للصيد وكنا ثلاثة . اثنان منا شربا الماء ، أما أنا فقد تركت الماء يفلت من يدي
في اللحظة الأخيرة . ربما بفضل الحاسة السادسة أو بفضل شيء ، آخر . بعد ذلك واصلنا السير
قليلاً في الاتجاه المعاكس لانحدار تيار الماء ، وهناك شاهدنا فطيسة حمار متورمة في مرحلة
التفسخ التام . وقد عانى الاثنان اللذان شربا الماء من سوء حالتها الصحية مدة ثلاثة أيام ،
ولا أدري هل كان ذلك بسبب الماء أم بسبب منظر الفطيسة . منذ ذلك الحين لا أشرب الماء
في الجبال إلا عند النبع » كان محقاً . فبعد بضعة أيام من الإقامة هناك ، عرفت فلاستا أن
الجدول يمر بعد مسافة قصيرة مرتفعة عبر قرية صغيرة . وهناك يغتسل الجميع ويقومون بغسل
ملابسهم وبالكثير من الأمور الأخرى في ماء الجدول . سجلت تلك المعلومة الجديدة في سجل
تجاربها من الشرق ومن الحياة : إشرب الماء دائماً عند النبع فقط .

٧

تمتد القرية تحت أشجار الدردار القديمة ، تحيط بها بساتين الأشجار المثمرة وحصون
الجبال . هدوء تام وفي أعلى السماء غيمة خفيفة بيضاء . إنها الجنة .
قال الانسان الأول الذي تحدثوا اليه متفاخراً : قبل فترة وجيزة حل الملك هنا ضيفاً وقد
أعجب كثيراً بهذا المكان .

وكان أول من تحدث إليه شاباً يرتدي سروالاً عريضاً ومعطفاً قصيراً شبه عسكري وعمامة من الحرير . وكان مسلحاً حتى الاسنان . بندقية معلقة على الكتف وفوق المعطف حزام العيارات النارية وقد ثبت الخنجر في وسط الحزام . لأن السلام لا يسود تحت الأشجار في شقلاوة

قبل شهر نشب الخصام لسبب ما بين أخوين هما رئيسان لأغنى أسرتين في القرية وهنا تُحمل العداوة محمل الجد دائماً . وعندما تتم تميمتها ورعايتها وتسقى بين حين وآخر بالدم يمكن أن تستمر عبر القرون

في وسط القرية يقف بهيبة واهتمام المسلحون من أسرة عبد القادر ، إنهم يقفون لحماية الطرف الأسفل في القرية . أما الطرف العلوي فيمثله على بعد ماتي خطوة منهم مسلحون من أسرة رشيد

ولا يفصل بين الجيشين الصغيرين غير بستان أشجار الفاكهة المحاط بسور صغير من العوارض الخشبية الضيقة . إنه بالذات البستان الذي من المقرر أن تقضي فيه أسرة دي لوتي إجازتها مدة شهر كامل .

بهدهوء آثار دهشة آل موتيكيو وآل كابوليت* قامت فلاستا وجيورجي بفتح حقائب الأمتعة وما فيها من حاجات السفر وأقاما الخيمة وعلقا الأرجوحة الشبكية للطفلة . وعلى مقربة من السياج قاما بنصب درج مناسب لمستلزمات الطبخ والأواني . كان المسلحون الكرد ينظرون من الطرفين عبر السياج ويسألون مازحين ماذا سيكون الطعام في وجبة الغداء . فلاستا تتحدث معهم بالتركية - إذ لا يجيد العربية هنا إلا القلائد ولكنها تشعر في الوقت نفسه بالقشعريرة . إذ أنها تدرك جيداً أن هؤلاء لا يقفون من أجل المزاح فقط وأن من الممكن انفجار المعركة في أية لحظة .

أرسل مدير شرطة القضاء في طلب ممثلي الأسرتين المتخاصمتين ونبههم إلى أنهم يفقدون رؤوسهم إذا ما تعرض أمن الأسر البغدادية إلى الخطر .

غير أنه إنسان واقعي ويعرف الكثير عن هذه المنطقة ، لذلك استدعى جيورجي ونبهه إلى أنه من غير الممكن مطلقاً استيعاد الطلقة الطانشة التي قد يُرْخَبُ بها في بعض الأحيان . فمن الممكن أن تصبح مفيدة . إذ سيقوم كل طرف باتهام الطرف الآخر باطلاقها . ولذا

* إشارة لعائلي روميو وجوليت في مسرحية شكسبير الشهيرة - المحرر

يمكن أن تتخذ فرصة ملائمة لتوجيه الاتهامات الخطيرة لمعسكر الخصم

إنه وضع يستعصي فهمه حتى على الشيطان فكل شيء يتوقف على مدى جديتهم في النظر إلى الحرب الداخلية للعائلة هنا

في الظاهر يتصرف الأخوة المتخاصمون تجاه بعضهم بأدب جم ، وحينما يلتقون مصادفة في إحدى الاجتماعات أو خلال إحدى الزيارات يخاطب أحدهم الآخر مستخدماً لقب ميرام - أي النبيل ويتصرفون تجاه بعضهم باحترام كما يتصرف النبلاء . من يدري ، لعل المجاملة الاقطاعية تُخفي الحقد الأشد عنفاً

في المساء تنير الخيمة نوافذها البرتقالية وكأنها كوخ من أكواخ الحكايات . عند الظهيرة ترتفع درجة الحرارة إلى الثلاثين درجة كحد أقصى وتقدم الأشجار برودة رانعة . حقاً إنه لجو جميل هنا . غير أن المسلحين من الجانبين يواصلون التمشي هنا في الليل والنهار

جيورجي يكاد لا ينام . فهو يجلس حتى الفجر أمام الخيمة محتضناً بندقية الصيد بين ركبتيه . وكذلك لم تنعم فلاستا بالنوم كثيراً ، فهنا في كل مكان حولها تقريباً الكثير من الحشرات ، أنواع الفراشات والذباب غير المعروفة على نطاق واسع وكذلك الأنواع النادرة من الطيور والحيوانات الصغيرة . خلال النهار كانا يجمعان الحشرات وكان جيورجي يمارس الصيد . هنا برزت أهمية كونه رامياً جيداً . في المساء والليل كانت فلاستا تصنف ما جمعته وتقوم باعداده وتشعر بالسعادة لكل علبة ترسلها من دائرة بريد شقلاوة الى براغ مباشرة وبفضل الحماسة التي يثيرها نمو المجموعات النادرة لم تلاحظ أنها بدلاً من الاستراحة والاستمتاع بالاجازة تسهر الليالي وتصاب بالهزال

لقد حقق الصيف في كردستان أملاً واحداً : فقد كان الأطفال في حالة رانعة ، أكسبتهم السمرة أشعة الشمس الجبلية اللطيفة بالمقارنة مع الشمس القاسية فوق بغداد . وفي الليل كانوا يستسلمون الى النوم الهادئ دون أن يعرفوا شيئاً عن الخصام المتأجج داخل القبيلة .

أقام رادبور وشانج الصداقة مع جنود الجيشين حتى خيل أنه يمتلك كل مستلزمات القيام بدور الوسيط بينهما ، غير أن الزمن لم ينضج بعد لبدء مباحثات السلام في شقلاوة

إذن وداعاً أيتها الجبال ، إنك جميلة كتلك التي عندنا في الوطن تقريباً . وداعاً أيتها البساتين التي تنمو فيها الكمثرى الكبيرة والتي بدأت تكتسب اللون الأصفر وقريباً سوف يحين وقت قطفها . للمرة الأخيرة علينا أن نقفل السياج بالمفتاح الخشبي كم من المضحك أن يُقفلَ السياج الذي يمكن القفز عليه بسهولة

كانت الإقامة هنا جميلة في نهاية الأمر ولم يصننا أي مكروه ، وعلينا أن نذهب الآن لتوديع أسرة رشيد وأسرة عبد القادر . من نودع أولاً لأجل أن لا نثير بسبب جهلنا للأصول السائدة هنا الخصومة من جديد ؟ . الأفضل أن نبدأ وفق طريقنا : أولاً نتوقف لتوديع أسرة رشيد خاصة فإن هذا البستان في نهاية الأمر بستانهم الذي أصبح من أجلنا منطقة محايدة . وبعد ذلك نذهب في الطرف الأسفل لتوديع أسرة عبد القادر .

ولسوف نتوقف عند الصفار لأجل أن نشترى أخيراً ذلك الابريق المنتفخ ، المؤلف جداً في هذه المنطقة . وكذلك القبعة المزينة بالنقود المعدنية المعلقة حولها والتي تشكل جزءاً متأسلاً من الزي الشعبي النسائي الكردي . وسوف يمنح كلاهما الى متحف نابورستيك في براغ

تمت الطريق المتلوية في جانب الجبل منحدره مخلفة وراءها النسيم والظلال المرتجفة تحت الأشجار . إنه الظل البارد الأزرق للصخور . نقلت العبارة السيارة وركابها عبر الزاب الكبير . فهناك بين المرتفعات التي تظهر في الأفق تقع نينوى ، آخر وأشهر مدن الملوك الآشوريين .

٩

قبل مائة عام من اقتراب فلاستا وأفراد أسرتها ، وهي ترتجف انتظاراً ، من مدينة نينوى ، كان الموظف الشاب أوستن هنري لايارد يجلس وراء طاولة أحد مكاتب الحمامة في لندن ، وكان يحس بالضجر الشديد .

كان على درجة عالية من التعلم وكانت روحه محبة للتجوال والسفر . وعلى الرغم من أنه قضى ست سنوات بين ملفات وملازم التعاليم القانونية ونصوص القوانين فقد كان يمجتها حتى الموت .

وأخيراً في عام ١٨٤٠ قرر لا يارد الذي يبلغ الثالثة والعشرين من العمر تحقيق أحلامه بالسفر الى الشرق . توقف في تركيا وايران وسوريا . وبعد عامين عاد الى اسطنبول (تساريهراد) من جديد وقد ملأت رأسه الأساطير المملعة بالأسرار حول المرتفعات التي تحيط بمجرى نهر دجلة والتي دفنت تحتها كما يقال المدينة الجميلة للملوك الآشوريين

وكان قد مر وقت طويل قبل أن يحصل لا يارد على ممول لتحقيق مشاريعه . وفي عام ١٨٤٥ فقط إتجه ومعه رأس مال يبلغ ستين جنيهاً نحو مجرى نهر دجلة .

بدأ أعمال الحفريات في نمروود وحصل له هنا ما لا يحصل لعلماء التنقيب عن الآثار إلا نادرا : ففي أول خندق قام العمال لحفره عشروا على بقايا جدار قديم ، تبعت ذلك وبسرعة كبيرة الاكتشافات التاريخية اللاحقة ، حيث اكتشف لا يارد قصر آشور ناصر بال ، الحاكم الذي حكم مملكة آشور في القرن التاسع قبل الميلاد

عدد يكاد لا يصدق من الاعمال الفنية : الصور المنقوشة على المرمر والتماثيل الضخمة ذات الرؤوس البشرية والأجساد المجنحة للأسود والثيران . والتماثيل التي كانت تحمي بوابة القصر الملكي والنصب الاسود الذي يبلغ ارتفاعه مترين وقد نقشت عليه الصور المجسمة والكتابات التي تتحدث عن الانتصارات العسكرية للملك سلمان نصر ، الذي حكم البلاد بعد آشور ناصر بال وعن الحياة اليومية لرعيته .

تحت تل كويونجيك عشر لا يارد على الآثار الغنية لقصر آشور ناصر بال والى الجنوب الشرقي من نينوى في (بيلوفات Belovat) عشر على بقايا بوابة أخرى لأحد القصور الملكية يبلغ إرتفاعها ستة أمتار . وكانت قيمة الأحزمة البرونزية المطروقة على جناحي البوابة أعلى من قيمة البوابة نفسها . إذ أن الرسوم البارزة التي تزينها تتحدث بوضوح وتفصيل كما تتحدث الصور الفوتوغرافية عن النظام الدفاعي وعن تحصينات المدن الآشورية .

لم يكن حينذاك أى وجود لقانون يمنع اخراج الآثار التاريخية المكتشفة من البلد . ولذا فإن أغلبية حصاد اكتشافات لا يارد الأثرية لا توجد في نينوى وإنما في متحف لندن .

وفي نينوى نفسها لم يبق إلا القليل مما يمكن مشاهدته . الصورة البارزة الهائلة ذات المعالم الدقيقة المحفورة على الصخور غير بعيد عن المدينة وقسم من الحفريات الطرية غير المدروسة لحد الآن في قرية كويونجيك .

كل موقع تكتمل دراسته من قبل علماء التنقيب عن الآثار في القرن العشرين يغطى في

الحال بالتراب : إذ مر وقت طويل أكثر مما ينبغي كان فيه القرويون من الأماكن القريبة
والبعيدة يستخرجون الصور البارزة على المرمر ويقومون باحراقها للحصول على الكلس

١٠

في الموصل حلت أسرة دي لوتي في ضيافة مدير دائرة التلغراف المحلية ، الصديق القديم
لجيورجي .

الدار مشيدة من المرمر الموصلية فاتح اللون ، ولها أعمدة من المرمر تحيط بالايوان
وأطواق مقنطرة وسلالم دوارة والمشبكات والقضبان من الحديد المطروق يدوياً . وتقسم
الجدران غير العريضة وغير العالية سطح الدار الى بضع ردهات للنوم . إنه لمنظر رائع للمدينة
ذات المناظر البيض يستطيع الانسان مشاهدته من هنا

كم هي مريحة الإقامة في مثل هذه الدار بعد شهر من العيش الرومانطقي في الخيمة .

ما كادت فلاستا تنتهي من غسل الأطفال واطعامهم حتى بدأ الجيران يتقاطرون على
الدار : يقال عندكم طبيبة وصلت من بغداد . هل ستكون على درجة عالية من اللطف
وتفحص ابنتنا ، فقد ظهرت عنده دملة في الرقبة . هل ما زالت عندكم الطبيبة تلك ؟ إنني
أعاني للشهر الثاني المأ في الركبة .

واصلت فلاستا فحص ومعالجة المرضى حتى المساء واستمرت في اليوم الثاني من
الصباح . على أية حال سيبدأ عملي في العيادة بعد بضعة أيام فقط ولعلي أتمرن هنا على
العمل من جديد . وقد أخذت المضيعة السيدة حسينة والخدمة على عاتقهما عن طيب خاطر
العناية بالأطفال . كان رادبور يتابع السيدة حسينة عندما كانت تصب الماء من أنابيب
الاسالة لتملأ الزير . كان الزير كبيراً ولذا استغرق ذلك وقتاً طويلاً وقد شعر الطفل
بالضجر . وعندما أغلقت السيدة حسينة صنوبر الماء والباب المشبك ، التفتت الى الطفل
لتقوده معها الى داخل الدار فلم تجده . ولم يكن في الطابق العلوي ولا في السرداب . إنه
على أية حال لا يمكن أن يهرب فإن باب الدار ثقيلة ومقبضها عالٍ . الآن فقط لاحظت أن أحد
المرضى لم يقم بسد الباب عند خروجه .

لم يستطع الناس المحليون إخفاء قلقهم ، ففي الموصل يضيع الأطفال إلى الأبد . والطفل
الأبيض الذهبي الشعر يكون أكثر اغراء للمختطفين من أطفال المدينة ، لأنه يباع بصورة

جميع من كان في الدار بمن في ذلك المرضى هرع للبحث عن رادبور في متاهة أزقة المدينة وطرقها . وركضت فلاستا الى مركز البوليس وبعد ذلك الى مديرية الشرطة ، حيث طرحوا الكثير من الأسئلة وقاموا بتسجيل البروتوكولات إنها قمة البيروقراطية الكاملة غير أن الدقاتق تمر بسرعة . كانت تأمل بأنها ما إن تعلن عن ضياع الطفل حتى يقوموا بارسال فصيل من رجال الشرطة في الأقل للبحث عنه في شوارع المدينة . ولكنهم الآن يسألون بدون أي انفعال عن تاريخ ومكان ولادته وعن اسمه

« رادبور كالال دي لوتي » كالال ، هذا اسمه الأول ، الثاني ؟

« لا ، انه اسم أبي »

« لماذا أليس له أب ؟ »

« له أب واسمه وفق أبيه دي لوتي »

« يعني أن له لقبين ؟ »

يا إلهي ، لماذا قلت لهم ذلك . فإن هذا لن يغير في الأمر شيئاً ، أردت أن أسميه كالال ، لأجل أن لا يستطيع في يوم ما نكران أصله التشيكي ، ولأجل أن يحمل دائماً وبوضوح ختم أسرتي . ولكن ما الذي يهم رجال شرطة الموصل من كل هذا ؟

جيورجي خرج بعد الفطور مباشرة مع صديقه الى المدينة ولم يكن لديه حتى مجرد فكرة عن ضياع ابنه . لو أن أحداً صادفه في الأقل ، لو أن أحداً لمحّه...

قرأ الموظف المخلص لوظيفته البروتوكول وقدمه لها للتوقيع عليه . بعد ذلك أرسل رجلين من رجال الشرطة للبحث عن الطفل في أزقة الموصل المتشابكة .

ولم يعثر على الهارب إلا بعد الظهر ، حيث وجدته إحدى خادمت دار المضيف . كان يتمشى بلا اكتراث في طرق المدينة ويدور عند كل منعطف مستمراً في سيره بدون تردد ولا خوف حتى تحت القناطر حيث تسود العتمة . كان يتمشى مثل أي سائح محترم ولم يكن فيه ما يشير الى أنه طفل ضائع ، وربما لهذا السبب بالذات لم يسرقه أحد

لم ينفجر باكياً إلا عندما اختطفته الخادمة التي عثرت عليه وحملته بين ذراعيها الى

إنه جري، ومستقل ، امتدحته فلاستا في سرها . الآن وبعد أن زال توتر الخوف شعرت بمزاج رائع وظهر لها كل شيء على أروع ما يكون ، وبصورة خاصة المستقبل : رادبور واثق من نفسه وهو لن يخاف أي شيء ، بسرعة . يبدو أن اختلاط الدم من جنوب التشيك بالدم من شمال ايطاليا لم يكن أمراً سيئاً للغاية . ابتسمت مفكرة . ومع ذلك لا بد أن توفر له أفضل ظروف الانطلاق في الحياة ، ينبغي أن تكون أفضل بكثير من تلك التي توفرت لها . أية فرصة ملائمة للإنسان وأية هبة عندما يتعلم منذ صغره خمس أو ست لغات . ها ، إنه يخلط الآن بين تلك اللغات ، لا بأس فإن ذلك سوف يستقيم مع مرور الزمن . ماذا سيعمل ؟ الطب ؟ جيورجي يريد له أن يكون موسيقياً ، غير أن من الممكن للطبيب أيضاً أن يهتم بالموسيقى

كان الطفل يخطو في الغرفة ويدندن وينظر احياناً بعينيه المدورتين الكبيرتين تحت جبهته المقوسة الكالالية نحو أمه .

١١

سندهب في الصباح الى الحمام . ألا تريدين الذهاب معنا ؟ ويمكن أن تأخذ رادبور الصغير معنا . هكذا دعت المضيئة فلاستا .

سيكون هذا رائعاً أن أستحم بشكل جيد . فكرت فلاستا بتوق ففي بستان شقلاوة المحاط من الجانبين بالمسلحين لم تتوفر الظروف الملائمة لممارسة مراسيم النظافة - والآن في الطريق استحم الجميع بعرق أجسادهم...

غير بعيد عن الموصل تنطلق من الأرض عيون الماء الحار المشبع بالكبريت . ويذهب الأطفال والرجال الفقراء للاستحمام هناك في الهواء في الطبيعة وفي الأماكن غير المحمية التي لا يحرسها أحد ويجري فيها الماء الكبريتي كجدول بين الصخور

السيدة حسينة تذهب مع وصيفتها للاستحمام في الرؤمانة . غرفة خلع الملابس هنا تذكر بأي حمام عام في العالم : قاعة للانتظار توجد فيها المشاجب والمسطبات البيض والمقصورات للذين يريدون دفع رسوم استخدامها . والمقيمة على الحمام تتمشى بحزم في المنزع وتشعل لفافة تبغ بعد أخرى .

الحمام بحد ذاته يشبه كهفاً كبيراً أو داراً أو مبنى مستديراً تعلوه قبة وفيه طاقات في

الجدران . يسود المكان نور خافت ومن الماء ، يرتفع البخار الذي تفوح منه رائحة الكبريت من العتمة والضباب تظهر أجساد النساء العاريات . باستثناء هذا الماء يبدو الأمر هنا وكأنه في الجحيم ، إنه المطهر الغريب الرطب

الماء الكبريتي الدافئ يطفح باستمرار ويجري خارجاً . وإنه لمن المريح أن يشعر الإنسان بمرور هذا التيار الدافئ على جسمه . وهنا يعتبرون الاستحمام الأوربي في الحوض (البانيو) في الماء غير الجاري ، أمراً مقرفاً وغير صحي ، وأن الماء الجاري ، وحده القادر على تطهير الإنسان من الوسخ وربما من الخطايا أيضاً

المرأة التي تقوم بالغسل والتي استصحبها السيدة حسينة معها قامت بوضع طبقة كثيفة من الطين على شعر رأس فلاستا . وهو نوع خاص من الطين* الذي يحفظ في البيت بصورة كتل مجففة ويستخدم لغسل شعر الرأس فقط . عندما يتحول شعر الرأس الى قبعة طينية تقوم الغسالة بفرکه بأصابعها وغسله بالماء . وتعيد الكرة من جديد (من غير الممكن مطلقاً تنظيف شعر الرأس من هذا الطين اللزج وربما سوف أضطر الى حلاقة شعر رأسي حتى الجلد وكذلك شعر رأس رادبور ، فكرت فلاستا بياس . كم هو جميل شعره المجعد) .

لست أو سع مرات إختفى الرأس تحت طبقة الطين الكثيفة وكأنه كتلة من الطين أعدت لدولاب صنع الفخار . أخيراً تم صب الماء للمرة الأخيرة . فقد رضيت الغسالة عن نتيجة عملها وها هي تتصرف لتكريس عنايتها للسيدة حسينة .

غير أن استراحة فلاستا لم تستمر طويلاً ، فبعد الشعر يأتي دور الجسد . الغسل بالصابون الى ما لا نهاية والدعك والفرك وصب الماء وتعاد الكرة من جديد . فلاستا تشعر بما يشبه الغيبوبة ورادبور يشير بين نشيج وآخر بصورة معبرة نحو الباب . ولا يعلم غير الله كيف استطاع الاهتداء الى تحديد موقع الباب في جو الأبخرة الجهنمية لهذه القاعة المستديرة .

أخيراً قررت النسوة أن ضيوفهم أصبحوا على درجة كافية من النظافة وبمقدورهم الآن لف أجسادهم بالمناشف والذهب الى قاعة إرتداء الملابس .

بعد ساعة من ذلك جاءت بقية النساء ، وكانت السيدة حسينة مرهقة تماماً لا تكاد

* يطلق عليه باللهجة البغدادية طين خاوه - المحرر .

تستطيع سحب رجلها . وكانت وصيقتها تسندها من جانب والغسالة من الجانب الآخر
« لماذا تمكثين كل هذه الفترة الطويلة هناك ؟ » قالت فلاستا لانمة عندما شاهدتها بهذه
الحالة من الانهيار ، لدرجة أنها استغربت عدم اصابتها بالغيوبة

صعدت السيدة حسينة أنفاسها فلم تكن قواها كافية للإجابة . وبموجب كل الظواهر
لم تكن لتشعر بأنها قد حققت تطهير جسدها وروحها قبل أن يكون الحمام قد أنهكها
تماماً

١٢

كانت محطة الاستراحة الأخيرة خلال طريق العودة في سنجار . في بداية سنوات
الثلاثينيات كان عدد سكان المدينة ستة عشر ألف نسمة : ثلثهم مسلمون وثلثهم مسيحيون
والثلث الآخر أزيديون . « لا أعرف أحداً يتسم بالصراحة والاخلاص اللذين يتسم بهما
الأزيديون » قال المحامي مصطفى كامل ممتدحاً وكان قد جاء الى المدينة للمشاركة في
مرافعات المحكمة . « إنهم غير متعلمين وأشد فقراً من المسلمين والمسيحيين ويتسمون
بسرعة الانفعال والانفجار وفي كثير من الأحيان يرتكبون أمراً ما . وحين يرتكبون أمراً لا
ينكرون ذلك . وحين يدلي الأزيدي بشهادة أمام المحكمة لا تكون هناك حاجة للتأكد من
صدق إفادته عبر الاستماع الى شهود

أغلبية الأزيديين في العراق تعيش هنا في الشمال في مرتفعات سنجار . وفي كل شهر
يقيمون في إحدى المدن أو القرى إحتفال شفاعة يرتبط بتبجيل الطاووس البرونزي .
والطاووس رمز للملاك الساقط المنبوذ ولكن المتسم بالقوة والسلطان . ولهذا من الضروري
عبادته واحترامه وبذلك يتم تجنبه . وخلال الاحتفالات يقدمون له الضحية التي تقدم في
الفترة الأخيرة بأسلوب حديث ، بصورة نقود . غير أن النقود لا تكون من نصيب الطاووس
وإنما من نصيب الإمام الكاهن الأعظم وأصحابه . ويقدم كل أزيدي ربع موارده السنوية أو
أكثر الى خزانة الطائفة

الديانة الأزيديّة تُحَرَّمُ - أو في الأقل أنها كانت تحرم حينذاك - على الانسان الاعتيادي
تعلم القراءة والكتابة : لأن القراءة والكتابة مقصورة على رجال الدين وأسر الشيوخ .

ما هي جدوى التعليم بالنسبة للمؤمن البسيط ؟ إن التعليم يصرف الناس عن الايمان

ويشير فيهم مختلف الشكوك وهذا ما لا يحتاج اليه كبار شيوخ الأزيديين . وفي كل الأحوال يفكر ويتصرف نيابة عن جميع الأزيديين رئيس الطائفة الذي يعرف كل شيء، ويجمع كل الحكمة وهو المعصوم من الخطأ

العب، الأكبر من العمل والكدح يقع على كاهل النساء فهن يقمن بالمهام المنزلية وبالعمل في الحقل وبالأعمال الصعبة المساعدة وكذلك بالأعمال الحرفية . والنساء هنا غير محجبات . مقابل ذلك يقوم الرجال بضر شعر الرأس في أربع ضفائر طويلة ويضعون فوق الرأس قبعة عالية من القماش البني محاطة بشال وردي اللون . ويرفض النساء والرجال إرتداء الملابس الحديثة كما يحرم الدين الأزيدي اللون الأزرق

كان المضيف لأسرة دي لوتي في سنجار عزيز صديق صاحبهم المعروف جيداً مصطفى كامل . إن الأسرة مسيحية ولهذا فإن الدار غير مقسمة الى قسم للرجال وآخر للنساء . في الطابق الأرضي توجد غرفة للاستقبال وغرفة للضيوف وفي الطابق الأول توجد غرف إقامة أفراد الأسرة .

السيد عزيز متزوج للمرة الثانية . وترتدي زوجته الجميلة الشابة الملابس الأوربية غير أن الوصول إلى الطابق الأول في دار عزيز يتم عبر تسلق سلم خشبي . ولكننا نرى من هنا منظراً رائعاً لنهر دجلة ومرأى الشاطئ السوري للنهر والسهول المائلة للزرقة والتي تمتد إلى ما لا نهاية . ترى أية روعة سيكون عليها منظر غياب الشمس هنا

في ساعة مبكرة من صباح اليوم الثاني انطلقت الأسرة عبر الصحراء المنبسطة نحو الجنوب . كانت درجة حرارة الجو تزداد مع كل كيلو متر في حين كان الهواء لزجاً بلا حراك وكأنه مادة هلامية .

كان ذلك في السابع من أيلول ، في السابع من أيلول لعام ٤٠١ قبل الميلاد ، يوم أمر زينوفون كما يقال بقطع الأشجار في هذه الأماكن لكي يستطيع جنوده الوصول عبر قنوات الري إلى الشمال . فقد نمت الأشجار هنا قبل ثلاثة وعشرين قرناً . إنه لأمر صعب على التصديق . لا شيء حولنا غير الصحراء ولهيب الحرارة .

مثل جلبة خشخاشة أعياد الفصح تتقع تحت عجلات السيارة ألواح جسر العوامات فوق دجلة . تلوح لنا الآن قمة الميدان ذات الألوان المتنوعة وفي خلفيتها المنارة القديمة لسوق الغزل .

رادبور يتقد فرحاً وحماسة ، فقد اكتشف منارة الحسكة جارتها المحبوبة .
عند الدار ضغطوا على مزمار السيارة ، فركضت الطباخة مريم إلى عتبة الدار وكانت
تبتسم ووراءها تتنفس مرحة برودة الدار التي تفوح منها رائحة بلاط الأرضية المغسولة للتو
والرائحة الحلوة لأشجار النخيل .

أنظري يا مريم كم شعرت بالقلق علينا وها نحن هنا أحياء وأصحاء.

نلتقي تحت شجرة الدردار

بدأ مرض فلاستا بصورة غير ملحوظة . للوهلة الاولى خيل انها في حالة من الارهاق المألوف والمفهوم بسبب السفر : سوف انام لبضع مرات نوما كافيا ويكون كل شيء على ما يرام . كما ان تغير الجو كان له دوره - فقد كنا نتقدم نحو الجنوب . حقا لقد كنا نتوقف للاستراحة ، ولكن ما اهميتها حين كانت تمتد لمجرد يوم او يومين ، كان لا بد لفترات الاستراحة تلك ان تمتد زمنا اطول لكي يتأقلم الجسم تدريجيا . على اية حال ، لدينا في الاقل تجربة للمرة القادمة .

تأرجحت . فأمسكت درج الأدوات الطبية . حدث لها هذا للمرة الثانية اليوم . لعل كعب حذائها أصبح مستهلكا ، عليها ان ترتدي حذاء آخر .

كان التعب يزداد ارهاقا لها يوما بعد يوم ويتكرر بوتائر تزداد اقترابا يوما بعد يوم ، ولم يعد من الممكن تبرير حالات الاصابة بالدوار باستهلاك كعب الحذاء

كانت تغسل وجهها مائة مرة يوميا بالماء البارد وكانت تدعكه بالمنشفة . لا بد لي ان استجمع قواي . فلقد فقدت عادة العمل اليومي في العيادة ، انني بحاجة الى العودة الى المجرى الطبيعي لحياتي اليومية ، لا بد لي من ارتداء جلدي مرة اخرى ، وإلا فان الشيطان سيتكفل بالأمر .

تمر ساعات العمل في العيادة بتكاسل لا يحتمل . كم من المرضى مازال ينتظر ؟ اربعة او

خمسة ؟ يا الهي مازال هناك ستة مرضى . قامت بالزيارات الاكثر ضرورة وعادت متعبة لدرجة انها فقدت الرغبة في أي شيء . لم تجد القدرة على تكريس الاهتمام حتى للأطفال ولتناول الطعام .

منذ بداية الصيف وخلال اقل من ثلاثة اشهر فقدت من وزنها عشرة كيلوغرامات لم تقل ذلك لجيورجي . حاولت ان تتناول مزيدا من الطعام وكانت تأخذ حبوب العلاج سرا وقامت بتضييق تنورتها . وكانت تضطجع بعد الغداء للاستراحة . عليّ أن انهض من جديد وان انتشل نفسي من هذه الحالة .

في شهر تشرين الثاني قررت تقليص ساعات العمل في العيادة الى الحد الأدنى وكانت ترقد اغلب ساعات النهار . وأخذ جيورجي اجازة من العمل . كان يعتني مع مريم بالاطفال ويبقى الى جانب زوجته قلقا معذبا

"ما الذي اصابك يافلاستا ؟ فأنت لابد أن تعلمي ذلك ، أن تعرفيه ، فأنت طيبة" هزت كتفيها وابتسمت بذبول معتذرة . " في الغالب إنني لم اتخلص بعد من آثار اجازتنا الهوجاء تلك . لاتقلق ، فسوف استريح ويكون كل شيء ، على مايرام" أحنى رأسه . بدا ذلك وكأنه اشارة بالموافقة .

انه عاش ذلك كله من قبل . خيل له انه يعرف كل كلمة تقولها زوجته ويعرف كل مسحة لراحة اليد الحارة على ظهر يده ، كل ابتسامة ، تسعى لأن تملأها بالشجاعة والأمل . هكذا اختلط عليه الاحساس بالحالتين لدرجة انه اوشك ان يخاطبها بضع مرات باسم كليوفا كانت كليوفا شابة ، شابة صغيرة ، لم يتجاوز عمرها العشرين عاما ، عندما وصلا معا الى الفاو . مازال يتذكر الاستدارة النقية لوجهها وبشرتها الحرير التي كان لها لون اللوز وعينيها الواليتين .

في احوار جنوب العراق اصيبت بالمalaria . هزل جسمها واسودت بشرتها واصبحت خشنة تحت تلك الشمس التي لاترحم ، وفي المنطقة القاسية ، لدرجة تدفع حتى الظل الى الهروب منها

كانت كليوفا كثيرا ما تجلس في زاوية الايوان ملتصقة بالحائط الملتهب تتأمل زوجها وابنها الصغير مبتسمة اعتذارا واعترافا بالذنب .

كان يدرك ان عليه أن يرحل بسرعة الى الشمال وان ذلك سيكون مفيدا لها ولاشك ، غير انه كان في السادسة والعشرين من العمر وكان مديرا لمحطة التلغراف في الفاو المدير ، كان لهذا اللقب وقع ساحر في ذلك العمر . وعندما كان العاملون في دائرة التلغراف يسافرون الى بغداد كانوا يقدمونه لمسؤوليهم وهؤلاء للمسؤولين الاعلى : " السيد جيورجي سيلفيو دي لوتي ، مدير محطتنا للتلغراف في اقصى الشرق " كان يشعر وكأنه جنرال في موقع متقدم ويرى في ذلك مصدر اعتزازه ورسالته

عندما عاد من احدى تلك الرحلات الى بغداد حمل معه هدية لكليوفا مظلة كبيرة ملونة وجهازا لنافورة لتشغيل نافورة الماء في باحة الدار . ودعا البستاني لبناء احواض كبيرة في كل ارجاء الباحة . زرع فيها فسانل النخيل والليمون . شعرت هي بفرح هائل وأحس هو للحظة بهدوء الضمير .

بقي في الفاو اثني عشر عاما . واصيبت كليوفا التي اضعفتها الملاريا بالتدرن الرنوي ، وهكذا عادا رغم كل شيء ، في النهاية الى بغداد . غير ان ذلك كان بالنسبة لها متأخرا جدا وضعت صديقتها من عهد الشباب عندما التقيتا راحة يدها على فمها هلعة .

كانت كليوفا مجرد عينين ملتهبتين في وجه برزت عظامه لشدة الهزال . في الفترة الاولى شعرت بالانتعاش . كانت تقوم بزيارة الاماكن التي تعرفها ، بل لقد استعادت بشرتها شيئا من البياض ، وطرز البياض ايضا شعرها الاسود تدريجيا . كان شعر رأسها الاسود رائعا ، ثقيلًا وكثيفا ، وكانت تميل برأسها جانبا وكأنها لاتستطيع حمله ... لايريد ان يعيش ذلك مرة أخرى .

٢

"لنسافر الى اوربا ، يافلاستا ، ارجوك ، لنرحل الى اوربا في اقرب وقت ممكن"

اذا كان هو قد تحدث في يوم ما في الفاو عن الرسالة ، فان زوجته الثانية الآن تبدي مثل هذه الاعتراضات : انها لحد الآن لم تحقق الكثير مما قررت تحقيقه من قبل . وجامعة كارل مازالت حتى اليوم بدون قسم لدراسة الامراض الاستوائية . (اربعة عشر عاما ، مرت منذ تحدث البروفيسور هلافا عن هذه الحاجة الملحة ، واين هم زملاؤها الذين صفقوا له بحماسة

حينذاك ؟) .

كانت فلاستا تقول : لا اريد الرحيل من هنا برفقة إحساس بأنني استسلمت وأنني لم احقق رسالتي .

لوح بيده مكرها . شعرت هي بالاهانة . ليس عنده بالنسبة لعملها غير التلويح باليد ؟ معذرة يا حبيبتي ، لم اشأ إهانتك ، غير أنني اعتقد ان رسالتك . بالدرجة الاولى ، في ان تعيشي ، في الاقل لأن لديك اطفالا . ولا ادري كيف ستكونين نافعة هنا بالنسبة لجامعة كارل وبالنسبة للمرضى هنا ، حين تكونين انت مريضة . هذا الشهر هو شهر تشرين الثاني ، اعترفي بحكمة - هل تجرؤين على قضاء صيف آخر هنا ؟

لنرحل الى اوربا ، وسيكون ذلك أفضل لك وللاطفال

وافقت تدريجياً على هذه الفكرة . وفي السادس من كانون الأول ١٩٣١ كتبت الى ماريا التي كانت في دور النقاهة بعد اجراء عملية جراحة في العيون : " الحياة تعلم كل واحد منا - بصورة مختلفة الواحدة عن الأخرى ، إن مشاريعنا الكبيرة ينبغي ان تكيف لتلائم معها . وان باني الحياة ينحتنا وفق حاجته وليس وفق ارادتنا . وكل واحد حر في ان يتكيف بتفهم ام ان يضع في التذمر والشكوى"

٣

منذ تلك اللحظة التي قررا فيها الرحيل ، كانا يتحدثان في كثير من الاحيان عن اوربا ، وبالتحديد عن براغ وعن برنارتيته : عندما تتماثل فلاستا الى الشفاء سوف تقوم بفتح عيادة لها في براغ ، وسوف يسافرون الى برنارتيته لقضاء ايام الأحاد هناك . سوف يرتبان بيتهم في براغ على الصورة الاعتيادية السائدة في اوربا . ولكنهما سيجعلان من دارهم في برنارتيته بغداد صغيرة - سجاد على الارض وسجاد على الجدران ووجاق وأوان معدنية مطروقة ... كان في تلك المشاريع شيء من الحنين وشيء من التفكير الواقعي : فإن دار برنارتيته الحجرية تعاني نقصاً واحداً ، فهي باردة لدرجة لاتصدق . وسيكون افضل بلا شك حين تفرش بالسجاد

"المهم أن نعثر على من سيقوم باخلاص برعاية الحديقة " فكر جيورجي " وسوف نهدم التعريشة القديمة او نكلف احدهم باصلاحها"

"ان نهدهما لا...لا . لم تشأ فلاستا ان تسمع شيئا عن الهدم . التعريشة برج حراسة صغير من طابق واحد وسط الحديقة . شيده أبوها بقواه الذاتية ووفق تصميم رسمه بنفسه . كانت تذهب هناك لتحضير الدروس اتقاءً من المطر ومن حرارة الشمس حين تكون شديدة . من النوافذ الأربع كانت تنظر الى الجهات الأربع ، كانت ترى المدينة وبرج الكنيسة بين اشجار الزيزفون وترى مرتفع القديسين وبحيرة الطاحونة والطريق الى المقبرة

"انتظر يا رادبور ، فلسوف ترى في اوربا اشجارا أخرى ، غير اشجار النخيل التي تراها هنا دائما . إن الريح تحدث في اشجار النخيل حفيفا كالذي تحدثه في الاشجار القديمة كثيرة الفروع "

ادهشتها الطريقة التي قال فيها جيورجي تلك الكلمات ، لعله اراد ان يثير في نفسه وفيها نوعا من النفور من هذه المنطقة ليكون الوداع اسهل . فهي تحب اشجار النخيل غير انها تحب الاشجار الاوربية اكثر ، هذه حقيقة . تصورت برنارتيتسه في شهر حزيران المدينة تسبح في رائحة اشجار الزيزفون وكأنها في غيمة ذهبية تحدث ازيلا . هذان الصفان للاشجار وهما اطول الصفوف هنا زرعها ابوها مع تلامذته كما قام بزراعة جميع اشجار الزيزفون حول المقبرة . وهل يمكن ان يكون هناك اجمل من غابة صغيرة لاشجار البتولا البيضاء ؟ ام شجرة الحور السامقة الفضية تلك ، ما أجملها في مواجهة السماء الزرقاء

"أنا شخصا افضل شجر الصنوبر وبعد ذلك شجرة الدردار تلك التي عند دارنا ، فهي تبدو عندما تغيب الشمس وراءها وكأن طيرا ناريا قد حط بين اغصانها"
"لدى الفرنسيين مثل جميل . فهم يقولون :

"Nous nous retrouvons sous des ormes

"قال جيورجي متأملا

واقفت فلاستا " إنه لقول جميل حلو الايقاع "

نظر اليها مستقصيا : انت لا تعرفين ما الذي يعنيه ذلك ؟"

"مالذي يعنيه ؟ نلتقي تحت شجرة الدردار . ليس كذلك ؟"

"أجل نلتقي تحت شجرة الدردار ، إنه نوع من تحية الوداع : لن نلتقي بعد الآن ، لن

نلتقي مطلقا في الحياة ، إلا في المقبرة تحت شجرة الدردار"

ارتجفت . كانا يجلسان في شرفة السطح ، الاطفال يلهون باللعب وهما كانا يتابعان حلول العتمة فوق بغداد . تصرف جيورجي تجاه حركتها بالضبط كما تصرف ذلك الزميل التركي - ماذا كان اسمه ؟ - قبل سنوات في اسطنبول " هل تشعرين بالبرد يافلاستا ؟"
قدم لها سترته ووضعها على كتفيها " لندخل الدار فقد بدأ الجو يبرد"

٤

قرروا ان يغادروا في وقت مبكر من الربيع . حقا لقد تماثلت فلاستا الى الشفاء قليلا خلال شهري كانون الثاني وشباط ، وبدأت الدوام في العيادة وكانت تطرح في بعض الاحيان السؤال على نفسها : الم يتسرعوا في اتخاذ القرار . ؟ ربما كان من الافضل السفر الى اوربا لقضاء الاجازة فقط وفي شهر ايلول او تشرين الأول العودة ... اشارت الى ذلك مرة او مرتين امام جيورجي ، غير ان زوجها المتسم بالمرونة والسماح اصر على التمسك بصورة قاطعة بالخطه الاصلية : في بداية آذار تصل ميلادا لكي تتعرف بسرعة في الاقل على بغداد ولكي تساعدهم في رعاية الاطفال خلال طريق العودة . وفي نهاية آذار يسافرون عبر مصر الى ايطاليا ومنها الى الاراضي التشيكية . في ايطاليا يقضون فترة استراحة قصيرة ، يقوم خلالها جيورجي بزيارة عدد من اولاد اعمامه وعماته في البندقية وفي ميلانو وتقوم فلاستا بزيارة اصدقائها القدامى في بولونا . مدة اسبوع او عشرة ايام لا أكثر . فما دام موسليني يحكم ايطاليا لا مكان لجيورجي دي لوتي فيها

كل رحلة يقومون بها الآن تعني الوداع : للمرة الاخيرة في بابل ، للمرة الاخيرة في الكاظمية ، وللمرة الاخيرة في الطريق التي كان فيها جيورجي قبل زمن طويل مضى على قيد شعرة من الموت . ومازالت ترى على سقف سيارته القديمة آثار العيارين الناريين . حينذاك يوم كان موظفا في الخدمات الادارية العراقية ، اصدر في الكاظمية امرا بفتح قبر طفل تسمم بالمخدرات . وخلال طريق عودته كان الثأر بانتظاره ، لم ينقذه غير العتمة وقيادته السريعة للسيارة . اما مدير شرطة قضاء الكاظمية ، الذي وقع الأمر معه ، فقد قتل في الليلة نفسها للمرة الأخيرة قاموا بزيارة اسرة عز الدين وقبلوا الدعوة لزيارة اسرة محمود في قصرها

الصغير . وقاموا بالنزهة الاخيرة فى نهر دجلة تصاحبهم ميلادا هذه المرة . لم يكن القمر مضيئا ، وكان مساءً غائما تعبت فيه الريح - المعجزات لاتتكرر

وينبغي عليهم ايضا الذهاب لوداع صياد الاسماك مجيد ابومطر ، الذي يقدم لهم الاسماك الطازجة والذي اصطاد لفلاستا في نهر ديالى سمكة بنية* كان وزنها مائة وثلاثين كيلوغراما . وقامت فلاستا بتجفيفها على سطح الدار مدة اسبوع كامل رغم عدم رضى جيورجي والجيران ، قبل ان تستطيع ارسالها الى براغ ، الى المتحف الوطني لمواصلة عملية تحنيطها هناك

مرة قبل سنوات وجه مجيد الدعوة لفلاستا ، لحضور حفل زواج اخيه . وقد قسموا الباحة وراء البيت الطيني بستارة من القماش السميك الى قسمين . كان النساء في احدهما يطبخن في القدور الكبيرة الأرز والخضروات مع اللحم . وقد فرش القسم الثاني من الباحة بالسجاد (الذي استعاروه من دائرة واسعة من الجيران) والوسائد . هناك جلس الرجال وهناك إستضافوا ايضا فلاستا باعتبارها ضيفا عزيزا . بعد ذلك وصلت العروسة في زورق بخاري مخر نهر دجلة . كانت ترتدي بدلة بيضاء مزينة بخيوط فضية وكانت تضع حجابا ابيض تشده حول الجبهة بشريط احمر وقد زينت راحتها واطراف يديها بالحناء

ولسوف تقوم النساء بعد لحظات بزفافها الى بيتها الجديد ، الى دار طينية مكونة من طابق ارضي واحد مشابهة لدار مجيد . وهناك سيدخل عليها بعد ساعة من غياب الشمس زوجها . وعليها ان تلزم البيت ولاتخرج من الدار طيلة سبعة أيام كاملة . كان ابوها قد احب امها حبا كبيرا لدرجة انه لم يسمح لها بمغادرة الدار سنة كاملة .

الآن لم تعد نسبية مجيد ترتدي ذلك الثوب الابيض المطرز بخيوط الفضة والذي كانت تبدو فيه مثل اميرة فارسية . فان بطنها المنتفخ يرتفع عاليا تحت العباءة . هنا سوف تستقبل العائلة عضوا جديدا . قالت فلاستا تمتدحة . انه الوليد الثالث . لعل الله سوف يشاء ويكون اخيرا ولدا .

"اسمعي يادكتورة ، اذا كنت تريدين العودة الى الوطن ، سوف آخذ زوجتي والاطفال ونذهب معكم " قال مجيد بحزم ينسجم مع وجهه الحاد التقاطيع والذي لفحته الرياح وأشعة الشمس . بعد ذلك فكر قليلا : "هل تنمو عندكم اشجار البرتقال ؟ "

* سمك من نوع الشبوطيات يكثر في نهري دجلة والفرات - المحرر .

"لا يامجيد ، ربما في حديقة النباتات فقط . البرتقال يباع عندنا غير ان اشجار البرتقال لاتنمو"

"يقال ان الثلوج تتساقط عندكم؟"

"في كل شتا، يامجيد"

طأطأ رأسه ونظر الى قدميه العاريتين في نعال احمر " لاتفضبي يادكتورة ، لن اذهب ، فابني لن استطيع العيش عندكم

حتى الأيام الاخيرة حاولت فلاستا ان يأخذ المستوصف احد من بعدها . طبيب والأفضل طبيبة من اية قومية كانت . ذهبت لهذا الغرض الى دائرة التفتيش الصحي والى مكاتب الكولونيالية البريطانية . لم تجد هناك الأنسة بيل ولكن المباحثات كانت مشابهة ، حقا انها اقل عجرة ولكنها تميزت باللامبالاة نفسها

كان عدد المرضى المراجعين ضعفين وربما ثلاثة اضعاف ما كان سابقا . فقد انتشر خبر أن الدكتورة تنوي السفر الى اوربا ، وكما قيل انها ترحل نهائيا . لماذا ؟ انها مريضة ، وتخشى ان تموت هنا - ولكن - الانجليز لم يمددوا لها الرخصة . لديها الرخصة ولكن رجلها الإيطالي هذا كما يقال تورط في قضية مع الدوائر ... علينا ان نسرع الى هناك وأن نأخذ معنا اختنا ، فهي متزوجة منذ عامين ومازالت بدون اطفال ، عسى ان تجد الدكتورة متسعا لمساعدتها ...

في الأيام الأخيرة لإقامتها في العراق قامت فلاستا وميلادا بزيارة الملكة العراقية ، لأجل ان تودع هنا ايضا في البلاط الملكي . التقوا في حديقة القصر : ممر مقنطر وارف الظل ، وكراس رقيقة كأنها من الدنتيل الابيض . الخدم يقدمون الشاي والفواكه والحلويات . كانت الملكة لطيفة جدا وودود ، وكذلك كانت الاميرة رجاء ، التي حضرت المقابلة . كلتاهما كانت ترتدي الملابس الاوربية ، التي تمت خياطتها في باريس وقد قصتا كلتاهما شعر الرأس في تسريحة قصيرة . كانت رجاء تتحدث الانجليزية على نحو ممتاز .

كان ذلك وقتا مريحا بعد الظهر . قررت فلاستا تقديم الرجاء لانقاذ المستوصف يكفي طبيب واحد وممرضتان او ثلاث . كل شئ مجهز ومكتمل . هزت الملكة كتفها معتذرة : لاتفضبي يادكتورة ، فإن قضية المستوصف قضية رسمية وليس لهما هما الاثنان ان

تتدخل في القضايا الرسمية . إن هذه الامور من اختصاص الرجال

تذكرت فلاستا دون قصد حديثا سابقا لها مع جيورجي في طريق العودة من الصحراء
فقد قالت غاضبة حينذاك ان الحرم سجن للنساء ، وقد اكد هو في حينها ان نظام الحرم
حصن دفاعي للنساء ايضا

في وقت مبكر وقبل انبلاج الفجر حضر نعمان للتوديع . وقد حمل الصبي الذي يرافقه
سلة من البرقوق من بستان نعمان . وجاء الامام ايضا ببضعة رسائل موجهة الى اصدقائه
وتلامذته ليقدموا المساعدة للاسرة خلال الطريق في حالة الحاجة الى اي شيء ،

"أترين يا ابنتي ، انك تستطيعين اليوم حضور موعظتي غير محجبة " قال الامام وكان
في ذلك شيء ، من الاعتزاز والفخر - فقد كان يدرك انه ساهم في تحقيق ذلك ولو بخطوة
صغيرة ، خطوة صغيرة في الاقل . " على اية حال ، تعالوا يا أجبائي ، ليرعاكم الله . الرجاء
بلغوا تحياتي للوالدة ، اردت ان ارسل لها رأس كرنب جيد ، ولكنه سوف يذبل خلال
الطريق . هيا بنا لا تتأخروا مع كهل كثير الكلام . اذا ما شاء الله فسوف ازوركم في يوم
ما"

انطلقت بهم السيارة . لوحوا بأيديهم . اخرجت دراهوميلا من نافذة السيارة يدها
المكتنزة وكانت تهزها ملوحة حتى عندما أصبحوا في منعطف الطريق .

همست فلاستا Nous nous rtrouverons sous des ormes

ماذا قالت ماما ؟ التفت رادبور الى العمة متسائلا

"لا أدري يا عزيزي رادبور ، ربما رددت بيتا من الشعر لم اسمع ذلك بشكل جيد
سمع جيورجي زوجته . نظر من مكانه الى جانب السائق وابتسم لها بعينين كبيرتين
حزيتين .

زمن الإحباط

عادوا على مهل ، طوال شهر ، فهم في أية حال لم يستطيعوا تجاوز دمشق وبيروت دون الوداع مع الاصدقاء ، ولم يستطيعوا المرور عبر القاهرة دون الذهاب لزيارة الاهرام والأقصر ووادي الملوك . وفي نابولي مكثوا ثلاثة ايام وكذلك في روما وفلورنسا . في ميلانو والبندقية قاموا بزيارة اقارب جيورجي وفي بولونا كانت في انتظارهم اسرة كالديني .

وهكذا تمت تجزئة الطريق إلى مراحل مريحة سهل تحملها : وكانت طريق العودة أقرب الى كونها جولة سياحية وليست رحلة متعبة للأسرة من قارة الى قارة . اخذت ميلادا على عاتقها اغلب مهمات العناية بالاطفال . واستطاعت رغم ذلك ان ترى بصورة جيدة الدار التي ولد فيها دانتي وواجهات العرض في فيا دانتي ، كما استطاعت كتابة الملاحظات لاعداد المحاضرة التي وعدت بتقديمها في نادي تقنيي طب الاسنان في براغ .

ولاحظت فلاستا مبتسمة وبشيء من الغبطة حيوية اختها ، فقد كانت حيوية وملتطعة كذلك قبل سبع سنوات ، عندما سافرت الى اسطنبول وكان شينا قد انطفأ او احترق في داخلها خلال تلك الحرارة العقيمة للجو .

وفي وتائر العمل العقيمة تلك ، قالت مستسلمة . كان حجابا خفيفا من ارتفاع الحرارة يغطي انطباعات السفر . وفي نقطة ما في قاع وعيها ظهر أمل غير مبرر وغير قابل للتفسير من الناحية الطبية ولكنه أمل متقد : حين أصل الى تشيكوسلوفاكيا ، سأكون في صحة

٢

في بولونا عند اسرة كالديني شعروا وكأنهم في دارهم . في المساء ذهبت مع جيورجي للتمشي وحدهما . اتجهت فلاستا بلا قصد نحو الجامعة القديمة ، نحو قصر Palazzo di Enzo ، نحو البرجين المائلين . لقد احبت تلك الازقة الضيقة ، ودينك البرجين المائلين نحو بعضهما كأنهما عماتان هزيلتان تفتابان الناس عند قرنة الزقاق . هل خطر لي في يوم ما ، فكرت فلاستا ، ان اتمشى هنا في احد الايام مع زوجي وانه سيكون ايطاليا . لم تكن قد قررت الزواج مطلقا ، ارادت ان تؤسس في الشرق معهدا تشيكيا دائما لدراسة الامراض الاستوائية ، لكنها استست بدلا من ذلك اسرة .

تأوهت ولكن مبتسمة . فالحياة لايمكن رسمها مسبقا ولا تخطيطها . هذا ما لايمكن ان يعتقد ان الانسان إلا في العشرين من العمر

كان الجو دافئا وقد جلست الامهات الايطاليات الضخمت والطيبات على الكراسي امام المساكن ، في حين إحتشد رجالهن الهزلاء والحركون حول دكاكين الحلاقين والحانات . وفي كل مكان حيثما ذهبنا كانت تسمع من مجموعات الناس اللغة الايطالية والحوارات والمشادات الكلامية والغناء . حتى الحوار و المشادات كانت تبدو وكأنها غناء

“جيداً آآ آني ، جيداً آآ آني ” أم تنادي من النافذة تحت السقف على ابنها البولوني .
- نسبة الى بولونا - .

ضحك احدهم بصوت مرتفع وكان واضحا انه يضحك على الطريقة الايطالية . نظرت فلاستا من طرف عينها الى زوجها - كيف هو حاله الآن ، الم يخطر بباله انه يريد ان يعيش هنا ؟

ابتسم قليلا فقط ، لنفسه ، بفضل فرحه الصامت .

لعل ذلك قد خطر في ذهنه . فكرت أن هذا هو وطنه في كل الاحوال

“ألا نجلس في مكان ما لحظة قصيرة ” قال متسائلا . قال ذلك بالايطالية .

في مكان ما ، ابتسمت فلاستا مع نفسها . يقول ” في مكان ما ” ولكنه يسحبها

مباشرة عبر الشارع نحو تلك الستائر ذات المربعات الحمر والبيض .

بدأت الحانة الصغيرة من الخارج حميمة وذات طابع عائلي . ووعده العنوان المكتوب فوق الباب بتقديم النبيذ الريفي من البراميل والبيتزا الحارة والمعكرونة . فتح جيورجي الباب على سعتة - وتوقف عند العتبة . فقد استرخى حول ثلاث من خمس طاولات صبيان في الخامسة عشرة من العمر يرتدون قمصاناً سوداً . وينظرون الى القادمين بسخرية وتعال . وقد بصق اصفرهم عمرا بطريقة المجرب راسما قوسا نحو وسط الارضية الخالي امامهما تماما

"ايها الاطفال الوقحون السكارى " صرخ جيورجي بهم مقطبا . سحبته فلاستا بصورة مفاجئة الى الورا . فلقد فزعت : اذ كان هؤلاء الاطفال الوقحون يرتدون البدلات العسكرية لشبيبة موسليني الفاشية وان الاصطدام بهم يعني الاصطدام بالنظام .

بعد ذلك لم يذهب الى اي مكان لتناول الخمر الريفي الاحمر . ولقد تأكدت فلاستا من امر واحد : اذا كان جيورجي قد فكر قبل ذلك أنه الآن في وطنه وأنه يريد العيش هنا ، فقد تبخرت تلك الفكرة مرة واحدة عند عتبة تلك الحانة الحميمة .

٣

حيثما تصورت عودتها الى براغ ، كانت ترى امام عينيها الصورة نفسها : أن تخرج من محطة القطار ويلسون الى النهار الربيعي المنعش . الشارع زاخر بالحركة ، ولكن ليس لدرجة كبيرة جدا ، ربما كانت مثل الحركة التي تسود في يوم الأحد قبل الظهر . في الجهة المقابلة من المنتزه تتمشى الامهات والمربيات مع عربات الاطفال ، الرجال المتقدمون في السن يسيرون منحنيين الى حد ما وقد شبكوا ايديهم وراء ظهورهم . عند الكشك البني القديم يشرب الاطفال الحليب من الكؤوس الطويلة . السماء فاتحة الزرقة ، وأوراق الاشجار الربيعية ذات الخضرة الطرية ، وعربات ترام براغ الحمراء . كانت تلك صورة واضحة ملأى بالشخصيات الضاحكة وكأن رساما ساذجا قد رسمها

في الصحف كتبوا عن الازمة الاقتصادية ، عن البطالة وعن الجوع . بالطبع إنها قرأت تلك المقالات ، وتحديثت عن الازمة مع جيورجي ، لكنها لم تستطع ربط تلك الصورة بوطنها الفتي المزدهر والباعث على الأمل .

كان مساء غانما كثير الرياح وباردا . على رصيف المحطة ينتظر نسيبها مع باقتين من

الورد ، والأم وابنة ميلادا . اخيرا نرحب بكم في الوطن

على السلام أمام المحطة جلست متسولة مع اطفالها ، وما ان رأت مجموعة من الاغنياء حتى نهضت ومدت يدها . فلاستا تعرف هذه الحركة جيدا ، انها الحركة المألوفة للعجائز المتسولات في اسواق بغداد ، الحركة القديمة التي يعرفها البشر قاطبة للفقر المدقع . فجأة أحست بالاحراج للورود الحمراء الغالية بين يديها والتي لم تستطع بسببها فتح حقيبتها اليدوية . سبقها جيورجي اذ بحث في جيب معطفه الصيفي واصطاد حفنة من القطع النقدية الصغيرة وقد أحدثت رنيناً حين افرغتها المرأة في راحتها . شكرت المتسولة مرتبكة لهذا الكرم غير المنتظر . في السيارة فقط ادرك جيورجي انه قدم لها نقوداً ايطالية ، لن تكون نافعة لها في اي شيء

٤

وصلوا ومعهم الخطة التي ناقشوها في العراق عدة مرات بالتفصيل : سوف يستأجرون مصحة صغيرة في مدينة من مدن الحمامات ، والافضل في كارلوفي فاري ، لانها الاكثر شهرة في الخارج . وسوف تقود فلاستا القسم العلاجي من الناحية الطبية ويأخذ جيورجي على عاتقه الادارة الاقتصادية . وكانوا قد تحدثوا حول هذا المشروع مع الاصدقاء في بغداد ودمشق وبيروت ويبدو انهم ضمنوا وصول اول المرضى

غير انهم وجدوا في وقت مبكر ان المصحة الصغيرة والحميمة لا تتدلى من السقف كما يتدلى قفص الزينة لطير الكناري في دكان اللوازم الحديد . كانت هناك بضع فيلات معروضة للايجار ، ولكنها كانت اما غير ملائمة اطلاقاً ، او أن تكييفها للغرض الجديد يتطلب مبالغ باهظة جدا . ربما سنعثر على ما نريد مع الزمن . لم تستسلم فلاستا . كان لديها من باب الاحتياط حلاً مؤقتاً . تبدأ العمل في المستشفى ، والافضل في قسم عمليات التجميل . ولسوف تعمل بعد الظهر مدة ساعة اوساعتين في عيادتها الخاصة . عثروا على شقة في شارع هادئ في حي فينوهراي (كان ذلك عنواناً جيداً لطبيب جيد) وفي الطابق الارضي للدار نفسها استأجروا غرفتين مع ردهة صغيرة ، ارادت فلاستا ان تقيم العيادة فيها . ومن المؤكد ان يجد جيورجي عملاً ما بفضل معرفته للغات الاجنبية . سيبقى حالياً مع الجدة ومع الاطفال في برنارتيته . فإن الاقامة في الريف نافعة للاطفال ، ولا بد من ان يشرف احدنا على

كتبت فلاستا الى ماريا في ايار ١٩٣٢

"... يوم امس وصلت مع جيورجي الى برنارتيته ، اليوم يعملون في كل الدار من اجل تغيير الامدادات الكهربائية ويحضرون الاساس لاقامة ملحق للحمام ولفرقة غسل الملابس وبدأ النجار يشتري الاخشاب للأثاث ، وهكذا آمل اننا سوف نستطيع حتى الصيف السكن هنا بشكل ما

هنا حديقة الأب في غاية الجمال ، رغم انها نمت بشكل كث بعد غياب البستاني - جميع المسالك خضراء طرية ، لم تطأها رجل إنسان ، وهي مضيئة بزهور الهندباء والحشخاش الاحمر ، وعندما كنا هنا سابقا كان العشب مليئا بالزهور البنفسجية" في أي مكان يمكن أن تكون أكثر سعادة ؟ في هذا الوقت بالذات تزهرا اشجار التفاح ، وعلى حفافي البركة تخضر اشجار السنديان الربيعية التي زرعها الأب بمساعدة تلاميذه ، وعند المقبرة تطفح أشجار الزيزفون بالازهار . فكرت فلاستا ومشاعرها مستفزة ، في هذه الاشجار بقي فاتسلاف كالال في الأرض .

استقبل رادبور برنارتيته بأشد حماسة " ... وكأنه احس بان مكانه هنا بعد أسلافه " ... كتبت فلاستا لماريا . بسرعة فائقة تعلم قفز السياج كما يفعل الاطفال القرويون ، انه اجتماعي وشجاع كما كان منذ صغره ، قام بزيارات للجيران وطارد الكلاب و الاوز ، وكان يعني ، طوال الايام ، يعني أحيانا بالعربية و احيانا بالتشيكية وأخرى بالايطالية . عندما جننا لأول مرة الى بركة الطاحونة ، كان يضرب الماء بحماسة براحتي يديه ويقول

" Le mer, Le mer Medeiteranee"

البحر الابيض المتوسط . فقد كان يخطب بالماء قبل فترة قصيرة عند الساحل . كان هناك رمل بالروعة ذاتها ومياه مبتلة وسماء رائعة بالقدر ذاته . وقد فات علي الصبي الذي لايهتم بصفائر الامور الفرق في مساحة سطح الماء هنا وفي البحر .

٥

في وقت مبكر بعد العودة ، و كانوا يستكملون للتو سكنهم في بيتهم الواقع في فينوهرادي . تلقت فلاستا الدعوة لزيارة القصر الجمهوري . فقد كتبت الدكتوراة ألييتسا

مساريكوف تقول إن الامر يتعلق بلقاء محدود ، وبودها ان تتعرف على زوج فلستا وانها شديدة الفضول للاطلاع على تجربتها في بغداد . جلسوا في صالون حميم ، غير كبير يطل على براغ . وقد دار الحديث في البداية حول طريق عودتهم الممتع وحول الوضع السياسي الراهن في البلدان التي زاروها في هذا الصدد كان جيورجي دي لوتي أكثر اطلاعا ومعرفة لهذا تركت له فلستا راغبة الدور الاول في الحديث

كانت عتمة المساء قد انتشرت فوق المدينة ، عندما طلبت مساريكوف منها أن تتحدث عن عملها في بغداد ولكن بشكل منتظم منذ البداية .

"في البدء كنت في اسطنبول" قالت فلستا مذكرة "حسنا ، ابدني من اسطنبول ، ولكن لحظة ، هل يرغب احد في اشعال النور؟ أنا شخصيا اقترح ساعة العتمة . (تقليد شعبي تشيكي يجذب بموجبه التشيك عدم اضاءة المصباح مدة ساعة عند حلول عتمة المساء - المترجم) .

أيد الجميع ساعة العتمة ، من اجل هذا الجو الحميمي الهادئ . تحدثت فلستا عن تجوالها في الشرق ، عن الناس ، عن التقاليد ، عن الأمراض والحالات الطبية الفريدة الجديرة بالاهتمام . كما تحدثت عن الالواح والشموع المضاءة ، التي تطفو في الليل على سطح دجلة . تحدثت عن السبايات وعن اقامتهم ايام الاجازة بين الاكرد كان جيورجي احيانا يذكرها بصوت منخفض ببعض اللحظات أو الاحداث .

وعندما اشعلوا النور بعد ذلك بساعتين في الاقل فوجئوا أن مستمعا آخر يشاركهم الجلسة . وقد جاء بهدوء تام وجلس على الكرسي القريب عند الباب : انه رئيس الجمهورية مساريك .

" كانت طفلة صغيرة هكذا ، عندما تجرأت على السفر وحيدة في العالم " قال مخاطبا جيورجي وصافح فلستا قائلا : "اهنك ايها السيدة الدكتورة ، فقد نشرت هناك سمعة جيدة لتشيكوسلوفاكيا . مثل هذا العمل قد يعجز الكثير من الرجال عن انجازه"

هذا العمل ارهقني سيدي الرئيس ، فكرت فلستا ، غير انها التزمت الصمت الآن لشدة التأثير والارتياح .

اصبح لديها عيادة غير أنها لم تستطع العمل فيها . فلم تعد تفكر : عندما سأعود الى الوطن سأكون في صحة جيدة . في قسم العظام اجرؤوا لها الفحوص ، ونصحوا بالعلاج المكثف ، والمصحة وأن تنام على سرير صلب . فإن لديك ايتها السيدة العزيزة والزميلة التهاب الفقرات الصدرية . إدخلى في حسابك ان العلاج سوف يستغرق اشهرا بكاملها . اشهرا عديدة في الاقل .

ادركت انه محق فيما يقول ، غير أنها لوحت بيدها غير مكترثة ، فقد كانت تفكر في اعماق روحها ، ان ما ينطبق على بقية الناس لن ينطبق عليها . رقدت على سرير صلب في حديقة الدار في برناريتيسه متدفنة تحت اشعة الشمس وكانت تفكر بالحساب : كم وكم تبلغ مصروفات الاسبوع وكم يبلغ الايجار في براغ وكم صرفنا لتصليح الدار تأكدت من امر واحد هو ان مشروع المصحة قد سقط نهائيا . فهي حين تسترجع صحتها ستكون سعيدة اذا ما بقي عندها ما يكفي لتغطية كلفة تجهيز العيادة .

" لاتهتمي يا فلاستا " حاول تهدئتها جيورجي " لا بد من قيام احدهم بانجاز ذلك ، فكرت مهتاجة الى حد ما . فوق ذلك كله : ايطالي لامبال . غير انها لم تقل شيئا واكتفت بالابتسام له .

في بعض الاحيان كانت تنجح في طرد الارقام من رأسها والشعور بالسعادة حقا . كان الجو مناسباً لهما وكان معهما هنا الام والاطفال في حالة رائعة ، أخيراً تحققت امنية فلاستا في ان ينشأ اطفالها في الريف التشيكي . عندما رأت رأس دراهوميللا بشعره الاجعد يختفي بين احراش عين الثور العالية ، نظرت إليها والدموع في عينيها

قالت في سرها : لنفرض انني سوف أكون مريضة حتى الربيع ، وكانت تعتبر ذلك مبالغة الى حد ما

غير ان الصيف الآخر حل وهي مازالت على السرير نفسه خلف الدار في برناريتيسه .

وقد رتب جيورجي وضع عجلات للسريير وبذلك تحول الى عربة تمكنهم من نقلها نحو الظل او المكان المشمس وفق رغبتها . وازدادت المصاريف عندما إستأجروا خادمة ، بعد ما لم يعد من الممكن القاء كل العمل على كاهل الجدة . يكفي انها ترعى الاطفال وتساعد في الطبخ

الى ماريا ٨ حزيران ١٩٢٣

"... رادبور تيس صغير صبياني - و الجدة غير راضية عنه لدرجة كبيرة ، لانه وغد غير مطيع ، غير اننا - انا و جيورجي - نحبه لطفوليته العفوية المنفلتة . على العكس من ذلك ليديا نموذج مصغر للمرأة العاقلة الى حد الاحراج والتي تفهم كل شيء ، وتساهم بصورة طريفة في كل عمل وتستطيع التحدث الى جميع الناس كشخص كبير ، وهي محبوبة بما يحقق الرضى التام للجدة ولجميع العمات الحازمات..."

الاب يعلق كل آماله على خلفه في حين يستيقظ في الام احساس داخلي -في اللاشعور - بضرورة حماية الصغير الأضعف ، ليس جسديا ، فان رادبور فارغ قوي . لقد لاحظت منذ فترة طويلة بعض الامور الصغيرة : فعندما يلعب الاطفال بالقوالب الخشبية المخصصة لتعلم تمييز الالوان لم تخطئ ليديا التي تبلغ الثالثة من العمر ولو مرة واحدة ، في حين ان رادبور ابن الخامسة كان يقول ما يخطر بباله وفي اللحظة بدون تمييز لكي يتركوه وشأنه فقط . عندما أعلمه لا ييدي رغبة وعندما أوجه له اللوم ينظر بلامبالاة او يبدأ الغناء . تلقى الاطفال اقلام التلوين وهم يرسمون . ترسم الطفلة بعناية ولسانها بين اسنانها ، تفاحة ، كرزة ، وكمثرى ، في حين ان رادبور يرسم على الورق خطوطا متموجة . وعندما جاءت بالبريد نسخة من مقالة فلاستا العلمية المتخصصة لغرض التنقيح الاخير قبل النشر ، فتح رادبور الغلاف ومزق قسما من الاوراق ، وهول بالباقي في الحديقة شديد الفرح لأن شرائط الورق ترفرف بشكل جميل في الهواء

في الحريف القادم سيذهب الى المدرسة . فلاستا و جيورجي يخفيان قلقهما بالابتسامات المتفهمة . الصبي طفولي ينمو ذاتيا ، عفوي وفق الطبع الايطالي . من غير الممكن مقارنته مع دراهوشا ، فهي ببساطة تفوق سنها من حيث الادراك .

أفضل شيء بالنسبة لرادبور الموسيقى (فهو يسير مع فرق الموسيقى النافخة التي تمر حوله مرافقة مواكب التشيع نحو المقبرة) ، والورود (وهذا بالتأكيد أمر كان سيفرح الجد) والأصواء . البطاريات والمصابيح الكشافة للسيارات . ذهبوا في سفرة الى جنوب الاراضي

التشيكية وقد غامرت فلاستا اذ بدأت الرحلة الطويلة وارتجاجات السيارة على الطريق الوعرة . حددت مسار الرحلة بعناية فائقة لزيارة القلاع والقصور والبحيرات . تحدثت لهم خلال الطريق عن الاساطير وأرتهم اللوحات الفنية وعادوا من الرحلة في المساء . لمدة اسبوع كامل بعد ذلك كان رادبور يتحدث مبهورا عن الانوار الكشافة للسيارة القادمة من الاتجاه المعاكس في المساء ، وكأنه لا يتذكر من الرحلة شيئا آخر الاضواء ، الاضواء . لعل في هذا الانبهار الغريب ، ذكرى مبكرة لشمس بغداد الملتهبة والأحواض المضيئة للمنارات ، كما كان يراها في المساء من الشرفة

الى ماريا ٦ آب ١٩٢٣

"... مازال رادبور مستغرقا في حب المنائر والمصابيح ولايستطيع تفهم الاشياء البسيطة في هذا العالم ..."

الى ماريا ٨ آب ١٩٢٣

"كانت هنا يوم الجمعة الأنسة هاريسون ، وهي صديقتي من المستشفى الميداني للصليب الاحمر والتي تعمل الآن مديرة لمدرسة في ساراسوت عند خليج المكسيك . ويبدو انها تشعر بالقلق حول نجاح رادبور في المستقبل ، إذ يخيل اليها انه غير هادئ ومحتاج اكثر مما ينبغي ... فهل تستطيعين القول لي ما إذا كان قد اثار لديك حقا الانطباع بأنه غير طبيعي ؟ ..."

في ايلول ١٩٢٤ بدأ رادبور الدوام في المدرسة في برنارتيته . وفي اللحظات التي لا يكون فيها مهتاجا ولا حنقا يبدو ودودا مستعدا دائما لتوزيع ماعنده من الاشياء لكل من يعجبه شيء منها . كان موضع حب الاطفال وكانوا يضحكون معه كثيرا ويضحكون منه كثيرا .

لم يكن أبله ، بل كان له منطقته العفوي الغريب . بدأ ذلك في اليوم الاول ، في الاجتماع الاحتفالي امام المدرسة ، اذ هرب من صف اقرانه تلامذة الصف الاول وارتقى ليقف على المنصة قرب المدير الذي كان يلقي كلمته . وعندما وجهوا له اللوم فيما بعد اجاب ملقيا نظرة مباشرة من عينيه الغامقتين الواسعتين : كانت الرؤية من هناك افضل"

ابن الام ، التي كانت اول فتاة في تأريخ جامعة كارل ، تخرجت بأفضل درجات التقدير عاجز عن استيعاب مادة الدرس للصف الاول .

شعرت لهذا السبب أنها غير سعيدة ، وخيل لها أنها خيبت أمل زوجها في الامر الذي يحتل مكان الصدارة من الاهتمام لديه . وبالإضافة الى ذلك كلما اصيب ابنه ، المغني لله والمجرد من الهموم غير المبالي هذا ، باخفاق جديد ، شعر وكأن ابنه اوغستو قد ظهر معه بصورة مفاجئة .

الذكي ، والحاضر البديهة ، لم يكن تلميذا متقدما ، ولكنه كان تلميذا جيدا كان يتسم باحتقار لهذا الحاضر ويزداد اكثر فأكثر تجنبه حتى مجرد الإشارة اليه .

٨

بدأت فلانسا كتابة الصفحات الاولى لموضوعتها التي وسمتها باسم من البوسفور الى دجلة " في بداية عام ١٩٣٤ ، عندما عزلها الشتاء واضطرها الى الهدوء والضجر كذلك في الدار القائمة في برنارتيته . " لن يكون ذلك سيرة حياة ولا كتاب اسفار " كتبت مؤكدة الى ماريا " اريد ان اكتب عن شخوص حقيقيين في وسط حقيقي اثارت هذه الفكرة حماسة ماريا . وبمبادرة واستعداد - كما هي عاداتها دائما - بدأت تبحث وتجمع وترسل المصادر اللازمة . وبينما كان بقية الاصدقاء يسألون بين حين وآخر عن موعد انجاز الكتاب وعن اي دار للنشر سوف يصدر ، لم توجه ماريا الصبور اي سؤال .

الى ماريا ، بلا تأريخ ، في الغالب في ربيع ١٩٣٥

... لا تتعجلي في البحث عن مصادر حول العراق ، فهناك متسع من الوقت حتى الشتاء ، وفي نهاية الامر يساورني الشعور في انني اتعب عبثا عينيك ، وانني لا اكتب مطلقا ما يستحق كل هذا الجهد الكبير الذي تبذلينه من اجلي . فانني لست مخلوقا قادرا على التعبير وانما جبلت على العمل المادي وليس على الكلام . الآن في الصيف وحيث انني في الريف اي انني مشتتة بصورة مضاعفة ، توقفت عن الكتابة في فترة استراحة وبدأت اكرس اهتمامي من جديد للامر الذي كان ينتظر ، للجراحة او بالاحرى للدراسة . ولهذا طلبت منك تزويدي بالمصادر الطيبة ..."

الى ماريا ٢٦ أيار ١٩٣٥

... ارسلت موضوعة الاعصاب والانسجة العصبية الى البروفيسور بيترينفلاسيك وقام

هو بارسالها للنشر ، وهكذا رجعت الآن الى بغدادى - ومن جديد ابدأ من نهاية اخرى - غير انني اعمل ببطء ، وذلك لأنني لا اجد الآن رغبة كبيرة في العمل ، ولا سيما ادراكي شدة ارهاقي وعدم قدرتي على التعبير وبالأخص الآن في الحديقة حيث يوجد الاطفال حولي ، فان الزمن المتبقي للعمل اقل من القليل . عاد رادبور من جديد الى فترات النعيم للسير بلا هموم والفتاء ، الذي لاتعكره الدعوة للدراسة : فلقد اتفق جيورجي قبل فترة مع مدير المدرسة ، في انه من الافضل ترك رادبور سنة كاملة لبدء الدراسة بعد ذلك من الصف الاول ثانية ، فهو مازال يعرج وراء الاخرين في مجال التعبير والنطق . وبالإضافة الى مسألة التعبير مازال ميالا الى اللعب و طفوليا ، لدرجة تجعل من الافضل ان ينتظر صف دراهوشكا . قبل ١٤ يوما اخذني جيورجي بالسيارة الى بيسك للفحص بأشعة رنتجن . الاصابة جيدة جدا وقد تم علاجها تشريحيا . وتبدو رائعة ولولا استمرار معاناتي من الحمى جزئيا ومن الضغط واستمرار حساسية الفقرات ، فإن الاصابة تبدو وفق جهاز (السكياغرام) قد شفيت تماما

الآن استقبلت الأمل بالشفاء - الذي كانت تتوق اليه بشدة قبل ثلاث سنوات - بمزيج من الاحاسيس : بشعور الفرح لانها سوف تستطيع العودة الى العمل وما بين الناس ، وكذلك بشيء من عدم الرغبة لفكرة انها سوف تضطر الى مغادرة هذا الركن الاخضر الهادئ في الحديقة . وكأنها هي بالذات التي اعتادت العمل من الليل حتى الليل ، وجدت فجأة الرغبة في كسل الجسم ، وليس كسل الروح . كانت تدرس وتكتب وتذاكر الدروس مع الاطفال وهي مضطجة . . ولكن هل يكمن في هذا بالذات الاحساس بنعيم الراحة ، حين تقول ممتدحة " ... لوكنت تدرين ، كم هو رائع ، فأنا قد اكسبتني الشمس سمرة خاصة ولم يكن لدي من قبل ذلك كل هذا الوقت للتحدث مع الاصدقاء ، كما اليوم ... ولعلي لن ارغب بعد الآن في العودة الى العالم في الخارج ... "

٩

في صيف ١٩٢٦ عادت فلاستا الى براغ وعينت للعمل في الصليب الاحمر ، في البداية كمنظمة للدورات التدريبية للممرضات المتطوعات (فلم يعد من الممكن الاستهانة بخطر الحرب) وفيما بعد كرئيسة تحرير مجلة صحة الشعب . العمل الطبي والاداري في المجال الصحي لم يكن ليغريها او يرضيها ، فقد كانت تحب في مهنتها العلاقة الحية مع المرضى وكانت بحاجة

لأن ترى نتائج عملها : الجروح التي قد شفيت وعمليات التوليد الناجحة والمرضى الذين استعادوا العافية . غير انها كانت قد تخلت عن فكرة العيادة الخاصة في حي فينوهرادي منذ عامين . وكان جيورجي قد سافر مرة إلى براغ والغى ايجار العيادة وشقة السكن . فهم قد اتفقوا من قبل ان شارع لندن رغم كونه عريضا ومشمسا شديد الازدحام والحركة ولم يعد مناسباً للأطفال . استأجروا شقة في حي برانيك في فيللا ذات حديقه . وستكون فلاستا هنا اقرب الى هيئة التحرير في فيشهراد . وقد انتقل بارتياح ايضا جيورجي الذي كان شديد الحماسة لبرناريتتسه . فقد شعر بالحنين الشديد لحياة المدينة الكبيرة وللحياة الاجتماعية

في الخريف بدأ رادبور الدوام في المدرسة في براغ . المحاولة الثالثة لاجتياز الصف الاول . كانت مدرسة حي برانيك في سرادق مؤقت . ولكن كان يمارس التعليم فيها معلم يتسم بالموهبة الاستثنائية هو المربي الشفاف الطبع لاديسلاف شفارتس . كان المعلم شفارتس حينذاك قد قضى عشرين عاما من العمل مع الاطفال . وقام لبضع سنوات بقيادة دار الأطفال من ايتام الحرب .

(كانت طريقته في التعليم تربوية تقدمية جدا في حينها ولهذا لم تحظ بالقبول والتفهم) وقد دخلت دار الاطفال الايتام تلك في تاريخ التعليم التشيكي تحت عنوان دار الطفولة في كرنسكو . واذا كان هناك من يمكن ان يحالفه الحظ في ان يقدر لدى الاطفال من نوع رادبور ، شرارة الاهتمام بالدروس في الأقل ، فهو هذا المعلم بالذات .

اثار هذا الصبي اهتمام لاديسلاف شفارتس . كان المعلم قد عرف خلال العشرين عاما لممارسة مهنة التعليم ، ولاسيما في البدايات هناك في ضواحي حي ليبين في المدرسة المقامة على سفينة ، اطفالا متخلفين ، ومعوقين وراثيا ، كان قد عرف اطفال المدمنين على الخمر واطفال المصابين بالسفلس والاطفال البلاء بسبب سوء التغذية وقلة النوم . عرف اطفالا لا يستطيعون تعلم الدروس لأن آباءهم يدفعون بهم الى العمل او السرقة او انهم في الاقل يكلفونهم بالعناية بحشد من الاخوان والاخوات . غير ان شفارتس لم يسبق ان التقى بحالة مثل حالة رادبور .

الام ذكية لدرجة خارقة والاب على درجة من الذكاء تفوق المعدل المتوسط في الاقل . وكلاهما متعلم ويقرأ كثيرا . يتسم كل منهما بالطموح ، غير ان الطفل لا يمتلك حتى الحد الأدنى من الرغبة في التعلم . وهو يتحدث مع نفسه مستخدما خليطا خاصا من اللغة التشيكية والعربية والايطالية .

ان هذا الصبي غير ابله على اية حال ، فكر المعلم . فهو في بعض الاحيان يفاجئ الانسان بملاحظة ذكية فوق العادة . ولا يشعر بأية عوائق ، فهو يقول كل شيء بصورة مباشرة ودقة وبفظاظة . ويتسم بسعة الخيال . وهذا مايقدره المعلم سفارتس تقديرا عاليا : اذ اقام عمله التعليمي والتربوي دائما على ايقاظ خيال الأطفال وحفزه

في كثير من الاحيان يكفي رادبور مجرد حافز ضعيف ، أمر قد لا يلاحظه أي طفل آخر ، ليتحدث عنه ساعات طويلة بأكثر انواع الارتباط غرابة

وربما لأنه لا يتأثر بالروابط القائمة والمعروفة بين الاشياء واهدافها (والتي لا يعترف بها) يبحث ويجد بين الاشياء روابط غير مألوفة ، مضحكة حيناً ومثيرة للهلوع في حين آخر وتتسم علاقة الصبي بالطبيعة و المناخ بالحساسية العالية . فعندما يكون الجو جميلا نراه مرحا وعندما يكون الجو سيئا ومكفهرها يتهيج ويرفض كل شيء باسلوب فظ

ويتسم بسمع مرهف للغاية وبحاسة للشم ممتازة ولعل قدرته على تمييز الالوان وملاحظتها تفوق المؤلف . كان من الممكن ان يصبح موسيقارا او رساما وربما عمقريا لولم يقع ذلك الخطأ . أي خطأ ؟ هذا ما يشغل المعلم رأسه لمعرفة .

وربما لأنه أراد معرفة هذا السر ، قبل دعوة اسرة دي لوتي لتقديم دروس اضافية للصبي في المنزل ، ناهيك عن انه كان بحاجة الى التقود

بعد أسبوع من التجارب المضنية وغير المجدية ، تخلى عن محاولاته لحمل رادبور على العمل والتفكير المنطقي . غير أنه رغم ذلك توصل الى سر هذا الامر المحير وهو : فوضى اللغات . ففي السنوات الاولى من عمر الصبي كانوا يخاطبونه بخمس أو ست لغات ، وتعرض الى تأثيرات لاحصر لها ، والى تشتت اهتمامه . كان حوله دائما عدد كبير من الناس . حمى نشاط الأم الى جانب حيوية الاب التي لاتعرف الهدوء . غير ان الامر الرئيس كان يكمن في بابل اللغات .

الانسان بحاجة الى لغة واحدة هي اللغة الأم - فكر المعلم - ليس من اجل التفاهم مع الآخرين حسب ، وانما ايضا من اجل كسب المعاني والمصطلحات وتصنيفها كأساس لتفكيره الذاتي ولتنظيم هذا التفكير

في يوم ١٢ أيلول ١٩٢٧ أعفى رادبور بموجب قرار اتخذه المعهد القطري للتعليم في براغ من واجب الدراسة في مرحلة التعليم العام . وأرفق بالقرار التقييم الذي اعده سفارتس والذي كان تقييما علميا واسعا وكاملا

نسي جيورجي سيلفيو ، الذي شعر بالإساءة لكرامة ابوته ، جده الثوري ، وكتب باسم جده الاسبق الذي كان نبيلاً ، رسالة موجهة الى المعلم على ورقة تزينها الحروف الاولى لاسمه باللون الذهبي . كانت رسالة متعالية وطويلة . وكلما ازداد انفعالا وهيجانا حدسا بان الحق الى جانب المعلم الفقير ضعيف البنية ، الذي يضع النظارات على عينيه لاريب أنه كان محققاً جزئياً . فقد عبر طبيب الأعصاب المتمرس ، قارئ الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن اعتقاده بأن بابل اللغات كان سبباً ثانياً لحالة رادبور المرضية - الشاذة . وبموجب فرضيته ، قبل كل شئ تعرض دماغ رادبور الى الضرر خلال عملية ولادته وسواء اكان السبب هذا أو غيره بدأت دراهوميلاً في ايلول عام ١٩٣٧ الدوام في المدرسة في حين توقف رادبور عن الذهاب الى المدرسة .

حملت تلك الفترة قبيل الحرب لاسرة دي لوتي التي تعيش في برانيك متاعب اخرى . فقد كتبت لي من زوريخ السيدة فاليا هولوبوفا ، ابنة صاحب الدار في برانيك . وفي رسالتها الطويلة لمحت الى ان الحياة الزوجية لاسرة دي لوتي ، في ازمة :

"كنت في العمر الذي يُقرأ فيه بوشكين ، وتحفظ الفتيات عن ظهر قلب دور تاتيانا سألتني مرة ماذا أقرأ ، ورغم انها غير مسرفة في الكلام ومنغلقة ، تحدثت إلي في تلك الامسية الصيفية كراشدة ... لابد لي ان ادرك ماذا اريد وان اصل الى ذلك رغم كل العقبات . ينبغي ان لا اكون عاطفية وان لا اخضع للأوهام والاعراء . فالسعادة لاتوجد . ثم اغلقت كتاب الشعر وناولتني إياه وذهبت الى الحديقة"

أمان الدار

"فلاستا ، استيقظي ، أسمعين " إنحنى جيورجي فوقها ، لم ينتشر نور الصباح بعد"
ماذا حدث ؟ قفزت .

"لاتهلي ، يافلاستا ، هتلر يحتل تشيكوسلوفاكيا » .

اهتزت ، واصطكت اسنانها . ارتدت ملابسها بسرعة ، لايدري احد لماذا خيل لهم ان
من المهم للغاية ان يكونوا قد ارتدوا ملابسهم ولبسوا احذيتهم ، وكأنهم بذلك يستطيعون
رد ما يمكن ان يقع .

أيقظوا فاليريا ، ربة البيت المدبرة ، التي جاءوا بها قبل فترة من سلوفاكيا " ايتها
العدراء ماري ، ماذا سنفعل ؟ " رددت فاليريا متفجعة ، ولكنها قبل ان تنتهي من ظفر
جديلتها باصابعها السريعة الحركة ، بدأت تعالج الحلول العملية لأقرب المسائل : هل تسمح
لدراهوميل بالذهاب الى المدرسة ، حسنا لكنها سوف ترافقها ، أليس عليها بعد ذلك ان تمر
خلال العودة على عامل الطلاب لالغاء طلاب الجدران المتفك عليه من قبل ؟ من يدري كيف
ستكون الامور

لو لم تكن فالي - الاسم المصغر لفاليري - لما تذكروا ، انهم كانوا يجمعون طلاب البيت
في الاسبوع القادم . يوم امس الاول ناقشوا فترة طويلة خلال الفطور اي لون يختارون لطلاب
غرفة الاستقبال . وبدت المسألة مهمة بالنسبة لهم لدرجة انهم كادوا يدخلون في شجار حول

الموضوع . يا إلهي ، يبدو كأن ذلك حدث قبل قرن من الزمن

ذهبت فلاستا الى هيئة التحرير ، غير انها لم تغادر عربة الترام كعادتها عند الجسر الحديد ، فقد احست فجأة بضرورة الذهاب الى المدينة : الى ميدان المدينة القديمة (ستاروميستسكه) أو الى ميدان فاتسلاف (فاتسلافسكه) . فان احداث التاريخ التشيكي تمر عبر هذين الموقعين منذ زمن بعيد . لم ينزل أحد من الترام رقم ٢١ المكتظ بالركاب ، فقد اتجه الجميع الى مكان ما في مركز المدينة . كانوا يتحدثون فيما بينهم وكأنهم معارف قدامى . مازال بعضهم يحدث البعض ، مازالوا لايشعرون بالخوف . انهم يتحدثون لحد الآن تحت تأثير الدهشة والذهول والحزن و الغضب : اما الخوف والحذر فليسوف يأتيان فيما بعد

قال جيورجي في الصباح " لقد كان من الواضح ، انهم سوف يسيطرون علينا" . بالطبع كان ذلك واضحا ، غير ان الانسان يحاول دائما استبعاد تصديق اسوأ الاحتمالات . لم يكن هناك من يساوره الشك في ان هتلر يريد احتلال تشيكوسلوفاكيا ، غير اننا كنا ننتظر المعجزة ، وهاهي الآن ، انه لن يتجرأ على ذلك امام انظار العالم كله ، ولن يسمح له الحلفاء تجرأ وسمحوا

عربة الترام تنعطف عبر شارع ريسلوفكا نحو مكان ما في حي فينوهرادي ، ما الذي يفعله الترام رقم ٢١ هناك ؟ انه لسؤال سخيف وعتيم فان كل شيء يجري اليوم بشكل آخر ، وقد فقد كل شيء نظامه وترتيبه .

هرعت فلاستا نحو ميلادا في شارع جيتنا ، غرفة الانتظار خالية ، بالطبع من الذي يجد اليوم متسعا للتفكير بحشو السن او ازالة التكلس عن الاسنان . وجدت هناك نسيبها فقط ، كان يرتب الادوات الطبية في الدرج الزجاجي حاملا نفسه على الهدوء

"كيف سيكون مصيرنا ؟ " كشفت عن قلقها

"سوف أعيدُ لك الشاي " قال الرجل الضخم المتين البنيان والموثوق " إنه لمناخ شديد السوء هناك "

نظرت اليه غير مدركة ، هي تفكر بمصير الشعب وهو يتحدث عن الجو وعن الشاي . انه محق ، فلماذا اطرح مثل هذا التساؤل العقيم . فنحن في طائرة تهوي نحو الارض ، وانا اطلب كلمة تسري عن النفس .

شربت ذلك الشاي ومضت مسرعة ، انهم هنا ، تراهم من فجوات الحشد الصامت حول

رصيف الشارع . انهم يسيرون هنا ، بلونهم الرمادي متخشين تعاليا . امام مبنى دار النشر ميلنتريخ أصيبت حافلة شبه مجنزرة بعطب المحرك ، قافلة الحافلات العسكرية تمر بها متجاوزة ، على الرصيف يروي الناس النكات والطرائف ويقومون بأشارات ساخرة تعبر عن الارتياح . كم هو قليل ما يكفينا للفرح . لاحظت ذلك في سيريتها ، وكأن حافلة عاطلة واحدة تكفر عن كل مانفقهه في هذه اللحظة . تعثر حصان آل هابسبورغ على حجار الشارع وفي الحال شعرنا أننا نتحمل بصورة افضل هزيمة الجبل الابيض * .

وصلت الى التقاطع وعند المعبر المخصص للمشاة دخلت مسار الحافلات . إنتظري ايتها السيدة ، صرخوا عليها منادين من رصيف الشارع ، لاتكوني مجنونة ايتها المرأة . الدراجات النارية تفرمل عند تخورتها بالذات ، لم تكثرث لذلك ، وواصلت سيرها بحزم حتى قرنة شارع ينديرخسكا ، قالت في سرها : سوف اتجاهلهم ، ليس لهم ما يعملونه هنا ، انهم غير موجودين بالنسبة لي ، لم ألاحظهم .

انها لافكار غريبة . ان ترمي تحت عجلاتهم ، بمقدورهم ان يسحقوك ، هل تهمهم ياترى حياة الانسان التشيكي . وجه لها اللوم عدد من الناس عند قرنة الشارع . ابتسمت شاردة الذهن واتجهت نحو موستيك . تنف الثلج المبتلة تتساقط ، انها ثقيلة ولزجة . شعرت كيف انها تذوب على وجهها ، الذي اصبح مبتلا بكامله ...

وراء واجهة العرض في متجر زادروها رأيت بدلة من الزي الشعبي ، أحصت في سرها ما لديها من النقود . بعد ذلك دخلت المتجر واشترت الزي الشعبي لمنطقة خودسكا بما يلائم مقاسها . اشترت زي خودسكا لانها كانت تحب كلينتشي وكذلك اجلالا لذكري بارووف وبالاخص تقديرا لتقاليد الرجال الشامخين الذين يحملون شارة رأس الكلب . كان ذلك تعبيراً عن احتجاجها الشخصي ضد الاحتلال .

كان عليها ان تعمل شيئا ، شعرت بان عليها ان تعمل شيئا ، وإنها لاتستطيع مواجهة هذا اليوم بدون عمل . لقد عبرت عن عدم موافقتها عن طريق شراء التنورة الحمراء ذات الطيات والصدرية ذات الخطوط والقميص الصغير الأبيض ذي الأكمام المطرزة والاشرطة المرجانية والشال الاسود

* الجبل الابي (Bila hora) هي الموقعة الكارثية التي حدثت عام ١٦٢٠ وانتهت بالقضاء على استقلال الدولة التشيكية وانزلت الألام لأكثر من ثلاثة قرون بالشعب التشيكي .

انتصر في هذه المعركة القيصر الالماني زيغموند مع رجال الدين الكاثوليك على السياسيين المعارضين والثائرين من أبناء الشعب التشيكي . وانتهت بعد المعركة مرحلة الاصلاح في الاراضي التشيكية - المحرر .

سوف ارتدي هذا الزي الشعبي ، قررت مع نفسها ، في الاقل في ايام الاحاد في الدار
سوف نرحل الى برناريتسه ، نعيش في عزلة وراء الجدار الحجري العالي لدار الوالد كأننا في
حصن . هناك لا يمكن ان نصاب بمكروه .

سارت في عربة الترام شبه الفارغة نحو حي فيشهراد . وفجأة أحست بتعب خاص
وبهدوء مهادن . لقد حسمت القضية . وانتهى توتر الاشهر الاخيرة ، المتصاعد الذي بلغ
ذروة لاحتتمل في ميونيخ وضم السوديت . وسوف تنتهي أيضا السنوات السبع لعيشهم
بصورة مؤقتة . تغيير دائم في الخطط والحسابات والخواطر . وسوف يذهبون الى
برناريتسه . اشتاقت بصورة طفولية الى الدار الحجرية التي تعرفها معرفة حميمة ، اشتاقت
الى امان الدار القديمة .

٢

في عربة الترام التي تسير مرتجة في ذلك اليوم المكفهر من ايام آذار حول سياج
الحمامات المهجورة في حي بودولي ، تصورت فلستا أنها سوف ترحل في الحال ، أو بعد
اسبوع في الاقصى . هذه المرة كان جيورجي اكثر واقعية . وافق على الانتقال : ستكون
الحرب ومن الممكن ان يحافظ الانسان على حياته في الحرب العصرية في الغالب وبصورة
اسهل في الريف وليس في المدينة . ولكنه وجد ان من الحكمة تحضير كل شيء بهدوء
والترتيب في الانتقال حتى بداية العطلة . فإن دراهوميللا تداوم في الصف الثاني وهو سيأخذ
فترة الشهور الثلاثة النظامية للانفكاك من العمل . أما فلستا ... فجأة كان الامر واضحا لها ،
وهو انها لن تقدم طلب الانفكاك من العمل . الافضل ان تعود ثانية الى القدوم من
برناريتسه ، وسوف ترتب الامر بحيث لاتبقى في براغ غير يومين او ثلاثة ايام وأن تأخذ
معها بقية العمل الى البيت . لم تستسلم لخداع النفس كما يفعل العديد من رؤساء
التحرير ، الذين يتوهمون ان مجالاتهم هي مركز الكون . ولعلها على العكس من ذلك لم
تقدرها حق التقدير ، بل انها لم تقم بعملها هذا راغبة . كانت تعمل باخلاص لأنها ببساطة
اعتادت العمل هكذا ، لكنها لم تعتبر نفسها صحفية . " هذا العمل لايلانمني " كانت تقول
لأصدقائها دون ان تُخفي اعتبارها ذلك أمرا مؤقتا لفترة المرض والنقاهاة .

غير انها الآن لاتستطيع التخلي عن هذا العمل بالذات . فإنه لمن الواضح تماما ما الذي

سيحدث بالنسبة للصحف " الكبيرة " والمجلات " الكبيرة " . أما مجلة " صحة الناس " فلعلها سوف تغيب في بداية الامر عن الاهتمام ، ويستمر صدورها لفترة ما من الزمن . وما دامت هناك فرصة لقول الكلمة المفهومة للناس ، مادام من الممكن النضال ولو بين السطور ضد العدم واليأس ، فإنها لن تذهب من هنا
شرحت ذلك باختصار لجيورجي .

"استطيع النوم احيانا في هيئة التحرير ، في الاقل سأكون قريبة من العمل " قالت مازحة لأجل ان لا يبدو كلامها السابق مشيرا للعاطفة .
وافق . وسوف يهتم برعاية الاطفال مع فاليريا ، وليس لها ان تقلق .

في ذلك اليوم ، حين جاءت دراهوميللا بالشهادة من المدرسة ، قاموا بأخر نزهة للتمشي في براغ . ذهبوا أولا الى مقبرة فيشهراد . نحو نيمنتسوف ونيرودا وسميتانا ونحو قبر ماخا الذي نقل الى هنا قبل فترة وجيزة . بعد ذلك سعدوا بالحافلة المعلقة الى بتشين ، كانت حديقة الورود في اوج ازدهارها . نظروا الى المدينة وتخاصم الطفلان حول اي من الابراج هو برج دار البلدية وايها برج براشنا برانا . كانت فلاستا تتجنب منظرا معيننا . حرصت على ان لا تنتظر الى قلعة براغ ، خشيت ان ترى هناك علم الصليب المعكوف .

٣

عندما اغلقوا البوابة بعد آخر قطعة من الاثاث ، استندت فلاستا اليها ، متعبة وراضية . شاهدت الساحة المرصوفة التي تعرفها والسلام التي تقود الى الدار والتي وضعت عليها الصناديق والعلب ، والمسلك الاخضر نحو الحديقة ، الذي لم تدسه الاقدام ، اذ لم يمض هنا احد منذ فترة طويلة . لنغلق البوابة وتترك كل الشرور في الخارج ، فكرت في سرها ، كان ذلك عبثا غير انها آمنت به لثانية من الزمن

فتحوا الصناديق واكتفوا بأخراج ما هو ضروري منها فقط . هرعت فاليريا نحو دار العم سيفيرين المقابلة لجلب الحليب والبيض واعداد العشاء . بعد ذلك قامت مع جيورجي بغسل الاطفال وتركهم ليناموا ، كما يفعلون في الاحوال الطبيعية كلما جاءوا للقضاء الاجازة هنا

حمل جيورجي القهوة الى الحديقة وحملت فاليريا لفلاستا اكواب الحليب ومعطف الفرو ، لأن برودة الجو قد ازدادت في المساء

هنا في كرسي اغصان الصفصاف هذا الذي بدأ يتقشر طلاؤه (سيكون من الضروري ان يقوم جيورجي بطلانه من جديد ، وكذلك الطاولة فإن لوحاتها قد تقشعت ايضا) جلست السيدة هاريسون كان ذلك قبل ثلاث او اربع سنوات ؟ وكانت تقول ملحة : تعالوا الى أمريكا ، اصطحبوا الاطفال معكم وتعالوا معي الى امريكا . صدقوني ، لن يكون هنا في اوربا وضع جيد

لم تكن ماري هاريسون سيده هلعه على اية حال ، عرفتھا فلاستا بعد الحرب العالمية الأولى في المستشفى الميداني للصليب الأحمر ، كانت قد عملت في جميع الجبهات وحتى بعد ذلك في عهد السلام ، لم تكن حياتها سهلة . وإذا كانت تحاول اقناعهم بهذا الاحاح ، فلأنها لم تكن لتخشى أن يفقدوا راحتهم في السنوات القادمة وانما كانت تخشى ان يفقدوا الحياة .

كان جيورجي يدير ، وهو يفكر ، بين اصابع يديه لفافة لم يولعها . بدا كأنه يفكر باقتراحها . غير انه قبل ان يقول شيئا ، سبقته فلاستا وقالت : لا ، جاءت تلك الكلمة جريئة وحازمة كما يليق بابنة فلاح من جنوب الاراضي التشيكية . ارادت ان تؤكد بوضوح انهم ليسوا جناء يتخلون عن السفينة

ماري لم تفهمها " لاتقلقي يافلاستا ، فإنك سوف تجدين عملا ، لدي الكثير من الاصدقاء بين الاطباء ، وتستطيعون السكن عندي في البداية"

"ليس هذا ما يهمني ، اعلم بانك سوف تقدمين لنا المساعدة " اوضحت فلاستا " غير أنني لا استطيع ، لا يمكن ان اهرب ، فأنا هنا في وطني
"ولكنك عشت فترة طويلة في الخارج :

"كان ذلك شيئا آخر " لم يكن ذلك هروبا ، كنت بصورة دائمة مرتبطة بمكان ما ، كنت دائما اجد ابواب الوطن مفتوحة"

"على اية حال انكم سوف تعودون"

"متى ؟ "

"لا يمكن ان يستمر ذلك الى الابد"

"ونحن كذلك لن نستمر يا ماري"

"ماذا تعتقد انت بهذا الشأن يا جيورجي ؟ " بحثت الامريكية عن سند

"لا اعتقد بأن الامر سيكون سيئا بالدرجة التي يبدو لك عليها يا ماري " قال متسامحا "هتلر يصرخ ، غير انه من حيث الجوهر شخصية مضحكة ، لن يتجرأ في كل الاحوال وامام انظار العالم كله على غزو بلد متحضر . موسليني صرخ لعشر سنوات أطول ولم يتجرأ إلا على غزو الحبشة المسكينة "

"الالمان غير الايطاليين ، يا جيورجي ، الايطاليون يتسمون بالطموح ، لكنهم لا يتسمون بالثبات وهم لا اباليون . لعلها في تلك اللحظة قد نسيت ان جيورجي إيطالي . هو لم ينس ذلك . تجهم : انه ايضا طموح وغير ثابت ؟ ولا مبال ؟ اعتذر لسبب ما ودخل الدار

وضعت ماري راحة يدها على فمها ونظرت هلعة نحو فلاستا : "لقد أغيظ زوجك . كنت فظة بشكل لا يطاق ، سامحيني ، فلسوف اعتذر له في الحال"

لوحث فلاستا بيدها بدون اكرثات : " بعد لحظة ينسى الامر تماماً " . بعد ذلك قالت جادة : " هو الذي يهمنى يا ماري . فقد وجد هنا وطناً له في نهاية الامر . لقد عاش طوال الحياة اجنبيا في كل مكان"

"أتعلمين كم من الايطاليين في أمريكا؟"

"الكثير ، اعلم ذلك ، عندما حل جد جيورجي في تركيا ، كان هناك ايضا الكثير من الايطاليين . ولكن كانوا دائما ايطاليين في تركيا . وجيورجي كذلك ، رغم انها كانت البلد الذي ولد فيه . كان دائما بلا وطن ولسوف ينتظره ذلك مرة اخرى ، وينتظر الاطفال ايضا"

(لو كانت فلاستا قد قرأت في زمن ما رواية "الجندي الطيب شفيك" ، لخطر لها في تلك اللحظة ، أنه من الجيد دائما ان يكون الانسان من مكان ما بالذات ، غير انها كانت قد تصفحت الرواية مرة على عجل وبتقزز . بدت لها بذينة جدا ومبتذلة وتابعت بعدم الرضى كيف ان جيورجي منكب عليها باستمتاع . وفي حين آخر كانت تفسر له ببداهة وبحماسة معاني المصطلحات التشيكية الاقل استعمالا ، والتي لم يكن قد عرفها بعد . كانت تترجم كلمات اللهجة العامة من رواية شفيك بشيء ، من الاحتقار وبعدم رغبة . فقد كانت على يقين من أن هذا الكتاب يقدم للشعب التشيكي خدمة سيئة ، ويقلل من قيمته في عيون التشيك بالذات ويمدى اكبر في عيون الاجانب . كانت دائما اقرب الى الشفقة من الهزل .

في تلك الليلة بعد الحديث مع ماري ها ريسون بقيت متيقظة وقتا طويلاً . ليس لانها فكرت من جديد باقتراحها (فإن تلك الافكار والخواطر لم تأت الا بعد وقت متأخر) . لكنها كانت صريحة لدرجة كبيرة مع نفسها لتعترف بأن هذه الشجاعة تخفي وراءها ايضا عدم توفر الجرأة الكافية . أو في الاقل التفكير المنطقي : إنني مريضة ، وعمري بلغ اربعين عاما ، الاربعين ليس بالعمر الطويل جدا غير انني مريضة ، ولسوف يبلغ زوجي قريبا الخمسين وأمريكا بلد للشباب الاصحاء ، وبالإضافة الى ذلك هناك فرق في ان تعيش في الغربة كمواطن لدولة اجنبية ، يحمل في جيبه جواز سفر ساري المفعول ويستطيع متى شاء العودة الى وطنه ، وبين ان تعيش باعتبارك مهاجرا تتحكم بمصيره الرحمة واللا رحمة . ولو انهم تغلبوا علينا وغزوا بلدنا ، سيبقى لدينا دائما الاحساس الطيب ، باننا هنا في بلادنا وانهم الغزاة . .

ابتسمت بحزن . الآن ادركت اية تعزية شانكة يمثل هذا الوعي الجيد . ربما كان من الافضل أن نذهب رغم كل شيء - - - ولكن لا ما الذي استطيع هناك في الخارج تقديمه لشعبي ؟ هنا سوف اشفي بضعة اشخاص وهو اكثر بما لا يقارن مما لو كنت تجول بلا هدف في مكان ما في الخارج . بعد ذلك ، ربما تكون الهجرة حلا لفرد وليس لشعب بكامله . حلت العتمة ، وطلعت النجوم على القديسين ، شعرت فلاستا بالبرد فلفت جسدها بالمعطف .

"ألا نذهب الى الداخل ؟ " سأل جيورجي . في العتمة لم تشهد منه غير جمرة لفافة التبغ
"بعد لحظة قصيرة " لم تشأ دخول الدار ، فقد ساد هنا الهدوء والجو الجميل .

٤

الى ماري ٩ تشرين الأول ١٩٣٩

"... لم ابدأ العمل في العيادة بعد ، بسبب الفوضى السائدة في الشرفة والممر ، والذي سوف استخدمه كغرفة انتظار . عشت لحد الان في عزلة سعيدة خلال العمل المنزلي والانشغال بالاطفال . وقد اصلح جيورجي أفتان الأرناب . نحن وليديا نهتم بالخضرة وبالمعزلة وهكذا فإن ايدينا لاتتوقف عن العمل . منذ البداية انصرفت ليديا لتعتني بالارانب ولكن كان

من الصعب علينا الحصول على الارانب فلم نجد في المنطقة المحيطة ارنبا واحدا يمكن الحصول عليه . الآن فقط جمعنا العدد المطلوب منها - لدينا ثلاثة ارانب من بلانيك وخمسة من براغ . كما اننا لم ننجح في جمع الدجاج إلا بالتغلب على العقبات"

سحبت الارانب الأولى ، ذات الاذان الطويلة والتي تم الحصول عليها بصعوبة ، من الصندوق الصغير ، وشعرت كأن اباها ينظر اليها موافقا ، من وراء كتفها . اترين يا ابنتي رغم كل شيء ستكون تجارب ابيك تلك نافعة بشكل ما . بينما كنت اعتقد دائما بانك تخجلين بسبب ارانبتي .

فوق دار اسرة كالال ، من جهة الشارع وتحت كل نافذه في الطابق الاول افريز ارنبان يأكلان رأس كرنب . كان الوالد عند بناء الدار يحرص على كل قرش وقد كدحت الاسرة بكاملها على الرغم من ان اهل المدينة اعتقدوا بأنه من غير الملانم ان يقوم افراد اسرة المعلم بانفسهم باعمال البناء المضيئة . كان يسجل بعناية فائقة كل مادة مع كلفتها (الأحجار للاساس ٧٠ر٥٧ زلاتي ، الجص والقصب ١٧٥ر٥٠ زلاتي ، عمل الحدادة ، وشد الاحزمة المعدنية للجدران ٢٦ر٥٥ زلاتي . ولكنه لم يسجل مطلقا كم كلفت تلك الأفاريز .

كانت تلك باستثناء شجر السرو ، الذي غرسه فيما بعد ، الزينة الخارجية الوحيدة ، نوعا من العلامة للدار ؛ ومؤشرا لتحديد الاتجاه يعين كل القادمين الى برنارتيته والذين يبحثون عن دار النشر وهيئة التحرير وادارة مجلة كراييك تشيسكوسلوفينسكي - الارنب التشيكوسلواكي . لأن الاب كان يرفض تعليق لوحة الشركة . فهو يرى أن مثل هذه اللوحة لاتليق بدار المعلم .

يان فاتسلاف كالال يجيد عمل كل شيء في العالم - في الأقل كما يعتقد أطفاله وتلامذته - وكان يهتم بكل شيء . كان يعرف كيف يفرس الاشجار ويطعمها ، ويحفظ ويحشو طيور السمان ، وابن عرس والجرذ بشكل تبدو فيه كأنها حية . وقام بنفسه بانتاج مكبس لشد الكتب وكان يجلد الكتب بنفسه . كان يجيد صناعة الاطر للصور ، وقد كتب ورسم وطبع دليل معرفة انواع النباتات لأطفال مدرسة برنارتيته . اهتم بالطبيعة والتأريخ والجغرافيا . ولم يكن اهتمامه مجرد تأمل حسب وانما كان عملا فعليا دائما . غير انه اعتبر تربية الارانب من اهم اعماله ، والعمل الحاسم والاساس .

كان ذلك إكتشافا ، توصل اليه بعد تفكير طويل ومزير .

ففي هذه المنطقة لجنوب الاراضي التشيكية كانت الفاقة اكثر مما يبدو للوهلة الاولى
بضع مزارع غنية وكبيرة ، وعدا ذلك فلاحون صغار تشغلهم الديون . في برنارتيتسه وفي
الضواحي القريبة يعانى اسوأ الاحوال الصناع المتجولون - الذين يقومون ببرادة مبسم
الغليون- . فقد كانوا يبردون في عملهم المنزلي طاقما منها بخمسة جرايسارات . وكان
سعر كيلو الخبز خمسة اضعاف ذلك . السيليكوز والتدرن الرنوي من الآباء والامهات ورث
الاطفال ذوو الايدي والسيقان المعوجة السل . لهذا اراد كلال الشاب دراسة الطب . مفكرا
بأنه بذلك يستطيع مساعدتهم . غير ان ذلك لم يكن ممكنا ، الجامعة والسنوات العديدة
لدراستها

واضطر الى القبول بمعهد المعلمين . وقد ادرك فيما بعد ان الطبيب هنا عاجز شأنه شأن
المعلم ، ولعله يكون اضافة الى ذلك اكثر ياسا

ما الذي يمكن عمله اذن ؟ هل من حل على الاطلاق ؟ إعطاء هؤلاء الاطفال ،
وإعطاء هؤلاء الناس فرصة الاكل حتى الشبع . وتوفير الملابس والاحذية لهم ، كان ذلك
في اعتقاده هو الحل . هكذا توصل الى الارانب . ولأنه ايضا قرأ اسطورة عن الراهب
الاسباني إسبانيت ، الذي تمكن بفضل تربية الأرانب انقاذ المدينة المحاصرة من الموت
جوعا

القضية في واقع الامر في منتهى البساطة الى حد العبقرية . فما الذي يحتاجه مثل هذا
الارنب ؟

قليل من العشب اليابس والبنجر واللفت . ويقدم مقابل ذلك اللحم والفرو . يؤكل حتى
الشبع ويلبس .

شرح ذلك للاطفال في المدرسة ، غير انه لم يكن كافيا . لذا بدأ يلقي المحاضرات ، في
برنارتيتسه وطابور ، في الاراضي التشيكية وفي مورافيا . ودرس السمات المميزة لمختلف
انواع الارانب ومبادئ التربية السليمة لها وبدأ المراسلة مع مربى الارانب في الخارج . ومنذ
عام ١٩٠٢ اصدر مجلة على حسابه الخاص وحررها بنفسه . وقد ساعده في ارسال المجلة
والاجابة عن الرسائل زوجته ومن بعد ذلك الاطفال ، عندما كبروا

مازالت فلاستا تذكر الاحتفال الكبير بالارانب الذي اقيم في برنارتيتسه . عند بوابة
قوس النصر كان يرحب بالزوار ارنب هائل ، يحيي رأسه بادب جم . كانت أنتا كاللوقا قد
حَيَّطَت القناع من فرو الارانب وقام يان فاتسلاف كلال الذي يجيد كل شئ بصنع قناع

الرأس . ودفع لاثنين من الصبيان اجرا للمناوبة في ارتداء هيئة الارنب ، بسبب الحرارة فيها وكانت أدوات النفخ تعزف الاخان والناس يرقصون في المرح . واقيمت سحبة الدومبلة وكان هناك الكثير من الطعام كل الوجبات الدسمة من لحم الارنب كستلاتة من لحم الارنب ولعل رائحة الفلفل التي طبخوها في قدر كبير تحت قبة السماء قد وصلت الى فيينا ، وكذلك الهامبورغر والمصارين المحشوة بمختلف انواعها . هيات ذلك الام مع القصاب لعدة ايام . كان القصاب يتقزز كثيرا لهذه " القطط المسلوخة " ولو لم يكن ابنه تلميذاً في الصف الذي يعلمه كلال ، لما فعل ذلك ، غير انه في نهاية الامر اعترف ، بان لحوم الارانب يمكن ان تؤكل .

نجح الاحتفال وكان الاب يتوهج ، كان في كل مكان ، عند البوابة وعند الدومبلة وعند المعرض الصغير للمعاطف والقبعات من فرو الارانب والتي اقتنوا شركة فرو جيدة من مدينة بوديوفيتسه للمشاركة فيه كانت الشركة سخية ، فقد ارادت الدعاية لمنتجاتها ، حتى لقد قدمت غطاء جميلا من فرو الارنب من المربعات مختلفة الالوان وحذاء شتويا من جلد الارنب . اجل أليس هذا حجة مقنعة ، لابد لهذا ان يقنع الناس بأن الارنب كان لحد الان فرصة ذهبية ضائعة . وهو الحل لمشكلة بؤس الناس ، والذي لم يروه ، رغم انه كان دائما امام الانظار .

كان مقتنعا بذلك مائة بالمنة وراح يقنع الاخرين حتى النفس الاخير . كان بالمعنى الكامل للكلمة ارنبيا طوباويا

نظرت مع الاطفال الى تلك الفنطيسات المضحكة وخيل اليها انها صغيرة من جديد ، بل لقد كانت تخطط للحظات بين ليديا وميلادا ، بين رادبور وياروسلاف ، الذين ارتبطت طفولتهم مع الارانب بخيرها وبشرها . كان لديهم منها بالمنات . كانوا يقطعون الاعشاب لمنات الارانب وينظفون الاقنان . بالطبع بحماسة قليلة ولكنهم كانوا دائما يأكلون حتى الشبع . حتى في زمن الحرب وبشكل جيد . كان الاب يبدع وصفات الطبخ التي يمكن اعدادها من لحم الارنب ، والام تجرب اعدادها وتحسنها . وفي النهاية صدر كتاب تحت عنوان : يان فاتسلاف كلال - مطبخ مربى الارانب .

لابد ان اطلب من امي ان تعيرني هذا الكتاب ، خطر في ذهن فلاستا ، فإن تلك الوصفات ستكون نافعة لفاليريا

رسالة من كريسين

حتى ربيع عام ١٩٤٢ ساد الهدوء في برنارتيته . في المدرسة استمر تقديم الدروس (باستثناء اسقاط بعض المقاطع غير الملانمة من مادة الجغرافية والتأريخ و اضيفت ساعات اخرى للغة الالمانية) ، ومن كنيسة القديس مارتين ارتفعت اصوات الاجراس اربع مرات في اليوم ، وكان البريد يحمل الرسائل (في البداية من الخارج ايضا وفيما بعد من المناطق الواقعة تحت الحماية الالمانية فقط ، وفي بعض الاحيان الى الامبراطورية) ، في مقر البلدية كانوا يقدمون مرة في الشهر ، اضافة الى الاجراءات الادارية المألوفة بطاقات التموين لتسلم حصص المواد الغذائية . وقد عادت الكلمات شبه المنسية من عهد الحرب العالمية الاولى بطاقات الخبز و بطاقات اللحم و بطاقات الثياب . إن الحياة تبحث منطلقا من غريزة حب البقاء عن سيرتها المألوفة .

كانت هناك أفراح صغيرة أيضا : ولدت ارناب صغيرة ، كرات لينة ذات زغب ، وازهرت شجرة التفاح خلال الليل ، ومسحت المعزاة الصغيرة بلسانها الخشن وجه دراهوميلا . في الشتاء سقطت ثلوج كثيرة وقد امتدت على الارض رخوة وبيضاء لدرجة لا تكاد تصدق . كانوا يذهبون مع الاطفال للتزلج ، وتجرات على التزلج فلاستا ايضا رغم عمودها الفقري ، لأنها لم تستطع مقاومة الاغراء

بعد ظهيرة يوم الاحد اشعلوا النار في الوجدان . كانوا يتأملون النار ويغنون : كان جيورجي يعزف على البانجو أو على القيثارة ، وعندما علم دراهوميلا عزفا معا . النار تشيع الدفء . وإنعكاسات السنة اللهب المائل الى الصفرة تتراقص على الجدران فتحيي الوان الرسوم الشرقية للستائر . جو حميم وهادئ وقد قرب الغناء فيما بينهم أكثر فأكثر . في مثل

هذه اللحظات ادركت فلستا : انني الان سعيدة . اعترتها الدهشة . هل من الممكن اطلاقا وهل من المسموح به اصلا أن تكون سعيدة في بلد مغلوب على امره ومسلوب الحرية ؟ في حزيران عام ١٩٤٠ توقفت عن السفر الى براغ ، فعندما ذهبت للمرة الاخيرة ، وجدت باب هيئة التحرير (مختوماً بشريط لاصق طبع عليه الصليب المعكوف) . أكثر ما اثار اهتمامها انهم لم يستخدموا الشريط اللاصق المؤلف بأضافة ختم الصليب المعكوف إليه ، انما استخدموا أشرطة لاصقة مع اصلبتها المعكوفة تلك والنصوص التحذيرية ، التي تم طبعها وانتاجها بالجملة وفي المصنع مسبقا . لاشك انهم كانوا بحاجة الى الاف الامتار منها اذ قاموا بالصاقها على الكثير من الابواب . أوقفوا اصدار المجلة وتمت مصادرة الممتلكات بما في ذلك السرير الصلب لفلاستا

خلال العطلة الصيفية جاء امر من براغ يمنع اطفال الاسر اليهودية من الدوام في المدرسة ولايسمح لليهود بالتبضع الا في ساعات محدودة بعد الظهر ويمنع اليهود من التمشي في المتزهات ومن ارتياد دور السينما والحانات ويحرم عليهم الخروج من مساكنهم بعد الساعة العاشرة مساء . ولأجل التأكد من تحقيق هذه الاجراءات ومن اجل الالتزام بالنظام عموما ينبغي من الان فصاعدا ان يحمل جميع اليهود علامة مميزة : هي النجمة السداسية الصفراء . وقد وصلت الى بلدية القرية بضعة امتار من قماش الخام الابيض ، الذي طبعت عليه النجمة السداسية . وقام العمدة شفيتس بتقسيمها الى قطع كل واحدة منها لخمسة اشخاص ووزعها على اسر ماوتنر ورابين وفيرخوف و واغل ، وقد احمر وجهه من الاضطراب . وكان السيد المعلم هوديك ينقل الى اسرة دي لوتي النكات والايخبار الجيدة . كان يأتي قبيل المساء ، جيورجي يفتح المذياع ويحددون بالموشر محطة لندن أو موسكو . ثم يلصقون آذانهم على المذياع المبجوح الصوت ، الرأس فوق الرأس . كانت دراهوميلا تعرف ذلك اما رادبور فقد كانت فاليريا تتكفل بعناية في ابقائه في المطبخ .

٢

فلاستا واقفة عند نافذة غرفة الاطفال تنظر الى الشارع . ارادت ان توقظ دراهوميلا ، غير انها لم تجدها في غرفة الاطفال ، لعل فاليريا قد ايقظتها في وقت مبكر وارسلتها للتبضع . انها تفعل ذلك في كثير من الاحيان .

رادبور مازال نائما ، مغروسا في الفراش ، باستثناء كتلة غامقة ، رأسه المستدير يبدو

من تحت اللحاف . لا يرسله احد للتبضع . جربوا ذلك بضع مرات . غير انه تسكع في مختلف الارحاء ولم يحمل نصف الاشياء المطلوبة . في احدى المرات لم يعثروا عليه وقد امتلكهم النلع إلا بعد الظهر . في الواقع انهم لم يعثروا عليه . جاء بنفسه جانعا وقد تركت الاحراش خدوشا كثيرة على جسمه . وتحدث بعينين مسحورتين كبيرتين . عن ملاحظته لأحد اللقالق وعن كل ما عاشه خلال تلك الملاحظة . كان ما رواه في الأغلب هراء من غير الممكن ان يقع له على الاطلاق . وكان مارواه غريبا ومتشابكا ومبعثرا مثل صورة ممزقة عبثت الريح بأجزائها .

قال جيورجي " في هذا الطفل شاعر . قال ذلك بلهجة تقريرية حزينة . في هذا الطفل شاعر ولكنه لا يستطيع الخروج .

هاهي دراهوميلا تعود حاملة حقيبتها المملأ . لم ترسلها فاليريا لشراء الجبنة والزبدة للفظور فقط وانما كتبت لها كل ما هم بحاجة اليه اليوم لاجل ان لاتضطر الى الذهاب الى الخانوت هذا اليوم عموما . الساعة الآن تقارب الساعة السابعة إلا ربعا . بقي عليها الآن ان تتناول فطورها وان تكنس السلالم وتهيء القهوة لاييها وترتب الفراش - وهكذا تجد متسعا من الوقت لتصل المدرسة في الموعد تماما

هل كنت هكذا مثقلة في العمل في عمرها ؟ تذكرت فلاستا . في بعض الاحيان نعم ، مثلا عندما كنا نرسل جلود الارانب للدباغة . كان علينا جميعا ان نساعد . غير ان ذلك لم يكن في كل يوم .

وقفت بعض الجارات لشيء من الدردشه . دراهوميلا تحييهن . انهن سوف يلتفتن اليها الآن . بالطبع نظرن اليها . وكأن فلاستا تسمعهن من هنا : " انها لفتاة شغول " . (مازال بوسع دراهوميلا سماعهن ، قلن ذلك بابتسامة تقدير واعتراف ، تحسبا لالتقاء دراهوميلا نحوهن) بالله عليكم ، انها لفتاة مسكينة ، تقوم مقام الخادمة ، تدعي فاليريا انها متوعكة وترقد للراحة ، وعلى هذه الصغيرة ان تقوم بشراء ما يحتاجونه وتنظيف حضيرة المعزاة وغسل الارضية ، نعم لقد احسنت فاليريا تدبير أمرها . ولو قالت لها الدكتورة شيئا لتصدى السيد مدافعا عنها

لبست فلاستا روب النوم المعلق على اكتافها عليها ان تندس مرة اخرى في الفراش لتتدفأ ، وإلا فانها سوف تصاب بالبرد . سمعت كيف تفتح دراهوميلا باب

الدار هل انتهت من حلب المعزاة؟ يبدو انها قامت بذلك مادامت قد ارتدت البدلة المدرسية .

ماذا في الامر؟ سيكون ذلك جيدا بالنسبة لها في احد جوانبه . في الاقل تعتاد على مشقة الحياة في وقت مناسب .

٣

في احدى الليالي في نهاية نيسان ١٩٤٢ طرقت شاب مجهول باب اسرة لوكاش المرقمة ٩٣ . همس بين شقي الباب قائلا ، انه مظلي ويحمل لهم تحية من قريبهم رودولف هروبيتس من انجلترا . لم يصدقوه . وخافوا ان يكون الأمر نوعا من الاستفزاز . اوشكوا ان يغلقوا الباب في وجهه غير انه استطاع قبل ذلك ان يضيف قائلا : " عندما كان صغيرا كنتم تنادونه بصيغة التحب دودكو . ومرة شرب القشطة في غرفة المخزن الصغير للاطعمة ومرض..."

سمحوا له بالدخول . من المؤكد ان الغستابو يعلم ان ثلاثة صبيان قد هربوا في ربيع عام ١٩٣٩ من هنا من برناريتتسه عبر " الطريق الخضراء " . ولعله من غير الممكن ان يعلم من يريد الاستفزاز ، انهم كانوا في دار العمدة لوكاش يطلقون على رودولف لقب دودكو وكذلك بالنسبة لتلك القشطة . بالاضافة الى ذلك اراهم رسالة موجهة الى آل كرزاك - وقد انتهت الرسالة بعبارة : يقدم لكم التحية الحارة كريسيينا . وقد كتبت الحروف التي تكون مقطع " سين " منها بطريقة مختلفة عن بقية حروف الكلمة . وسين ، تعني الابن . " يقدم لكم التحية الحارة ، الابن ، رودلف الثاني . انهم لم يعودوا يعرفون بعد خط يده ولكن في اسرة كرزاك مازالوا يعرفون خط يده . قادوا المظلي الى هناك في الليلة ذاتها بعد ان اطعموه قليلا وبعد ان قال لهم ان دودكو يعمل في القوات الجوية وانه حلق فوق برناريتتسه بضع مرات . كما قال لهم ان فريقهم هبط قبل امس في الليل وان عددهم كان كبيرا غير انهم توزعوا . وانه الآن بحاجة للاتصال بالآخرين ، واتفق مع ياروسلاف لوكاش المحاسب في كنيسة برناريتتسه على ارسال الشعار المتفق عليه الى صحيفة نارودني بوليتيكا ، لنشره بصيغة اعلان :

اشتر قاموسا تشيكييا - المانيا . ملاحظة : قديم وفي وضع جيد ، على العنوان

ياروسلاف لوكاش - برناريتتسه عند طابور رقم ٣٩

تم نشر الاعلان مرتين . وتلقى ياروسلاف خمسة عروض للقاموس ورسالة غرامية وكانت تلك هي الخبر المنتظر . بعد ذلك في وقت مبكر جاء الى برنارتيته المظلي الثاني هو ايضا جاء من وراء القرية وفي الليل ، غير أن الليل يرى في العتمة مثل البومة . وللجدران آذان وللصمت آلاف الافواه . لن اقول ذلك لأحد ، لأي احد . فقط للأم المععدة . والام المععدة مثل الأم الثانية ، فكيف استطيع اخفاء شيء امامها . والأم المععدة تلتزم الصمت ، تقول ذلك لأختها فقط . لأختها الشقيقة . ولتلك الأخت رجل ولهذا الرجل صديق... خلال بضعة ايام انتشر عبر الهمس في جميع ارجاء المنطقة خبر يشير الى وجود المظليين في برنارتيته .

في السابع والعشرين من ايار أعلن المذيع خبر اغتيال هايدريخ*

"اطلقوا النار عليه من المسدسات الرشاشة " قال رادبور فرحا وقد مد سبابة يده في اشارة مشابهة للسلاح

"ماما ، هل كان ما فعلوه جيدا أم لا ؟ " سألت دراهوميللا .

في ذلك اليوم نفسه انطلق نحو مدن وقرى الانتداب اربعمائة وخمسون الف رجل يرتدون بدلات الغستابو (اس ، تس) والفرماخت (الجيش) وبوليس الانتداب . خرجت قوات الغستابو في الليل . كانوا دائما يحجون العمل في الليل . لأن الناس يكونون في الأغلب في بيوتهم ويسهل العثور عليهم ، وربما لأن ذلك اكثر تأثيرا

على الاسيجة والجدران ظهرت بيانات بلون الدم - قوائم باسماء الذين اعدموا وتهديدات تحت صقر الامبراطورية : من يخفي احدا يعاقب بالموت ، ومن يكتتم أمرا يعاقب بالموت ، من يعلم ولايقول . يعاقب بالموت... الموت . وسوف يكتبون اسمه في القائمة الابدعية الدائمة .

ازداد عدد الذين قالوا ما سمعوه ، عريف الشرطة ف . ف . برونيك من بيسك ايضا قال لشرطي سابق آخر ولنقل مريجيك .

"يقال أن كرزك من برنارتيته ، قرأ في اجتماع اللجنة الاقتصادية لصندوق التوفير

* رينهارد هايدريخ (١٩٠٤ - ١٩٤٢) سياسي الماني نازي . جنرال مسؤول عن قوات الشرطة وقوات الصاعقة ، وقد اشغل منذ عام ١٩٤١ منصب نائب المدعي العام للرايخ في منطقة التشيخا ومورافيا ، كان منذ عام ١٩٣٦ قائدا للفتابو . ومنذ ١٩٣٩ قائدا لقوات الصاعقة . وقد أعد بـ١٠ من سنة ١٩٣٦ الحل النهائي لمسألة اليهود . واضطلع بتنظيم معسكرات الاعتقال والاعدام . كان رمز السياسة النازية الراهية النصرية - المحرر

رسالة من ابنه في إنجلترا . نقلها له المظليون..."

نقل مريجيك (منذ ان التحق في خدمة الالمان بدأ يكتب اسمه مريزيك) تلك المعلومة الى حيث ينبغي ان تصل ، وفق ضميره

بدأ الاعتقال الاول في برنارتيته يوم الخميس ٤ حزيران ، اليوم الذي مات فيه هايدريخ . نقلوا اسرة كرزك وابنتهم يرجينا ، ذات الحادية والعشرين . وتم اعتقال ابنتهم الثانية زدينا في براغ . والقي القبض على الابن سيفيرين في سيدلتشاني حيث كان يعمل

في العاشر من حزيران ، جاؤا من جديد . فلاستا وفاليريا تظاهرتا بالطبخ وبسرعة احرقتا الاوراق . وقام جيورجي بسحب قطعة النقود من جهاز المذياع ، تلك القطعة التي مكنت من التقاط محطات الاذاعة التي تبث على الموجة القصيرة ، رغم التدخل الحكومي بالجهاز . سحبها بالمنقاش وبشطارة ، ليحافظ على الغبار الذي يغطي اجزاء الجهاز

لم يأت احد اليهم . في حين عاد رجال الغستابو في تلك الليلة ذاتها الى اسرة بندا ، وإلى الكنيسة . وفي تلك الليلة تم التدمير التام لقرية ليديتسه .*

يحاول الانسان تجنب الخوف ، يحاول ذلك بعقله ، وبارادته ، أما الهلع فلا يستطيع تجنبه ، فالخوف يتسرب الى الانسان عبر دماغه اما الهلع فيتسرب عبر النخاع .
هيمن الهلع مثل كابوس اسود على البلدة .

يوم الجمعة حاصر برنارتيته مائتان وخمسون عسكريا من افراد شرطة الدفاع والغستابو . لم يسمح لأحد بمغادرة القرية . لم يسمح لأحد بالخروج من بيته . منع حتى الخروج من البيت الى الحظيرة لتقديم العلف للحيوانات . الابقار الجائعة تخور . ارتفع حُوارها في ذلك الصمت كالبكاء

"كيف خلا المكان من البشر هناك " همست فلاستا عند نافذة المطبخ " وكأن برنارتيته قد ماتت"

"خالية من البشر ؟ تأملي فقط ، ما اكثرهم هناك " اعترضت فاليريا

* ليديتسه : قرية تقع في منطقة التشيخاخ الوسطى الى الشرق من بلدة كلادنو القريبة من العاصمة براغ وقد سوى النازيون بيوتها بالارض بعد موت هايدريخ في ١٠ حزيران ١٩٤٢ . وأعدم جميع الرجال فيها وكان عددهم ١٩٢ رجلا ، أما النساء والاطفال . وكان عددهم ١٩٦ نسمة فقد سيقوا الى معسكر اعتقال . وبعد الحرب أعيد بناء القرية ، وشملت حديقة زهور تذكر بالحدث في موقع النصب المعبر عن مأساة ليديتسه - المحرر .

"هؤلاء ليسوا بشرا" قالت ذلك بتقريرية كما كانت تقول للمرضى : هذا هو التهاب الحنجرة ، انه التهاب الزائدة الدودية

في الثانية عشرة زمروا بالبوق وقفزوا الى السيارات ، في الوقت الذي رنت فيه اجراس البرج مشيرة الى حلول الظهيرة . غنوا ، معبرين عن الارتياح ، لأن وجبة الغداء لن تتأخر كثيرا

حشروا في الشاحنة الفارغة اثنين وعشرين موقوفا . السيدة لوكيشوفا واسرة هروبيتس ، جميع الذين عاشوا في المدينة الصغيرة ، لاداعي للتأخر في التحقيق عن الاسرة التي كان الهارب من ابنائها

نقلوا رئيس عرفاء الشرطة سوتي وأبوي ثالث الهاربين ، دوبيك . وخلال اسبوع اعتقلوا اربعة آخرين من بينهم العمدة شفيتس

كان الناس يسيرون في المدينة الصغيرة ، يحيي بعضهم بعضاً وقد احنوا رؤوسهم صامتين وغيونهم تسأل : ماذا سيكون ؟ ماذا سيحصل لهم ؟ كانوا يشعرون بالخوف : هل سيعودون من جديد لينقلونا جميعا الى مكان ما

في وقت قصير جاءهم الجواب عن السؤال : مالذي سيحدث لهم ؟ . فقد تم اطلاق النار على ثلاثة وعشرين مواطنا من اهل برنارتيتسه ، وذلك في مرحلتين في ٢٩ حزيران و٢ تموز . اعدموا رميا بالرصاص في لوبيخ عند كلاتوف رجالا ونساءً وفتيات في السابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر .

استطاع المظليون الافلات . لم يكن اثنان منهم في لحظة الحملة في القرية ، اما الثالث بوهوسلاف غرابوفسكي ، فقد اختفى لدى اسرة لوكيش في سقيفة الدار . وقد اعتقلوا اسرة لوكيش واغلقوا الدار بالشمع ، غير انه انتظر حتى الظلام وهرب من النافذة .

لم يفلت بصورة نهائية . فقد اعتقلوه في وقت متأخر في براغ وتوفي في تيريزين قبل نهاية الحرب ببضعة أيام .

السياج ، الذي كان يحمل في وقت مضى اعلانا للتلاميذ عن الاحذية من مصانع باتا وعن مؤسسة نيهيرا التي تخطط الملابس بشكل جيد ، اُخمرَ بالقوائم الطويلة للاسماء المعروفة . نوافذ البيوت المهجورة تطل على الشوارع كالعيون الميتة . وقد

تفتحت زهور الاكاسيا ونشرت زهور الياسمين عطرها لدرجة الجنون ، غير ان احدا لم يلحظ ذلك سوى النحل .

البلوزة الحمراء

حينذاك في بداية الصف الثالث ، عندما انتقلت دراهوميلا الى برنارتيتسه ، بدت لزملائها في المدرسة متميزة جدا وغامضة . اغلبهم كان قد رآها منذ ايام العطلة ، غير ان ذلك كان بصورة خاطفة ، في الشارع أو في المتجر . وقد سمعوا شيئا عنها من الوالدين ، خاصة من الامهات ، غير انهم سمعوا ذلك بأذن واحدة ، لأن الامهات لا بد أن يقلن في النهاية " خذ منها مثلاً " وبذلك يحملونهم على عدم حبها (على كراهيتها) .

في شهر ايلول ، عندما جلست اخيرا معهم في حصة الدرس (على المصطبة الخامسة لأنها كانت طويلة) وقدمها لهم السيد المعلم ، عرف عنها زملاؤها التلامذة كل شيء ، وبصورة دقيقة ، لأنه عندما كان المعلم يخطئ في امر ما ، كانت تصحح ذلك في الحال . كان يكفي ان تكون قد انتقلت من براغ ، لتصبح محط مزيد من الاهتمام ، وهي بالإضافة الى ذلك تحمل اسما اجنبيا ورفيعا (من اسماء النبلاء) ، وهي نصف ايطالية وتجيد التكلم باللغة الايطالية والانجليزية والفرنسية .

غير انها اثارت اكبر انطباع لدى الاطفال ، بواقع انها ولدت في بغداد وكانت بغداد بالنسبة لهم مدينة الحكايات ، شيئا يشبه المرتفع الزجاجي أو قصر ملكة الشتاء . وحين يضيفون الى ذلك شعر دراهوميلا الطويل (حقا انه لم يكن ذهبيا غير انه غامق مائل الى الصفرة) واسمها الاولين (كانت تستجيب عند مخاطبتها بأي منهما) فقد كانت تبدو لهم بصورة واضحة كالأميرة . كانوا يترددون في التحدث اليها ، واذا ما سألت هي نفسها عن

شيء ما فإنهم يجيئون بحذر وبمقطع صوتي واحد

بعد بضعة أيام فقط تجرأ أكثرهم شجاعة على جس نبضها . سألوها مثلا ، كيف نقول في الإيطالية مصطبة او كلباً وكيف نقول الشيء نفسه بالانجليزية والفرنسية . وبعد كيف يقال نافذة ووجبة الضحى وكتاب . وهي لم تغضب مطلقا ، كانت تترجم لهم تلك الكلمات وابتسمت حين لم تذكر كيف يقال بالإيطالية خرقة مسح السبورة

انهم الآن يدركون منذ وقت طويل ، انها ليس اميرة . فهي تذهب لرعي المعزاة في الحقول تحت جبل القديسين وتذهب مع فاليريا لقطع العشب للارانب . يصرخون نحوها منادين : درا...ه...وووا أو ليدو... يي...!!! ، فتلوح لهم او تهول نحوهم (في معطفها المقلم ، الذي اصبح صغيرا ، اذ لا تصل نهاية اكمامه الا الى مفصل الساعد) ليتحدثوا لحظة من الزمن . ولقد سقط حرف التعريف النبيل دي من اسمها ، عندما لم يستطع المعلمون الاتفاق على ادراجها في قائمة التسلسل الابدجية تحت اسم الدال أم اللام . وهكذا يسمونها الآن باسم لوتيوفا . انها تجلس في المصطبة ؟ الاخيرة لانها نمت وصارت اطول من الجميع بل واطول من أمها السيدة الدكتورة

انهم يعلمون بانها ليس اميرة ورغم ذلك احتفظت بشيء من الاعجاب والاحترام . فهي في المدرسة الثانوية تحقق الدرجات الممتازة فقط ، تمارس لعبة كرة الرمي بامتياز وتقفز ابعد واعلى من جميع الفتيات وفي الحفلات المدرسية كانت تعزف على البانجو وتغني بشكل جميل . كانت ايضا تنظم الشعر ولكن الذين يعلمون بذلك قلائل فقط انها لاتخاف احداً وعندما يراد قول اي شيء للمعلمين تقول ذلك نيابة عن الصف دائما دراهوميلا أو ميلان توميك . دراهوميلا تعرف كيف توضح بأسلوب مؤدب وحازم للمعلم مثلا ان الواجب المنزلي الذي اعطاه لهم يوم امس باللغة الالمانية ، لم يكن من الممكن انجازها ، رغم انها بالذات قد انجزته .

٢

يوميات الاحداث المدرسية ٢ - ١٩٤٤-١٩٤٥ دراهوميلا ليديا دي لوتي

ايها الدفتر ، اودعك كل همومي وافراحي ، احزاني ومعاناتي ، كل تمرد الشباب وآلامه...

أمر غريب : احيانا استطيع ان اكون حزينة " لدرجة مروعة " ورومانطيقية وحيانا اخرى

فرحة للغاية وواقعية . لماذا انا هكذا ؟ ربما بتأثير المناخ ؟ اشك في ذلك . انها الحياة ...

في برنارتيته بتاريخ ١٩٤٤/٩/٥

الآن الى المدرسة من جديد ، الى المدرسة المحبوبة والغالية . اليوم المدرسي الاول في السنة الاخيرة في برنارتيته . في السنة الدراسية الاخيرة هنا كم انني حزينة . ما اسرع مرور السنوات الماضية ، جرت كجدول ينحدر من الصخور . هاهي البداية الاخيرة للمدرسة في برنارتيته الجميلة . لن ارغب في الرحيل من هنا . اعلم ذلك .

الأربعاء ٦ أيلول ١٩٤٤

... لم نشتر حتى العاصفة لا ميلان ولا أنا ، ولم نشتر كتاب تدريس اللغة الألمانية . كان عددنا نحن الذين لم نعلن عزمنا على شراء هذا الكتاب أكثر ، ميلان وأنا ، حرصنا من حولنا على عدم تبذير النقود عبثاً ، ما دام الأمر غير الزامي ، وحقق تحريضنا نجاحاً تاماً الأفضل كما يقال أن أشتري آيس كريم . هكذا نبدأ السنة بداية ناجحة . كيف ستكون النهاية ؟

١٩ أيلول ، الثلاثاء

... اليوم جاء لوداعنا المعلم كوبا - فلسوف يغادر غداً ، حمل نفسه على الابتسام غير أنه كان حزيناً . هل سيرانا في يوم ما ثانية ؟ نحن الذين ندخل الحياة غداً ؟ ألا يذهب إلى موت حقيقي ؟ بعد الحصة التي جاءنا فيها ، ذهبت إلى ميلان . كان قانطاً ، تحدثنا إلى جانب النافذة المفتوحة . اللحظة الوحيدة التي قضيتها معه في حديث جاد ، قالت لي الكثير سوف يأخذون كما يقال كل المعلمين ، حتى الذين لهم طفلان ، فوق الخامسة من العمر إذن سيضطر إلى ذلك هوديك أيضاً . قال لي ميلان : ألا تعلمين يا ليديا كم سأكون سعيداً لو أن عمري سنتين فقط وأركض لاهياً في الحديقة . فإن الأمر الآن يشمل أبي أيضاً - مسكين يا ميلان ، تريد أن يكون عمرك سنتين ، رغم أنك تريد أن تكون كبيراً لتدافع عن وطنك . في الشق الثاني أنت مثلي... آه يا ميلان .

٣

التوتر الذي لا يحتمل ، والذي ساد برنارتيته في شهر حزيران عام ألف وتسعمائة

واثنين وأربعين ، بدأ يضعف ببطء . فقد اعتاد الناس من جديد على أن يناموا ، دون أن ينتظروا بعيون مفتوحة وسمع مرهف حتى هبوط الظلام ، متوقعين وصول قوافل الجنود وصراخهم ، لأخذ مزيد من المحكومين . ومن جديد تجرأ الناس على الهمس فيما بينهم لتناقل أخبار الجبهة (عندما دحر الجيش الأحمر الألمان عندستالينغراد وعندما نزل الحلفاء في إيطاليا) ضحك الناس للنكات والطرائف . فلقد علمتهم التجارب المريرة الحذر : عرفوا أنه لا يكفي أن يكون أحدهم تشيكياً ، لأن الخط الفاصل كان يمر في موضع آخر . ألم يكن من أصل تشيكي ذلك المتعاون مع الألمان من قرية يسترابي والذي كان يأتي إلى هنا ليعلن للجميع ، أنهم سيأتون الآن لاعتقال الدكتورة وزوجها وكذلك لأخذ المعلمين الذين يلتقون عندها ؟

التقوا عندها . بالدرجة الأولى ، فرنتيشك هوديك الذي كان يحضر كل يوم تقريباً فقد نشأت بينه وبين جيورجي روابط صداقة وكانا يذهبان للتمشي مشاوير طويلة بين الحقول وفي مسالك الغابة . ويصلان أحياناً حتى معبد القديسة روزاليا . أحب أحدهما الآخر ، هذا الإيطالي النحيف المشرف على الشيخوخة وهذا المعلم التشيكي الذكي والكثير القراءة ، والذي تدرج ليصل إلى مهنة التعليم بعد أن كان عاملاً في التجارة . كانا يعودان قبيل المساء لتناول الشاي والاستماع معاً للمذياع . فقد أعاد جيورجي قبل فترة من الزمن قطعة النقود الضرورية لتمكين الجهاز من التقاط محطات الموجة القصيرة . كانا يفرشان الخارطة ويتابعان تقدم القوات العسكرية . وفي بعض الأحيان يحضر آخرون . كوبا ، وتوميك - أولئك الذين يثقون ببعضهم .

لم تكن دراهوميلا لتشعر بالاحترام المغالى به أمام هيئة المعلمين ، غير أن هوديك كان بالنسبة لها مثال السيد الرب . وكانت مثل جميع الأطفال في المدرسة ترحب بكل فرصة للتهرب من الدروس ولكن ليس للغياب عن حصص اللغة التشيكية . كان يعرف كيف يتحدث عن اللغة التشيكية وعن الأدب التشيكي . لم يكن لبرنامج التدريس الذي وضعت إدارة الانتداب من وجود لديه . عندما كان يلقي الدرس عن تشابك* كانوا يقرأون من مسرحية «المرض الأبيض» ، ومن رواية «حرب مع السمندر»** ومن رواية الأم . كانوا يلقون الشعر

* كارل تشابك (١٨٩٠-١٩٢٨) كاتب وصحفي تشيكي تقدمي مناهض للفاشية غزير الانتاج كتب الرواية والمسرحية والقصة القصيرة والمقالة . كما كتب للأطفال وترجم منتخبات من الشعر الفرنسي في العصر الحديث وأجرى أحاديث مع رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا الأول ماساريك - المحرر

** رواية عن خطر الفاشية كان قد ترجمها الى العربية في عام ١٩٦٦ الأديب حسين العامل مترجم هذه الرواية - المحرر

من ملحمة يرجي وولكر حول الحلم والقصائد المعادية للحرب للشاعر شراميك . قرأوا هالاس ورددوا أشعار هافليتشيك وجيلنير . كان يحدثهم عن فلاديسلاف فانتشورا الذي أعدم وقرأوا من كتبه . كل حصة من حصص اللغة التشيكية في هذه المدرسة الثانوية الريفية كانت متعة مابعدھا متعة ، ليس لدراهوميل فقط

٤

٧ تشرين الأول ، السبت

اليوم أعطينا واجباً منزلياً في دروس الإنشاء ، علينا أن نكتب تحت عنوان مسقط رأسي . وقد سألت بعد ذلك السيد المعلم هوديك ، ماذا عليّ أن أكتب ، فقال لي : اکتبي عن الحالات ، عن مسقط رأس أمك هنا وعن مسقط رأسك أنت بالذات ، وهذا سيكون الأصعب ، عن بغداد . وهكذا صار العمل مضموناً بالنسبة لي .

١٠ / ٩ الاثنين

اليوم سألنا المعلم ، عما إذا كان بيننا من كتب واجب درس الإنشاء . غير أنني إلتزمت الصمت (كنت قد كتبت الواجب بعد ظهر أمس) . غير أن السيد المعلم قال محدداً : إذن سيحمل الواجب المكتوب غداً كنموذج كل من ليتوفا وانجيلوفا ودوشكوف ، يضاف إليهن أحد الأولاد ، مثلاً كرال . يارب ، أقول بصوت مرتفع ، أحد الأولاد ، أين نحن من هذا ؟ ورغم ذلك يقال أن الفتيات لا يصلحن للدراسة وأن الأولاد أذكى الخ . إن فصلنا بالذات يقدم الدليل على أن الأولاد أذكى ولكن فيما يتعلق بالترهات .

١٠ الثلاثاء

لدينا درس في الأيديولوجيا الجديدة يوم الجمعة : «الزعيم» إنني تحملت ما يكفي ولن أدرس هذا الموضوع بعد الآن... لا ولا . وليعطوني مثلاً في درس الأخلاق صفراً وفوقه صفر آخر ، فإنني لن أدرس هذا الموضوع لا وألف لا

١٠ / ١٦ الاثنين

خلال الحصة الأخيرة ارتفع من بعيد صوت المحركات ، كان دويّاً خاصاً ، لمكانن غير معروفة ، إنه مختلف وأجمل من دوي الطائرات التي نراها يومياً فوق رؤوسنا . الأولاد الذين

يجلسون قرب النوافذ احتشدوا عندها وكانوا يصرخون : اختونج... إنتبهوا... إنتبهوا ، فوقنا أسراب من الطائرات المعادية .

أخيراً رن الجرس ، وانطلقنا من غرفة الدرس إلى الخارج . عندها رأينا الروعة - في السماء الزرقاء الكثير من الخطوط والدوائر والمقطوعات الاهليجية والضباب الاسطوري الأبيض... وغيثاً أيضاً على منشورات... سقط أحدها في حديقتنا ، للأسف أن الأولاد الذين عثروا عليه حملوه راكضين الى محطة الشرطة ، ولذا لا يعرف أحد ماذا كتب فيه .

٢١ / السبت

علمت من ميلان أمراً أفرحني جداً . فقد تحدث السيد هوديك الى أمه وقال لها « إنه يلاحظنا منذ فترة ووجد أن بيني وبين ميلان تفاهماً متبادلاً » هوديك لاحظ ذلك . ونحن نعلم كيف . فعندما يقرأ شيئاً في المدرسة ويكون ذلك واجباً وطنياً جداً أو يتحدث مؤزداً مثلاً للمقارنة تتبادل أنا وميلان نظرات ذات معنى بالصورة التي لا تجعلني أتعجب لأن هوديك قد لاحظها . ورغم ذلك أشعر بفرح كبير

١١ / السبت

اليوم أعطاني ميلان نصاً للقراءة قال أن هوديك قدمه في درس الإملاء ، وقد أعجبني النص كثيراً لذا قمت باستنساخه : قال الفيلسوف سينيكا

حتى ذلك الذي قُطِعَتْ يده في المعركة يجد ما يساهم به لخدمة شعبه ، في الأقل النداء والتحريض . أنت أيضاً إعمل شيئاً مثل هذا . وإذا كانوا قد أزاحوك عن مكانك في المقدمة فقف وساهم بصوتك . وحين يضغطون على حنجرتك ، قف رغم ذلك وساهم بصمتك!...»

أليس هذا جميلاً؟ شعرتُ بالفخر حين قرأتُ ذلك ، لو لم يكن هوديك ، لا أدري أيّ مصير كان سينتظرنا

٥

كانت تقرأ إلى ساعة متأخرة من الليل : تشابك وديكنز وبرايسيك وغوركي . حسبت أن الأبوين لا يعلمان ذلك ، لكنها كانت مخطنة . فقد كانت فلاستا ترى جيداً الشق المضيء تحت باب غرفة الأطفال . كانت تعلم بخيط النور الذي تشعله عند التعميم . ولم تقل شيئاً

ألم تفعل مثل هذا هي بالذات أيضاً ؟

كانت فخورة بابنتها . لأنها تدرس بصورة جيدة ، وكان يفرحها أنها تستطيع الآن الحديث معها كما تتحدث مع امرأة ناضجة . وكانت هي الوحيدة عندهم في البيت الآن . فإن رادبور يتعلم البستنة منذ شهر آب لعام ١٩٤٢ في هراديتس كرالوفي . لم يشأ الذهاب الى هناك عندما حان موعد سفره ، انفجر غاضباً وتهيج وتوسل وبكى . ولم يهدنه غير الوعد بأنهم سيأتون لأخذه من هناك قبل أعياد الميلاد . أخذته فلاستا في السيارة الى هراديتس كرالوفي وبقلب حزين نظرت كيف أنه يتأملها عبر سياج الأسلاك حول بستان المشتل .

كانوا يرسلون له صناديق الكعك الأسود وغيره من الملذات التي كانت في المتناول ، وتذكروه كل يوم ، كانت فاليريا تتذكره أكثر من الجميع فقد كان يقضي في المطبخ حولها أغلب الأوقات . « هل تذكرون كيف أجاب عندما سألته المعلمة عن جنس الشوكة (المقصود ما إذا كانت الكلمة مؤنثة أم مذكرة - المحرر) ؟ أجاب رادبور : إنها من جنس الشيطان وقد تعجبت المعلمة وسألته لماذا من جنس الشيطان ؟ قال لأن لها قرناً . كلهم يعرف تلك الحدوتة ، ومع ذلك ضحكوا وكانوا يحسبون الأيام المتبقية لموعد عودته . ذهب جيورجي وجاء به لقضاء ثلاثة أسابيع كاملة .

كان طويلاً وهزيلاً ومنطوياً على نفسه . مسح الصحن بعناية فائقة بكسرة الخبز ، وعندما عرضت عليه فاليريا المزيد من الطعام لم يصدق أنها تعني ماتقول . ففي هراديتس لم تكن لديهم فضلة لتقديم المزيد

كانت فلاستا ترقبه بحيرة : ما الذي جرى له بالإضافة الى أنه قد كبر هكذا ؟ فقد كان كثير الكلام وها هو الآن لا يكاد ينبس ببنت شفة . يندس في ورشة الأب محاولاً عمل شيء ماحتى موعد الغداء ثم يعيد الكرة حتى العشاء . لم يعد يغني ، أخيراً أدركت الأمر ، إنه لم يعد ذلك الصعلوك البدين ، المغني المنطلق لوجه الله ، في الصيف سيبلغ الخامسة عشرة من العمر ، إنه يقترب من الرشد ، ابنها يقترب من سن الرشد إنه يغادر غير راغب ، ولكنه هذه المرة لم ينفجر باكياً

٦

كما نشأت الصداقة بين جيورجي وهوديك ، وجدت فلاستا قرابة الروح مع الزوجة

الفتية لزميلها القديم في برنارتيتسه الدكتور فويتسخ . عرفت كارل فويتسخ منذ عهد الطفولة كان أصغر منها سناً ولكن ليس كثيراً تذكرت كيف أنهما التقيا بعد الحرب . كان كارل قد أكمل المدرسة الثانوية لفترة الحرب واجتاز اختبار التعليم وقضى سنة أوستنتين عريفاً نمساوياً - مجرياً كان قد فكر في وقت مضى بدراسة الطب ، أما الآن فلم يعد راغباً في ذلك . سيترك ذلك الأمر للريح وينصرف للتعليم . شرح لها أسبابه باستسلام ولكن عن قناعة . في الحال عنفته وكتبت له في تلك اللحظة (على الجسر الصخري) أين ينبغي أن يذهب وما هي المواضيع التي ينبغي أن يسجل لدراستها بالتأكيد والكتب المدرسية التي ينبغي عليه البحث عنها وقفا على الجسر قرابة الساعة وهزت خلالها فلاستا ذات البنية الضعيفة بحزم روح زميلها المكسال المعتادة على ارتياد المقاهي ، لدرجة أنه ذهب من هناك مباشرة الى الكلية وسجل للدراسة فيها . وأصبح طبيب عيون

اقترب من الأربعين وتزوج من شابة شقراء رقيقة تعمل معلمة للموسيقى . كانت قد مرت سنتان أو ثلاث بعد زواجهما ، عندما اعتقلوا كارل . تنقل فترة من الزمن بين سجون ومعتقلات سلطة الانتداب . بعد ذلك جاءت رسالة منه من معتقل بوخينفالد . الاستمارة المطبوعة مسبقاً بن جيسوند* « ملحقة بالكلمات الخمس المسموح بها والمكتوبة بخط اليد يارميلا والطفلة انتقلا الى برنارتيتسه حيث يعيش والدا كارل .

كان نوع من الخجل اعترى فلاستا إذ اعترفت ، بأسلوبها أنها محظوظة . لو لم يعتقل النازيون كارل لعاشت أسرة فويتسخ الشابة في مدينة بوديوفيتسه ، ولما تعرفت هي على يارميلا إلا بصورة خاطفة وسطحية . « زوجة زميلي ، إنها سيدة شابة طيبة » . (لعلها لم تكن لتريد أكثر من ذلك ، لأنها لم تشعر بالثقة الكبيرة تجاه النساء الفتيات ، الجميلات جداً واللواتي يلبسن وفق الموضة) . بالاضافة الى ذلك أدهش فلاستا إحساسها بحاجتها الى المجتمع النسوي . فخلال السنوات الطويلة الماضية كان يكتفي في هذا الاتجاه أن ترسل ماريا تاوروفا وزيارتها بين الحين والحين . وكانت لقاءاتهما الشخصية دائماً تنتهي بأن تسيرا معاً صامتتين بين الحقول أو أنهما كانتا تتحدثان عن الأشياء المألوفة ، أما الأمور الرئيسية فقد تركتاها للمراسلة من جديد . حول الطب والتاريخ وحول السياسة كانت تفضل الحديث مع الرجال .

سمعت مرة يارميلا وهي تعزف على البيانو في أسرة فويتسخ .

عزفت حينذاك شوبان وغريك ، ولم يكن ذلك عزف مجرد لما كتبه المؤلف على الورق
تدربت عليه وجربته . كان ذلك حوارها الخاص مع شوبان وجريك . حدثتهما بألحانها عن
أحزانها وعن آمالها

وجهت فلستا الدعوة ليارميلا وقد لبثت الدعوة وجاءت . كانت خجلة ومترددة في
البيت الغريب وفي أجوانه الغريبة والمثيرة للاعجاب . لم تكن تدرك عن أي شيء ينبغي أن
تتحدث ، كل شيء يمكن أن تقوله يبدو لها ساذجاً ، سخيلاً ، الأمر الذي قادها الى الحيرة
والارتباك بل وشعرت بالارتباك حتى لكونها أطول من فلستا بمقدار الرأس . كانت إحداهما
تخاطب الأخرى « بالسيدة الدكتور » وبالسيدة زوجة الدكتور . ولم يشع الدفء في برودة
هذا اللقاء الأول وتقليديته إلا دخول دراهوميلا المفاجئ ، وهي تحمل باقة من زهور النجمة ،
من الحديقة (تقديرًا لأنك عزفت بهذه الصورة الجميلة) .

إنه خطني . قالت فلستا فيما بعد وقد حنقت على نفسها . كانت تنظر إلي كما تنظر
الى صنم معبود ، وأنا أجلس كالصنم ، أبتسم وأهز رأسي وأرفض بتواضع كلمات
الاعجاب ، كانت زيارة مجاملة . لو كنت مكانها لما جئت الى هنا مرة أخرى .
سوف أكتب لها ، أبعث لها رسالة تحملها لها دراهوميلا أو فاليريا . قررت ذلك ،
سأكتب لها وأخاطبها بلغة حميمة .

كسرت الرسالة الجليد . وجاءت يارميلا في اليوم الثاني مباشرة . وتحدثنا بعد ذلك
وبانفعال حتى حلول الظلام عن موضوع : المجاملة الاجتماعية وجوانبها السلبية ؛ وعن عدم
توفر الصراحة والانفتاح وعن عدم الاخلاص والصراحة ؛ وعن السلوك الحسن الذي يفضل
الحديث عن لا شيء ، وعدم التعبير عن أي رأي لأجل أن لا نجرح الآخرين ولأجل أن لا
نُجرح . أن نهز الرأس بالموافقة وأن نحتفظ برأينا الخاص . ليأخذ الشيطان هذا التصنع .
فهما الاثنان لن تسمحا بذلك بينهما

وبفضل هذا الحديث الطويل أقدمت يارميلا على أمر كانت تعتبره غير ممكن حتى
الأمس ، إذ بدأت تخاطب فلستا بلغة المفرد الحميمة .

٧

... الطبيعة أمامك وكأنها على راحة اليد ،

وفوق الأرض تمر الغربان محلقة ،

الغابات الكنيبة في تلك المسافات البعيدة

تحمل لك رسائل شومافا...

هذا المزارع العجوز ينثر الحبوب

لماذا؟ من يدري؟ هل سيعيش يوم الحصاد؟

كل هذا للأبناء ، فالأرض تمنحهم كل شيء!

(من دفتر دراهوميللا ، موقعة بالاسم المستعار لوبوميرا دراھوفسكا)

٨ كانون الأول ، الجمعة

هذا اليوم عاشت المدرسة إهتياجاً كبيراً . فلقد تلقت مانا توماشكوفنا من الصف الثاني بمناسبة عيد القديس ميكولاش من أمها كتاباً . كان كتاب حكايات المانية ، صدر في عام ١٩٤١ و مترجم للتشيكية . ومن هذا الكتاب نقلت يرينا أمس قصيدتها . هذا هو الأمر ، الذي وضع نهاية لحياتها الشعرية... أعطينا الشعر للمعلم هوديك . ولم يكدهوديك يصدق عينيه... وكانت هي تؤكد أنها لم تنقل ذلك الشعر وأن لديها في البيت ورقة المسودة التي كتبت فيها أبيات الشعر تلك حين «نظمتها» . أنكرت بشدة . قال هوديك إن عليها أن لا تطلعه مطلقاً على أية أبيات من الشعر . وقال إنه سيحاول نسيان ما حصل ، غير أنني أشك في قدرته على ذلك . يريد أن يضع خطأ فاصلاً يطوي الماضي ، غير أن لكل انسان شرفه الوحيد... في العام الماضي زعمت أن قصيدتها الأولى كانت أفضل بكثير من قصيدتي ، مفهوم ولكن تلك كانت قصيدتي حقاً

١ الاثنين

... عندنا واجب جديد في درس الانشاء (في الأسلوب) ، أن نكتب عن موضوع الغرفة الثالثة عشرة من رواية الكاتب فلاديمير نيف . هناك شخصية شاب يشبه ميلان حد التطابق . لا أدري ، ستكون معاناة لي أن أكتب ذلك...

١٢ الثلاثاء

لا جديد . اليوم نذبح في بيتنا خنزيراً . وهكذا فإن العمل لي مضمون .

كانون الأول ١٩٤٤

بدأت بالنسبة لنا العطلة الشتوية . وسوف نذهب الى المدرسة بعد أعياد الميلاد

١٩٤٥/١/٧

وداعاً أيها العام القديم ١٩٤٤ . السنة الجديدة تبدأ . ماذا سيحصل بعد سنة ؟ أين سأكون في هذه الفترة ؟ من يدري...

عندما تتوفر لدراهوميلا لحظة من الوقت وتدرك أنه لن يفاجئها أحد ، تذهب لتلقي نظرة على خزانة الملابس . هكذا فقط لادخال السرور على نفسها . للسرور لا غير . تلقت من الجدة بمناسبة أعياد الميلاد قطعة من الحرير الأحمر ذي البقع البيض ، لخياطة بلوزة منها وقد وعدتها السيدة يارميلا أن تقوموا معاً بخياطتها ، غير أنهما لم تجدأ الحد الآن الوقت لذلك . لم العجلة ، في كل الأحوال لن ترتدي البلوزة قبل الربيع أو الصيف . فإنه لمن الخسارة إرتداؤها تحت المعطف .

والآن هي في كل الأحوال في البيت . فمنذ أعياد الميلاد لم يذهبوا الى المدرسة . كانوا يذهبون الى ملعب سو كول لتلقي الواجبات المنزلية فقط . أولاً لعدم وجود الفحم ومن ثم بسبب اللاجئين الألمان ، الذين انتقلوا الى الصفوف بعد أن جرى تنظيفها . ولكنهم كما يقال سوف ينتقلون إلى مكان آخر ، وبعد عيد الفصح سوف تذهب الى المدرسة من جديد ، وعندها لا بد أن تكون البلوزة جاهزة

بدأ شهر آذار ، وقد انتشر عطر معين في الهواء . كان العطر شديداً ، لدرجة أنك كنت تتنفس بعمق حتى الاختناق . تفتحت زهور الصفصاف الفضية والوردية بفروها الناعم وكأنها ققط صغيرة حقيقية . على سفح الجبل المقدس وفي الحقول المحيطة ببرنارتيتسه عموماً بدأ ينمو الزرع . وكانت السماء زرقاء صافية . وقد أدرك الجميع أن الربيع يقترب وأن نهاية الحرب تقترب . وتقترب الحرية .

مرة بعد الظهر جاءت يارميلا فوييتيخوفا ، كانت تبتسم بغموض وقد تأبطت بضع مجلات من مجلات الموسى . « ماذا يا ليديا ، هل سنقوم بالخياطة ؟ » تصفحتا المجلات طويلاً الى أن إتفقتا على أن تكون البلوزة ذات ياقة مستديرة الأطراف وأن تكون أكمامها مقوسة ضخمة عند الكتفين . باختصار ، أن تكون الأجمل بين الجميع . عرضوا الأمر على فلاستا ، فصبت في الحال ماءً بارداً على حماستهما . قد تكون هذه البلوزة في الصورة جميلة ، لكنها ستكون غير عملية لدرجة فظيعة ، عليهما أن تخطا هذه ، ذات الياقة المفتوحة أو بدون ياقة ، من المؤكد أن هذه ستكون أفضل . « هل ستكون البلوزة لي أم لك ؟ » انفجرت ابنة الرابعة عشرة وهربت من الغرفة . « نسميها الصدرية يا ليديا ، فإن

البلوزة كلمة جرمانية» لامتها فلاستا ، ولكنها قالت ذلك للباب المغلقة .

عندما خرجت يارميلا وجدت دراهوميللا عند الأرناب كانت تمرر سبابتها من الشبكة لتمسح أنوف الأرناب . وقد أدارت ظهرها لكي لا يروها باكية .

«لتعش الياقة» ربت يارميلا على كتفها مشجعة ، ولو أنها الآن نظرت نحو فلاستا لوجدت كيف اعتلت الحمرة وجهها غضباً

في اليوم الثاني حملت فاليريا الى أسرة فويتيج رسالة :

عزيزتي يارميلا

... الأمر الذي علينا نحن الأمهات ، أن نعلمه لأطفالنا هو ، في الدرجة الأولى حسب اعتقادي ، السعي للموضوعية والعملية في العلاقة مع الأقارب ، والحوار الملموس حول كل الأمور بداية من الأشياء البسيطة الاعتيادية . ولهذا أثارني بشكل مؤلم اليوم ، عقوق ابنتي ذات الأربعة عشر ربيعاً . فهي تسأل عن رأيي ، ولأنها لا تجد منذ الكلمة الأولى الموافقة بحماسة ، تدير ظهرها وتخرج بملاحظة صبيانية قبل أن تعرف دوافعي . وأنت يا عزيزتي ، لم تدركي بالقدر الكافي خجلي بسبب تصرفها وغضبي عليها ، لأنك ودعتنا بكلمات مشجعة (لتعش الياقة) وربما بمحاولة منك لارضاء مزاج الدمية المتكبرة . ولعلك لو كنت أكبر بعشرين عاماً لكنت تقولين : لنستمع ولنفكر بالمبررات وبأسباب الرفض . تأملي الأمر أولاً وبعد ذلك اتخذي القرار . لو كنت قد فكرت بأسباب الحروب والاختفاقات التي تعزى الى الديمقراطية غير الناضجة ، ولو فكرت بالمسؤولية في تربية الأطفال - لأن الأشياء الكبيرة على صعيد الأسرة أو الشعب أو العالم . تنبع جميعها من الأشياء الصغيرة في غرف الأطفال والرحلات المدرسية - لكنت عندها قد استطعت الى جانب التعبير العاطفي أن تقولي : ولكن إستمعي أولاً الى ما تقوله إمك وما تذكره من مبررات .

(لأنني في الحقيقة لو لم أسأل ، لما كنت قد تدخلت في قضية الصدرية تلك ، رغم أن ذلك غير مألوف بالنسبة للأمومة . ولأن تقنية الخياطة والظروف الفيزيولوجية المرتبطة بهوم الموضة ليس من اختصاصي ، أترك هذه الأمور بمنتهى الرضى لمن هي أقرب لها مني . غير أن هذا لا يعني ، أن كل شيء يعجبني ، وفيما يتعلق بالاختيار الذي أريد لي أن أساهم فيه ، لا تعجبني بصورة خاصة : ١ - الأشياء غير العملية من ناحية أصول النظافة والوقاية . ٢ - قص التماش بأسلوب ، يجعل من غير الممكن تعديله وإصلاحه فيما بعد...)

ففي الحالة المؤقتة للمجال الضيق في اختيار القماش لمختلف الأغراض يخيل لي أنه من الجيد أن يتعلم الطفل في الوقت نفسه التحليل عند الاختيار - لكي تعزف عند السؤال لماذا هذا الاختيار ، أكثر ما يمكن من الأغاني وليس هذه الأغنية الشبابية الوحيدة التي تقول : هذه الصورة تعجبني sic volo, sic iubeo, sit pro ratione voluntas ... ، في هذه الحالة تركت الاختيار لمشاركته اللطيفة ، والتي أقدرها تقديراً عالياً والتي أشعر بالامتنان لك باخلاص من أجلها ، فقط أرجوك ، أن تساهمي في تعليم دراهوميلا ما لا تستطيع تعلمه والتحكم به وحدها : علميها أن تمارس خلال الاختيار التحليل بحكمة . علميها أنه من غير الممكن في الموضة الاختيار وفق الصورة التي تبدو مؤثرة إيجابياً بالاقتران مع النموذج الذي اختير لها ، بل إنه من الضروري التفكير بالظروف الذاتية قبل كل شيء . ففي الحالة الراهنة : هل أريد صدرية أستخدامها من شهر أيلول حتى شهر نيسان أو بالأحرى مع هذه التنورة البيضاء من شهر أيار حتى أيلول ، وإذا أريد لها أن تستخدم خلال الحركة اليومية الاعتيادية في الفترة الأكثر دفئاً بين فصول السنة ، ملاحظة تصفيف الجدائل الطويلة والكبيرة الحجم ، التي تغطي القسم العلوي من الثوب وعند تصبب العرق تتسخ بسرعة الثياب عند الرقبة أم أننا نريد استخدامها لفترة محدودة ، هي الفترة التي يمكن أن نستخدمها فيها للوقاية من البرد ؟

ما زال هناك الكثير من الأسئلة - ويتوقف الأمر عليك ، وهل سيكون لديك الصبر لاطلاع الطفلة عليها... أمل أن تدركي وتستجيبين لرجائي ، لأنك ، أنت أيضاً ، لا تتمسكين باصرار باختيار شيء واحد عابر ، وإنما تريدين أن تتركين لها بمساهمتك هبة دائمة ، هي القدرة على التفكير المستقل وإتخاذ القرار...» .

تركت يارميلا الرسالة تسقط من بين يديها الى حضنها . شعرت بالحجل : في هذه الرسالة الكثير من الحجج الرشيدة ، ولعلها قد خيبت ظن فلاستا لأنها لم تتوصل اليها بنفسها . وشعرت في الوقت نفسه بنوع من الالهانة : فما من أحد يرغب في أن يوجه له اللوم والحساب . وقد أدهشها أيضاً أن فلاستا بالذات تفكر في مسائل الملابس واختيارها بهذه الصورة المدروسة بحكمة . أما الربط بين أسباب الحروب والديمقراطية غير الكاملة والياقة المدورة للبلوزة - عفوا للصدرية - فقد بدا لها أمراً مبالغاً فيه . حقا كانت فلاستا مصيبة ، فان الصدرية المفتوحة ستكون أكثر عملياً بل وربما الأفضل الصدرية بلا ياقة... لا بد أن تعتذر لها ، سأذهب اليها بعد الظهر في الحال وأعتذر .

غير أنها أحست ، بأنه لم تعد لديها أية رغبة في خياطة تلك الصدرية مع دراهوميلا ،

وأنها تشعر بالأسف لتلك الفتاة بالذات . فقد كانت تتطلع لذلك بسرور... كان يمكن أن تكون سعيدة . هكذا سوف تكون لها بهذه الطريقة صدرية عملية

٩

٢٨ آذار ١٩٤٥

... ذهبت الى أسرة الحداد والفأس معي ليثخذوا سنانها . في المجاز لمحت زدينكا كوفاروفا وكان شخص آخر يقف هناك ، وبسبب العجالة لم الحظ من هو . دخلت ورشة العمل لقضاء الأمر الذي جنت من أجله . وعندما التفت ، دهشت لما رأيت ، فقد وقف هنا ذلك الشخص الذي لم الاحظه والذي كان يقف قبل قليل في المجاز . كان أحد الشباب الكبار من برنارتيتسه اسمه اولدريخ . وعندما ركزت انتباهي ، أردت إنهاء مهمتي على عجل والتواري عن الأنظار أسرع ما يمكن . ولكن الحظ لم يكن حليفي ، فلم أكد أتجه نحو الباب وأخرج ، حتى سمعت « مساء الخير يا آنسة » وكأنني صعقت (فإنني لم أحيي الشاب مطلقاً) حسناً لقد أجبته على التحية «مساء الخير» وأردت أن أواصل السير . لكنه قال ، إنه قد تعرف في براغ على ابن عم لي... لم أستطع تذكره بسرعة . وإنه شاب جميل ولطيف وما الى ذلك...

ومن ثم فكرت في سري ، يا للشيطان ، أية مصيبة هذه . لماذا يحدثني بكل هذا الكلام . يعرفه ، طيب ماذا يعني ذلك . واحد من أبناء العمومة ، أكاد لا أعرفه جيداً ، لأنني رأيته مرة واحدة ، عندما كان هنا وأذكر أنه أعجب جداً بالكيكة التي قمنا باعدادها ايام الحرب .

لكنه بعد قليل توقف عن الحديث عن ابن العم وقال... « سمعت يا آنسة أنك تجيدين الانجليزية ، فهل هذا صحيح ؟ » شعرت بالهزة في داخلي كما تهتز الساعة القديمة ذات الرقاص ، يا إلهي ، لا ينقصني غير هذا ، إنه سيبدأ اختباري الآن ، يا للدهاية .

... اعتلت الحمرة وجهي ، رغم أنني لم أشعر بأية حرارة (كان الجو ممطراً) ، بدأت أتصبب عرقاً لدرجة فظيعة . أردت أن أتخلص بشكل ما من هذه الورطة ، لأجل أن لا أرتكب أمراً أخجل منه فيما بعد ، ولكن ما الذي حدث... بدأ هو يكلمني بالانجليزية ، وأنا شنت أم أبيت بدأت كذلك . هنا سألني من الذي كان معلمي الانجليزية ، وعندما قلت أمي وأبي دهش لذلك كثيراً ... بعد ذلك سألني أية لغات أخرى أعرف . وخلال ذلك الحديث الذي جرى

بالانجليزية كان يكرر «إنني لسعيد» ولا أدري ماذا قال بعد ، ثم قال لي إنني أول فتاة
التقى بها هنا في برنارتيته تتكلم الانجليزية . بعد ذلك مرت أخته الأكبر وكانت تحمل
بيدها حقيبة ما وهكذا ودعني أولدريخ باحترام وذهب لملاقة اخته ومساعدتها
خلال الاسبوع التقيت به عدة مرات . غير أنني أشعر بالغضب . فإن جميع الأولاد حتى
الأكبر عمراً يحيونني بالقول «مرحبا» إلا هو ، كان يرفع قبعته ويقول «نهارك سعيد»
وبالطبع كنت في كل مرة أصطبغ حمرة مثل سرطان البحر

نيسان ١٩٤٥

مرة أخرى لم أعد أكتب ، لا تستغرب يا دفتر يومياتي . إذ تجري أشياء فظيعة في كل
يوم تمر من الشرق الى الغرب في وتيرة غريبة الحفلات والدبابات والمدافع وما أشبه ، وقد تم
تنظيف القاعة الصغيرة في ملعب سوكول الرياضي للجنود في حين أن ساحة الملعب وميدان
التمارين قد امتلأت بالسيارات والدراجات النارية ، وحول الكنيسة سيارات كثيرة وكذلك
في السوق ، وتملأ السيارات الشوارع والأزقة وحول دارنا وفي الأرجاء المحيطة بملعب
سوكلوفنا تقف سيارات كثيرة . وامتلأت المدرسة بالسيارات ، وتمت السيطرة على بضع
حانات . وقد أسكن الجنود في البيوت الشخصية . عندنا ايضا أنزلوا ضابطا واحدا . إنه لأمر
غريب أن لا يكون لدى الألمان غير الضابط .

الآن سيجري التعليم في إحدى حانات البيرة وفي مصلى هوس . كنا تتناوب . قبل بضعة
أيام سيطروا على تلك الحانة أيضا ، وفي كل يوم يثير قلقنا الطيارون الذين يحلقون في العمق
وبصورة منخفضة... يوم الأول ٤/٢٦ جرى قصف مدينة بلزن . أصابها القصف بشدة... الكثير
من الموتى... في حي تشرفني ، دمرت سيارة شخصية وقطار عسكري . قتل ٢٥ تشيكياً
ولكن ما قيمة كل هذا مقارنة بالأمر التي يمكن أن تحدث لاحقاً

١٠

في المدرسة يجري التعلم بصورة غير منتظمة وفي الأغلب يقتصر الأمر على تلقي
الواجبات المنزلية . لهذا قررت فلاستا أن تدرس دراهوميلا بنفسها . ولسوف تدرس معها
جميع المواضيع وفق الكتب المدرسية باستثناء الألمانية التي لا تعترف بها وباستثناء التشيكية
التي تدرسها دراهوميلا في حصص خاصة لدى المعلم هوديك .

رادبور ايضاً في البيت . إنهم لم يرسلوه ثانية الى هراديتس بعد أعياد الفصح ، لأنهم

شعروا بالخوف عليه ، فإن الغارات الجوية التي تجري في العمق والتي تستهدف القطارات والمدن الكبيرة مثل هرادتيس كثيرة لدرجة أنه قد يتعرض الى الخطر في الجبهة أكبر من الخطر الذي يتعرض اليه هنا في الريف .

لاحظت فلاستا كيف أن ابنها يعتني بالحديقة وشعرت بالفرح . سيكون اختصاصياً جيداً كانت دائماً تتمسك بمبدأ أن على الانسان أن يشتغل في أية مهنة كانت ، المهم أن ينجز عمله بشكل جيد . عاشت الآن إحساساً خاصاً لم تعرفه لحد الآن : الفرح لمعارف ابنها ولمهارته .

نهاية الحرب قريبة . في السادس والعشرين من شهر نيسان حرر الجيش الأحمر مدينة برنو . برنو ، يبدو الأمر وكأنهم وصلوا الى هنا

جيورجي يقضي الايام بكاملها جالساً الى جانب المذياع ، حتى أنه لا يريد الذهاب لتناول الطعام ، ولعل له ما يبرر ذلك ، فقد عادت معدته الى ازعاجه . وحددت له فلاستا نظاماً خاصاً للتغذية ، الشاي والبسكويت وأشياء مماثلة . فاليريا تحمل له هذا الطعام غير المغري مباشرة الى جانب المذياع ، وهو منهمك باصطياد المحطات الاذاعية الأمر الذي يشغله عن ملاحظة ما يأكل في الأقل .

يقال إن هناك أنصاراً في الغابات بين ميلوفسكا وبرناريتسه . وقد روت يارميلا فويتسخوفا قائلة إنهم قبل فترة من الزمن ، وعند عودتهم من النزهة المسائية مع أسرة هوديك ، شاهدوا صاروخاً أحمر ينطلق من الغابة ، إخترق الافق محدثاً دويماً ، وبعد قليل ظهر فوق الغابة من الجهة الأخرى للطريق صاروخ أبيض . بعد ذلك سادت العتمة كل شيء ، ولكنهم أدركوا أن الانصار يتفاهمون بالاشارات . ثم عادوا الى بيوتهم وقد أضاء الأمل نفوسهم .

يوم الاثنين ، قبل الأول من أيار بيوم واحد ، حمل أحدهم خبراً من براغ يقول إن العملة الألمانية لم تعد تستخدم للدفع في براغ . ومن يمتلكها يحاول التخلص منها بأسرع ما يمكن ولا يقبلونها إلا في البريد وفي البنك ولذا تقف هناك طوابير طويلة . وكما يقال ينادي الجابي في الترام : نحن لانقبل غيرالعملة التشيكية . ويقوم الناس برمي القطع النقدية الألمانية الصغيرة على الأرصفة أو أنهم يرمونها مباشرة في قنوات المجاري .

أذاعت المحطات الأجنبية أن النازيين يقتلون السجناء في معسكرات الاعتقال أو

يجبرونهم على الذهاب مشياً على الأقدام من معسكر اعتقال الى آخر حفاة وجياعاً ومرضى - من الذي يستطيع البقاء حياً بعد مثل هذه المسيرات ؟ لا تقل هذا أمام يارميلا ، توصلت فلستا الى جورجى ، غير أن يارميلا عرفت ذلك من مصدر آخر وجاءت باكية .

في الثاني من أيار أعلنت إذاعة الانتداب بحزن ومع الحان التشييع الملائمة موت أدولف هتلر . وفي اليوم نفسه حررت القوات السوفييتية برلين .

جيورجى وهوديك تعانقا : ها هو الانتصار هنا « يا فرانتا ينبغي أن نشرب نجبا ، رغم أنني أشكو من قرحة المعدة وقد منعتني زوجتي من تناول الكحول ، إلا أننا ينبغي أن نشرب نخب هذه المناسبة » . دعا جيورجى هوديك واصطاد قنينة الكونياك من مخبئها

« تعتقد أنني لم أكن أعلم بوجودها » . ضحكت فلستا « في الورشة في الأسفل ، ووراء صفائح الطلاء لديك قنينة أخرى »

« تخلّ عن الأمل ، في أنك تستطيع إخفاء شيء عن زوجتك » لوح جيورجى بيده « القنينة الثانية نفتحها ، بعد أن ينتهي كل شيء تماماً . سوف نشربها في تشيكوسلوفاكيا يا فرانتيشيك » .

« أعتقد أننا سنكون هناك في وقت مبكر » وافق المعلم ومد الكأس الصغيرة ليصب له

ثانية .

الثامن من أيار
قبل غروب الشمس

في يوم الخميس ذلك حمل احدهم عند المساء خبرا مفاده ، أن الامريكيين حرروا مدينة بيسك . بعد ذلك قيل من جديد لا كان ذلك مجرد اشاعة : أعلنوا الآن بالذات من لندن أن الدبابات الامريكية دخلت للتو شومافا ، ولكن العلم السوفيتي يرفرف فوق رايشستاغ برلين . أكدت هذا الخبر موسكو ولندن . هذا هو الامر المهم ، البقية مجرد قضية ايام معدودة .

في كل دار يستمع الناس الآن إلى الاذاعات الخارجية تحت انوف الضباط والمهاجرين الالمان مباشرة ، لم يعد ذلك في الليل ، همسا ، حيث توضع الاذن على المذياع . انه يجري في عز الظهيرة وبصوت مرتفع . مازالت معلقة عند مفتاح الراديو لوحة الغطاء التي كتب عليها : تذكر... تذكر... الاستماع الى الاذاعات الاجنبية عقوبته الموت . لم يكثر لها احد

غير انهم في يوم السبت ٥ ايار قاموا على عجل بتحويل مؤشر المذياع من الموجة القصيرة الى الموجة المتوسطة الى محطة براغ . من لم يسمع الخبر بعد ، طرق الباب عليه جاره " إفتح الاذاعة التشيكية ، فقد انفجرت الثورة في براغ "

في وقت متأخر بعد الظهر عقدت اللجنة الوطنية اجتماعا لها في بلدية برناريتسه . لأول مرة في مبنى البلدية ، ولأول مرة علنا . ومما اثار دهشة الجميع التقاء لجنتين وطنيتين . عملتا بصورة متوازية دون ان تعرف الواحدة منهما بالآخرى . فبعد التجارب الدامية لعام

١٩٤٢ تعلم الناس الصمت كان رئيس احدى اللجنتين الوطنيتين ، العمدة الراهن بارتونيك ، وترأس الثانية هوديك . وكانت الدكتورة دي لوتي ايضا عضوا في لجنة هوديك الوطنية

٢

ارتجفت يداها وهي تشد عددا لا يحصى من الدبابيس والازرار الصغيرة كانت تشعر أن اللحظة التي اشترت من اجلها هذا الزي الشعبي قد حلت الان بالذات . حقا كانت ترتدي هذا الزي الشعبي في المنزل ايام الاعياد وفي ايام الاحاد أحيانا ولكنها كانت تفعل ذلك تعبيرا عن المقاومة ، اما الان فهي ترتديه للمرة الاولى تعبيرا عن الفرح ، وللترحيب بما هو قادم .

إنها سعيدة سعادة لم تشعر بها إلا نادرا في حياتها . لعلها شعرت بمثل هذا عندما مرت بسيارة الفورد المتربة المكتظة بالركاب ، فوق الجسر العائم في بغداد . حينذاك راودها الشعور نفسه : اصبح الهدف قريبا

الان سوف نعيش الحياة حقا ، فكرت في سرها . سوف تذهب دراهوميليا في ايلول الى المدرسة الثانوية في بيسك . ستكون لنا تلميذة في المدرسة الثانوية . وفي العام القادم سوف نرسلها لقضاء الاجازة بكاملها لدى اسرة كالديني في ايطاليا

عقدت الشال والقت نظرة خاطفة على المرأة وخرجت . نظر اليها رجال الاس . اس - الغستابو ، من قسم النقل بالسيارات غاضبين ، فلم يكن بوسعهم أكثر من ذلك ، حتى من ناحية الوقت ، اذ كانوا يصلحون المحركات على عجل ، بعد ان تعطل البعض منها وعطلت البعض الاخر المدافع الرشاشة اثناء غارات الطائرات المنخفضة . اجتازت فلاستا بحزم المفاتيح المبعثرة متجهة نحو مبنى البلدية . وقد ادركت في سرها : لم أعد اتذكر متى خطوت هكذا لآخر مرة .

في الاجتماع شكلوا من اللجنتين لجنة وطنية واحدة وانتخبوا لرئاستها هوديك . قالت فلاستا في سرها ، لعلنا لا نستطيع تمني انسان افضل منه لهذه المهمة : فهو شريف ومثقف وشجاع ويتمتع بالهبة لدى الجميع .

عندما عادت مع عتمة المساء الى الدار كان رجال الاس . اس . يواصلون العمل لاصلاح السيارات . كانوا يصطادون قطع الغيار باللمس ، فهم يخافون اشعال النور

وكانوا يتفاهمون بأوامر قصيرة مقتضبة . انهم عصبيون ويشعرون بالخوف . احست فلاستا بذلك . هذا اليوم كانت قوافل السيارات العسكرية تمر عبر برنارتيته . جميعها اتجهت نحو الغرب وكانوا هم يتابعونها بانظارهم فقط . ويقومون باصلاح السيارات . انهم الآن يديرون ايضا محركا لشاحنة وقد بدأ الجنود التسلق الى صندوقها كم عدد الذين سيحشرون فيه ؟ قام الذين نفذ صبرهم بنزع خيمة صندوق الشاحنة وتسلقوا من الجانبين

هزت فلاستا رأسها كأن الامر سوف يختلف فيما إذا وقعوا في الاسر هنا ام بعد ثلاثين كيلو مترا من هنا . انها مازالت لاتدرك أن هذا الفرق يهمهم حقا في البيت كانوا جميعا في المطبخ وسط دوامة العمل . يخيطون الاعلام . قالت فاليريا مفكرة " لأجل خياطة العلم السوفيتي ، لابد من صبغ غطاء الفراش . فليس لدينا قطعة قماش حمراء كبيرة " ذهبت الى خزانة الاغطية للبحث عن غطاء غير مرتوق . للاسف ان قطعة القماش هذه مرقطة وإلا فان لونها مناسب ، قالت بأسف عندما وقعت بين يديها قطعة القماش الحريري لصدرية دراهوميللا

٣

توقفت دراهوميللا بعد الظهر عند اسرة توميك ، وهناك سمعت عن انتفاضة براغ . روى لها ميلان كل شيء ، وكرر لها بالدقة الممكنة البيانات المختلفة التي اذاعتها محطة الاذاعة " انها على الموجة ٤١٥ ، احذري من الاستماع لمحطة ميلنيك ، فانها مازالت تحت سيطرة الالمان "

"لاتخف ، فإنني لن اخطئ" طمأنته وركضت نحو دارها

في البيت كانوا قد علموا . وارسلوا في طلب الأم من دار البلدية ، وقد ارتدت بزهو الزبي الشعبي ، وعاد الاب للتو من عند هوديك . فتحوا المذياع ، وهرعت هي لتأخذ دفتر اليوميات وتسجل بعض ما سوف يذاع ، في الاقل باقتضاب ، بضع كلمات . وبعد الحرب ستكمل ذلك .

٥/٥ ، الساعة السادسة إلا خمس دقائق (مساءً) يعلن أن الجيش الالمانى ، استسلم في اغلبية المواقع في براغ ،السادسة وخمس دقائق

ياعمال السكك الحديدية... احضروا في الحال... اللجنة الوطنية بحاجة الى مساعدتكم...

... خلال ذلك ذهبت مرة ثانية لزيارة اسرة توميك كان مزاج الفرح هو الساند هناك .
ميلان يحمل شريط الالوان الثلاثة (الوان العلم التشيكي) وكنت انا احملها ايضا . وهناك
قالوا لي ما يلي

الوحدات العسكرية (الالمانية طبعا) في ميليفسكا وفي اوباراني استسلمت .

حسنا

الساعة السابعة

بعد قليل سوف تذاق كلمة اللجنة الوطنية ، انني ذاهبة للاستماع

في مكبرات الصوت المبجوحة تحطم الصوت ، وانتشر في المجال . اضطروا الى الخروج
امام الدار ليسمعوا شيئا في الاقل . صوت هوديك قد تغير بحيث ليس في الامكان معرفته ،
بسبب هذه المكبرات وبسبب التأثير

جيورجي صنع من الورق المقوى نجمة خماسية وتلقى رادبور واجبا هو ان يقص تلك
النجمة لثمان واربعين مرة من القماش الابيض ومرة من القماش الاصفر . من اجل النجمة
الصفراء ضحت فاليريا بصدريتها وبقي من الصدرية ما كان كافيا للمطرقة والمنجل . الرسام
الرئيس جيورجي جلس ساجدا في المطبخ على الارضية وقد ارتدى بدلة قديمة سوداء ، اعتاد
إرتدائها خلال العمل في الورشة . كان يقيس بعناية مستخدما الفرجار والمثلث ويغضب حين
تمر فاليريا وتدوس على الاوراق .

٤

يوم الاحد غادرت برناريتسه ، وحدة الاس . اس وتنفست المدينة الصغيرة
الصعداء ، وشعرت كأنها تتحرر من قماط مشدود . وقد تحسن الجو أيضا - توقف المطر
وكانت الشمس تظهر بعض اللحظات - . ثلاثة اولاد سافروا لنجدة براغ ، لم يكن
لديهم سلاح ، لكنهم سيحصلون عليه هناك بالتأكيد . ببساطة امتطوا الدراجة النارية .
اثنان على السرج والثالث في الحافلة الصغيرة ومضوا . لم يكن احد هنا ليتوقع ، انهم لم
يصلوا : فقد القى الالمان القبض عليهم واعدموهم رميا بالرصاص في الغابات قرب
دوبريش

يوم الاثنين جاء خبر يقول ، إن قوات الجنود الامريكيين ستمر بعد الظهر عبر برنارتيتسه . هذه المرة بالتأكيد ، لأنهم في هذه اللحظة في مدينة بيسك حقا . انهم يوزعون الشكولاتة على الاطفال ويحملون قتيات بيسك على ظهور السيارات المصفحة حول ميدان المدينة .

أقام اهل برنارتيتسه قوس النصر على الطريق القادم من بيسك وكتبوا فوقه عبارة الترحيب بالانجليزية . وقد ساهم جيورجي مستعينا بالفرجال والمثلث في كتابة الحروف وحرص على ان لا يتضمن النص اي خطأ . وارتدى المحاربون القدمات واعضاء منظمة سو كول - الرياضية ورجال الاطفاء الازياء الرسمية ، وكان هناك عدد كبير من الفتيات بالازياء الشعبية . بعضهن إرتدى ازياء غير محددة ورمزية ، تنورة حمراء وبلوزة بيضاء وصدريه من المخمل الاسود . دراهوميلا ارتدت الزي الشعبي التشيتشمانني كانوا قد اشتروه في عام الف وتسعمائة وثمانية وثلاثين ، عندما قاموا بجولة في سلوفاكيا ايام العطلة المدرسية . حينذاك كانت في السابعة من العمر وهي الآن في الرابعة عشرة . اضطرت فاليريا إلى توسيع الصدريه وارخاء تكة التنورة المطاطية عند الحزام ، ومن حسن الحظ ان المنزر يغطي هذا الجزء غير المشدود . ورغم هذا فانه مناسب ولائق لها جدا ، وقد عبر بائع الكيمياويات بيندا الذي قام بالتصوير بعد الظهر ، عن أسفه اذ فاته تصوير دراهوميلا حين مرت حوله وانه لم يرها ثانية إلا في المساء ، حين لم يكن النور كافيا للتصوير .

بدأ الظلام يحل والفتيات يشعرن بالبرد في الازياء الشعبية ، غير انه ما من أحد يريد الذهاب ، خشية ضياع فرصة مشاهدة وصول هؤلاء الامريكيين . من المؤكد انهم سوف يصلون قريبا . فليس من الممكن ان يبقوا في بيسك الى الابد . وبفضل ذهاب احدهم في كل لحظة راکضا للعودة بالمعطف او لجلب قليل من الطعام او لسماع المذياع ، تحرك الحشد من قوس النصر الى الميدان . وهناك وجدهم ايضا القادم على الدراجة النارية .

لم يكن من ابناء المنطقة ، ولم يعرفوه ، ولكنه ما كاد يقف حتى احتشدوا حوله ، واثقين من أنه سيقول لهم كلمة واحدة : إنهم قادمون .

قال لهم إن دبابة المانية ، متجهة الى المدينة الصغيرة حطمت قبل لحظات قوس النصر وعليهم ان يتفرقوا في الحال وان يختفوا ، فمن يدري لعلها ليست الدبابة الوحيدة .

كانت دبابة وحيدة ، مرت عبر المدينة الصغيرة وعند المقبرة استدارت نحو بيخيئا

حل الليل ، لكن لم تغمض عين لاحد منهم ، انتظروا ، وأصاخوا السمع في الظلام ،
وكان من الممكن عدم سماع تقدم قوات التحرير ، اذا ما كانوا اقل انتباها وترقبا . سمحوا
للأطفال في ان لا يناموا الى وقت متأخر لكي لاتفوتهم تلك اللحظة

٥

قبل ان يغادر الذين دفعهم حب الاستطلاع الى السفر الى بيسك ويعودون بالخبر الذي
يقول ان نهر فلتافا هو الخط المتفق عليه وان الامريكيين لن يجتازوه ، قامت دراهوميلا
وفاليريا بقطف زهور الارجوان وزهور الربيع وزهور كاسر الحجر من الحديقة لتحضير باقة
زهور ترحيبا بالمحررين . فلم يكن هناك ما ينبغي عمله ، بعد ان قاموا بخياطة الاعلام يوم
امس بل ولقد علقوها ايضا ، وليس بمقدور الانسان ان يتحمل الانتظار المتوتر بنفاد صبر
دون ان يعمل شيئا . كانتا تقطفان الزهور وتشعران بأنهما تقومان بعمل ما من اجل القضية
المشتركة .

بعد ذلك عرفوا ان الامريكيين لن يجينوا ، إذ تقع برنارتيتسه الى الشرق من نهر فلتافا
وسوف يحررها الجيش الاحمر . متى سيكون ذلك ؟ بعد غد في الاقل . بعد غد او بعد ذلك
بيوم آخر . فما زالت المسافة بعيدة بالنسبة للروس

بعد غد ؟ وماذا عن الزهور ؟ إنها سوف تذبل حتى ذلك الحين . لماذا تذبل ، نضعها
في الماء . قررت فاليريا . في الماء وفي الظل . قاموا بوضعها بعناية في المغسلة المعدنية . ثم
بحشوا عن ظل مناسب عثروا عليه عند الباب الكبير ، في الزاوية جنب جدار الدار

عند الظهر وصلت الى برنارتيتسه ثلاث سيارات عسكرية . إنها سيارات المانية ، غير
ان علما تشيكوسلوفاكيا يرفرف في مقدمة السيارة الاولى ، التي قفز منها رجال يرتدون
بدلات ضباط الجيش التشيكوسلوفاكيا . في ميدان المدينة منذ الصباح عدد كبير من الناس
وقد ركن القادمون عبر الحقول دراجاتهم الهوائية حول النافورة بعدة طبقات ، الان احتشد
الجميع حول الضباط ، مرددين : يعيش...يعيش . الجنود يريدون قول امر ما غير ان كلامهم
لا يفهم .

الرسالة التي نقلوها لم تحمل السرور . إذ قالوا ان القوات الالمانية تتراجع من براغ على
الطريق التي تمر عبر برنارتيتسه . عدد كبير من العسكريين من جميع الاراضي التشيكية

ومورافيا . فالشروط التي تم تحديدها خلال المباحثات مع المجلس الوطني التشيكي تنص على ان يسمح لهم بأن يخرجوا بحرية نحو الغرب . حيث سوف يستسلمون للأمريكيين الضباط يتفقون باقتضاب على الاجراءات الضرورية . كم هو عدد الرجال القادرين على القتال هنا ؟ كم منهم يعرف استخدام البندقية ؟ نصفهم . غير ان السلاح هنا قليل . بضع بنادق صيد أخفيت حتى الامس وراء عوارض الحضيرة ، ومسدس واحد وسيارة مصفحة واحدة ، حطام تركته هنا قوات الغستابو . ولقد تم اصلاحها البنادق مع الذخيرة سيحصلون عليها من بودولي ولكن عليهم الذهاب من اجلها . هل يستطيعون تنظيم تقديم الاسعافات الاولية ؟ نعم لدينا طبيبان ومساعدة توليد وممرضتان للصليب الاحمر ، وهنا ايضا السيد بندا ، هو ايضا شبه طبيب . المواد الطبية ؟ سنجد شيئا منها عند اطباء ، وفي حانوت السيد بندا للكيمياويات .

لم ينتهوا من المباحثات بعد ، عندما اعلنت الدورية ، وصول رتل الماني ، وكأنه جاء وفق الطلب . فقد اتاحت الفرصة للضباط لتقديم مثال على اعلان حالة الانذار ، واتخاذ ما يلزم في المكان

أوقفت الدورية اول سيارة المانية . الضباط يتقدمون وبأيديهم مسدسات عسكرية أمريكية . مباحثات قصيرة . يوافق بعدها النازيون على تسليم اسلحتهم . كل شئ جرى بشكل طبيعي وسهل لدرجة مدهشة ، لماذا لم نجرؤ على ذلك من قبل ، لماذا سمحنا لهم بالمرور بصورة هادئة ؟ في الاقل ، كم من الاسلحة كان بالمستطاع توفيرها . الاسلحة التي تمت السيطرة عليها تنقل الى دار البلدية ، وتتم السيطرة على البنزين الزائد ، سيكون مفيدا ، اذ استهلكت الاحتياطي الذي كان عند الكيمياوي الدراجات النارية لجنود الارتباط (المراسلين بين النقط العسكرية والقيادة) . بمقدور الجنود المجردين من السلاح مواصلة طريقهم . أسر الضباط طواقم بعض السيارات التي رفضت تسليم الاسلحة ، وأخذهم شباب برنارتيته لحجزهم في الحانة فوق المرتفع .

فلاستا تشعر بالارتياح ، لأن شيئا ما يحدث . لأنهم بدأوا تحقيق امر ما . اذ لم يكن من الممكن الجلوس هكذا والانتظار الى أن يقوم احد بتحريرهم وان يشعروا بالارتياح لأنهم ارسلوا ثلاثة رجال لنجدة براغ . جاءت مكالمة تلفونية من بيخينا . يدور القتال هناك ويطلبون النجدة . سيطر أهل برنارتيته على اربع سيارات المانية وارسلوها مع فريق من المسلحين الى بيخينا

تأملوا ، ما معنى ان يتخلص الناس من الخوف . ليس عبثا ان يقال عن الشجاع انه "لا يخشى الخطر . فمن يتمتع بالجراة لا يتعرض للخطر . فكرت فلانستنا بتأمل
غادر الرتل الذي تم تجريده من السلاح وساد الهدوء ، بل والصمت تقريبا وهنا حلقت
طائرة قادمة من الشمال الشرقي . لم تكن تلك الطائرة الانجليزية التي حلقت يومي السبت
والاحد ، عرفت ذلك من مجرد صوتها خلال تحليقها على ارتفاع منخفض . انها تحلق فوق
السطوح مباشرة ، وما ان مرت حتى ظهرت اخرى .

صرخ السيد بندا " اهربوا فلسوف يفتحون النار وصرخ جيورجي الذي كان
يساعد في نقل البنزين نحو فلانستا " اذهبي الى الداخل " وكرر ذلك مرة اخرى
بالايطالية . لم يخاطبها بهذه اللهجة مطلقا حتى الآن انها لهجة الامر الذي لا يقبل
الاعتراض . وربما لذلك انصاعت له . نظرت من شق الباب وشاهدت كيف ان الطائرة
الاولى تعود ، وتحلق وتميل على جناحها وعندها سمع النباح السريع الجاف للمدفع
الرشاش خلا الميدان في اللحظة من الناس حتى جيورجي والسيد بندا هرعوا في وقت
مبكر الى مبنى البلدية . جيورجي يمسخ يديه المبتلتين بالبنزين بمنديله . بندا يناوله
خرقة من القماش ، ولعله شاهد نظرة فلانستا غير الواعية التي عبرت عن عدم الرضى
فلم تكن تحمل حين يمسخ أحدهم يديه المتسختين بالمنديل . كم غضبت لهذا السبب
على رادبور . الامر الان بالنسبة لها سيان ، غير ان العينين كما يبدو قد استقلتا وراحتا
توجهان نظرة اللوم بفعل العادة السيد بندا لاحظ ذلك اما جيورجي فلحسن الحظ لم
يلاحظه . انها تنظر الى زوجها وقد هزل وبرزت عظام وجهه واعتلته صفرة . لقد عاش
بضعة ايام وفق نظام قاس للتغذية (الحمية) الامر الذي يسحقه هكذا في كل مرة ،
ولكن ما الذي يمكن عمله ، فانه سيكون في حالة اسوأ بدون نظام التغذية . والان كم
نام خلال الايام الثلاثة الاخيرة ؟ ربما كان ذلك ست او سبع ساعات اجمالا . الدوائر
تحت عينيه سود تماما كانت له دوائر غامقة تحت العينين دائما ، حتى ساورتها
الشكوك في انه يلونها ، ليزيد جمال عينية

صمت المدفع الرشاش ، ومرت الطائرة ذاهبة ، قبل ان تعود نستطيع الركض نحو
الدار . وافق جيورجي على ذلك .

اتجهت فلانستا بحكم العادة ماشية في الجانب الايسر من الطريق ، غير ان زوجها امسك
بها من ساعدها وقادها نحو السياج المقابل ، فقد كان من الحكمة عبور الطريق الان ،
مادامت الطائرات بعيدة ، وما دام الطريق خاليا من اي رتل . فيه شيء من العسكري . قالت

في سرها ، انه لم يخدم مطلقا على قدر ما اعرف في الجيش ، ورغم ذلك فيه شيء ، من العسكري . قالت ذلك باعجاب كما كانت حينذاك في بغداد ، عندما احبته : جيورجي يجيد كل شيء ، اضطرت الى الابتسام . كم مرت من السنين دون أن يخطر هذا في ذاكرتها . صوت الطائرة مازال بعيدا عن السماع . لو انها عادت قبل ان نصل دارنا سنخفي عند احد ما . اليوم لم تعد هذه مشكلة . فإن اهل برنارتيتسه اليوم اسرة واحدة تناسوا لبضعة ايام الخلافات والصراعات كما كانت الحال في عام الف وتسعمائة واثنين واربعين . وسوف ترون عندما ننسى ، سيعود كل منا ثانية الى التحصن وراء سبعة اقفال . اي نوع من البشر نحن ، نستطيع الوقوف الى جانب بعضنا في حالة تعرضنا للشرور فقط . جيورجي يسرع الخطو ويسحبها ، انه لا يكاد يتلقف انفاسه ، ها قد بلغوا البوابة الكبيرة ، انها تفتح لذاتها . نظرت اليهم دراهوميلا (فقد هرعت للتو قادمة من عند اسرة توميك ، غير انها لن تقول لهم هذا ، فان الوالدين سيوجهان لها اللوم ويقولان عليها أن تبقى في الدار حين تجري مثل هذه الاشياء) .

ما ان دخلوا الدار ، حتى سمع من الطريق هدير السيارات . خطر في ذهن فلستا ، لعل جيورجي سمع الهدير عندما كانوا خارج الدار ولهذا اسرع الخطو . اجتاز بوابة الدار شاب يحمل بندقية ، تأمل المكان ، خيل انه يريد ان يركض عبر الحديقة ويواصل الهرب ، ربما نحو المقبرة ، لكنه تراجع عن ذلك فيما بعد ، تسلق فوق قن الارانب ، وتمدد هناك منتظرا ، ليس هذا بالموقع السيئ للرمي . لأن جدار الحديقة اعلى منه ويحميه . هاهي الطائرات تخلق من جديد وتقوم بتمشييط الميدان برصاص مدافعها الرشاشة . الرتل الذي وصل للتو لن يسمح للمدينة على ما يبدو ، بتجريده من السلاح بسهولة وهي التي تملك سيارة مصفحة واحدة . الجنود يقفزون من السيارات ويركضون في الشارع ، صارخين ، انها لعبة قديمة جدا ومجربة ، هذا الصراخ عند الهجوم . فان الافواه الصارخة صمامات ينفذ منها خوف الجنود من الموت . ويراد لهذا الخوف ان ينمو كالجن ليثمل الخصم .

الشاب يطلق النار من سطح قن الارانب . رفع الان رأسه ، لعله اراد التأكد فيما اذا كان قد اصاب احدا . ما كان عليه ان يفعل ذلك . فقد أصابوه . صوب نحوه احد الجنود ، هكذا بلا اكتراث وهو يعدو ولكن بيد قاتل محترف . تدحرج نحو الحوش وقد ارتمت يده العاجزتان حوله ووقع رأسه الذي اخترقته الرصاصة في المغسلة بين زهور الربيع .

شاهدت ذلك دراهوميلا كانت تنظر من الشرفة حيث جلست القرفصاء على الارضية ،

لم تمسح دموعها ، التي كانت تتساقط من عينيها على البلاط مباشرة
وقع الاحذية العسكرية على الاسفلت . الآن توقفت مجموعة من الجنود فجأة : من اين
اطلقت النار ، هنا من هذه الدار ، اصطدم عقب البندقية الرشاشة بالخشب القديم للبوابة
الكبيرة .

" يا إلهي ، ما الذي سيحدث لنا " قالت فاليريا وقد شبكت يديها

اشار جيورجي برأسه عبر الحديقة الى الحقول بسرعة " ، ركضوا عبر الحديقة وقد
احنوا اجسادهم . ليس على مسالك الحديقة وانما بين الاحراش نحو دغل احراش الراتنج
سبقهم رادبور . ها هو ينتزع عارضة من السياج . كان يعود من هنا من رحلاته السرية
الصبيانية . عندما تسللوا من ظل الراتنج وفتحت امامهم السماء الفسيحة فوق مرتفع
القديسين . ادركت فلاستا كم هي جميلة هذا اليوم ، صافية الزرقة تكاد تكون خالية حتى
من أقزاع الغيوم . وقد شعت الشمس خلال النهار بطوله... انها الان منخفضة ولسوف تغيب
بعد لحظات .

ارادوا مواصلة الهرب نحو الحقول ، وربما ايضا الى الغابات ، غير ان الجنود يحتشدون
على مقربة من المقبرة ، والقمح في الحقل مازال قصيرا وقتيا لا يُخفي احدا . اذن الى
اليمين حول الحديقة ؟ غير ان اطلاق النار يسمع من هناك ، ويرى الدخان ايضا ، آه يا
إلهي ، اين وعند من ؟

مدت فاليريا يدها تحت فتحة الرقبة ، وهلعت ، تركت النقود في نافذة المطبخ ، كل ما
ادخرته حتى ذلك الحاتم المطعم بحجر الياقوت وصورة مريم العذراء . قبل ان يستطيعوا
ايقافها ، ركضت نحو الدار ، الشوب الاخضر والابيض يلوح بين الاحراش . لو خطر لها في
الاقل ان تأخذ شيئا ترتديه ، فكرت فلاستا فإنها بعد ان تغرب الشمس سوف تشعر بالبرد
ومن يدري كم سيطول بقاؤنا هنا

ارتفع فوق الحدائق عمود آخر من الدخان . عند المقبرة يجري اطلاق النار ، تعود
فاليريا وقد شدت قبضتها على ثروتها

في الدار تصطق الابواب ، فلاستا تضطجع على الارض ، رفعت رأسها وانصتت . " انه
تيار الهواء " هذاها جيورجي "لعل فاليريا لم تغلق باب المطبخ " وتركنا الراديو مفتوحا "
قالت فاليريا متذكرة بشيء من الشعور بالذنب . فان السيدة الدكتوراة لا ترضى حين يترك

احدهم المصاييح مضاءة والمذياع مفتوحا حين لا يكون احد هناك .
ياربي ، ما الذي يعنيه هذا ، فكرت فلاستا . المنديل المتسخ والراديو المفتوح ، هذه الامور الصغيرة ، هذه الترهات التي لا قيمة لها

تحطم الباب ، اصوات حادة ، جيورجي لماذا تخدعني ، فإن تيار الهواء لا يصرخ والتيار لا يدوس باحذية عسكرية . انهم يركضون الى هنا ، انهم يدوسون الحديقة ، الاطفال ، اين نخفيهم ، اين نخفيكم ، الزرع مازال صغيرا وغير كثيف والارض لاتنشق لتخفينا

"ماما ، انني لا اريد ان أموت همست دراهوميلا ومسحت الدموع بظهر يدها ارادت فلاستا ان تقول لها شيئا غير انها لم تستطع الكلام ولم تكن لتعرف ماذا يمكن أن تقول . واكتفت بأن مررت يدها برفق على معصمها ، حيث خرج ساعد الفتاة من معطف الاطفال . لا بد من حدوث شيء ، لا بد من ان ينقذنا امر ما ، فليس من الممكن ان يكون هذا حقيقة

على مقربة شديدة بدأ الرمي من المدفع الرشاش . وارتفعت من كل مكان حول الحقل نافورات الطين . فلاستا ميزت الكتلة الغامقة للدبابة المستترة في زاوية الغابة في حديقتهم . انهم يوجهون الرمي نحوهم . تلقى الاصابة الاولى رادبور . صرخ شاكيا . ارادت الذهاب لمساعدته ، غير ان ضربة عنيفة اصابتها في الكتف طرحتها ارضا . بعد ذلك شعرت بخدش محرق لاسع في قمة رأسها . إذن هذه هي النهاية . خطر لها ، غير أن الطلقة الثانية لم تصبها ، ولكن اذير المخلب غير المرئي القى بحفنة من الطين على وجهها

بعد ذلك صمت المدفع الرشاش ، وكان رجال الاس . إس قد قفزوا فوق سياج الحديقة ، وعثروا ايضا على عارضة رادبور المنزوعة . كان الصبي يبكي في حين التزمت دراهوميلا الصمت . وجيورجي كان صامتا كذلك وحتى فاليريا . انهم لا يشكون ، إذن فانهم غير جرحى ، فكرت فلاستا في سرها

عندما وقع نظرها على رجال الاس . إس اغمضت عينها . شعرت كيف ان واحدا منهم اقترب نحوها مباشرة ، انه يرقبها . تظاهرت بأنها ميتة . لم يرتجف حتى جفن عينها جيورجي يتحمل ذلك ، ولكن ماذا عن دراهوميلا ، هل تستطيع ذلك ؟

تلقت رفسة من الجانب ، لم تكن قوية ، وكأنه اراد ان يقلب فطيسة برأس حدانه وفي الوقت نفسه وعلى بعد خطوات " ها ، سنيوريتا " لا أكثر من ذلك . مجرد تقرير ساخر يعبر عن الارتياح . ايتها الانسة ، كان ذلك موجها الى دراهوميلا . هذا العسكري من الاس . اس

لابد ان يعرف عنها شيئا . في الاغلب انه يعتقد بأن كلمة سينيوريتا كلمة ايطالية
"Der Jung ist aber zerschossen" " امتدح صوت بارتياح . اطلاق للنار . رادبور توقف
عن البكاء .انتظر يا صغيري ، ما إن يذهبوا حتى اكون عندك . ولسوف اقدم لك الاسعاف في
الحال

سأل بالالمانية ، جندي آخر ، اقل حماسة واكثر تعباً " غير انك لست تشيكيا "
"إنني تشيكي " أجاب جيورجي وكرر مرة أخرى بلغته الالمانية غير الواثق منها "Ja ich
bin ein Tscheche"

جيورجي على قيد الحياة ، احست بالدموع تنهمر تحت جفنيها المتخشبين . غير ان
الجندي اطلق النار بعد ذلك . لهذا إذن سأل . لعله كان سيقدم الاسعاف للايطالي . . فان
الايطاليين ، حلفاء او كانوا في الاقل كذلك . الايطالي يقدم له الاسعاف ، اما التشيكي
فيقضي عليه .

طلقة واحدة من المسدس وبعدها لاشيء . أُغْمِيَّ عليها . اول ما لاحظته عند ما
استيقظت من الاغماء كان الهدوء والوان الشفق . كانت الشمس قد غابت . ارتجفت من
البرد . في رأسها كانت تدوي جملة غريبة : في بداية ايار تتفتح في الحدائق الزهور الحمراء
لشجيرات الرمان . تلك الجملة باستمرار . شجيرات الرمان في بساتين بغداد

مدت يدها لتلمس كتفها اليسرى ، وعندما نظرت الى راحة يدها وجدتتها حمراء . في
بداية ايار تتفتح الزهور الحمراء على شجيرات الرمان . ركعت مستندة على يدها اليمنى التي
تلمس الارض . زحفت على الاربع مثل كلب جريح . زحفت من احدهم نحو الاخر . حاولت
جس النبض ، رفعت الأجنان . كانوا موتى ، كلهم كانوا موتى .

وحيدة

اسوأ شيء هو الصباح . فهي تستيقظ لترى نور الشمس وتسمع اغاني الطيور للحظة
 مازالت تشعر بالارتياح بفضل اللاوعي ، الذي احاطها به النوم . بعد ذلك تفتح الهوة .
 تذكر . وتسقط متراجعة الى الهوة المظلمة التي لاقرار لها
 ماتوا . لم يعودوا عندي . لا أحد . قتلوا كل من يعود لي . جيورجي ، دراهوميلا ،
 رادبو ، وفاليريا . لم يعد لهم وجود . لو جبت العالم كله وفتحت كل الابواب ، لوجدت
 ملايين الناس ، ولكن لن اجدهم . لن اجدهم ابدا
 رغم انهم كانوا أمس وقبل الامس - رادبور كان يغني أفاتي بوبولو . ودراهوميلا
 قالت لي ، ماذا قالت لي ؟ وجيورجي رفض التقيد بنظام التغذية... كانوا معي... كنت
 اتمسهم ، كانوا يتحدثون إلي . وقد خيل لي ان ذلك كان شيئا اعتياديا ، ولكنه في الحقيقة
 كان السعادة .

"كم هو تاريخ اليوم ايتها الممرضة؟"

"الخامس عشر"

ضغطت بقوة على جفنيها . رغم ذلك وجدت الدموع طريقها وانهمرت .

"يا إلهي ، انت تبكين ؟ لعلك لاتبكين لأن تاريخ اليوم هو الخامس عشر؟"

ما الذي تعلمينه ايتها الفتاة . مر اسبوع وسيمر شهر وسوف تمر سنة . انهم يبتعدون

عني . يخرون بعيدا عني ، وكأن عوامة اخذتهم .

انهم مازالوا قريبين مني ، مازلت اميز وجوههم . وفجأة أحست بالفرح . هل سوف
استطيع تذكر كيف كانوا يبدون ، مثلاً بعد سنة ، بعد عشر سنوات ، اذا ما بقيت على قيد
الحياة .

"السيدة الدكتورة لوتيوفا الى الاشعة " جاءت الممرضة مع الكرسي السيار ، عبر
الممرات نحو قاعة الاشعة . أعتقد أن ذلك الرجل الشاب الذي يستند الى عكازين روسي ،
فكرت فلاستا . في روب المستشفى من الصعب معرفة الامر . انني لم اشهد لحد الان جنديا
سوفيتيا ببدلته العسكرية .

الاشعة ، الضمادات . انها اصابة وكسران . لفوا رأسي بعمامة من الضمادات ، رغم
انني مصابة بخدش فقط في سمت الرأس

خلال النهار يستطيع الانسان استرداد ذاته الى حد ما . إنه مضطر للخضوع للفحوص
الطبية والتحدث مع الناس وكتابة رسائل أو التفكير بما ينبغي ترتيبه . وفي الليل يبدأ تأثير
أقراص الدواء فيستسلم الانسان الى نوم كليل بليد خال من الاحلام . لذا فإن أسوأ الاوقات
هي الصباحات .

طوال فترة الاحتلال كانت فلاستا تحسب للموت حسابا . ومنذ ربيع ١٩٤٢ كان الموت
يحدق إليها من نوافذ بيوت برنارتيتسه المهجورة وكأنها محاجر فارغة . أخطأت في أمر
واحد : حسبت الحساب لموتها هي بالذات ، وليس موت جميع من لها والبقاء حية بعدهم .
كانت تقول في سرها : لست الوحيدة ، فكم من الناس فقدوا بعض اقاربهم في هذه
الحرب ، غير انني فقدتهم جميعا .

٢

اول رسالة كتبتها في المستشفى كانت لإمها . وكانت الثانية ليارميلا فويتخوفا .
يارميلا صارت اقرب انسان بالنسبة لفلاستا بعد إمها . في الاقل لأنها كانت مرتبطة
بدارها . فهي حين تستعيد في ذاكرتها الحديقة في برنارتيتسه خلال الايام المشمسة
الدافئة ، ترى اطفالها ويارميلا . وهي الوحيدة التي بقيت لها
يارميلا حنوناً وخدمٌ ، لاتظهر شعورها بالشفقة وانما تظهر المشاركة بالاحساس .

الشفقة كلمات ووجه حزين . اما المشاركة في الاحساس فانها فعل ، ويمكن البوح لمن يشاركك الاحساس بكل شيء ، ومطالبته بأي شيء ،

... ارجوك اذهبي ايضا الى طاولتي الليلية وافتحي درجها السفلي . على حقبة التواليت الجلدية أو خلفها يوجد كيس اخضر من قماش مشمع... ارجوك خذيه واحتفظي به .

قولي للسيد كلاودا ان ارض المنبت مزروعة بثلاثة صفوف بذور الخيار ومازالت هناك كفاية من البذور لزرعها في الخارج . وينبغي ان لا ينسى سقي الفجل حول حقل هرمانيك الصغير ، واعتقد انه سيكون من الممكن قريبا جني الفجل لغرض الاكل . ارجو ان لاتنسى السيدة بيبيتشكا في ان تأخذ كل يوم شيئا طازجا لها - وسيكون هناك الكيوسين ان لم تكن هناك اية سلطة اخرى ، وما لاتأكله يعطى بالدرجة الاولى ، لبنات هوديك .

كانت قد عرفت قبل هذا ان المعلم هوديك قتل على بضع خطوات من تلامذته ، على الطريق تحت مرتفع القديسين ، هناك على الجانب المحاذي للمقبرة .

"... واحد من الذين ارعاهم وهو بولندي يبلغ التاسعة من العمر سيخرج من المستشفى ، ويقال انه لايملك من الملابس غير البنطال ، لهذا أرجوك ، يا يارميلا ، ان تختاري بعض الملابس الداخلية القديمة الصغيرة من درج ملابس رادبور . ربما لن يكون هناك الكثير ، في الاقل لتكن لديه ملابس للتغيير . لاتنسي المناديل ايضا

شكرا لك على رسالتك الجميلة ولانك جهزت بهذا الشكل الجميل روسي فلاديمير . لقد غسلت كل شيء ، بصورة رائعة وقد كان كل ذلك مناسباً له تماما وكأنه قد خيط على مقاسه .

يامسكينتي ، انني اتصورك كيف تنتقلين في الصدى الاخرس للغرف الفارغة وتبحثين نيابة عني . شكرا لك يا عزيزتي ، فأن هذا الهدوء والصمت يربطان بيننا برباط مر وعميق لعله اقوى من رباط السعادة..."

انه لربيع رائع هذا العام ، وكأن السماء قد اغتسلت ، وهي ملأى بالشمس ، وقد تفتحت ازهار الليلك بعناقيد غنية تنشر العطر . يارميلا سعيدة ، كل شيء فيها ينير ويفتح : كارل قد عاد ، حقا انه هزيل الجسم ومريض تماما ولكنه على قيد الحياة . يارميلا سعيدة ، ولكنها حين تقترب من دارها الصامتة هذه تشعر ان سعادتها مثل الخطيئة . في الداخل تتحرك وجلة تتحسس مثل العمياء . اصعب ما في الامر بالنسبة لها غرفة الاطفال ، وكم هي كثيرة الاشياء التي ينبغي ان تبحث عنها في غرفة الاطفال بالذات .

في المستشفى خشيت أن تُخرج الأشياء التي خلفها رادبور امام فلاستا ، لذا وضعت الرزمة عند قوائم السرير . لم يكد نظر فلاستا يقع عليها حتى قالت "شكرا لك . إنك لطيفة يا يارميلا ، اذ جنت بهذه الأشياء ، إنتظري ، سأقول للمرضة ، لتأخذها الى الغرفة رقم ثلاثة وعشرين . فهناك يرقد الصبي . وفجأة سألت " كيف كان الدفن ؟ هل اغمض احد عيني دراھوميلا ؟"

"قام بذلك السيد بندا " تنفست يارميلا الصعداء . لم تكن تتوقع مثل هذا السؤال الملح والمباشر . يا الاهي ، انها تعلم أن دراھوميلا لم تغمض عينيها قبل الموت . وانها كانت تلقي نظرة ثابتة لانمة . هل استطيع مواصلة الحياة لو رأيت طفلي هكذا ؟

٣

فلاستا تكتب الى كيرا ، زميلة دراسة قديمة ١٩٤٥/٦/٩

"... كنت اعلم ، انك حين تعلمين بما حصل لجميع افراد عائلتي ، ستكونين معي . أشكرك بحرارة على مسحة اليد والعناق . غير انك ينبغي ان لاتفكري ولاتقولي في المستقبل ولولحظة واحدة ما كتبت في رسالتك لي : وهو انك من أجل آلامي لاتستطيعين الفرح لتحررنا . فنحن هنا يا كيرا بضع عشرات من السنين فقط ، اما الشعب فانه يمثل الخلود تقريبا ، أو انه يقترب من الخلود مقارنة معنا . فما هي قيمة كل الأشياء في العالم بدون حرية ؟ انني اتقدم بالشكر راکعة نيابة عن جميع الذين بقوا أحياء واصحاء والقادرين ان يملؤوا العالم من جديد ابتساما وفرحا

نحن كنا سعداء جدا حتى الساعة السابعة مساء يوم ٨ ايار من هذا العام .

عندما استعادت فلاستا صحتها لدرجة مكنتها من التمشي ، كانت تذهب احيانا الى الغرفة ثلاثة وعشرين ، غرفة الاطفال . كان لدى المرضات في المستشفى المكتظ الكثير من العمل ، وكان الاطفال يحتاجون في لحظة الى شيء ، ما : كمادات ، شربت او صحن او مجرد مسحة للملاطفة او كلمة رقيقة .

مرة في نهاية ايار سمعت في الليل من قاعة الولادة صيحة وشكوى . ذهبت الى هناك وساعدت السيدة الفتية في ان تلد ولدا . في الليلة التالية ساعدت اما جديدة اخرى . ثم

عادت بعد ذلك عبر الممر المعتم الى غرفتها وادركت انها كانت تبتسم . وجدت لحظة قامت فيها من جديد بعملها ، وأعادها عملها إلى الحياة . في الصباح هبت بسبب ذلك عاصفة . لم يثرها الاطباء ، ولا الممرضات إنما أثارته شغيلة مساعدة مستعارة لفترة قصيرة من قسم الغسيل . كان الشعار : كيف تقوم احدى المريضات بالتدخل في مهامنا نحن الموظفين الصحيين ؟

حسنا ، انها في النهاية على حق ، هزت فلاستا رأسها موافقة . ينبغي علي ان استسلم للواقع . فانا لست طبيبة في المستشفى هذه المرة ، وإنما مريضة وعلي تلقي العلاج . لن اتدخل في عملهم بعد الآن . ولكنني أمل أن لا يمنعونني من زيارة الاطفال في الغرفة ثلاثة وعشرين . وهذا ما اتفقوا عليه .

الى يارميلا . يوم الاحد ٢٧ ايار ١٩٤٥

"...بسبب هذا لن أضع رجلاً بعد اليوم في قاعة الولادة . آه كم شعرت بالارتياح ، لأنني استطعت مشاهدة اولئك الاطفال ، الذين كانوا هناك في الليلة الاولى . لو عرف الآخرون كم افرح قلبي ذلك المنظر وما الذي عناه بالنسبة لي . كانت هناك روسية ولدت قبل الأوان بفترة قصيرة ، وقد بدت مثل اميرة او راقصة صغيرة ، كانت تحرك باستمرار فمها المفتوح مثل فم سمكة بنية ، وكانت أصابع يديها الدقيقة تستند بلطف على الخلعة والوجه . وقد جاء بعدها فاتسلاف الشاحب برأسه الطويل ولكن بالوجه الذي يتفوق بسيمانه المعبرة والحكيمة على وجوه اجمل البوذيين الشرقيين..."

ماذا يعرفون هنا عن الليلة الحارة الخانقة في الغرفة الايرانية ، حيث وضعت طفلها الشيعية الشابة خاتون ، ماذا يعرفون عن الغرفة المملأ بالاشياء القديمة ، حيث ولدت بين الدجاجات المذعورات في لحظة دخول فلاستا بالذات بنت جميلة . كم من الاطفال ساعدتهم حين ولادتهم في هذا العالم . انهم جميعا الآن في حوالي العشرين من العمر ، كيف يمر هذا الزمن سريعا .

٤

لم تستطع تصور ، ماذا ستعمل حين تسد ابواب المستشفى خلفها . تستطيع الذهاب الى امها في بيسيك ، غير انها ستشعر باليأس الشديد ، لأن الأم تبكي حيثما إتجهت .

تستطيع السفر الى براغ لتكون عند ماري ، غير انها لا تجرؤ بسبب الطريق الطويل . يارميلا وكارل انتقلا بصورة مؤقتة الى قرية قرب مدينة بوديوفيتسه . وقد دعوها لتحل ضيفة عليهم ، ربما سوف تسافر اليهم ، اجل في الارجح . ولكن بعد فترة من الزمن . فان عليها اولا ان تذهب الى برنارتيته . وينبغي أن لاتؤجل تلك العودة وإلا فانها لن تجد بعد ذلك الشجاعة لتحقيقها

كان ذلك في الثامن من تموز ، في الخارج كانت الشمس ساطعة ، وكانت الدار باردة ومظلمة في الداخل . الظلام والبرد والصمت . وكان احدهم قد اغلق المذياع وساد الصمت .

البحث عن الضائعين

منذ ان كانت في المستشفى ، فكرت فلاستا في ان تتبنى واحدا من الذين يتمتهم الحرب ، واحدا من اطفال الغرفة رقم ثلاثة وعشرين ، فقد كان عددهم كبيرا هناك . بعد ذلك تخلت عن الفكرة . قريبا ساكون في الخمسين من العمر ، وانا مريضة ، ومتعبة ، ومستنزفة . ومن يدري كم سألقي على قيد الحياة . سيكون ذلك مقامرة ، ان اتبنى صبيا في التاسعة او الثانية عشرة من العمر ، ليبقى من جديد وحيدا ، حين سيكون في امس الحاجة اليّ . استطع ان اقدم دارا لمن هو اكبر في العمر ، لمن يستطيع الوقوف على قدميه ، في حالة موتي .

من بين الشباب ، الذين عرفتهم في المستشفى يمكن التفكير باثنين : النصير السلوفاكي يوراي الذي يبلغ الحادية والعشرين من العمر وجيتكا البولونية التي تبلغ الثامنة عشرة من العمر . يوراي لايعرف شيئا عن والديه . ولا تصله اية ردود على الرسائل التي يبعث بها الى القرية التي ولد فيها . وكانت اثار والدي جيتكا تختفي عند انتفاضة وارشو . يوراي ولد فارح الطول كأنه الجبل طيب القلب وحنون . يحب الاشجار ، وقد كانت في دارهم حديقة ، وحين يغني يرتفع صوته مشابها لصوت رادبور . جيتكا جميلة ، عيناها رماديتان ، حميمية تحب الملاطفة كأنها قطة صغيرة . اي منهما ؟ كلاهما .

سألتهما عما إذا كانا يريدان العيش عندها في برناريتسه ، وقد قبل كلاهما الدعوة .

هذا الاحساس سهل على فلاستا الى درجة كبيرة الايام الاولى بعد العودة : فان لديها عملا ، عليها ترتيب الدار قبل ان يوصلا ، جيتا ويوراي . لديها ما تعمله ومن تنتظر سمحوا لجيتكا بالخروج من المستشفى في بداية آب على مسؤوليتها الخاصة . وفي الرابع عشر كتبت الى العمه كيرا

... انني اساعد بنشاط امي العزيزة في شؤون المنزل وفي الحديقة . واقوم راغبة بكل شيء . وفي كل مساء نقرأ في السرير انا وامي . أقرأ كتابا لسينكلر سيلفي ، ويعجبني كثيرا

فلاستا الى كلارا

"... يوم الاحد ، وقبل ان تنهض ، قمت بشيء من الصعوبة بتقليدها سلسلة تحمل قلبا بغداديا مسطحا له شكل خاص . تلقيته بعد مولد دراهوميلا هدية لابنتي من احدي المريضات... كانت قبل ذلك وبالتحديد يوم السبت قد غسلت نوافذ غرفة النوم وعلقت الستائر بما حقق لها ارتياحاً كبيراً . وتحت النافذة الى جانب خزانة الملابس وضعت الأريكة ذات القماش المخملي وفرشت على الارض بينها وبين الخزانة بساطا من جلد الجمل تحبه كثيرا ، وفي يوم الجمعة غسلت كل الملابس . لكنها في يوم الاحد وبعد العودة من المقبرة وحتى الليل بكت كثيرا . يعذبها انها لاتعرف حتى قبر ابويها

الى يارميلا ١٩ آب ١٩٤٥

"... انها محبة للعمل نشيطة ونظامية - على مستوى رفيع يثير فرحي للسمة الاخيرة التي فقدتها منذ عهد ربة بيتي العزيزة . انها في الكثير من المجالات جيورجي وراذبور وليديا في شخص واحد..."

فهي حازمة مثل جيورجي ، وعندما تغضب تنظر نظرة مشابهة لنظرته من تحت حاجيها . وهي حساسة مثل دراهوميلا واكثر عنادا منها . هكذا ترى فيها فلاستا وبأمتنان السمات السيئة لموتها

"جاءت جيتكا من الجيران بقطة متنمرة ،وعلى عكس كل ماكان من تقاليد هذه الدار سمحت لها بالاحتفاظ بها بدون اية مقاومة " . كتبت فلاستا الى يارميلا وواصلت : "انك على اية حال تعرفين تحفظي ضد الحيوانات ، المعروفة بالنسبة لي ، رغم كل سماتها الحميدة و المثيرة للاعجاب ، بحشر نفسها في كل زاوية وركن ، ولعلي اليوم لم اعد اكرث لذلك ، كما

كنت في فترة الحرص على حماية الاطفال من عواقب وجودها . آه يا يارميلا ، ما الذي بقي
يعنيني اليوم؟"

ربما يهمني ان يبقى لي هذان الاثنان في الاقل ، انها اسرتي من عهد الحرب . فلستا
تذهب لزيارة يوراي في مستشفى بيسيك . عثرت هناك له على بديل التبغ المعروف باسم
دوموفينا " والتي كان يجففها زوجها . لم تكن ترغب في رؤية جيورجي وهو يدخن . فقد
علمها ابوها ان التدخين تبذير للمال والصحة اما الآن فانها سعيدة بعشورها على هذه
الدوموفينا . وقد اثر فيها فرح يوراي وهو يلف السجائر . بل وقامت بالمراقبة من اجل ان
لايفاجنه احد وهو يدخن في غرفة المستشفى .

٢

في نهاية الصيف بدأت فلستا بحماسة اعمال الترميم العام للدار . في الجدار حفروا
طاقة لخزانة الملابس . وقاموا بطلاء الطابق الارضي بكامله وكذلك الممر والغرفة الكبيرة في
الدور الاول . كما قاموا بطلاء جميع النوافذ
كانت العيادة اول ما امرت باصلاحه . فمنذ ان عادت من المستشفى بدأ المرضى
يتقاطرون .

" اترين يادكتورة كيف انك تتحركين بنشاط ، لقد خرجت من كل ماحدث بشكل
جيد اترين " !متدحها الاعمام الطيبون .

في وسط كل اعمال الطلاء والصنع تلك تلقت جيتكا رسالة من بولندا . وقد ملأت
الاختام غلافها ، لكثرت ما تنقلت ، وتحت الاختام كان خط ام جيتكا . كانت الرسالة
مقتضبة وموضوعية لدرجة مثيرة للاعجاب . ابوك وانا نعيش هنا وهناك . ونحن سعداء لانك
ايضا تحملت كل ماحدث وانك سعيدة . اذا كنت راضية عن الحياة في تشيكوسلوفاكيا ،
لاتتعجلي العودة فهنا الجوع وكل شيء مهدم .

يا إلهي ، لوكنت اعلم ان ابنتي مازالت على قيد الحياة لذهبت نحوها سيرا حافية
القدمين . ولكتبت اليها : تعالي يابنتي فلسوف نتناول الحساء من ماء الجدول ونتغطي
بالاحجار ، غير اننا سنكون معا .

وخطر في ذهنها أمر آخر : إذن فان والدي جيتكا على قيد الحياة وانا سوف افقدها -
ربما لن يكون ذلك في الحال . فهي في تشيكوسلوفاكيا راضية ، ولكنها سوف تذهب في يوم

ما ويبقى لي يوراي فقط .

لم تعد جيتكا تنادي فلاستا : أماه

٣

عندما جاءت فلاستا في منتصف شهر ايلول لزيارة يوراي في بيسيك ، كان لايزال يمشي على عكازين ، غير انه كان يمشي بصورة مستقلة . إنتظرها في حديقة المستشفى ورحب بها ترحيبا عاصفا : أماه . انه يشبه رادبور شبها كبيرا . لو كان رادبور في مثل هذا العمر لكانت له ايضا مناكب عريضة كهذه . ما اطوله ، عندما كنت اراه متمددا ، لم ادرك قطعا انه بهذا الطول . فانا لااكاد اصل فوق ساعده إلا بقليل .

اتفقا على ان يكتب يوراي رسالة الى صديقتة في سلوفاكيا من اجل ان تأتي الى الاراضي التشيكية ليتزوجا . وستقيم فلاستا حفل الزواج لهما ويعيشان ويعملنا في دارها في برنارتيته . وفي الحال كتبنا الرسالة معا على مصطبة حديقة المستشفى .

مر نصف شهر تشرين الثاني ويوراي لم يكتب . منذ زيارة فلاستا الأخيرة له لم يكتب

مطلقا

حل الخريف بغيومه الرمادية الثقيلة ، وقد ذبلت الحديقة واطلمت ولم يكمل الحرفيون عملهم بعد ، وكانت الريح تنفخ عبر النوافذ والابواب .

يا إلهي ، لماذا اعمل كل هذا ، فكرت فلاستا في سرها في لحظة اكتئاب . لماذا بدأت مثل هذا العمل ، فليس هناك من يعيره اهتماما او يقدره .

بعد ذلك ، تمالكت نفسها . بقيت على قيد الحياة وانا الآن اعيش واعمل في العيادة واقوم باعمال التنظيف واحلب المعزاة ليكون لي وجيتكا حليب ، ولسوف نرى ما الذي سيحدث فيما بعد

الى كيرا ، بدون تأريخ : "... انني اخذت نصيبي ولن الوم الحياة على ذلك - خذ ما تريد من الحياة ولكن ادفع الثمن ، هكذا يقول الله كما يزعمون . وانني اعتبر ذلك عدلا فنحن ندفع الثمن مقدما احيانا ، ومؤخرا احيانا اخرى..."

الى يارميلا ٢٧ تشرين الثاني في الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل

"... مع موعد عيد ميلادي الاول بعد الحرب تم انجاز اعمال اصلاح وترميم الدار . وكان جميع الصدف قد ساعدت جيتكا . لانني اجد الان ان اليوم الذي لم تتحدث عنه مطلقا مسجل في ذاكرتها بشكل جيد . (فأن عيد ميلاد امها الحقيقية ، امها البولندية بتاريخ ٢٥ تشرين الأول ، وتاريخ ميلاد امها التشيكية التي قادها اليها مصيرها خلال الحرب ، هو ٢٦ تشرين الأول) . وقد ارسلت قبل بضعة ايام لامها رسالة - من اجل ان تصل في الوقت المناسب - وارفعتها بزهور الاقحوان من حديقتنا . وقدمت لي في ليلة عيد ميلادي باقة من زهور الربيع وضعتها على الطاولة المجاورة للسريز

... لم يصل العمال لطلاء الجدران مطلقا . ولهذا طليت الغرف بالجلس . والواقع انني قمت بطلائها بنفسي . فبعد اربعة ايام من الجهود المتواصلة للبناء العجوز كان اللون الوردي يظهر من تحت البياض على السقف وتبرز على الجدران خطوط رمادية ناشئة ... في اليوم الاول ، عندما وجدتني جيتكا وقد ارتديت الصدرية فوق البجامة ويبدى الفرشة الطويلة فوق الارضية التي غسلت... هبت عاصفة الغضب طيلة الصباح..."

(هكذا يكفي . قالت جيتكا ممتدحة عمل البناء ، وقد نفذ صبرها من اجل تعليق الستائر . الستائر هوايتها المفضلة . غير ان فلاستا لاتعترف بحركة اليد المعبرة عن التسامح وبالقول " هكذا يكفي . وحين تقوم بعمل لابد ان تنجزه بصورة جيدة . لهذا نهضت في الليل وقامت بطلاء الجدران بالبياض فوق الارضية التي كانت قد غسلتها جيتكا يوم امس) .

"... في المطبخ تفرحني خزانة الملابس التي طلبت وضعها في داخل الجدار العالي الى اليسار من المدخل . إنها جميلة المنظر وواسعة لا يبرز منها من الجدار غير جزء صغير ولسوف تكون نافعة ليوراي وإيلين ، اذا ما جاؤوا الى هنا في النهاية..."

في منتصف شهر تشرين الثاني ، سافرت من جديد لزيارة يوراي في بيسيك . رحب بها مرحا وبصورة ودية وبفرح كبير لدرجة انها لم تشر الى القلق الذي عاشته . أطلعها على امر جديد . فقد جاء والداه لزيارته . لم يكتبوا وانما جاءوا مباشرة . حدثها عن امه وعن ابيه بسرور وبانفعال . لم تستطع اخفاء انها صدمت بذلك ولقد طمأنها يوراي بأن هذا لن يغير شيئا في مشاريعه . : فالزواج سوف يتم وبالطبع في برنارتيته ولسوف يبقى ان هناك هو

وايلين . لقد تحدث حول ذلك مع والديه وهما يؤيدانه ، فأن عددهم في الدار هناك كبير اصلا

"وماذا عن ايلين ؟" سألت فلاستا باهتمام وهل اجابت فيما اذا كانت تريد البقاء في الاراضي التشيكية؟"

"ليس هذا من شأنها " لوح يوراي بيده" فان الزوجة تكون دائما ، حيث يريد زوجها . لم تشاركه فلاستا هذا الرأي ، غير انها لم تقل شيئا

الدار في حالة جيدة ، فقد تم تنظيف كل ارجائها واختفت دلاء الجص وعلب الطلاء . . . واتخذت ايام فلاستا من جديد سيرتها المنتظمة . في الصباح تعمل في الحديقة ، ومن العاشرة حتى الواحدة بعد الظهر تعمل في العيادة . وتقوم جيتكا بالطبخ . لاجتيد الكثير ولكنها تحاول . وتنظف وتحلب وتنظف قن الارانب وتعتني بالكلب . القطة الصغيرة المتنمرة ضاعت . كلتاهما بحثت عنها في الحديقة طويلا حتى حلول الظلام . وفي الصباح سألت فلاستا الجيران عنها غير أن أحداً لم يعثر عليها

٥

في شهر ايار مباشرة كتبت فلاستا من المستشفى رسالة الى ماري هاريسون . لم تكن تثق كثيرا في ان تصل . لم تكن لتصدق بأنها تصل حقا الى امريكا في تلك الفوضى والاضطرابات التي اعقبت الحرب . شعرت وكأنها تضع الرسالة في قنينة وتلقيها في البحر .

في ايلول وصلها الرد . ماريا تدعو بالحاح فلاستا لزيارتها والمكوث عندها مدة نصف سنة او سنة كاملة . تعالي في اقرب وقتٍ ممكن . لاتهتمي بمسألة اجور السفر ، فلسوف احولها لك .

كتبت فلاستا الى كيرا في براغ رسالة ترجوها أن تسأل في الدوائر الرسمية عما اذا كان من الممكن السفر الى ماوراء البحار .

"سبق لي مرة من قبل ان رفضت دعوتها الطيبة والمالحة - وكان من الممكن ان تنقذ جيورجي والاطفال من المصير الذي قدمته لهم بنفسى..."

آلاف المرات فكرت في تلك الامسية الربيعية القديمة في الحديقة في برنارتيته . فكرت

في ان ماري جاءت حينذاك الى اوربا من اجلها . جاءت لأخذها معها

بعد ذلك كانت ميلادا خلال ايام الحرب تروي لمعارفها ، ان مليونيرة امريكية وجهت الدعوة لاختها واسرتها لاستضافتهم في الولايات المتحدة الامريكية . مليونيرة ، بالنسبة لميلادا جميع الامريكيين مليونيرية ممرضة ومعلمة وبعد ذلك مديرة لمدرسة صحية ، كانت توفر في كل شهر بضعة دولارات ، من اجل ان يكون لديها ما تستعين به في آخر العمر وقد وجهت لنا الدعوة وكانت على استعداد لان تدفع لنا مما وفرته تكاليف اربع تذاكر سفر في الباخرة .

فجأة شعرت بالشوق الى لقاء ماري . كم مرة في الحقيقة التقيتا خلال الأعوام الثلاثين ، منذ ان تعارفتا ؟ حينذاك خلال الحرب العالمية الاولى لمدة شهر او شهرين في المستشفى الميداني . بعد ذلك لقاء ان خاطفان خلال زيارة ماري لاوربا . قررت ان تعمل كل ما بوسعها من اجل ان تستطيع السفر الى الولايات المتحدة الامريكية . سوف تسافر في الحال بعد زواج يوراي .

٦

في الوقت الذي كانت فيه فلاستا تبذل الجهود من اجل تلاحم " اسرتها الحربية " وصل الى برنارتيته جنديان من جنود المقاومة في الخارج ، اثنان من العرفاء الشباب الثلاثة ، الذين سافروا في سنة تسعة وثلاثين عبر بولندا الى المهجر . ثالثهم رودولف هروبيتس ، الملقب دوديك ، استشهد ، لم يعد من طلعة جوية عبر القنال . وهذان الاثنان رجعا على عجل الآن الى الوطن ، وفي الطريق ، عند وصول الهدف تقريبا علما بمقتل اسرتيهما

رودولف كيرزاك ، ابن اقرب الجيران لها ، لم تكن فلاستا لتعرفه تقريبا قبل الحرب . فقد ولد عندما كانت تدرس في براغ . وقبل ان تعود من بغداد كان قد غادر اهله . لعله قد مرّ بالقرب منها خلال الاعياد عندما كان يأتي لزيارة ابويه . لكنها لم تتذكره . عرفتهما على بعضهما عمة رودولف مرة يوم الاحد ، عندما عادت مع جيتكا من المقبرة .

انه لذكئي جدا ، قدرت فلاستا . وحزين للغاية ، فهو ينظر كأنه عائد من عالم الموتى .
" انه وسيم للغاية " قالت جيتكا متحمسة " وتلك البدلة العسكرية تروق على نحو رائع . هل لاحظت كيف يعرف التصرف ؟ قال لي : انني لسعيد جدا بأن اتعرف عليك يا آنسه "

مسكينة جيتكا كم تنقصها المغازلة ذائعة الصيت لابناء وطنها . فانها خلال الحرب لم تعش تلك المغازلة كثيرا

دعت فلاستا كابتن الاركان الفتي ، اذ ارادت ان تريه النصب الذي اقامته بين الحقلين تخليدا لذكرى اسرته . جاء في اليوم الثاني مباشرة بعد الغداء ، ومكث حتى المساء . تجنبت جيتكا بفنج ، ، ولم تتحرك الا عند المساء لتحمل له العشاء تحت شجرة التفاح .

"كان وقتا جميلا عندكم ، شكرا جزيلا لكم " قال عند الوداع

"تعال ثانية ، تعال كلما احببت يارودولف ، بالتأكيد ، لانسانا " قالت فلاستا منادية . خيل لها انها تعرف هذا الرجل الشاب الصامت ، والنحيف البنيان منذ زمن طويل . لم يذكرها لابرادبور ولا بجيورجي ، كان متميزا ، لم تبحث فيه عن سماتهما . وربما لهذا شعرت معه انها غير مقيدة ومتخلصة من التشنج ، الذي كانت تحس به في وعيها الداخلي خلال الاشهر الاخيرة ، ذلك التشنج البانس الذي رافق مساعيها عند تكوين اسرتها المصطنعة من اجل عودة ما لايعود

كان رودولف يأتي للزيارة في كثير من الاحيان . كان يتصفح الكتب في المكتبة ويدخل مع فلاستا في مناقشات طويلة حول تنظيم العالم بعد الحرب . وكان يحمل المجلات واعطى المذيع للتصليح وحصل على الادوية في براغ . وقبلت جيتكا بالحقيقة غير المرغوب فيها وغير المنتظرة وهي انه مخطوب . وبدأت تشعر بالغيرة تجاهه ، كما كانت تشعر بالغيرة تجاه كل من يقاسمها ود فلاستا ، وكانت تشعر بالغيرة على اشدها تجاه يوراي ، " اخيها"

٧

في احد ايام تشرين الثاني جاء يوراي لأول مرة الى الدار في برناريتتسه . سمحوا له بمغادرة المستشفى يومي السبت والاحد فقط . استقبلته جيتكا بمزاج عكر : فقد كانت المدينة الصغيرة تحتفل بالعيد السنوي ، وكانت تتطلع الى تسلية افضل من العناية بانسان مقعد . واستقبلته فلاستا كما تستقبل الام ابنتها الذي يعود بعد اصابته بجروح بليغة . هيأت له حتى كعكة العيد . جلست معه عند الطاولة وكانت تنظر بأنفعال كيف يأكل بشهية . في المساء اشعلوا النار في الوجاق وجلسوا يتأملون اللهب "غن يا يوراي " توسلت فلاستا . بدأ بهدوء وبصوت عميق يردد الاغنية المفضلة لدى فلاستا : ينساب الماء ينساب . غنى وتحدث

عن النار التي يشعلها الانصار في الجبال ، روى لهم كيف انهم بعد ان تخمد النار ينثرون الجمر في الارض ويكدسون فوقه الأغصان من اشجار الغابة ثم ينامون فوقها . وفي الليل كانت الثلوج تتساقط عليهم . بدأت تنصت للحديث جيتكا ايضا وتردد بعض الاغاني معه .

فلاستا تكتب الى كيرا ١٤ تشرين الثاني ١٩٤٥

"... انني اشعر بالامتنان العميق ، لان الشابين وافقا على العيش تحت سقف داري ويبدو ان كليهما شعر بالسعادة تحت هذا السقف . الأول يعيش الكتب والدراسة . هوايته الخاصة على ما يبدو اللغات وعلم الاجتماع . اما الثاني فانه يؤجل كل ما هو مكتوب ومطبوع الى وقت متأخر ، كما كان رادبور . ومثله إنصرف في الحال الى كل المفكات والساعات والاجهزة الألكتروقتنية والادوات الاخرى التي عثرعليها في الدار . وفي الحديقة بدأ في الحال يقطع كل النباتات البرية - الزاندة - وتيجان الاشجار التي نمت اكثر مما ينبغي . انه يطعم ويلقح بحب وحماسة منذ سنوات صباه..."

إلى يارميلا ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٥

"... انه يعرف لكل مناسبة اغنية - لأول مرة منذ عهد رادبور تطفح الدار من جديد

بالغناء

٨

لعل فلاستا لم تستعد لاعياد الميلاذ بمثل هذه العناية التي تستعد لها هذا العام كم ارادت ان يشعر اطفالها من فترة الحرب بالارتياح في الدار . هياؤها الحلويات مع جيتكا بالفرن . حمصوا وحمصوا شرائح الفاكهة لاعداد جبس " الجوز " ، كل ذلك وفق الوصفات التي قطعتها جيتكا من الصحف . لم تهينى اي منهما هذا من قبل . واشترت فلاستا الشجرة والسّمك . وطلبت كعكة عيد الميلاذ من الخباز ، لانها لم تجرؤ على اعدادها . وعندما وصلت يارميلا بعد الظهر مع الهدايا وشمعدان عيد الميلاذ كانت الدار برمتها دافئة وحميمية تفوح فيها رائحة الشجرة الابرية والبخور والفانيلا .

كانت جيتكا تدور حول المدفنة في المطبخ وقد ارتدت صدرية ناصعة البياض واعتلت وجهها الحمرة بسبب الحرارة والحماسة .

وكانت فلاستا تتوهج : وكان وجهها المنفعل يقول : تأملي يا يارميلا ، نجحت في تحقيق معجزة .

الى كيرا - ٢٩ كانون الأول ١٩٤٥

"... في اليوم الكريم ذهب معي رودولف قبل الظهر لنأتي بيوراي . وقد ساعده في تغيير ملابسه بعد الظهر وشعر بالفرح حين شاهده ببدلة المساء السوداء ، كم هو جميل هذا الفتى ... وكان هنا الميجر كرزك مع زوجته ، هيلينا الناعمة ... قتل أبواها واقاربها ولم يبق لها غير اخيها ، الذي خرج من معتقل تيريزين حيا وهو يدرس الان الكيمياء . خطيبة يوراي وعدت بأن تأتي حوالي منتصف كانون الثاني . لعلهما سوف يتزوجان ويستقران حتى الربيع ... جيتكا تنوي ان تدخل بعد مجيء إيلين ، دورة للتمريض عند راهبات دير الرحمة ولكن ليس لتصبح ممرضة وانما لتصبح مساعدة طبيب . انها مؤمنة ماديا ومضمونة ومجهزة ولهذا فان امامها حرية الاختيار . واذا ما اثنى عليها الناس وعاملوها بود ورقة فانها ستكون مطمئنة وتشعر بالارتياح...

الى يارميلا في ليلة ٢٧ كانون الأول ١٩٤٥

"... العزيزة يارميلا ، كانت الشموع كافية حتى انتهاء عشاء عيد الميلاد وباركت بجبك ماندتنا . مازال الشمعدان على الطاولة في غرفة الطعام... لأستطيع التعبير بالقدر الكافي عن الفرح الكبير الذي اثاره في نفسي وصولك ومكوثك عندنا ، رغم انه كان قصيرا... وقد نجح الميجر كرزك في ان يبتهج يوم عيد الميلاد... حول المائدة قام بدور رب البيت واستقبل الراعي عند الباب الكبيرة للدار..."

تناولوا العشاء تحت انوار الشموع واستمعوا الى الحان مزمار الراعي وهي ترتفع فوق الطبيعة التي تغطيها الثلوج ، وتبادلوا الهدايا وجلسوا الى ساعة متأخرة من الليل عند الموقد . يوراي غنى وكان رودولف وهيلينا يبتسمان بصمت . وتلقت جيتكا الكثير من الاشياء الجميلة ، وارتفعت ضحكاتها التي تشبه رنين الاجراس ، وكانت فلاستا تجلس في الكرسي المريح وتأمل بارتياح اسرتها كان الوهم قد بلغ الكمال تقريبا .

سافرت جيتكا في الثالث والعشرين من كانون الثاني . لم تكن لديها رغبة كبيرة للالتحاق بدورة التمريض . الافضل عندها ان تتزوج . شخصت بين اصداقائها رجلا عازبا ومضموناً بشكل جيد ، كان معجبا بها بصورة واضحة . ما الضير في ان يكون اكبر منها

عمرا على نحو واضح . انه يبدو متطلعا للحياة وهو طبيب . فيما يتعلق الامر بالرجال ليس المهم العمر ولا كيف يبدو ، المهم كيف يستطيع رعاية الزوجة ، قالت فلستا عن معرفة انهم سوف يتعجبون في وطني حين يعلمون بانني اصبحت في تشيكوسلوفاكيا السيدة زوجة الدكتور غير ان هذا الخطيب الذي تم تشخيصه قال لجيتكا خلال الزيارة اللاحقة و باقتضاب وحذر : لو اراد الزواج في نهاية الامر ، فإنه لن يكون في يوم ما ، غير بصير بالعواقب ليتزوج من فتاة صغيرة العمر لدرجة كبيرة . صدمت جيتكا واهتاجت وثار ، وفي اليوم التالي ارسلت طلب الانتساب الى دورة التمريض

عندما غادرت كان ذلك في الارجح هروبا . وضعت في الحقيبة التي عثرت عليها في المخزن كل ما يمكن اعتباره ملكا لها . مدت يدها لفلاستا ، وقالت لها وداعا وهي تلقي نظرة عابرة الى الوراء . من طريقة بحثها بعناية وعثورها على كل ما يمكن ان يكون لها ، ادركت فلاستا ان جيتكا لاتنوي العودة

نظرت فلاستا إليها وهي تخرج في الصباح المتجمد . الآن بدت لها من بعيد صغيرة جدا ، طفلة ، مجردة من القدرة على الدفاع عن نفسها . قبل خمسة اشهر كانت تناديها أماء . انها ابنتها البولندية ذات العينين الرماديتين ، لم تمكث معها غير فترة قصيرة .

إلى ماريا تاوار ٢٤ كانون الثاني ١٩٤٦

"... انني لارغب في مغادرة برنارتيته الى اي مكان آخر . ولعلك تدركين بنفسك بأن افضل ما ترتاحين له هو العمل والاماكن القديمة .

مهمتي الآن تدفئة الدار والمرضى والتنظيف في العيادة وكذلك أوجار الحيوانات وعلفها . والطبخ . وانني لأشكر الله لأنني خلال الاشهر الاخيرة قد تصلبت واستعدت القوة بما يمكنني من القيام بهذا . انني اقرأ واكتب الآن في الليل . مثلا اليوم بدأت من الساعة الواحدة والان تشير الساعة الى الثالثة والنصف . أمل في ان استطيع النوم لحظة قبيل الصباح ، بعد ذلك اقوم بتشغيل التدفئة واعداد الشراب للمعزاة وحلبها . هنا برودة شديدة في كل اركان الدار والثلوج خارجها"

الى يارميلا . بلا تأريخ

"اقرأ الآن بالذات هديتك بمناسبة أعياد الميلاد ، كتاب الام لمكسيم غوركي ، وانا الآن برمتي في البيئة الروسية . أشعر بالاسف للأنني لم استطع من قبل التعرف على الاتحاد

السوفيتي ، قبل ان اسافر الى امريكا ، أعتقد أنني استطيع الدفاع عنه بصورة افضل بعد التجربة الشخصية . هكذا سوف يستطيعون القول لي في كثير من الاحيان أن معرفتي نظرية فقط... أمل في ان تكون عندي إيلين قبل نهاية الاسبوع . وإنتي أقتصد في نفقاتي من أجلهم حتى ذلك الحين . لم أتسلم من جيتكا اي سطر لحد الان . لاستطيع حتى القول بانها خيبت ظني ، بل على العكس فمنذ اللحظات الاولى في المستشفى لم اكن اثق بلطفها وحلاوتها بالذات . هكذا فقط لاثملي الهموم من اجلي بسببها!...

ليس لدي لحد الان جواز سفر ولافيزة ، رغم ان السيدة هاريسون قد حولت لي النقود وتلطفت بان تعهدت في أن لااكون هناك " عبنا عاما " وقامت بزيارة كاتب العدل والدوائر الرسمية لتقديم مختلف الوثائق لتأكيد وضعها المادي..."

فلاستا الآن تنظف حظيرة المعزاة وقن الارانب وتعمل في العيادة (الآن في شهر شباط توجد اصابات كثيرة بالأنفلونزة) وفي كل يوم أحد تذهب الى بيكس لزيارة يوراي لا يبدو مطلقا انها تستعد للسفر في الايام القريبة القادمة الى امريكا لتبقى هناك سنة كاملة

الى يارميلا ٣ آذار ١٩٤٦

قبل اسبوع بالذات وفي ليلة الاحد على الاثنين ٢١ شباط جاءت ايلين ومعها اخت يوراي وارادتا أن يكون الزواج يوم السبت ، لأن الايام الاخرى غير محظوظة . وهكذا تم الزواج يوم السبت (البارحة) . ارسل لكم شيئا من كعكة الزواج التي اعدتها السيدة هروبيتسوبا (كوفاروفا) مع السيدة سوتا ، لأجل ان تذوقوها . وساعدتهم خلال حفل الزواج السيدة هوديكوفا . عمل النساء الثلاث بروح من التضحية ، ولهذا فأنني اشعر بالامتنان لهن . اذ بفضلهن شعر العريسان والضيوف بالارتياح التام والرضا . كان هنا ايضا والد يوراي وكان شاهدا الزواج كرزاك واخي ياروسلاف ، وقد وضعت العروسة قبعة على رأسها ، قامت بخياطتها السيدة هروبيتسوبا ، التي تعمل في مجال المواضع ، وذلك من الدنتيل من بدلة زواجي . وارتندي يوراي ربطة العنق التي اشتريناها لرادبور في احتفال زواج ابنة اخي فيرا والتي تم الاحتفاظ بها على امل استخدامها في مناسبة حياتية مشابهة..."

الى ياروميلا ٩ ايار ١٩٤٦

"... الليلك الابيض ، الذي زينت به التابوت في العام الماضي ، في غاية نضوج عناقيده المرمرية العطرة . وتتسم بالنضوج نفسه ازهار النرجس وزهور اذن الفأر وزهور الربيع - ومن

النوعين الأخيرين ضفرت دراهوميلا في السنة الماضية أكاليل الترحيب التي استقبلت بدلا من الاحياء الرأس المنكس لأول ضحية من جنودنا التشيك -

عزيزتي يارميلا ، كم اتمنى ان يكون جميلا ربيعكم ايضا..."

وسوف يمر اسبوع ، ويمر شهر ويمر عام - ها لقد مر عام كامل .

ليس منذ زواج يوراي حسب ، وانما ايضا منذ ذلك اليوم الذي انتظرته فلاستا لتستطيع بضمير مرتاح السفر الى ماوراء البحار

كتبت الى يارميلا : " العلاقة الوحيدة التي بقيت لي في برنارتيتسه ، هي علاقة الحب الملتهب والمرير ، الشبيه بمثابرة جذور اشجار التفاح الميتة في حديقتنا والتي عرفتها عند الحفر في السنوات الاخيرة . انني لا أفكر بتوق في سفري ولا بالناس في الوسط الغريب مع الحنين . انني على يقين انه ما من مكان افضل بالنسبة لي..."

في اليوم الاخير من ايار ، عندما كان العروسان الجديدان يوراي وايلين ينشران العشب لتجفيفه وكانت الحديقة برمتها تعج برائحة حلوة ودافئة ، غادرت فلاستا الى براغ لانتهاء آخر الاجراءات الشكلية المتبقية . وفي يوم الاثنين ٣ حزيران سافرت بالطائرة الى الولايات المتحدة .

زهور البنفسج كبيرة هنا
ولكنها بلا رائحة

الى أمي (وكذلك لأختي وانساباني وبناتهما المتزوجات والصديقة كيرا والى اسرة فويتسخ) الولايات المتحدة الامريكية ٥ حزيران ١٩٤٦

أمي العزيزة ، أعزائي جميعا ، اكتب لكم من فاوندلاند الجديد بعد الفطور ، في الساعة الثالثة صباحا لكن الساعة عندكم الآن بالذات تشير الى الثامنة صباحا . يوم الاثنين سافرنا من مطار روزين (في براغ - المحرر) ، حيث كانت تتفتح في العشب زهور البابونج البيضاء وشقائق النعمان وحيث كان منظر جبل ريب وسلسلة الجبال الوسطى واضحا جدا وبعد لوحة الشطرنج الخضراء لحقولنا وغاباتنا وقرانا دخلنا ببطء في الغيوم فوق المانيا وهولندا . في امستردام كانت السماء ممطرة ولكن امستل ، الفندق الذي انزلونا فيه ، كان تحت اشعة الشمس عند وصولنا اليه .

لم تطلع الطائرة الى ما وراء البحار إلا يوم الاربعاء ، وهكذا كان لها هنا يوم عطلة . أخذت سيارة اجرة واتجهت الى نا آردن لزيارة قبر يان أموس كومينسكى . خلال الطريق تحدثت مع سائق سيارة الاجرة ، الذي قال لها انه يهودي ، وأمضى لهذا السبب عاما في معتقل بوخنفالده وعاما في معتقل بيرغين - بلسين . ولم يعد الكثير من الناس من هناك ، غير انه عاد . وكان الدليل في نا آردين قد قضى ثلاث سنوات في العمل الاجباري في الامبراطوية .

حيثما ينظر الانسان يجد المعاناة . عند المساء تحولت في امستردام وشاهدت انقراض البيوت القديمة . سوف تحدث الامريكيين عن ذلك كله ، قررت في سرها ، سوف اتحدث الى كل من التقى بهم عما عاشته اوربا خلال هذه السنوات الست . ربما بقيت على قيد الحياة في العالم من اجل هذا بالذات ، من أجل ان أستطيع الادلاء بشهادتي

كانت تلك في الحقيقة أول رحلة لها في الطائرة خلال حياتها . لم تشعر بالخوف من السفر في الطائرة وكانت تلاحظ كل شيء ، بنهم كما كانت ايام شبابها وبكل حواسها

... الى بيتير ، احد ابناء عمومتي

بيتير ، كم هو هش الغلاف القطني ، الذي يغلف كرتنا الارضية . كم هو خفيف ومنفوخ ، وكم هو جميل حين تكشف الشغرات فيه عن الارض الخضراء في الاسفل واحزمة الحقول والغابات واشرطة الطرق والانهر أو سواحل البحار والخلجان والجزر . عندما حان عندكم منتصف ليل الرابع من حزيران ، اقتربنا نحن من الشمس الغاربة محلقين فوق قمم جبال الفيوم الرائعة فوق المحيط الاطلسي ... حتى حركة الطائرة لا تُرى ، فان المراوح تدور بسرعة كبيرة لدرجة ان الانسان لا يلاحظ وجودها ، وهكذا خيل لنا وكأننا نقف في المكان نتأمل نجمة الزهرة الواضحة ومن ثم القمر الذي أخذ يأتي عليه النهار من الأسفل وبعده الدب الكبير مع ذات الكرسي (الكاسيوييا) القريبة جدا من نافذتنا المستديرة .

الهولندي الطائر مؤثثة بصورة مريحة للغاية - مقعدان الى جانب بعضهما على جانبي المشى والخدمة فيها تبلغ حد الكمال . في امستردام كان الفندق يقتصد في الطعام جدا ولكن الامر لم يكن كذلك في الطائرة كما تتوفر هنا الصحف الامريكية والهولندية ، لهذا فنحن لانشعر بمرور الوقت..."

كان في انتظار فلاستا في نيويورك ابن اخت ماري هاريسون لورينغ الذي يبلغ الحادية والعشرين ، وكان قد انتهى الخدمة العسكرية لتوه في القوات البحرية . ولسوف تقلع الطائرة الى بورتلاند ، حيث ستكون في انتظارها ماري في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر . اذاً لديهم متسع من الوقت للنزهة وتناول الغداء

كان الجدول الزمني دقيقاً ، ولكن لعل فلاستا أطالت التجوال في منهاتن ، ولعل ناطحة السحاب روكفلر عالية جدا ، اذ ان الطائرة إلى بورتلاند اقلعت . كان لورينغ عندما نظر الى ساعته اليدوية ، يشير من فوق سطح أعلى دار في العالم نحو سفينته الراسية في هودسن لتراها فلاستا ، (إنها افضل سفينة في العالم ، لانه خدم فيها مدة سنتين) . اصبح الوقت

متأخرا . انهم الان لا يستطيعون الوصول الى المطار قبل اقلاع الطائرة إلا في حالة واحدة وهي ان يرسلوا لهم من المطار طائرة هيلوكوبتر

"... هذا الفتى اللطيف لم يفقد أعصابه ولا روح السخرية ، وحاول ان ينقذني من تلك الحالة بأفضل ما يمكن ... ففي اللحظة التي هبطت فيها طائرتي في بورتلاند دعت اذاعة المطار الانسة هاريسون للحضور الى المكتب ، وهناك اعلموها اننا لسنا في الطائرة . على اية حال ، انتهى النهار بشكل جيد . مشينا في الشوارع التي تبدو رغم ناطحات السحاب فسيحة وجميلة وحميمية ، كما هي في حي بشيكوبي في براغ . تناولنا العشاء في مطعم صغير بدا وكأنه من مطاعم جنوب فرنسا . وعندما ذهبنا الى القطار ، اضطر العريف الى الذهاب الى مدير محطة القطار ليسمح له بمرافقتي حتى عربة القطار . فهنا لاتوجد تذاكر لدخول المحطة حتى الرصيف . وهكذا غادرت محظوظة في الساعة الثامنة مساءً وكنت متأثرة للغاية تحدثنا عن العالم برمته . وقد شعرت بالارتياح لان لورينغ يحمل مشاعر طيبة تجاه الروس ... كان يذكرني الى حد كبير بميخائيل ، كان مثله وديا وبسيطا ، لدرجة انه قبلني فجأة عند الوداع

ذكرني في النهاية بميخائيل ... ميخائيل لوغانسكي ، كان ايضا واحدا من ابناء فلستا ، الذين دفعتهم اليها الحرب . كان قد مضى اسبوع واحد على تخرجه من المدرسة الثانوية عندما هاجم هتلر الاتحاد السوفيتي . إلتحق بالخدمة العسكرية وفي التاسعة عشرة من العمر وقع جريحا في المعركة حول كورسكو . وفي المستشفى الميداني ، اصيب بالتفونيد والتهاب الرتين . ثم وقع في اسر الالمان وهو على نقالة المستشفى الميداني ، ونقلوه في عربة نقل الحيوانات الى معسكر الاعتقال بوخينفالد . لم يكن ذلك مكانا جيدا للنقاهاة ، غير ان ميخائيل بقي حيا ويا للعجب . وعندما وصل تشيكوسلوفاكيا في حزيران ١٩٤٥ مع المعتقلين الذين تم تحريرهم كان يعاني التدرن الرنوي الذي كون كهفا في رتته ، وكان يبدو انه سوف يموت . الآن بعد ان حل السلام وقد بلغ الثانية والعشرين من العمر .

علمت فلستا بأمره مصادفة . فقد تعرفت في مستشفى بيسيك على الممرضة العسكرية السوفيتية ماروسيا التي شكت لفلستا أن لها اخا يموت في براغ . يموت ؟ الآن بعد الحرب ؟ ماهذا الامر لا يصدق ؟ لم يكن من طبع فلستا أن تتخلى عن الأمل . حتى شجرة التفاح هذه في برنارتيتسه ، والتي لم يكن لها اي برعم اخضر حتى شهر ايار ، كانت تسقيها كما تسقي بقية الاشجار ، وفي شهر تموز امتلأت بالزهور الوردية .

ينبغي ان اجرب شيئا ، ينبغي أن أعمل شيئا . لعل من الممكن ان تنقذه العملية الجراحية . ولكن ينبغي ان يقوم بها طبيب ماهر من الدرجة الأولى . تذكرت البروفسور هوبي . كتبت له وتوسلت ان يقوم باجراء العملية من اجلها . اجرى العملية الجراحية لميخائيل مرتين . الاولى في شهر شباط والثانية في شهر آذار ١٩٤٦ . وعندما كانت فلستا تستعد للسفر الى الولايات المتحدة الامريكية كان ميخائيل يتهيأ للعودة الى وطنه الى كراسنو دار .

في اليوم الاخير قبل السفر في الطائرة جاءت لزيارته في مستشفى كيرتش قال لها "أنقذت حياتي

"أنقذ حياتك ذلك الذي أجرى لك العملية الجراحية يا ميخائيل"

"أعلم ذلك ، السيد البروفسور ، ولكن بالدرجة الاولى انت ، فقد رتبت انت بالذات كل شيء"

"اكتب لي في يوم ما يامخائيل عن احوالك"

"سوف اكتب ، بالتأكيد ، سوف اكتب " ، وعد بحماسة وأبرّ بوعده ، دون ان يتوقع بأن هذه الدكتوراة التشيكية الصغيرة سوف تنقذ حياته مرة اخرى .

٣

ماري هاريسون الان متقاعدة عن العمل ، وهنا في البيت الريفي على ساحل الأطلسي تقضى نصف العام تقريبا . إنّ كلفة الحياة هنا اقل مما هي عليه في المدينة . فالحديقة تقدم شيئا ، ولا يضطر الانسان هنا الى ارتداء الثياب الغالية . يكفي الثوب الذي يمكن غسله وهو بقيمة عشرة دولارات من المتجر الريفي . أخذت فلستا في الحال الى المتجر لتشتري ثوبين من تلك الثياب لها ايضا

البيت الريفي صغير ، في الطابق السفلي غرفة واحدة للسكن وفي وسطها وجاق . الصخور الصوانية المجاورة للوجاق تمثل في الوقت نفسه السلالم نحو الطابق الاول . وهناك غرفة ذات سقف مائل وشرفة تطل على الغابات . وهي الغرفة التي خصصت الان لفلستا . الحديقة الغنية بالنباتات الكثيفة المزدهرة تنحدر نحو البحر مباشرة .

للبحر هنا حضور في كل مكان . فمن الغرفة الارضية يمكن مشاهدته من النوافذ الكبيرة

الثلاث . وهديره ذو الايقاع يرافق الانسان طوال الليل والنهار كما ترافقه انفاسه بالذات

... وتقرع هنا بصورة منتظمة عوامة الفئار البحرية ، الموجودة في الخليج القريب وكأنها اجراس تقرع طوال النهار . حول البيت الريفي اشجار الصنوبر التي ازهرت في هذا الوقت واحراش برية كثيفة الورد . وشجيرات الليلك واشجار الكرز والتفاح مزدهرة ايضا وهكذا فاني ارى في هذا العام الربيع الثالث .

ايها الصبي بيتر ، ستعجب امك وتعجبك ايضا بصورة خاصة النزهة عبر مسالك الغابات هنا . تتفتح هنا زهور البنفسج والزهور الصفراء والبيضاء فائقة الجمال... شجيرات السرخس العالية ، والزهور الحمراء الكبيرة ، والاحراش الملتهبة حمرة والحشخاش الاحمر الذي انتظرت بلا جدوى تفتح مثله في برنارتيته . وكذلك زهور الترمس وشقائق النعمان والطحالب الطرية الخضرة والاشنة الرمادية . وهنا صخور الخليج جميلة للغاية . قطبات الحجر الصواني الغامقة والبيض قد مَزَقَتْ وطُحِنَتْ بفعل ارتطام الموج بها حتى صارت حصي كبرية بيضا ... يلتصق بها الى جانب بعضه البعض المحار الصغير ، الذي ربما يثير اعجابكما بصورة خاصة يا يندريشكا وماروتيتشكا ... وهنا وهناك يكشف الماء عن نجمة بحر وردية صغيرة ، تبدو مثل مادة الغرافيت ثخينة ولينة كأنها طفل نجمي ..."

فلاستا تكتب رسالة على مراحل متسلسلة فيها مقطع لكل واحد ، لكل منهم وصية .

"... ميلادا . آخر قطعتين من الحلويات حملتهما معي الى امريكا احتفظت بهما للانسة هاريسون واخر قطعة من كعكتك البنفسجية يا يارميلا ، اكلها عريف القوات البحرية لورينغ ووجدها فريدة!"

انها رسالة للتداول ، فهي لاتستطيع كتابة رسالة لكل منهم بصورة منفردة ، فأجور البريد الى اوربا غالية جدا ، وهي لاتريد اثقال مضيفتها بمصروفات غير ضرورية . في كل الاحوال سوف تضطر ماري الى التقتير مدة سنتين في الأقل للتعويض عن الخسارة . غير ان فلاستا كتبت رسالة خاصة ليوراي وزوجته في برنارتيته - ربما لشعور باطني في انهما ليسا من ضمن الاسرة .

إلى يوراي وإيلين ٢ تموز ١٩٤٦

"البيت الريفي الذي شيدته صديقتي فوق البحر مباشرة وعلى حافة الغابة ، محاط باحراش العليق والعنب البري وشجيرات الورد والراتنج وغيرها من الاحراش . ولذا فأن كل

قطعة تزرع بالخضروات او الزهور تتطلب ، قبل كل شيء ، استخدام فأس كبيرة . وان الحفر وإقتلاع الحشائش الضارة بالنسبة لمضيفتي التي تعاني التهاب المفاصل عملا شاقا . ولهذا قررت ان اقوم باعمال البستنة بصورة رئيسة . وعليّ خلال ذلك ان الجأ الى اساليب المغامرة - فان الأنسة هاريسون لاتب رؤيتي وانا احفر او اقطع الاحراش وما اشبه . ولهذا فانهي انهض مبكرة قبل طلوع الفجر للقيام بهذا العمل ، وفي العادة اخرج من النافذة لكي لايقضها صرير الباب ..."

إلى امي ٢٩ حزيران ١٩٤٦ (مع التهاني بعيد ميلادها الثمانين)

"... مرت ثلاثة اسابيع على وجودي هنا . ولكن يخيل لي ان الفترة التي لم نر بعضنا خلالها اطول بكثير . انني هنا كما لو كنت دائما مع رادبور وليديا . ربما لانني غير مجبرة على التفكير بأحد ممن هم بحاجة لي ."

ربما لهذا وربما بسبب البعد ، بسبب آلاف الكيلومترات عبر السماء الزرقاء والبحار الزرق ، التي فصلت بينها وبين قبريهما . كم يبدو الامر بالنسبة لها من هنا غير متوقع وغير حقيقي . لقد ضبطت نفسها مائة مرة وهي تفكر : هذا ينبغي ان احمله لرادبور ، وهذا ما سوف ارويه لليديا . انها تراهما في الاحلام وعندما تستيقظ في وسط الليل يطفو نهر احزانها المغمور بكامل تدفقه المتوحش . تلوم نفسها : لو كنت حينذاك اصغيت لماري لكان الاطفال وجيورجي اليوم على قيد الحياة . أنا المذنبه في الحقيقة...

بعد ذلك تسمع انفاس البحر وتنتظر الى ان ينتشر نور النهار قليلا ، لتخرج من الدار وتنصرف الى العمل اليومي والى الهموم اليومية التي تغطي النهر المغمور بطبقة رقيقة غير ثابتة من اليابسة .

الى يوري وإيلين ٢ تموز ١٩٤٦

... كم من الارانب المجبت عنكم ؟ شاهدت ، هنا أيضا ، ارانب بيض صغيرة للبيع . غير ان ما يوجد بشكل رئيس هنا هو مزارع الدواجن ... صاحب اكبر الاراضي المخصصة للبناء ، بروفيسور جامعي في التقاعد وبقية الضيوف هم في الغالب متقاعدون وبروفيسورية او بروفيسورات سابقات ومعلمات . غير بعيد منا يوجد فنار اوتمايكي . كان آخر حارس فيه دكتور في القانون عاش هنا سنوات طويلة من البؤس والوحدة ، لأن الراتب الشهري لايتجاوز ٢٠ دولارا ، وهذا غير كاف في اية حال للعيش . قبل فترة وجيزة اطلق النار على

نفسه ... هكذا ترون ، كيف هي حياة الانسان الامريكى الذي يعيش وحيداً ، حتى في مثل هذا الساحل المتميز والجميل ، في ولاية مين . لاتصوروا ان البروفسور الذي اشرت اليه والذي يمتلك هنا قطعة كبيرة من الغابة المجاورة للساحل وبضعة بيوت ريفية ، لا يشتغل . على العكس من ذلك . ففي كثير من الاحيان يقوم بنفسه بكنس الارض حول الفيلات . التي من المقرر أن ينتقل اليها مستأجروها في موسم الصيف ... على كل اعتقد يا اعزيزي انني كتبت لكما عن كل شيء ، بصورة جوهريّة . والآن بودي ان اقرأ الكثير وبدرجة رئيسة عنكما

٤

تعيش فلاستا وماري في البيت الريفي المطل على البحر كمتقاعدتين نشيطتين ومتواضعتين . لقد ارتفعت اسعار المحروقات ولذا فانهما تستخدمان للتدفئة الاخشاب العائمة التي تحملها مياه الخليج بعد ان تقوما بتجفيفها تحت اشعة الشمس . وتشتريان مرة في الاسبوع دجاجة كبيرة ، لأن لحم الدجاج هنا ارخص انواع اللحوم . وتطبخان مع اللحم حبوب البسيلة او اوراق البنجر الاحمر من الحديقة . وتذهبان الى الغابة لجني الفطر ، ينمو هنا النوع المعروف باسم هريبي ذى القبعة الوردية والذي يقوم الناس بجمعه كما ينمو هنا النوع الضخم المعروف باسم اوسيكاتش غير ان الناس لا يقبلون على جمعه إلا نادرا ، لانه بعد تقطيعه يكتسب لونا أزرق كالحبر . لونه شديد الزرقة لدرجة صدمت فلاستا ايضا عندما قامت بطبخه لأول مرة لوجبة العشاء ، عرضت على ماري ان تجرب هي تناوله بنفسها اولاً ، لأجل ان لاتتحمل تآنيب الضمير اذا ما كان ضارا .

كانتا تذهبان لشراء الحليب والبيض واللبن المخشروالفواكه من المزارعين المحليين . وخلال الطريق تمران بالحانات المحلي لشراء الخبز الذي يسمى هنا بالكعك الابيض غير المملح . وفي بعض الاحيان لايتوفر الخبز فتشتريان السوخار ، وكان فلاستا لاتتذكر حياتها القديمة في اسطنبول ؟

ظهر كل يوم تعملان بجد إما في البيت الريفي او في احد بيوت الجيران ، حيث تقومان بسقي الحديقة لأجل ان لا تتعرض الزهور والخضروات الى اليباس قبل مجيء اصحابها ، وهما لاتعملان لقاء نقود وانما على اساس المعاملة بالمثل . وعند دخول البيوت لاتحتاجان الى المفاتيح ، فهنا لايقوم احد باقفال داره .

في البداية احبت فلاستا هذه الخدمة المقدمة للجيران بل واثارت فيها انطبعا عميقا فان صاحب الدار يرسل الى احدهم بطاقة بريديّة يذكر فيها تاريخ وصوله وبعد ذلك يكون على يقين من انه سوف يجد داره وقد تمت تهويتها ومسح التراب في كل أرجائها وغُسلت نوافذه ووضعت الزهور فيها - اليس هذا جميلا ؟ وفي بعض الاحيان يكتب صاحب الدار ما الذي يريد ان يشتروه له : الزبدة والحليب - ليجد ذلك في الثلاجة . وعند وصوله يدفع ثمن المشتريات ، اما الخدمات الاخرى فيقدمها فيما بعد على اساس المعاملة بالمثل

ولكن مع مرور الزمن ، صارت هذه الخدمات مصدر اثارّة لأعصابها . فانها يوما بعد يوم تقوم بمسح وتنظيف السخافات التي جاء بها الناس من بيوتهم في المدينة ، اشياء لاحصر لها ، خالية من الذوق . مواد تذكارية من لاسفيجاس ومن سان فرانسيسكو وفي بعض الاحيان من البندقية . اول زوج من احذية برباره ذي الشريط الاحمر والذي ينبغي غسله وكيه في كل مرة . والوسائد المطرزة والملونة والمزينة بالرسوم والتي ينبغي تنظيفها بسائل خاص من البخاخ وبحذر بالغ لأجل ان لا يتساقط الغبار الفضي او الذهبي ، الذي يستكمل صورة الشفق او القمر ... عجبت كيف ان ماريا تعمل باخلاص لتنظيف هذه الاشياء الكريهة .

في العام الماضي ، عندما قامت يارميلا فويتيخوفا بتأثيث بيتها في بوديوفيتسه قدمت لها فلاستا نصيحة ودية : تذكري يا يارميلا ، الافضل أن يتحمل الانسان السكن بشيء من البدائية ، من الوقوع في عبودية الكثير من الاشياء العقيمة .

تحت النافذة يهدر المحيط ، كم هو نافع وجميل الجلوس على الصخور والنظر الى القمم المزينة للمياه الزرقاء المائلة الى الخضرة ، إلا ان هذا غير ممكن الان . فما زال من الضروري ان تغسل بعناية التماثيل الصغيرة والاكواب المصنوعة بالتأكد من الخزف الصيني الاصيل .

انهما تتناولان الغداء في وقت متأخر . في الثانية او الثانية والنصف . بعد ذلك تحل فترة استراحة الظهيرة ، التي تكرسانها للقراءة . ماريا على الاريكة في الحديقة . وفلاستا عند البحر ، غير انها لاتقرأ هنا إلا القليل رغم كومة الكتب الممتعة التي هينتها لها ماريا . انها تتأمل البحر ، يقال ان الحيتان تظهر في الخليج هنا ، غير ان الحظ لم يكن حليفا لتراها لمحت فقط الرؤوس اللامعة والمكورة المبتلة لعجول البحر .

في كثير من الاحيان يقطع فترة استراحة الظهر بعض الزوار . اذ يأتي معارف ماريا او معارف معارفها . ربما من العادة هنا ان يقوم الناس في كل حين بزيارة غير معلنة ، وربما

اغرامهم بالزيارة خبر وجود ضيف لدى الأنسة ماري هاريسون من اوربا بل ومن اوربا الوسطى ، اي انها تستضيف مخلوقا ينطوي على شيء ، دخیل .

انهم يصلون بسيارات كبيرة ومع اسر كبيرة ، وعندها لامناس من التخلي عن الجلوس على الصخرة الدافئة وتكريس الاهتمام للضيوف . على اية حال ، الم تقل فلان فلان قبل ذلك انها سوف تمسك مثلاً بالناس في الشوارع لتستطيع التحدث اليهم عن الحرب في اوربا ؟ هاهي لاتتضر الى الامسك بهم ، فهم يجيئون وحدهم وهذا افضل

تحدثهم عن اطفالها الذين قتلوا ، وعن الايتام من اوكرانيا وبولندا . تتحدث عن الناس الذين اضطروا الى الموت لمجرد انهم لم ينحدروا من سلف سليم او لانهم استمعوا الى محطة اذاعة ممنوعة . تحدثت عن المدن التي نشأت خلال القرون والتي انهازت في دقائق .

كانت ماري قد سمعت هذه الاحاديث عدة مرات ورغم ذلك فانها تجلس مصغية دون ان تعترض . فهي تدرك من وجهة نظر الطب ان اسوأ انواع الحزن هو الحزن الذي نكتمه في داخلنا . لتقدم فلان شهادتها ، هذا امر طبيعي ولن يلومها احد بسببه . ولكن ينبغي عليها ان لاتسأل . فهذا غير لائق ومن غير المألوف هنا السؤال عن الاسرة وعن العمل او حتى عن الآراء

سبق وان نهتها ملمحة الى ذلك . قالت لها ذلك . من المناسب الحديث عن الجو وعن الموضة ولكن دون الدخول في خلاف حاد حولها وحول جمال الطبيعة ، وفي بعض الاحيان حول الاطفال ، والتعبير قدر الامكان عن الاعجاب بهم والثناء عليهم . ولايليق التحدث عن الاطفال غير الموفقين . كما ان التاريخ موضوع ملانم للحديث ، باستثناء المشاكل التي يمكن ان تكون حيوية بهذا القدر او ذاك . كل هذا شرحتة لفلاستا بلباقة غير ان فلان رفضت ذلك ، وقالت أن عليهم ان يعتادوا . فان الامر يكون حسنا في حالة موافقتهم على ما اقول ، وحين يريدون المناقشة والاختلاف حول موضوع معين فان ذلك لن يقتلني ولن يقتلهم . ومن الممكن دائما أن نفترق كأصدقاء رغم عدم اتفاقنا في كل شيء .

لم تكن تتحمل الثرثرة بابتسام وبحلاوة حول لاشيء . العبارة الانجليزية : how do you do? مع الاجابة : how do you do? اعترفت بها كتحية مألوقة ، وليس كمقدمة للنقاش . انه لأمر غريب : ربما لأن فلان من بلد آخر وربما لانها كانت تجيد طرح الاسئلة باهتمام وبدون الحاح فانهم لم يشعروا بالاهانة : كانوا يقدمون الاجابات ، بعضهم بتردد وبعضهم بصراحة

وبدون قيود ، تقريبا كما لو كانوا ينتظرون من يوجه لهم سؤالاً معقولاً . وبفضل فلاستا
عرفت ماري عن " معارفها القدامى " اشياء لم تكن لتتوقعها . بل وحتى انها تجرأت
وشاركت في الحديث بطرح سؤال تكميلي صغير هنا وهناك ، او الادلاء بشيء ، عن نفسها

٥

الى يارميلا ٢١ آب ١٩٤٦

"اسافر من هنا مع ماريا هاريسون في الغالب يوم ٥ ايلول . ولسوف نكون طيلة شهر
في شمال كارولينا وبعد ذلك في سباراسوت في فلوريدا كم سنمكث هناك لا ادري . غير
ان فترة البقاء الهادئ في مكان واحد ربما تنتهي ما ان نغادر هذا المكان . لعل التشيك
والسلوفاك في شيكاغو سيكونون في حاجة اليّ خلال شهر كانون الاول ، وفي نيويورك
خلال شهر كانون الثاني وشباط ، وذلك في اطار الفعاليات المكرسة لمساعدة الاطفال التشيك
المرضى والذين يعانون من سوء التغذية . وبعد ذلك سوف ابحث عن خط السفر في الباخرة
الى الوطن..."

الى يارميلا ٤ ايلول ١٩٤٦

... رسالتك مع وريقات الزعتر والخلنج من برناريتتسه وصلتني ويا لفرحتي الان قبل
مغادرتنا من راس بيداكويد . فرحت لانك فكرت بنا وانت في الحقول بين ماتحت مرتفع
القديسين وكوليمير . ارجو التفضل بارسال هذه الرسالة الى امي لتقوم بدورها بارسالها الى
اختي واخي ، فاني لا استطيع الكتابة لكم بشكل آخر غير الرسائل الجماعية .

لديّ الآن ثلاثة ارباع الساعة من وقت استراحة الظهيرة . من الصباح وحتى الساعة
الثانية بعد الظهر كنت احفر وانتقل النباتات وانظف الارضية وانفض الغبار عن الاريكة
والكراسي واحزم حقائب السفر . وكانت الانسة هاريسون تعمل مثلي . تعلمت هنا كيف
ينبغي تنظيف كل شيء بعناية ووضعه في مكانه . حتى المجرفة والرفش ينبغي ان ينظفا جيدا
ويدهنا بالزيت قبل تعليقهما على المسمار في الجراج ... اسافر غدا ... للمرة الاخيرة رأيت
خلف الدار الطائر الطنان - الذبابي - بلونه البني المائل للخضرة . انها طيور جميلة تقف في
مكان واحد في الهواء مرفرفة باجنحتها بسرعة محدثة ازيزا . وعندما تصطدم عند الزهور مع
النحل الكبير الطنان ، تغضب عليها وتهاجمها بمناقيرها كأنها تغرز ابرا في الهواء غير

انني لم اشاهد الحيتان رغم أن عدة نماذج منها وصلت خلال الصيف الى خليجنا ، وقد شاءت المصادفة ان لا اكون في البيت حينذاك كما انني لم اكن محظوظة لمشاهدة نور الشمال . آه ، لقد مضى الوقت بسرعة وعليّ الذهاب الى الدار كنت اكتب على صخور الساحل الصواني تحت دارنا ، والان بالذات يبدأ المد ... الاجنحة السود لطيور الغاق والاجنحة البيض لطيور النورس هي السيد الوحيد للقبّة الصافية فوق البحر . سوف اكمل كتابة الورقة في مكان ما خلال الطريق..."

٦

في نهاية ايلول وصلت الى فلاستا اثناء زيارتها في شمال كارولينا دعوة للمشاركة في مؤتمر دولي للنساء ضد الفاشية ضد الحرب ، من المقرر ان يعقد في شهر تشرين الاول في نيويورك . وهكذا تغيرت بصورة كلية وغير منتظرة خطة سفرها وقد رحبت بذلك التغيير . بالمناسبة لم يعد يروق لها ان تعيش هنا بصفتها ضيفا او سائحا : انها لمفارقة غريبة ، لم يكن لديها متسع من الوقت ، ورغم ذلك كانت تشعر بالضجر . وبعد ذلك - ألم تسافر الى هنا وهي عازمة على ان تتحدث الى اكبر عدد من الناس حول : ماهي الفاشية وماهي الحرب الحديثة ؟ من النادر ان تجد لذلك فرصة افضل من مثل هذا الاجتماع

الى امي ١٦ تشرين الأول ١٩٤٦ نيويورك :

"... انه لأمر ممتع للغاية الاستماع الى النساء من كل ارجاء العالم . من بغداد هنا امرأة واحدة من بين مريضاتي السابقات ..."

الى اسرة فويتبخ ٢٦ تشرين الأول ١٩٤٦

"العزيزة يارميلا وكارل . رسالتكما وصلت بالذات في اليوم الذي انتهى فيه بالنسبة لي نصف قرن من رحلتي الحياتية . اشكرك بحرارة يا يارميلا ، لانك تذكرت حتى يوم عيد ميلادي... شعرت بفرح كبير لاخبارك ، ولانك تعملين في التعليم . في الاجتماع الدولي للنساء والذي اساهم فيه لمدة ١٤ يوما ، تشارك ايضا معلمات و بروفيسورات للموسيقى . يعقد المؤتمر في الريف . الجلسات العامة في قاعة مزينة بالاعلام ، ولجان المناقشات في صفوف المدرسة او في المساكن الخاصة .

سرني ان تكون رسائلي قد خلفت عندكم مزاجاً رائقاً وانها كانت قادرة على افراحمكم .

كنت حزينة جدا في مين ولم اكن مسرورة حتى عندما كتبت لكم . غير ان هذا لايعني ان لا التفت لأرى باهتمام المشاكل الانسانية حولي ..."

كم من الوجوه المختلفة ، البيض والسمر ، وكم من المصائر والأمال . إن تنوع الازياء والملابس وحده يكفي : بدلات صيفية حديثة من جميع الاصناف . الساري الهندي والبوبو الافريقي ... فلاستا والمندوبه البولندية فقط ترتديان ملابس سوداء . البولندية ارملة حرب ايضا . توفي زوجها وابنها وبقي لها ابنتان . احدهما تزوجت بعد الحرب مباشرة وتنتظر الآن طفلا . ربما ستكون إيلين حاملا ايضا عندما تعود فلاستا . ولعلهم لم يكتبوا لأجل ان يكون ذلك مفاجنة بالنسبة لفلاستا . انهم بصورة عامة قليلا ما يكتبون . لم يتذكروا عيد ميلادها ايضا

خلال نصف العام الذي عاشته فلاستا في امريكا تغيرَ امر ما في علاقتها بالاهل . ليس بالوطن وانما بالاهل ، باقرب الناس اليها . فقد بدت لها التحفظات تجاه الاسرة في براغ بصورة مفاجنة تافهة وغير جوهرية . حقا ان ميلادا بالمقارنة معها ضخمة ، ليس بقامتها حسب وانما بتصرفها ايضا . انها تثير الضجيج الى حد ما وهي كثيرة الكلام . تسعى في الغالب لاثارة اهتمام المستمع ولاتحرص على الدقة في الحديث . لكنها طيبة القلب ومضحية ومرحة . بعد مرور كل هذه السنوات وبعد الكيلومترات العديدة تذكرت كيف انها وجدت المسكن الهادئ والمريح في اسرة ميلادا الفتية . كم من السنوات عاشتها عندهم ؟ عشر ؟ لا ، إنها اكثر . من الخامسة عشرة من العمر حتى التخرج من الجامعة . كانت تدرس ، ولم يكن عليها ان تهتم بأي امر آخر . وكانت ميلادا ترتب كل شيء . وقد جهزتها لرحلتها الكبيرتين الى بغداد والى هنا .

عندما تصل رسالة من براغ ، من الام او من ميلادا ، كانت تقول جاءت رسالة من الاهل . الاهل يكتبون لي . تقول هذا عن الرسائل المرسله من براغ وليس من برنارتيته . وعندما تشعر احيانا بالحنين - بالاضافة الى الحنين الخالد الى الاموات - تحن بالدرجة الاولى الى الاسرة في براغ والى عائلة رودولف - وليس الى يوراي او إيلين . يوراي عاقل وودي ويغني مثل رادبور ، غير انها لا تجد باستثناء ذلك شيئا آخر ، يربط بينهما . قبل ان تلتئم جراحه ، كانت تربط بينهما حقيقة انه يحتاج الى مساعدتها وكانت هي تجيد تقديم المساعدة له . اما الان فلم يعد يحتاج اليها

كادت فلاستا ان تنسى جيتكا . ولكن ما ان بدأت المندوبه البولندية الكلام ، حتى

ذكرها الصوت الناعم لهذه اللغة أمراً عاشته ، لحظة مريحة . كانت الغرفة تعج برائحة الطلاء ، الجديد للجدران والسقف ، وكانت جيتكا الجميلة ، تُغَيِّر بحزم ترتيب الاثاث : يا ماما هذه الاريكة نضعها هناك ، أليس كذلك ؟ يا ابنتي ، يا أمي - اي وهم هذا

٧

الى اهلي ٣١ تشرين الاول ١٩٤٦ نيويورك

"... هنا مازال الجو دافئا لدرجة كبيرة - فنحن على خط العرض الذي تقع عليه اسبانيا وجنوب ايطاليا واليونان . انتي ارتدي في الغالب ذلك الثوب الاسود من اسرة فويتسخ وانني دائما في شقق ذات تدفئة مركزية وفي قطار الانفاق اتصبب عرقا بصورة دائمة . وقد البستني ربة بيتي قبعة - انهم يلبسون هنا قبعات مثل التي يرتديها المجانين - ولكن لأنها موضة ، ويقول الآخرون انها تليق بي . لحسن الحظ إن اغلبية المشاركات مثلي يفضلن ان يكنّ فارعات الرؤوس ، لهذا فانا في الغالب اتركها في الفندق او احملها بيدي ..."

ولانه لم يكن في متناول يدها ورق للرسائل غير مكتوب ، كتبت على ظهر رسالة اخرى :

الى الدكتورة فلاستا كالالوفا دي لوتي .

السيدة الدكتورة المحترمة دي لوتي . اننا هنا في ماساريك تاون ومنذ تأسيس قريرتنا نحتفل بذكرى تحرير الجمهورية التشيكية في ٢٨ تشرين الأول . ونحتفل في هذا العام ايضا ... اذا كان باستطاعتك ان تشرفينا في هذا اليوم بزيارتك اللطيفة وان تقومي باغناء برنامجنا عن طريق القاء محاضرة عن وطننا القديم ، فأن ذلك سوف يفرحنا ... نأمل في ان لانثقل عليك بهذا ونرجو اخبارنا ان كان حضورك ممكناً ..."

قبلت الدعوة باحاسيس متضاربة بتأثر وبغضب . توماس هذا ، الذي وضع توقيعه في آخر الرسالة ، من ابناء الجيل الثاني بالتأكيد . انه لم يعد توماش ، حتى أمام نفسه ، واصبح توماس . مازال يعرف التشيكية وهذا يعني شيئا . لو إننا كنا قد جننا الى هنا واقمنا . ربما كان احفادنا سيكتبون التشيكية بهذه الطريقة .

انهم سيجهلون قواعد اللغة التشيكية ، ولكنهم كانوا سيعيشون ويولدون ويجهلون

قواعد اللغة التشيكية . ربما سيتملكني الحزن لذلك . يجد الانسان دائما سببا لنوع من الحزن

بعد المحاضرة في ماساريك تاون بوقت مبكر تلقت دعوة جديدة هذه المرة الى شينستادي وهي موقعة من قبل الدكتور كميل نيومان . هل هذا ممكن ؟ هل هو بالذات ؟ بالتأكيد فان كميل ليس اسما شائعا كان كارل فويتنيخ قد اكد عليها قبل السفر : فلستا اذا ما التقيت هناك بالدكتور نيومان ، بلغيه المزيد من التحية مني . حينذاك ابتسمت لهذا الرجاء . فمن الممكن ان تلتقي باحد ما في برنارتيته او في بيسيك ، ولكن في الولايات المتحدة . فهي كما تعلم ياكارل قارة . ورغم ذلك ، عثر على اسمها في الصحف بين اسماء المشاركات في المؤتمر النسوي كميل نيومان ، الصديق القديم الاصغر للوالد . درس عند المعلم كالال وكان يستعير الكتب . كتلميذ في الثانوية اولا ومن ثم كطالب في كلية الطب . قامت بينهما اواصر الصداقة . من براغ حيث كان يعمل كطبيب شاب للاطفال كان يكتب لأبي . وعندما جاء الى جنوب الاراضي التشيكية لم يفته التوقف في برنارتيته .

عندما التقيا قال لها " في السنة الاولى عملت بانعا للصحف . سافرنا الى امريكا من اجل الاطفال .

لم يكن الامر بالنسبة لنا نحن مهما . اردنا انقاذ الاطفال ونجحنا بذلك .

الى الدكتور فويتنيخ ٢٢ كانون الاول ١٩٤٦

"عزيزي كارل ... التقيت الدكتور كميل نيومان ، كنت بمناسبة القاء كلمة في ملعب سوكول ، حيث يعمل ، وحللت ضيفة في داره . والواقع كانت الامسية بكاملها بفضله ... فان اليهود مثل نيومان وفينوفي وتراوبوفي يقدمون بالنسبة للثقافة التشيكية الحقيقية اكثر مما يقدمه الكثير من ابناء شعبنا

انقل لك من الدكتور نيومان تحياته الودية . انه يفكر بالاراضي التشيكية وبراغ وتابور وستوبتشيته (التي ولد فيها) وبرنارتيته (التي جاءت منها امه) . انه يفكر بحرارة ، تجعلني لاسطيع تذكر وجهه المتأثر والمتأمل وقامته المنحنية بدون تأثير عميق . في الحديقة يزرع نوعا من فصيلة الزعتر وفي وسط بساط العشب يحيط بعناية بشبكة زهرة الربيع الوحيدة هنا والتي نجح اخيرا في زرعها ورعايتها . ما قيمة بساط العشب بدون زهور الربيع التشيكية . وهو يتوق عبثا للحصول على زهور البنفسج من عندنا . فان زهور البنفسج هنا

كبيرة ولكنها بلا رائحة . انه يذهب مع المجموعات لجني الفطر . ومكتبته التشيكية هنا تعتبر الى جانب مكتبة اسرة فينوفي الافضل بين المكتبات التشيكية التي رأيتها في امريكا قال انه يحاول ان يعرض للجالية التشيكوسلوفاكية في شينستادي عما قدمته له تشيكوسلوفاكيا التي علمته ، وكذلك لأن اليهود يستطيعون العيش في الشيخاخ كما يعيش البشر ..."

كانت شينستادي المكان الاول الذي استطاعت فيه فلاستا القاء محاضرة لابناء الجالية التشيكية باللغة التشيكية ففي كل مكان بما في ذلك في ماساريك تاون ، طالبوا في النهاية ان تتحدث بالانجليزية

عند اسرة فينو طبخوا على شرفها وجبة من الطعام التشيكي تتكون من الاجاص المغلف بالعجين المسلوق (شفيستكوفي كنيديك) وقد استخدموا الاجاص المجد بالثلاجة وكانوا يحصلون على الطحين بالاكياس من طاحونة يمتلكها احد ابناء الجالية التشيكية و يستخدم الطريقة التشيكية في عملية الطحن . وقامت اسرة نيومان باعداد الكعكة التشيكية المحشوة بخشارة اللبن وعنب الاحراش . ولأن فلاستا لم تأكل غير القليل منه قاموا بتغليفه لتأخذه معها

"هل عاد احد من يهود برنارتيتسه؟" سأل كميل نيومان عندما كانت على وشك الخروج من الدار . طرح السؤال بسرعة وكأنه كان يتجنب طرحه غيرانه إنثق دون ارادته .

"السيدة العجوز ماوتنيروفا"

"السيدة العجوز ماوتنيروفا؟ كم عمرها؟"

"ثمانون عاما ونيف ، انها اكبر من أمنا"

"ألم يعد احد من الشباب؟"

"لا ، على حد علمي لم يعد احد"

"بلغنيها التحية ... قولي لها ..." لؤح بيده ولم يكمل العبارة . لم يستطع . ثم ماذا يمكن ان يقول لامرأة في الثمانين ، شاهدت كيف يتقدم نحو الموت كل اشقائها واطفالها واحفادها ؟

انها في حال اسوأ من حالي ، ادركت فلاستا ذلك بشيء من الدهشة . غريب ان هذا لم يخطر ببالي حتى اليوم .

"بلغي براغ التحية يافلاستا " قال الدكتور نيومان عندما ودعها في محطة الحافلات العمومية " جسر كارل ، انه اجمل مكان في العالم وكذلك نافورة براخنر ، كيف يسمونها ؟ تيريزكا . وتشيشكوف - اتعلمين ، اين كانت عيادتي ؟ كانت هناك في شارع هوسوفكا باتجاه المرتفع ... قليلا الى اعلى في شارع هوسكوفكا كانت هناك حانة للبيذ اسمها " عند دراغيتشيفيتش " كنا نلتقي هناك دائما نحن اطباء تشيشكوف لتناول كأسا ، عند العودة من زيارة المرضى ، ونحرص ان لاتعلم بالامر زوجاتنا . غيرانه لم يكن من الممكن أن لايعلمن ، حيث كانت سياراتنا تقف في صف منتظم وكأنها في موقع سيارات الاجرة المنتظرة ."

ضحكوا . علينا ان نركب في الحافلة العمومية بسرعة ما دمنا نضحك .

عندنا تنمو ازهارالبنفسج لكنها أصغر بكثير من التي أراها هنا ، فكرت فلاستا ، ولكن كم هي جميلة وكم هي فواحة . في الاقل بالنسبة لنا ، اليس كذلك يادكتور ؟ هكذا هو الامر بالنسبة لكل شيء

آین رأیتک؟

في اللحظة التي اعلن فيها في مؤتمر النساء اسم تشيكوسلوفاكيا نهضت الكاتبة النرويجية إنغبورغ ريفلينغ هاغين ومشت عبر القاعة لتصافح فلاستا

انها طويلة القامة سوداء شعر الرأس ، نحيفة كأنها قادمة من معسكر الاعتقال ، كما كان يقال حينذاك في اوربا . وكان هذا حقا ، فقد جاءت من معسكر الاعتقال . من الجانب تبدو كالطير ، غير ان لها شفاها رقيقة وعيونا كبيرة مشعة . " إنني احترم تشيكوسلوفاكيا " قالت لفلاستا وواصلت " كنت في معسكر الاعتقال مع تشيكية وقد تحدثت لي كثيرا عن بلدكم "

في فترة الاستراحة ، عندما خرجت المندوبات الى الفناء ، للاستمتاع باشعة الشمس ، بحثت عنها فلاستا " انتظري فلسوف اريك اياهم " مدت يدها في فتحة الرقبة لتخرج الأطار الصغير وتُريها دراهوميللا ذات الجدانل وراديبور المتخذ هيئة الجد والمتجهم الى حد ما

"هؤلاء هم اطفالك " ابتسمت إنغيبورغ .

"هؤلاء كانوا اطفالي " وروت لها قصتها

قامت بينهما اواصر الصداقة . كيف حدث انني لم اعرفها حتى اليوم . استغربت إنغيبورغ . كيف حدث انني لم اعلم عنها شيئا ، فهي اختى . وفي نيويورك نظمت إنغبورغ قصيدة ونشرتها فيما بعد في نيويورك :

من هي تلك الضئيلة في الثياب السوداء ؟
يبدو كما لو أنني عرفتُها من قبل
حين التقت نحوي والتقت نظراتنا
المرّة تلو المرّة .

وحيث أعلنوا اسمها
واعطيت لها الكلمة ،
تحدثت حديث إنسان تحمل الكثير
لم يكن ذلك خطابا ،
كان زرقه
للمعرفة والحقيقة ،

في الوريد تماما
لم تذرف الدموع ولم تصعد الآهات :
ومثل الطبيب ، قدمت صورة موضوعية
عن بلدها المعذب ،
وطنها التشيكي .
عندها تذكرتُ :

إنني اعرفها
هذه الصورة محفورة في الذاكرة .
المرأة التي ترتدي السواد التي رسمها غويا
الحرب .

هي نفسها تعود من جديد .
بعد القرون
إمرأة غويا ، التي ترتدي ، السواد
والتي سلبَ منها كل شيء ، وسرِقَ منها كل شيء ،
تقف مستندة الى حجر الشاهدة
لقبر أطفالها

وجهت إنغبورغ الدعوة الى فلاستا لزيارة النرويج . ربما في الصيف القادم . وعدت فلاستا . أو في الصيف الذي يليه . لأنني في الربيع سأكون قد عدت للتو من امريكا ، ولهذا لا اريد السفر في الحال من جديد الى مكان ما . لا ، ليس مطلقا بعد سنتين ، من يدري ما الذي سيحصل لنا بعد سنتين . اعترضت أنغبورغ . تتوقفين في النرويج في الحال خلال طريق العودة الى اوربا . وافقت فلاستا . اشترت كتابا امريكيا لتعلم اللغة النرويجية . وخلال فترات الاستراحة في الايام الاخيرة لمؤتمر النساء ، كانت تحفظ الكلمات النرويجية بنهم .

ليس عليك ان تتعبي نفسك بهذا - اعترضت إنغبورغ - فنحن نتفاهم باللغة الانجليزية . غير انني لا اريد التحدث معك فقط يا إنغبورغ ، شرحت لها الامر كما فعلت ذلك من قبل للكثير من الآخرين . فعندما يذهب الانسان الى مكان ما ولا يعرف ولو قليلا من لغة اهل ذلك المكان ، يكون كالطفل ولا يستطيع الاعتماد على نفسه ، ولا بد من وجود من يرافقه بصورة دائمة . وهو مثل المصاب بعمى الالوان في معرض للصور ، لا يرى غير خطوط الاطار الخارجي للصورة ، لا اكثر من ذلك . ناهيك عن انني في حالة سفري الى بلدك اريد ان اتحدث للناس عن تشيكوسلوفاكيا وعن تاريخنا . كم يعرفون عن بلدنا ؟ القليل فقط كما هي معرفتنا حول النرويج

بعد ذلك قامت بجولة في هذا البلد الضيق الممتد طويلا والجبلي ، واكتسبت لديها صور كارل تشابيك عن رحلة الى الشمال لونا وحياة . القبب الخضراء المستديرة مثل كرات عجيب الازغفة المختمرة جيدا وقد كستها مثل ابر القنفذ اشجار الغابات الابرية . البيوت الخشبية في المروج والخلجان العميقة ذات الماء الهادئ والصامت تبدو مثل مرايا خضر . منات البحيرات الصغيرة والكبيرة ، وفي البحر بمحاذاة الساحل منات الجزر الكبيرة والصغيرة وكأن الاله في عبثه نثر هنا الماء والتربة حفنة بعد حفنة . على الشواطئ تنتشر المدن والقرى ذات الدور البيضاء النظيفة وهنا وهناك مزرعة فيها برج خشبي للاجراس . يعيش الناس هنا حسب اسلوبهم الخاص . فمن ابراج الاجراس تقرر الاجراس معلنة الظهيرة في اوقات مختلفة في المواقع المختلفة . لأن الاجراس لاتدعو للصلاة وانما للغداء

في البحر وفي البحيرات حركة السفن حيوية . فقد كان السفر بواسطتها دائما هو الاسرع والمألوف .

"يقال عندنا ان الارض تفقرنا والماء يجمعنا " قالت إنغبورغ موضحة . ذهبنا في السفينة البخارية من جيوفيك الى دارها في فريدهيم .

"يطلق على هذه عندنا مصطلح "الامثال والاقوال والحكم الشعبية ، وقد سمعت فلاستا منها الكثير . من بينها مثلا : " في كل مكان بيوت شعبية وليس من قلعة في اي مكان " يا للعجب ، فكرت فلاستا . كم هي مختلفة بل ومتناقضة المقاييس التي يمكن ان يتخذها حب الوطن . فنحن فخورون بالقلاع التشيكية " الانصاب التذكارية للامجاد الدارسة " نحن نريها لكل زائر ونروي عنها الاساطير ، وهنا يفتخرون لعدم وجود اية قلاع في بلدهم . هذا هو شأن الحب . نحن لانحب الاشياء الجميلة ، غير اننا نرى الجمال فيما نحب . وقد خيل لها ايضا انها تلمس شيئا آخر في هذا المثل النرويجي ، شيئا اكثر - الديمقراطية النرويجية .

"لا تخطني على هذا النحو ثانية " قالت برفض ظاهر إنغبورغ " الديمقراطية ، اين هم سادة الاقطاع من كبار ملاك الاراضي عندنا " كانت تعرف ذلك جيدا اليوم . فقد اشتغلت في خدمة كبار ملاك الاراضي منذ صغرها

في جيوفيك شاهدوا محلا لبيع الكتب ، كانت ام إنغبورغ ايام شبابها تعمل فيه بانعة للكتب . كما شاهدوا الدار المكونة من طابق واحد والتي كانت في السابق قسما داخليا هنا عاشت مع اختها سنة كاملة ، ولكن كان عليها ان تقتر لسنوات من اجل ذلك ومن اجل جهاز الزواج ايضا ، والذي كان محددا بدقة مسبقا . فجأة وجدوا ان ما ادخروه لا يكفي لشراء شيء واحد : لشراء القش - التبن - لحشو الفراش . وكاد هذا الامر يضيع فرصة التعليم لهما لولم تخطر في البال فكرة حشو الفراش بأوراق الصحف القديمة . كان الفراش المحشو بأوراق الصحف يبعث صوتا لم يكن مريحا لزملاء الدراسة في الحضيرة التي استخدمت باعتبارها ردهة مشتركة للنوم .

٢

فردheim دار بسيطة وهادئة . لو توقف الامر على إنغبورغ وحدها لنثرت كل يوم سبت فوق الارضية المجلية للتو اغصان العرعر كما كانت تفعل امها . فما زالت رائحة العرعر تفوح هنا حتى اليوم .

عندما جلست فلاستا لأول مرة في فريدهيم حول المائدة ، قدمت هيلدا ، التي تقوم بدور ربة البيت لاختها هنا ، لكل منهما صحنا من الفخار فيه بعض البطاطة والسّمك المشوي في الفرن ، وكوبا من الفخار فيه حليب . كان ذلك طعاما جيدا وقد أعطى الصمت طابعا

احتفاليا للعشاء . ثمة شعور غير معبر عنه بالامتنان والطمأنينة ففي هذه الدار يدركون جيدا ان الاكل حتى الشبع حول مائدة الاصدقاء . ليس امرا مألوفا

"لماذا لم تتزوجي يا إنغبورغ ؟ سألت فلاستا مرة عندما كانتا لوحدهما سألت بصورة مباشرة كعادتها " ألم تعثري على احد يستحق ان يكون زوجا لك . ام انك لم تبجى عنه البتة ؟ "

"كنت اريد ان اكتب يافلاستا . منذ الرابعة عشرة من العمر . كنت اعلم بأنني سوف اكتب في يوم ما عن كل شيء . كيف نعيش . لماذا مات ابي . ولماذا مات في السابعة عشرة من العمر اخي هارولد . أكتب عن كل شيء . عندما يقرر الانسان ان ينزل الى الشارع ليصرخ : انكم تدوسون علينا . تدوسون على من لاحول لهم ولا قوة . انتم تسندون قصوركم بظهورنا المقوسة . ولا تكثرثون لكرهنا لكم . تريدون امرا واحدا وهو ان نلتزم الصمت . وعندما يقرر الانسان ذلك . ليس من حقه ان يورط احدا في هذا الأمر . عليه ان يبقى وحيدا . وان يتحمل مسؤولية اعماله وحده . لأجل ان لايقول له احد : ارجوك . من الافضل ان تلزم الصمت . لاتشيرهم . اصمت من اجلي في الاقل . من اجل الاطفال . لهذا لم اتزوج"

كان ذلك على حافة غابة اشجار الصنوبر . وقد إحمرت جذوع الاشجار تحت اشعة شمس الاصيل . وقد انتشرت البيوت الريفية في اسفل السفح كأنها لعب الاطفال . وبعد ذلك يا فلاستا " قالت إنغبورغ بصورة غير منتظرة في ذلك الجو العاطفي لما قبل المساء . " انني لا أستطيع ان أكون في يوم ما ، ما يقال له زوجتي . كما يقال حداني او سجانري . عندما احتاج اليه . ينبغي ان يكون في متناول اليد وعند عدم الحاجة اتركه حيثما يخطر ببالي . هذا ما لا استطيعه يا فلاستا . انهم يريدون امرأة مطيعة متواضعة وشغولة . وبعد ذلك تستثار اعصابهم حينما يرون انها متبلدة . أليس الامر عندهم كذلك ؟ "

هم . لعلي لم افكر في هذا مطلقا . قالت فلاستا معترفة . ابي كان يشني على امي وكيف انها ذكية وشاطرة " كان لك الفضل يا أنيتا في انجاز نصف عملي " . ولكن عند استقبال زيارة كان من المسموح لامي وقد صفت شعرها بشكل جيد وارتدت الصدرية البيضاء ان تحمل القهوة للسادة الرجال . ويتحدث الرجال بعطف معها لحظات - حول الاطفال وحول الحديقة احيانا . حول اي موضوع آخر يمكن التحدث مع المرأة . وبعدها كان بمقدورها ان تعود الى

المطبخ (الى اي مكان آخر غير المطبخ) . ولم يكن هؤلاء ، اي محبين للقديم بل من الرجال الواعين والتقدميين ، معلمين وأساتذة وأطباء

فلاستا نفسها لم تسمح بذلك . لم يلبسها أحد الصدرية المنشأة ولم يدفعها احد الى المطبخ . كان جيورجي يشعر بالارتياح لأن له زوجة متعلمة كانت ترى مدى ارتياحه وسروره حين يسمع اجاباتها الصائبة . بعد ذلك ادرك بدون اي سبب انه رجل وان عليه ان يلعب الدور الأول . في مثل هذه الحالات كان يثور حقاً : مثل هذا الامر لا يمكن ان تسمح به الايطالية مطلقاً تجاه زوجها . الايطالية سوف تنفجر حتى يهتز زجاج النوافذ . فكرت فلاستا . لعل أمراً جيداً أن تكون في بعض الاحيان عاصفة من هذا النوع . ففي اي وقت آخر يمكن ان يظهر قوس قزح ان لم يكن بعد العاصفة ؟ لعل هذا ما كان ينقص حياتنا الزوجية . كنت ادعه دائماً يصرخ على هواه في حين كنت ابتسم باستمرار . كان جيورجي يغضب ويأمر ويوجه وانا صامته واعمل ما اريد بهدوء ، لايلفت النظر وكما اريد . للأسف اننا لم نتشاجر بصورة جيدة أبداً . غير أن ذلك لم يكف من طبعي ولم اشأ أن اقوم بتمثيل مسرحية .

" يروق للرجال ان يفخروا بالزوجة الجميلة " قالت إنغبورغ وهم ينزلون عاندين نحو النوافذ المضاءة لفرد هيم . " انهم صيادون منذ اقدم العهود : انظر ماذا قد اصطدت . وأنا لم اكن جميلة في اي يوم من الايام . لنقل انني كنت ذكية ، وسريعة الفهم ، غير ان المرأة الذكية لاتمنح الرجل مزيداً من الثقة بالنفس . إنهم يفضلون الف مرة ان تسير الى جانبهم بين الناس أوزة جميلة من امرأة ذكية . ولعل من الممكن ان تشير الانطباع - عسى ان لايسمح الرب بذلك - في انها اذكى منهم . الذكية يمكن ان تكون صديقة ، هذا امر يحظى بالتقدير . اما الزوجة فينبغي ان تكون جميلة ومخلصة . ولهذا فضلت ان اكون تلك الصديقة . لدينا هنا عادة شعبية " تذكرت فلاستا " اذ يضعون للفتاة عند الاستحمام الأول شريطاً احمر ، لأجل ان تكون جميلة ويضعون الى جانب الولد كتاباً ، لأجل ان يكون ذكياً ، انه نوع من تقسيم العمل .

" غير انهم ينسون ان الأم الحمقاء لايمكن ان تربى لهم ابناء اذكيا ، " قالت ذلك أنغبورغ عند باب الدار .

سبق لها ان سمعت هذه العبارة . تذكرت فلاستا . هذه العبارة بالضبط رغم انها كانت بلغة اخرى ، لم تتذكر اين الا في وقت متأخر من المساء ، عندما كانت وحيدة في الغرفة

الريفية البسيطة . قال هذه الجملة حينذاك نعمان في المسجد الملكي ، حين القى محاضرة عن النساء . قالها بالضبط هكذا

كيف حاله الآن ، وهل مازال حيا ، فكرت فلاستا ، عليّ ان اقوم بزيارة بغداد وبين شبن النوم فكرت كيف ان صديقي يشبه احدهما الآخر ، ليس من حيث المظهر الخارجي بالطبع وانما من حيث الرأي والعلاقة بالعالم . لعل ذلك بسبب ان الانسان يختار الاصدقاء من ذوي الاراء والمصالح المشابهة لارائه ومصالحه . ولعل ذلك ليس بالامر الجيد فإننا نسمع منهم ما نريد ان نسمعه وما نقوله نحن فقط ، مجرد صدى . من المؤكد انه ليس من الجيد ان لانستطيع ان نكون اصدقاء ممن يفكرون بطريقة مختلفة تماما

٣

تعرفت فلاستا على ارلينغ في الحال ، في اول يوم احد لاقامتها في فردهيم . جاء في وقت مبكر في الصباح ، عند ما كانوا يتناولون الفطور .

" هذا ارلينغ " قدمته إنغبورغ ببساطة " نعرف بعضنا منذ ان وجدنا في هذا العالم . " رحبت به هيلدا وحملت له الفطور .

في وقت مبكر عثرا على مواضيع مشتركة للحديث : المدرسة ومهنة التعليم . وكذلك كومينيوس واندرسون . تحدث ارلينغ عن عمله في مدرسة فورمسوند . وتذكرت فلاستا عمل ابيها

كان واضحا عليه حبه الكبير لمهنته . تدرج اليها بالصعوبة نفسها مثل إنغبورغ . كان ابوه متعلما ، يعمل في البناء غير انه لم يشأ ان يسمع شيئا عن امكانية دراسة ابنه ايضا . ما جدوى المدارس ؟ انه سوف يعتاد على الكسل . بالاضافة الى ذلك ان المدرسة تكلف تقودا ونحن نحتاج النقود لاغراض اخرى . في حالته كان يحتاجها بصورة رئيسة لشراء الكحول . على الصبي ان يشتغل ويكسب . فهو قوي لدرجة كافية . وهكذا ذهب ارلينغ الى العمل . اشتغل في مصنع لاتاج الزلاجات . وبقي يعمل هناك الى ان وفر ما يكفيه للدراسة في معهد المعلمين . انه يدرس في مدرسة من صفين ، على بعد اربعين كيلومترا من اوسلو .

عندما بدأت العمل هناك وجدت في نهاية القرية دارا خشبية ، فقيرة كأنها معدة

للجنود . كانت الجدران الخشبية في الداخل مطلية بلون رمادي ، لانه كما يقال لون العمل ، الذي لا يتسخ ، وطلبت الرحلات والادراج والابواب بالبني الغامق . تصورت اولئك الاطفال وكيف كان عليهم ان يتركوا خارج الصف كل العالم الملون ، السماء الزرقاء وزهور المروج والاشجار الخضراء وفي الشتاء الثلوج وكيف كان عليهم قضاء بضع ساعات في المدرسة التي تذكر بالسجن . وقد جاءت إنغبورغ لزيارتي هناك وقالت هذا امر فظيع . وفكرنا بما يمكن ان نعمله . دعت عددا من الاصدقاء والفنانين التشكيليين ، وقمنا معا بادخال شيء من النور الى المدرسة . على اية حال ، تعالي لتري

"لدي هنا صور فوتوغرافية " تذكرت إنغبورغ " حقا انها غير ملونة ولكن على الرغم ذلك ... " نهضت لتأتي بها

"لا إنغبورغ " اوقفها " لاتريها الآن شيئا ، تعالوا يوم الاحد القادم " . امتد الطريق مرتفعا بين الاسيجة القروية . وقد جاء ارلينغ ليستقبلهم حتى موقف سيارة الحافلات العمومية مع زوجته الصامته والمبتسمة . فوجئت فلاستا بأمرين : ان زوجة المعلم شابة الى حد بعيد وانها على وشك الولادة . كان ذلك الامر واضحا لا يقبل النقاش .

وصلوا الى دار طويلة ذات طابق واحد فوق المرتفع ، كانت تبدو من الخارج بنائية مملدة . منحتها شيئا من الانس واللطافة مجموعة من اشجار البتولا الفتية ، التي غرسها المعلم هنا والتي بدأت تورق قليلا . اما اشجار الفواكه في البستان القريبة من المدرسة فما زالت في دور السبات .

فتح ارلينغ باب الدار ، فتراجعت فلاستا خطوة الى وراء بصورة لا ارادية : ففي الرواق كانت الشمس ساطعة ، وكانت كذلك في الخارج ايضا ، غير انها كانت ماتزال ربيعية شاحبة وفقيرة الدم . مدخل المدرسة والممر يسبحان بلون ذهبي ساطع . كان الامر بسيطا . اذ كان كافيا ان يتم طلاء الواح الجدران باللون الذهبي الفاتح والزيتي اللامع . مشبكات السلالم نحو الطابق الاول طلعت بلون ازرق سماوي وقد رسمت عليها الزهور . وطلتي المشجب بشكل الطاووس والوان ذيله . وتحولت الصناديق الاعتيادية لحفظ اللعب ووسائل الايضاح الى صناديق مختلفة الالوان .

الجدران في الصف الاول زرقاء فاتحة ، والاثاث وردي مزين برسوم الزهور . كما ان السبورة محاطة باطار من رسوم الزهور . ورسم الفنان على الدرج صورة استوحاها من اغنية

شعبية نرويجية . للصف الثاني سقف ازرق غامق وقد رسمت عليه خارطة نجوم سما ،
الشمال

فلاستا لاتفهم الصور ، وبعض هذه الالوان بالنسبة لذوقها صارخة ، غير انها تدرك أن
عليها ان لاتدخل في ذلك ، لأنها ليست طفلة وليست نرويجية . فهنا في الشمال تكون
السما زرقا فاتحة وواضحة او رمادية لؤلؤية ويكون غروب الشمس ورديا وريقا . انها تعلم
امرا واحدا بالتأكيد : لو انها كانت طفلة لأحببت الدراسة في هذه المدرسة . ولو كانت
طفلة من قرية مجاورة واضطرت الى الدراسة في مدرسة اعتيادية رمادية لشعرت بالحسد تجاه
اطفال هذه المدرسة

فجأة تذكرت وبصورة حادة وواضحة صف القباقيب ، امام باب الصف الذي يدرس فيه
ابوها . لم تكن حينذاك قد دخلت المدرسة بعد ، لابد انها كانت صغيرة جدا . لعلها جاءت
حينذاك مع امها او مع ميلادا . كانت القباقيب في الممر على البلاط . وفي الصف كان
الاطفال حفاة . خارج المدرسة يحتذون قباقيب ذات كعوب مفتوحة حتى في اوقات الثلج
حينذاك كان الاطفال اكثر تحملا للبرد . انه الاختيار الطبيعي :فاما ان يكونوا قادرين على
تحمل البرد أو انهم يموتون

الغرفة الكبيرة في الطابق الاول تابعة لبيت المعلم ، غير ان ارلينغ كثيرا ما يدعو الاطفال
الى هناك . يجلسون على الارضية فوق السجاجيد المقلمة المحاكة يدويا في المنازل . عدد
الكراسي هنا كاف وهنا اريكة مغطاة بغطاء محاك ايضا . غير ان الاطفال يفضلون الجلوس على
الارض . والمعلم يتحدث لهم او يعزف على البيانو . بعض الاحيان تتحدث لهم إنغبورغ
ايضا ، عندما تكون في زيارة في فورمسوند . على الجدار المواجه للغرفة علقتم صورتها
المكبرة .

هيات زوجة ارلينغ المائدة لوجبة الغداء . كم عمرها ياترى ، خمسة وعشرون ، ارلينغ
يكبرها عشرين عاما ، تزوج متأخرا ، بعد الحرب ، بعد ان عاد من المنفى في السويد .
ولكن لماذا بقي قبل ذلك عازبا . فكرت فلاستا . لعله كان ينتظر . ربما سوف تغير إنغبورغ
رأيها وتبدي رغم كل شيء استعدادا لأن تتزوج . "فضلت ان أبقى صديقة" قالت إنغبورغ
قبل فترة قصيرة حين عادتا الى فريدهيم .

بعد الظهر جاء اصدقاء اسرة ارلينغ من القرية ، معلمون من الضواحي القريبة . تحدثت

فلاستا عن تشيكوسلوفاكيا وعلمت منهم ان الفيرماخت الالماني خلف وراءه في شمال النرويج في فينمارس عشرات المدن والقرى المحروقة . ولم يخرج من الحرب احياء الكثير من الصامدين وبينهم الكثير من المعلمين . وبقي الآخرون احياء بفضل نجاحهم في الهروب الى المنفى في السويد كما فعل ارلينغ

عند المساء عادوا في الحافلة العمومية . ذهب ارلينغ معهم فقد اراد ان يرافقتهم . في احدى المدن الصغيرة مروا بجانب بحيرة ، الآن في هذا المساء الربيعي توجد زوارق صغيرة كثيرة . كانت هناك بضعة زوارق شراعية ايضا انعكس بياض اشعتها على سطح الماء ، إنها تعوم بكبرياء كما يعوم البجع .

"منذ مائة عام لم اركب زورقا صغيرا" . قالت إنغبورغ بحنين .

كانت الحافلة العمومية قد توقفت في تلك اللحظة بالذات ، ترحلوا في اللحظة الاخيرة ، تدفقوا ضد تيار الركاب الصاعدين الى الحافلة كما يفعل اطفال المدارس المشاكسون

من الكشك على الشاطئ استأجروا زورقا صغيرا ، وبعد لحظات انغمروا في حشد الزوارق .توجد هنا عوائل بكاملها مع الاطفال وبنات في عمر الزواج وشباب يجذفون في الاتجاه المعاكس في مجموعات ، يتبادل الناس التحايا ويتوقفون برهة ، الزورق جنب الزورق ، وينادي بعضهم البعض ويتبادلون الطرف والمزاح . انها نزهة الاحد لسكان منطقة البحيرات .

بعض الزوارق تعتزل جانبا ، اباء الاسر في خلال نزهة ما بعد الظهر يصطادون السمك . انهم في الحقيقة يصطادون عشاء يومهم . انه أمرٌ مناسب . ففي نرويج ما بعد الحرب لاتتوفر حتى الآن مواد غذائية كافية

انهم يخرون عبر البحيرة و في احد الشواطئ تميل شوارع المدينة حتى الماء ، ويغسل الماء حفاقي الملاط ويصطدم بدرجات السلالم صاعدا حتى أفنية الدور . وعند الشاطئ الثاني تمت غابة اشجار البتولا حتى حافة الماء .

هنا يذهبون لجني الفطر في الزوارق "قال ارلينغ ضاحكا

مالت الشمس نحو الغروب . كانت طوال اليوم شمالية شاحبة . وهي الآن مثل ثمرة مشمش ناضجة بشكل رائع وجميل . وفي اللحظة التي مست بها سطح ماء البحيرة اتخذت البحيرة لونا ذهبيا ، والسماء حمراء ذهبية ، ومال لون بشرة الناس الى الذهبي . خيم

الصمتُ الآن في الزورق . وقف الجميع لتأمل غروب الشمس

في تلك الظهيرة من شهر اذار ، عندما كانوا يجلسون في غرفة فورمسوند المضيئة وحين كان ارلينغ يعزف على البيانو موسيقى غريغا خطر في ذهن فلاستا بلا سبب : هكذا سوف ارتب بيتي القادم في براغ . لقد اثبت البيت في برنارتيته وفق الاسلوب الشرقي ، السجاد الفارسي والأرائك المنجدة والأواني النحاسية المطروقة والوجاق . كان هذا مناسباً بشكل رائع لذلك البيت الحجري البارد . وهناك لن أُغَيَّرَ شيئاً . ولكن في براغ سيكون الاثاث بسيطاً وفتحاً وشمالياً . سوف اجد غرفة مشمسة ذات نافذتين ان امكن تطل على منظر واسع

كانت السنة التي قضتها في امريكا وفي النرويج متعبة وفي اغلب الاحيان حزينة ، لكنها اعادت لها الثقة بالنفس . فهي مازالت تستطيع تقديم شيء ما وتحمل شيء ما ، حتى جسدياً . شعرت من جديد بالرغبة في أن تعيش بين الناس . كانت تفكر حين غادرت في العام الماضي في الطائرة : ربما سوف تموت هناك بعيداً في الغربية ، وهاهي تشعر اليوم بالحياة .

كانت تميل دائماً الى الوحدة ، ولكن ايضا الى الناس والحركة . الامران بصورة متوازنة . كيف حدث انها كادت تنسى ذلك ؟

في السابع من أيار رافقت إنغة فلاستا الى اوسلو ، الى المطار

"عديني بانك سوف تأتين يا إنغبورغ في وقت مبكر ، في غضون هذا العام او في صيف العام القادم " اكدت فلاستا بالحاح .

"سوف آتي . آتي بالتأكيد ، غير ان هذا ليس الأمر الأكثر أهمية يا فلاستا . فنحن الآن بصورة دائمة معاً . الاصدقاء الحقيقيون يكونون معاً بصورة دائمة ، رغم ان مسافات بعيدة تفصل بينهم"

تبادلنا قبلات الوداع . "وداعاً يا اختي ، والى اللقاء"

بعد الظهر كانت فلاستا في براغ . جاءت ميلادا وزوجها لاستقبالها في المطار .قضت الليلة عندهم ، ومن غير الممكن القول انها نامت . فقد تحدثت حتى الفجر عن رحلتها الكبيرة .

في الصباح الباكر سافرت في الحافلة العمومية الى برنارتيته . كان ذلك يوم الثامن من

ايار . وكانت قد وعدت في العام الماضي عند سفرها قائلة : سوف اعود في الوقت المناسب ، اذا بقيت على قيد الحياة ، سأكون معكم في الثامن من ايار دائما . وبعد ذلك ابقى معكم .

الحافلة تتأرجح عبر المدن والقرى الصباحية ، التي يغلب عليها النعاس

جاءت بهدايا ليوراي وايلين وفكرت بجيورجي ورادبور ودراهوميللا . اغمضت عينيها وحاولت استعادة وجوههم ، ليس وجوها من الصور الفوتوغرافية ، وانما تلك الوجوه النابضة بالحياة المتغيرة والحقيقية . بصورة بطيئة تفككت تلك الصور

براغ للمرة الثالثة

في خريف عام ١٩٤٧ ارسلت فلستا الى اصدقائها عنوانها الجديد . فقد عثرت على بيت لها على شاطئ نهر فلتافا ، قرب جسر بالاتسكي . ويتكون من غرفة للايجار عند سيدة عجوز . كان اصغر مما كانت تريد ، وكان مجهزا بالأثاث بصورة كاملة . لذا اضطرت الى ان تنسى الاثاث الاسكندنافي البسيط . ولكن كان هنا الهدوء والنظافة ، وكانت على بعد خطوات من المستشفى . أن موت طائر الكناري قد حسم مسألة استئجار هذه الغرفة . فعندما جاءت لأول مرة لترى البيت وجدت صاحبة البيت باكية : الكناري المُرَوَّض ، والذي اعتاد الجلوس على متكأ الكرسي والتحليق في البهو لاستقبال الضيوف ، مات قبل لحظات . في هذه الحالة لم تستطع فلستا بالطبع اضافة مزيد من الحزن لها برفض استئجار الغرفة .

لديها الان غرفة طلابية ، كما كانت في زمن ما في البداية . ما اسهل ان يُخَدَع الانسان . فإن النافذة ثلاثية الاجزاء بالواحها الزجاجية العالية والضيقة تذكرها بالنوافذ الثلاث في اسطنبول في دار العساف . هنا ايضا تطل على منظر جميل : على نهر فلتافا ، والى اليسار الصورة الظلية الجرافية للجسر الحديد ، على شاطئ سميخوف . والى اليمين في الخلفية الهيكل العام المحدد بدقة لقلعة هرادتشانى . انها من زاوية النظر هذه تبدو وقورة ودقيقة بشكل غير اعتيادي . بعد ظهر السبت وفي يوم الأحد تمخر تحت النافذة السفن البخارية البيضاء المملأ بالمتزهين . وفي المساء تمر هنا متمائلة بخفة سفن الحفلات الراقصة ، التي تعزف فيها الفرق

الموسيقية وعلى ظهرها تشع المصابيح المعلقة مثل القلائد

عندما لا تكون لديها نوبة عمل في المستشفى تقضي فلاستا وقتها في الأغلب في البيت . كانت تستجمع قواها للعمل العلمي ، وكانت احيانا تكتب الرسائل . فقد اتسعت المراسلة بعد عودتها من امريكا ومن النرويج الى حد كبير ، وبدأت تأخذ الكثير من الوقت . كانت إنغبورغ تكتب لها بسخاء وفي كثير من الاحيان . وارسلت الى فلاستا قصاصة من مجلة نرويجية تتضمن قصيدة لها حول رادبور ودراهوميللا ، وقد كرست المجلة للقصيدة صفحتين كاملتين ونشرت صورة الطفلين كما نشرت معلومات مختصرة عن مأساة برنارتيته . وكتبت إنغبورغ ان القصيدة اثارت اصداء واسعة في النرويج ومن الممكن رؤيتها مؤطرة في البيوت .

إلى ماريا تاور في برنو . ٦ تشرين الثاني ١٩٤٧

... لا ادري ما اذا كنت قد كتبت لك ، ان يوراي وايلين ، قد انتقلا وبصورة مفاجئة في نهاية شهر أيلول الى سلوفاكيا وقد ارتحت لذلك ، لأنها كانت لا تكترث بترتيب البيت ونظافته ، وهذا يمكن ان يمثل بالنسبة لي مشكلة كبيرة لو استمر . كنت مضطرة ان أقوم نيابة عنهم - وانني لمضطرة حتى الان - كلما عدت الى برنارتيته ، بتنظيف الدار وغسل الارضية والتصليح . ولم تكن لذلك نهاية . الدار الان خالية تماما . ألا تريدن مكالمة الغرفة الطبية المورافية ، لمعرفة ما اذا كان لديهم زميل ، مريض بصورة مزمنة . مع اسرته ليس لديه بيت يقيم فيه ويرغب في الانتقال الى هذا المقر الريفي الطبي في الربيع ؟ لقد سبق ان عرضت على الغرفة الطبية التشيكية استخدام الدار لهذا الغرض . ولكن يبدو حتى هذا الحين ان ليس هنا من هو بحاجة الى ذلك . من الممكن ان يقيم في الدار طبيب مريض او طبيبة الى ان تموت"

حتى في مورافيا لم يجدوا احدا ، وبقيت الدار في برنارتيته تنتظر الطبيبة التي ستعيش هناك حتى نهاية حياتها

٢

انها تعمل الآن في مستشفى البروفيسور ديفيش الجراحي في كارلوفي ناميستي (ساحة كارل) . وهي تعرف البروفيسور كما تعرف اغلبية زملاء القدامى أو انهم عرفوا عنها ما يكفي لان تكون موضع احترامهم وثقتهم . بعض الاطباء الاصغر سنا رفعوا حواجبهم بالطريقة

امراة؟ و في قسم الجراحة؟ اضافوا : في عمرها؟ يقال انها جاءت من مكان ما من الريف؟

لم تقدم توضيحا لأي شيء ، انصرفت الى القيام بعملها ، وقدمت لزميلها الاصغر سنا المشورة والمساعدة في بعض الحالات ، وترجمت نصوصا من مجلة متخصصة . بعد ذلك وصل في زمالة دراسية طيب بلغاري شاب . تفاهم معه الجميع باللغة الالمانية ، غير ان فلاستا رفضت ذلك لانها ترفض الحديث بالالمانية من حيث المبدأ . اذن كيف؟ الروسية؟ الزميل لايعرفها الا قليلا . الانجليزية؟ معرفته بها قليلة ايضا . نعم انه من الجنوب ، من اختوبولا ، من منطقة الحدود التركية ، ويجيد اللغة التركية . استمع الزملاء بدهشة . كيف يتحدث هذان الاثنان بلغة تبدو غامضة ورنانة مثل العزف على الكمان . هل يتحدث احد هنا بصورة عامة بلهجة الاستصغار عن النساء القادمات من الريف؟ ايدا ، ما الذي يخيل لكم .

لم تعمل في المستشفى بموجب عقد عمل دائم وانما بموجب اتفاقية حول العمل بالقطعة لأجل ان تستطيع الاستراحة في الصيف لبضعة اشهر ، وكذلك لانها لم تشأ ان ترتبط بصورة دائمة . كانت تحب الحرية اكثر من حبها لأي شيء آخر . كانت إنغبورغ قد كتبت انها لا تستطيع المجيء ، هذا العام بنفسها لزيارة فلاستا ، لكنها تريد ارسال بنت اختها تونا لقضاء الاجازة عند فلاستا . وكانت نرويجية اخرى اعلنت انها سوف تصل في شهر آب هي الممرضة الشابة بيرتا والتي تعرفت عليها فلاستا خلال زيارتها في المستشفى في اوسلو .

وصلت تونا في شهر تموز . وفي وقت مبكر جدا ان لهما هوايات مشتركة : ركوب الدراجات الهوائية والاعاني الشعبية وكذلك الازياء الشعبية . لنذهب الى سلوفاكيا ، قررت فلاستا فهناك نبلغ قمة الاستمتاع في كل هذا .

الى ماريا ٢٤ تموز ١٩٤٧

"... قضينا الليل في فندق بالاتس في لوهاتشوفيتسه ، بعدها انطلقنا على الدراجات عبر كومتا الى اوهرسكي برود ، وسافرنا بالحافلة العمومية الى نيفميتسه ، ومن هناك على الدراجات الى فيليكا - وقبيل حدود مورافيا نصبنا الخيمة لقضاء الليل قرب جدول . وفي

الصباح واصلنا عبر مايوفا الى هنا

الايام جميلة وكأنها لوحة . فإن المنطقة هنا قبيل الحصاد ، وعلى جانبي الطريق تمتد حقول القمح العالي والناضج والذي اكتسبت سنابله لونا نحاسيا

وتلونت حواشي الحقول بالألوان الاحمر والازرق والاصفر بفضل الزهور . وقد اكتسبت تونا سمرة غامقة واصبح لون بشرتها اغمق من لون شعرها

هنا عند جوانب مرتفع برادلو كان الكثير من حشرة الدعسوقة كان رادبور وليديا يجمعانها . وفي كل مرة كانت تبدأ المراسيم نفسها : الانتظار حتى تدب الدعسوقة الى اعلى السبابة وترديد الازوجة (البنكاليينا طارت حتى نافذة الله ، وسكبت هناك كوب الحليب ، الى اين سوف تطيرين ، الى الجنة ام النار؟) ثم الانتظار الى ان تطير الدعسوقة .

هذا يكفي ايها الاطفال . فنحن هكذا لن نصل حتى عند منتصف الليل . غضب جيورجي . "انديامو ، با مبينو !" دراهوميلا استجابت اما رادبور فهيتهات . في النهاية امسك به جيورجي وسحبه الى قمة المرتفع . استشاط رادبور غيظا وقد تجمّع الناس حولهما لم يكن ذلك مريحا حينذاك ، اما اليوم فانه ذكرى جميلة ومؤلمة"

حشرة الدعسوقة هذه قليلة هنا حقا في هذا العام . بحثت فلاستا حتى عثرت في نهاية الامر على واحدة منها ، واعطتها الى تونا وترجمت لها الازوجة إلى اللغة النرويجية . ضحكت تونا وبدأت تجمع الدعسوقات . كانت تقوم بذلك بصعوبة . لأنها كانت تمسك بيد واحدة الدراجة الهوائية والامتعة .

عند المساء نصبنا الخيمة مرة اخرى . فقد وجدنا مكانا جميلا وقررنا المكوث فيه طوال اليوم الثاني والاستراحة قبيل مواصلة الطريق .

كانت فلاستا قد اشترت في مايوفا مجموعة من بطاقات البريد ، وفي الصباح الباكر ، قبل ان تستيقظ تونا ، كتبت بطاقات التحية . وعندما كانت تفكر فيما سوف تفعله ببطاقات البريد تلك ، وكيف انها يمكن ان تتجدد في حقيبة الظهر ، أقبل فريق من الشباب الكشافة وهم يمشون مشية الأوزة . انهم من المخيم القريب ، اذ لمحتاهما هناك يوم امس . كان بينهم فتى فارغ يرتدي بنطالا قصيرا ، من الواضح انه قائدهم . هل ستذهبون الى القرية ؟ الا يضيركم لو اخذتم بعض البطاقات لايداعها في صندوق البريد ؟

"نعم ، اننا ذاهبون الى القرية ، تفضلي فاننا سنأخذ البطاقات . الا تريدان ان نشترى

لك شيئا من القرية؟"

توسلت اليه ان يشتري لها صحيفة من صحف اليوم ، ولاحظت كيف انه تراجع عندما جاءت بذلك " البعض " من بطاقات البريد . فإنه لم يكذب يستطيع أخذها في يديه .

في طريق العودة جاءها بالصحيفة اليومية ، واعاد النقود الصغيرة المتبقية . وقد توانى لحظة اخرى . عرفت انه يريد ان يقول شيئا ولا يدري كيف يبدأ

بعد ذلك اعترف قانلا : ارجو من السيدة ان لا تغضب ، اذ انني القيت نظرة على بطاقات البريد تلك ، هكذا وانا امسكها في يدي ، ووجدت انها مكتوبة بمختلف اللغات .

حتى بحروف غريبة لم أرها في حياتي
ابتسمت فلاستا " انها العربية"

"وأنت تعرفين كل هذا العدد من اللغات؟"

هزت رأسها موافقة .

"الآن احدى عشرة او اثنتا عشرة لغة ، ينبغي عليّ ان احسب ذلك ."

"إثنتا عشرة لغة ، ليتني اعرفها ايضا . غير انني لم اقدم نفسي بعد

عرفته على تونا . كانا متقاربين في العمر

"تعال لزيارتي في برنارتيته " دعتة فلاستا عند الوداع ، فانا سوف اعلمك احدى تلك

اللغات ، في الاقل شيئا بسيطا منها

اثار ذلك الدهشة لديها بالذات ، فهي تراه للمرة الأولى . غير انه كان فتى لطيف

اكتفت في انه اعترف بخجل باختلاسه النظر الى ما هو مكتوب في بطاقات البريد

جاء فلادا شتيفانيك من مدينة جيلين حقا في نهاية الاجازة الصيفية الى برنارتيته

ومكث هناك اكثر من اسبوع . وقد علمته فلاستا اللغة الانجليزية والنرويجية ايضا ، ليستطيع

في الاقل الحديث قليلا مع ضيفتها النرويجية الثانية ، مع برتا من اوسلو . قررت برتا البقاء

في تشيكوسلوفاكيا مدة سنة . اذ وجدت لها فلاستا فرصة للعمل التطبيقي في

مستشفى العظام في براغ

الى فلادا شتيفانيك ٢٨ كانون الاول ١٩٤٨ :

"... تجمدت مياه نهر الفلتافا وبالأمس اصبح لونه اسود بفضل حشد المتزلجين عليه .

لهذا فإنني افكر في ان اترك كل شيء بعد الظهر وأخذ برتا معي من اجل ان تتزلج في

الاتجاه المعاكس لمجرى النهر ، من جسر بالاتسكي حتى فيشهراد ومن ثم الى برانيك . فهناك جمال خلاب . براغ في غاية الجمال لدرجة ان من الممكن الابتهاج ، المرة تلو المرة ، بشيء جديد فيها : صفوف الاشجار ومجموعات الروائع المعمارية والجمال الطبيعي ، وحين يعكس النهر اشعة شمس الغروب فوق صفوف اشجار الحور بمحاذاة الشاطئ . وعندما يخيل للمرء ان انطفاء سحائب الغيم يعني انتهاء كل شيء ، تبدأ الحكاية الساحرة للابراج الزرق في الروعة الغامضة للسطوح واضاء الليل ...

الى فلادا شتيفانيك ٢٥ كانون الثاني ١٩٤٩

"في الاول من كانون الثاني ذهبنا معا على الدراجات الهوائية الى كنيسة دوبرونيتسكي الصغيرة...واخذنا معنا احذية التزلج على الجليد ووقفنا على سطح النهر المتجمد من الجانب الذي تغطيه الغابات ... انحدرنا الى ما تحت القلعة الى دار اسرة امي . لم يكن على النهر غير الاطفال . كان النهار في منتصفه..." .

هذا المكان يجذبها بشكل دائم . إنه من عالم الحكايات الشعبية : بيت ريفي تحت القلعة . كأنه من رسوم يوسف لادا* . كانت الام تقول انها تحب النظر الى نوافذ القلعة المهدامة وقد انارتها شمس الغروب . كانت تتصور ان جميع المصاييح قد انيرت في قاعة القلعة في احتفال كبير

أتاحت المراسلة مع اسرة شتيفانيك ، اولا مع فلادا ومن ثم مع ابيه فلاديمير شتيفانيك لفلاستا الفرصة لمتابعة الثقافة السلوفاكية باهتمام اكبر . فقد كان كل منهما كثير القراءة وكانا يحدثانها عن الكثير من الاشياء . كانت تذهب لمشاهدة الافلام السلوفاكية ، وعادت الى الاعمال الكلاسيكية وقرأت سلاذ كوفيتش . اشار فلاديمير شتيفانيك في احدى الرسائل : عندك سمي في الادب السلوفاكي ، هو كارل كالال . كنت على وشك ان اسأل هل انتما اقرباء ، غير انه كان سلوفاكيا وانت تشيكية .

العم كارل . انها مازالت تتذكره . كان يأتي للزيارة الى برناريتسه . عيناه الحيويتان والحادتان وحركاته الايمائية المعبرة بانفعال . كان العم وابن اخيه متشابهين جدا لدرجة تشير ضحك امها . كان العم كارل فخر الاسرة . فهو كاتب وصدرت له كتب حقيقية ، وليس كراريس حول تربية الارانب فقط .

"كارل كالال كان كاتب سلوفاكيا ، غير انه ولد في الاراضي التشيكية ، في جنوب

* فنان تشيكي متميز زين الكثير من الكتب برسومه ومن بينها رواية «الجندي الطيب شفيك» لهاشك . المحرر

كُتبت الى فلاديمير شتيفانيك " كان عمأ لأبي . وذهب الى سلوفاكيا بصفته معلما . وقد احب الناس والطبيعة هناك وبدأ يكتب عنهم . عندما كان يأتي لزيارتنا . كان يتكلم باللغة السلوفاكية فقط ، ليتجنب الوقوع في الخطأ..."

كان فلادا أمام اول اختبار دولة في كلية الحقوق . وكان يحصي بقلق عدد اصدقائه الذين فشلوا في اجتياز الاختبار . كتب متشكيا لفلاستا : على اية حال لن انجح في اجتياز هذا الاختبار ، وسوف اذهب الى المصنع ، وانتهي عند ماكنة الخراطة . وفي وقت قصير جدا حمل له البريد الرد بصورة ضربة ودية على الظهر ... اذا ما اضطررت الى العمل لفترة ما عند ماكنة الخراطة او تعلمت استخدام ماكنة البرادة فأن ذلك سوف يساهم في اغناء شخصيتك ... ولم يكتب مطلقا عليك ممارسة عمل لا تصلح له ، بصورة دائمة . وفي هذا تكمن الحرية الكبرى وجمال الحياة : ان لا تتوقف..."

٣

انتهى العام بسرعة ، وانتهت برتا من العمل التطبيقي في براغ . ورافقتها فلاستا الى محطة القطار وودعت احدهما الاخرى باللغة التشيكية . وكانت منفعلتين الى حد ما . غير انه لم يكن في الوقت متسع لمزيد من العواطف . كانت فلاستا قد وجهت الدعوة لكثير من الناس للمجيء ، الى برنارتيته في الصيف . وبدلا من إنغبورغ وعد ارلينغ ان يأتي . رتبت له لقاء مع شغيلة العلم في مجال التربية والتعليم من كانت لديهم الرغبة في التعرف على تجربته التعليمية . وخطت له رحلة الى شومافا (مع توقف للاستراحة عند ماري في كلينتشي) ومن ثم السفر الى سلوفاكيا

كُتبت الى فلادا : ألا تريد الالتحاق بهما في مدينة جيلين ؟ ربما انت واخوك ؟

كتب لها ردا يقول فيه انهما سيذهبان خلال العطلة الصيفية للمشاركة في تحقيق مشروع الشباب لمد خط السكة الحديد . شعرت فلاستا بالحماسة والاعتزاز . عشرون او خمسة وعشرون كيلومترا من خط السكة الحديد ، كانت تمتد هنا سكة ضيقة فقط . انه لعمل كبير . وسوف يتعلم الفتيان هناك الصلابة وتقدير العمل الجسدي .

هي بالذات ، عندما كانت في برنارتيته ، كانت تشارك في كل عمل طوعي . وكان

الكثير من الناس يرفعون اكتافهم باستغراب : مريضة وبعد اصابة بجرح كبير وتسوق نفسها الى العمل الطوعي . مثل هذا الامر لا يمكن لأحد ان يطالبها به عندما تعمل في حديقتهما يكون الأمر مقبولاً فهي تعمل لنفسها ، ولكن ان تقوم بنبش احواض الزهور في الميدان العام ؟

ياجيراني الأعزاء ، فكرت فلستا في سرها ، ان القسم الاعظم من هذه الاشجار التي تمشون تحتها ، قد قام بغرسها ابي مع تلاميذه . فهذا من تقاليد أسرتنا ، ولا يمكن عمل شيء لتغييره ، والدار بالنسبة لنا لا تنتهي عند السياج

وصل ارلينغ في الخامس من تموز . وحمل معه التحايا والهدايا من إنغبورغ وتونا وبرتو فقد تنامت دائرة معارف فلستا في الترويج . بقي في برنارتيته اربعة عشر يوماً ، سافرا بعدها الى جبال تاترا . وكذلك لقضاء بضعة ايام في براغ .

في هذا العام كانت فلستا في تاترا مرتين . في الصيف مع ارلينغ وبعد ذلك في ايلول مع امها . كانت الرحلة في القطار متعبة للسيدة العجوز ، لهذا اخذتا الطائرة في طريق العودة وهكذا ركبت أنا كاللوفيا وهي في الثالثة والثمانين من العمر الطائرة لأول مرة في حياتها اثار ذلك اهتمامها بصورة هائلة . كانت هكذا دائما كل شيء في الحياة يثير اهتمامها كثيراً

٤

بين حين وآخر كان ميخائيل لوغانسكي يكتب من كراسنو دار . لم يكن ذلك كثيراً ولكنه لم ينسَ

في نهاية عام ١٩٤٩ وصلت رسالة مكتوبة بالحروف الازبكية غير انها مكتوبة بخط لم تستطع فلستا تميزه . كتبت الرسالة اخت ميخائيل ماروسيا : ميخائيل يعاني مرضاً شديداً ، فهو مصاب بالتهاب الرئة كانت ماروسيا ممرضة وقد ادركت ان مرضه يمثل في حالته الصحية المتردية حينذاك خطراً قاتلاً . لهذا قررت الكتابة الى فلستا وكانت على يقين من ان فلستا تستطيع ان تأتي بالمعجزات .

ذلك اليوم ارسلت فلستا برقية الى اصدقائها في الولايات المتحدة : ارجو ان تحصلوا لي - ان كان ذلك بمقدوركم - على العقار الطبي سترويتوميتسين من اجل انقاذ حياة انسان في الاقل مليونان ونصف مليون وحدة . الرسالة ستأتي فيما بعد

كانت قد مرت سبع سنوات فقط على ظهور السترويتوميتسين في العالم ، وكان ينتج في الولايات المتحدة فقط . لم تكن لتعلم كيف ستسدد ثمنه ، غير ان هذه المسألة لم تكن الامر الا هم في تلك اللحظة .

جاء العلاج في الحال تقريبا . وكانت قد ضمنت في دائرة الجمرك في براغ مسبقا ، الاتصال بها لاجبارها عن وصول العلاج في الحال . وعندما تسلمت الخبر اتصلت تلفونيا برودولف : ارجو التلطف بترك كل شيء ، والذهاب الى دائرة الجمرك ، لتسلم السترويتوميتسين . خذه الى المطار مباشرة ، فان ارساله في البريد لا يضمن وصوله في الوقت المناسب . اعطه لقائد اول طائرة تتجه الى موسكو من اجل ان يرتبوا هناك ارساله الى كراسنو دار . ماذا ؟ هذا امر ممنوع ؟ أعلم ذلك ، غير ان القضية تتعلق بحياة انسان .

فيما بعد كتبت الى ميخائيل أن الحصول على السترويتوميتسين لم يكلفها شيئا ، اذ دفع ثمنه اصدقائها في الولايات المتحدة . لم يكن متأكدا مما اذا كان قولها مجرد وسيلة للتهرب كي لا يشعر بأنه مدين لها . كان على يقين من امر واحد : هو ان فلاستا انقذت حياته للمرة الثانية .

غادر المستشفى في حال جيدة تماما وقد اتخذ قراره في ان يتزوج في وقت مبكر ويؤسس اسرة .

أيام عكرة

الى فلادا شتيفانيك ١٦ اذار ١٩٥٠

"... كيف ستكون الحال في الصيف . لا ادري . فقد اعلنت صديقتان امريكيتان رغبتهما في القيام بزيارة عاجلة في نهاية شهر تموز . احدهما سوف تصل في ٢٥ تموز وتود البقاء اسبوعا . وتصل الثانية في ٧/٣ وتبقي البقاء هنا اربعة ايام فقط . وتستطيع أن تتصور كيف سيكون صعباً ارضاء الاثنتين في آن معاً . لهذا ليس لي حتى أنْ أأمل في الوصول الى سلوفاكيا هذا العام..."

٢٧ تموز ١٩٥٠ قسم الامراض السارية ، مستشفى بولوفكا

"أصبت قبل ١٤ يوما هنا في براغ بمرض الديفتيريا . وعلى الرغم من أنني الان قد تخلصت من عصيات الديفتيريا ، فان وضعي الصحي العام مازال غير جيد ..."

كم من الاستعدادات وكم من التنظيم . وفجأة اشعر بالحمى ، وبضغط متشنج خانق في الحنجرة ، وحالة من الضعف على حافة الاغماء . النقالة والغرفة البيضاء ، حيث لايسمح بالزيارات . عليكما ان تتدبرا الامر وحدكما يا صديقتي الامريكيتين المتعجلتين . ففي المستشفى يشعر الانسان فجأة انه بعيد جدا عن اية عجالة .

عند السرير يقف الدكتور ، اسنانه بيض لامعة يتساءل متعجبا : الى اين تتعجلين الذهاب يا خاتون ؟ امكثي حتى الغد في النهيجة . استريحى واشربي الشاي ... هل ستتاح

لك فرصة الوصول الى النهيجه مرة اخرى في الحياة ؟ انه لايزال شاباً ولكنه حكيم ، فكرت فلاستا . ولكن لماذا يمتطي الحصان في المستشفى . ربما لأن لديهم ممرات طويلة هنا

٢

ادى مرض الخناق وعواقبه الى التردى السريع لوضع فلاستا الجسدي والروحي خيل لها وكأن هذا المرض القى بها من مرتفع شديد الانحدار ، استغرق تسلقه خمس سنوات . هل يمكن مجرد التصور أنها كانت في العام الماضي وقبله بعام تتنقل على الدراجة الهوائية في ارجاء سلوفاكيا ، وأنها كانت تنام في الخيمة ، وكانت تذهب للتزلج والى السينما مع الشباب ؟ وهل يمكن مجرد التصور انها كانت تقف ساعة او اكثر عند طاولة العمليات ؟ الم يخيل لها هذا كله في الحلم ، في غرفة النوم الصامتة في برنارتيته ؟

ولعل وقع الخبر الذي سمعته فلاستا قبل ايام كان اسوأ من مرض الخناق . فقد وصلتها رسالة من هيلينا كيرزاكوف . ولم يدهش فلاستا خط يدها على الغلاف . فقد كانت تكتب في كثير من الاحيان ، عما يعملونه وعن حال الطفل ، ومتى يأتون رودولف حاله حال اغلبية الرجال لايهتم كثيرا بالكتابة . هذه المرة كانت الرسالة مقتضبة للغاية . لعلها لم تجد متسعاً من الوقت أو أنها لم تشأ أن تكتب اكثر . كان الامر الرئيس في الرسالة : القوا القبض على رودولف .

لم يكن هذا اول عسكري قاتل في الخارج وسمعت فلاستا عن اعتقاله . غير أنها لم تكن تعرف اولئك الاخرين ، ولعلها كانت تسمح لنفسها بالاعتقاد باحتمال قيامهم بامر ما ، وربما باحتمال اقدمهم على الخيانة او بيع الوطن . اما رودولف فهي تعرفه ، وهي لاتجد غير قليل من الناس الذين يمكن أن تمنحهم الثقة كما تثق به . إنه لم يرتكب اي شيء ، وتستطيع ان تضع يدها في النار من اجله .

" ... من المؤكد أن الامر يتعلق بخطأ ما ، ولسوف يتضح الامر في وقت مبكر ، سوف ترين ذلك بنفسك » . كتبت الى هيلينا وحاولت هي حمل نفسها على تصديق ما تكتب . " حين تكونين بحاجة الى اي شيء ، اكتبي او تعالي بنفسك . "

نهضت من السرير وارتدت ملابسها وجاءت بالالة الكاتبة . كتبت الى وزارة الدفاع احتجاجاً على اعتقال رودولف . ثم كتبت رجاءً شخصياً الى اللجنة الوطنية ، تطلب فيها التدخل لصالح هذا المواطن من ابناء المدينة . " ناضل من اجل وطنه ، ونحن الذين نعرف

لم تكن تعلم هل سيقدمون على ذلك ام لا . لو ان هوديك مازال على قيد الحياة . ولو كان هو رئيسا للجنة الوطنية ، لذهب الى هناك في الحال . الى اين ؟ الى مكان ما في براغ ، لاشك أنه كان سيسأل . فتحت ظرف الرسالة الموجهة الى هيلينا وازافت : " اكتب لي في الحال عند عودة رودولف"

انتظرت هذا الخبر مدة عامين تقريبا

٣

في منتصف ايلول ، انتهى في احد الايام الخريف الشاعرى وبدأ الخريف الكئيب . النهار عكر منذ الصباح ولم يصفُ عند اقتراب الحادية عشرة . (كانت امي تقول الساعة الحادية عشرة تحسم الامر) . على العكس ازدادت العتمة . اشجار الصنوبر تمايلت في الرياح والقت على الغرفة بظلالها الحزينة غير الهادئة .

ينبغي ان ابدأ عمل شيء ما ، قررت فلاستا . فإن الدفاع الوحيد ضد اليأس يكمن في العمل . سوف أترجم كتيب إنغبورغ حول طفولتها في فريدهيم . هكذا فقط لنفسي ولبعض الاصدقاء اذا ما توفرت لهم الرغبة في قراءته . ومن اجل ان لا يخلد العقل الى الكسل ومن اجل مقاومة حزن هذه الايام العكرة .

استحوذت عليها الترجمة ، ونسيت أنها ارادت العمل من اجل المتعة والراحة فقط ، كما يفعل الانسان الملتزم في مرحلة النقاهاة . وعندما عادت في بداية شهر تشرين الاول الى براغ للالتحاق بالعمل في المستشفى كان معها كتاب إنغبورغ ريفلينغ هاغين الذي انجزت ترجمته وبدأت تترجم قصائد الشاعر النرويجي ويرجيلاند .

كلما أعطيتِ أكثر

الصمت وضوء ممر المستشفى الخافت بشحوب ، والمصاطب البيض بمحاذاة الجدران ، التي لم يمض وقت طويل منذ ان قاموا بطلانها وقد تقشرت من جديد . كم من الناس يتناوبون الجلوس هنا يوميا . فلاستا تمشي عبر هذا الممر الطويل نحو النافذة في النهاية ، فهي تحب الجلوس هناك خلال نوبة العمل الليلي . توجد هناك حديقة صغيرة مؤقتة في المزهريات ، وهناك الهدوء ومنظر فناء المستشفى . شجيرة التين بحاجة الى النقل الى اثناء اكبر . ذلك البستاني الذي كانت زوجته هنا بسبب نزيف في الامعاء ، اقسام باقدس القديسين أنه سوف يأتي الاسبوع القادم لنقلها ، وقد مر منذ ذلك الحين عام كامل تقريبا لو ان الناس انجزوا في الاقل ، نصف ما وعدوا به ... كان من المفروض ان يتساقط الثلج . فإن هذا الأنجماد العاري سُمّاً للحقول . في برنارتيتسه ايضا لم يتساقط في المرة الاخيرة كثير من الثلج .

الممرضة ليبوشا تذهب الى الغرفة رقم ستة ، فالسيدة هاينز وفا تطلب القعادة من جديد . الآن لن اقول لها شيئا ، لأن النعاس مازال يغلب عليها ومن الممكن ان تسقط بين يديها ، ولكن لا بد ان تبدأ منذ الغد المشي ، وسوف اشرف عليها بنفسي .

فجأة ادركت انه لن يكون لها " منذ الغد " في هذه المستشفى . فهي اليوم للمرة الاخيرة . الى فترة قصيرة كانت تتطلع بارتياح الى موعد انتهاء العمل هنا ، وقد اوشكت ان ترسم علامات العد التنازلي . غير ان وضعها تردى لدرجة كبيرة في الفترة الاخيرة ، ارتفاع

الضغط والاحساس برأسها كأنه مملوء باحجار حارة كل ضجيج او حديث بصوت مرتفع كان يسبب لها المأ حتى داخل الدماغ . وكيف يمكن في المستشفى تجنب الاحاديث بصوت مرتفع ؟ المرضات فتيات مسرفات في الكلام وفي الضحك ، والمرضى لا يحسون بغير آلامهم بالذات ، فإن تكون حال الطبيب في بعض الاحيان اسوأ من حالهم ؟ هذا خطأه هو . اذ ان عليه ان يعرف كيف يتدبر امره ما دام طبيباً

اليوم حسبوا لها في مكتب المحاسبة مرتبها التقاعدي . المحاسبة المسكينة تعتذر . في الاغلب لن يكون افضل من هذا ايتها الدكتورة ، فإنك لم تعلمي العدد المطلوب من السنوات . اعلم ذلك . إنني في كل الاحوال سوف اعمل في العيادة في برنارتيته . مادام ذلك ممكناً . هوتت عليها الامر فلاستا

ياعزيزتي الذهبية . ما الذي احتاجه انا ، فكرت . البطاطا متوفرة في الحديقة والفواكه كذلك ولسوف اشترى معزة من جديد ، ربما سوف اشترى قليلا من الزبدة وقليلا من البيض . انني اصرف للطعام اقل مما اصرف لشراء الطوايع البريدية .

"السيدة الدكتورة ، قمت بتهينة الشاي ، هل تريدين ؟ " قالت ليبوشا من غرفة المرضات بصوت شبه مكتوم

عادت عبر الممر الطويل المعتم ، وفجأة شعرت بموجة من الحزن والحنين لانها هنا للمرة الاخيرة .

٢

الى اسرة شتيفانيك ٢٢ نيسان ١٩٥١

"... كانت عندنا في عيد الفصح أسرة المختص اليوناني بالباثولوجيا ، والذي يعمل منذ العام الماضي في جامعة كارل ... ويبدو انهم سعداء هنا . انهم يريدون القدوم في شهر حزيران للاستراحة الصيفية هنا ، ومعهم اسرتان من اسر المهاجرين اليونانيين لدى كل منهما طفل صغير . ربما ستكون هنا اقامة رومانطيقية الى حد كبير في المخيم ، اذا ما نجحنا في اسكانهم جميعاً . في العام الماضي لم يستطيعوا الذهاب الى الريف بسبب المصاعب المالية ، وهم يتوقون الى ان يكونوا مع بعضهم بعضاً ..."

"لايمكن ان تتكفلي بمعيشتنا مجانا هنا ايها السيدة الزميلة . اعترض الدكتور اليوناني بارتباك " فنحن هذا العام في حال افضل بكثير مما كنا عليه في العام الماضي ، ونستطيع بسهولة تغطية تكاليف الاقامة

"اردت ان اطلب منكم شيئا آخر . ان تعلموني اللغة اليونانية ، اليونانية الجديدة . سبق لي وان تعلمتها . درست القواعد الأساس ، ولكن بعد ذلك - بعد ذلك لم تتوفر الفرصة للاستمرار"

في هذا القليل مما تركته الحرب من مكتبة الاسرة وجدت كتاباً لتعلم اللغة اليونانية . مازال من الممكن تحديد الموضوع الذي وصلته خلال دراسة الكتاب . اذ كُتِبَت الملاحظات المتعلقة بالتلفظ على هوامش الصفحات بالقلم الرصاص ، وبخط جيورجي ارتميس التي تبلغ السابعة من العمر صبية شاحبة ونحيفة ولكنها حميمية وجريئة . وهي لاجئة منذ ان كان عمرها عاما ونصف العام . حملت لها فلاستا من سقيفة الدار صندوقا فيه لعب دراھوميلا " أنظري اسم هذه الدمية كفيتا وتلك في الزي الشعبي مارينكا ، اما الولد الدمية فاسمه بيبك . " لم تكن فلاستا نفسها لتتوقع ان تتذكر اسماء تلك اللعب " ولماذا عندك هذه اللعب ، وليس عندك اية طفلة صغيرة ؟ " سألت ارتميس

في يوم الاحد من عيد الفصح دعت فلاستا من اجلها عددا من اطفال الجيران . وجرى تقديم الشاي في اكواب اللعب الصغيرة ، ومعه كيك البسكويت الصغير ايضا والذي اشتروه يوم السبت في حانوت الحلويات . في مساء الاحد قاموا مع ارتميس بصبغ البيض ، ليقدم للاطفال الذين يرددون اغاني عيد الفصح وأهازيجه .

عندما غادر اليونانيون مساء الثلاثاء ، تعلقت ارتميس بفلاستا مشبكة يديها حول رقبتها : " عمتي متى نأتي لزيارتك ثانية ؟ هل سيكون ذلك قريبا ؟ غداً ؟ " كانت افضل من يجيد التشيكية بين الاسرة كلها

٣

الحافلة الليلية من محطة طابور تتمايل نعسى على الطريق . المسافرون يحنون رؤوسهم من النعاس ، وجوههم متعبة شاحبة . فلاستا متعبة ايضا ، وكيف لها ان لاتكون بعد مثل هذه الرحلة . في الصباح سافرت في القطار من براتسلافا الى براغ ، وفي المساء من براغ الى طابور في القطار . ومن طابور واصلت السفر في الحافلة العمومية ليلا . ربما كان هذا امرا

عقيما ، ان تبدأ مثل هذه الرحلة ، غير انها لا تشعر بالندم ؟

حضرت حفل تخرج فلادا . إنها مازالت تشعر في القاعة بالجو الاحتفالي للتخرج ومازالت عيناها مليئتين ببراتسلافا في الصيف . الخضرة تحت نوافذ المطعم الجبلي ، حيث تناولوا وجبة الغداء الصباح في القلعة نهر الدانوب عريض يميل قليلا الى الخضرة

هل تتذكر ذلك الهلع قبيل إمتحان الدولة الاول يا بني ؟ تأملته ، كيف تليق به البدلة الغامقة وربطة العنق ، وأخذت تشعر بشيء من اعتزاز الامومة

كان رادبور وفلادا في السنة الدراسية ذاتها ، غير انه لم يكن مقدرًا له أي حفل تخرج .

لا يعلم أحد لماذا لم تُلمح ولو بكلمة واحدة امام أسرة شتيفانيك عن غرابة روحه المشوشة . وبدا لها ان حديثها عن ذلك يمثل إغتيابا لرادبور .

ماذا في الامر لو انه لم يصبح دكتورا ؟ ربما كان سيصبح بستانيا يحب الزهور والاشجار . ربما كان سيصبح بستانيا جيدا يردد الاغاني اثناء العمل ، ولعلها كانت ستسمعه عبر النافذة وتكون سعيدة بكونه ابنها . لو بقي هو في الاقل . لو كان قد عاد حينذاك الى هراديتس ... كل الاطفال في مدرسة البستنة بقوا سالمين واصحاء

في المقاعد الامامية جابيتان تتحدثان بصوت خفيض . احدهما تكمل نوبة عملها التي تستمر اثنتي عشرة ساعة في الحافلة العمومية لطابور ، والاخرى قد انتهت من نوبة العمل وتعود الى بيتها في احدى القرى التي تظهر من الظلمة في هذا الضوء الشاحب لمصباحين اوثلاثة مصابيح هنا . " ... منذ الصباح لم أتناول شيئا من الطعام ، اقسم بحياتي ، صدقيني للمرة الاخيرة في الثامنة صباحا . حانة أو ستوتشيسو كانت مغلقة ، كان عندهم يوم الوقاية الصحية ، ولو اردت تناول الطعام في مكان آخر لما وجدت الوقت الكافي . "

"انني تناولت طعام الغداء وانا كذلك اكاد لا أرى بسبب الجوع والساعة الآن تقترب من الحادية عشرة"

هل كان بمقدورها ان تسمع هذا الكلام ولديها في الحقيبة ، علبه مملأ بالكعك من حفل التخرج .

قدمت لهن الكعك . تفضلن وخذن بلا تردد . ليس قطعة واحدة ، لتأخذ كل واحدة

منكما ثلاث قطع في الاقل .

فجأة اصبح السفر الليلي اكثر حلاوة . النجوم لذيدة كأنها حبات الكشمش في خثارة اللبن . "حقا ايتها السيدة ، لم يحدث هذا بالنسبة لي منذ ان بدأت عملي هذا ، نعم مرة شعرت بالعطش وقدم لي احدهم تفاحة ، مازال من الممكن العثور على الناس الطيبين"

تبادلن الحديث . الاسئلة عن حفل التخرج وعن براتسلافا . ثم تحدثن عن انفسهن . وقبل ان يصلن برناريتيسه عرفت فلاستا اعمار اطفالهن ، وعرفت أن زوج الصغرى مُدمن على تعاطي الكحول وان له علاقة بامرأة أخرى .

"أترين ايتها السيدة ، لقد لاحظتلك عندما اشتريت التذكرة ، كنت اعتقد انك في الاغلب انطوائية وانك لن تتحدثي كثيرا مع احد ، غير اننا تحدثنا على هذا النحو الجميل ."

عموما كانت الرحلة مريحة . حتى ذلك التعب امكن احتماله . كم من الانطباعات : لم تجد فلاستا متسعا من الوقت لتتذكر ان رادبور ، كان اليوم سيبلغ الثالثة والعشرين .

قرب الدار اوشكت ان تقع حين عثرت بغصن ما . امتد هكذا غصن شجيرة الليلك مقطوعا وقد اصابه الذبول . الليلك الابيض ، الذي يتفتح في كل ربيع بשרاء . انه بالذات الليلك الذي ضفرت منه يارميلا إكليلا لهما وضعته على التابوت .

في الصباح علمت فلاستا ان عربية محملة بالتبن الممتد الى الخارج من الجهتين قد اقتلعت شجيرة الليلك . ويقال ان صاحب العربية راح يشتم ويلعن ، لأن الاغصان الكثة اسقطت شيئا من حمولته .

٤

الى فلاديمير شتيفانيك الاب ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥١

"... كنت في الايام الاخيرة عموما في حالة جيدة جدا ، حتى انني قمت بنبش التربة حول الاشجار الصغيرة ، وقمت بنفسي بنقل وتوزيع السماد ، ونقلت وغرست شجرة اجاص وشجرة كرز وحرثت احواض الزهور . وفي الوقت نفسه اعتني وحدي بمعزاة حلوب ومعزاة من المنتظر ان تقدم الحليب بعد سنة . وهذا يعني انه سيكون عندي يوميا لتر وربع الى لتر ونصف اللتر من الحليب الممتاز لذيد المذاق ، وكأنه القشطة ... انني اشعر بالامتنان للمدفنة

الكهربائية الحاشدة ، التي تم ربطها في الربيع ، اذ بفضلها لن اتجمد هذا العام . ورغم ان الحرارة في غرفة النوم لاتزيد على اربع درجات مئوية ، فان جهاز التدفئة يمكنني من تدفئة قطع السبانك ، التي اقوم بلفها ووضعتها في السرير قبيل النوم..."

الدفء ، كم هو حميمي وعطوف ، وكيف ينسكب برفق في الجسم بكامله

الى اسرة شتيفانيك ٩ آذار ١٩٥٢

"... حملني وضعي الصحي على اتخاذ القرار بالبقاء في دار طفولتي هذه . فالانسان يشعر فجأة انه اقل بؤسا ، عندما لا يضطر الى الاعتراف بالمصاعب الجسدية المرغم على الصراع الدائم معها . وهنا لا أحد يرى كيف انني لا اكاد اسحب رجلي عند المشي..."

٥

في شهر حزيران وفي اسبوع واحد وصلت ثلاثة اخبار مفرحة . اذ كتبت تونا من النرويج ، انها سوف تتزوج كما ارسل فلادا بطاقة تعلن موعد زواجه ، وكان الخبر الثالث اكثرها مدعاة للفرح : فقد اطلقوا سراح رودولف . كتب بنفسه من داره . وقد كتبت له الرد في الحال .

"ابني الحبيب ، ليس غير سعادتك الشخصية يمكن ان يوازي سعادتي في هذه اللحظة . اشكرك بحرارة على السطور التي كتبتها لي ، ان قلبي يبتهج بمناسبة عودتك . لعل هيلينا والآنسة بورنونا تحرسان غاية الحرص على نقاهتك ، ولكن في اية لحظة تستطيع فيها او ترغب في العودة ايضا الى دائرة سياج شجيرات الزعرور المشمس وهذا السقف القديم ، فإن الدار المخلصة هنا بانتظارك انت واحبابك ، كن على يقين من ذلك ."

في فترة المحاولات اليانسة والعقيمة من اجل اعادة تكوين الاسرة الضائعة والعثور على رادبور جديد ودراهوميللا جديدة ، افلت رودولف منذ بداية تلك المحاولات - ولهذا فهو الوحيد الذي بقي لها . كان ناضجا بحيث لا يمكن من العثور فيه على سمات شخص آخر او تكييفها فيه . كان شبيها بنفسه فقط ، وقد اخذت فلاستا ذلك بنظر الاعتبار وأجبت كما كان

كانت علاقتها برودولف علاقة الأم بابنها ، وكانت هيلينا الكنة . وتعاملتا بلطف .

كانت فلاستا تقدر في هيلينا الحكمة والشجاعة الموضوعية والاستقلالية والثقافة . ولكن كان فيها شيء ، يستفزاها . من يدري ما هو ، ربما تلك الاستقلالية والشجاعة الموضوعية والحكمة - -- تجاه رودولف كانت متفهمة بلا حدود ومتسامحة . كانت قادرة على تعنيف هيلينا لصغائر الامور ، عندما كانت تتأخر في الرد على الرسائل . عندما كانت تشير الى ان يان الصغير بدأ ينطق بشكل جيد ويردد ما ينبغي ان لا يردده" يردد حتى ما ينبغي ان لا يردده؟ ينبغي ان يسمع ما يمكن ان يردده . وتقع مسؤولية ذلك على الروح الجميلة للغة الام والبشرية النبيلة ."

كانت تعلم وتذكر ، ان مثل هذا الوسط المعقم لا يمكن حتى توفيره للطفل ، ولو تم توفيره لكان مضرا للطفل بصورة اخرى غير انها لم تتردد في رفع سبابتها

كما يهين الآخرون للضيوف اطباق المائدات كانت فلاستا تهين لضيوفها الكتب . كومة من الكتب على الطاولة الصغيرة عند السرير . ولم تأت بالكتب من المكتبة اعتباطا وانما تختارها بعناية وفق ما تريد قوله لكل ضيف بالتحديد . بعد بضعة ايام كانت تشير الحديث حول بعضها وتتابع ما الذي اثار اهتمام الضيف ، وهل فتح الكتب المعدة أصلاً؟

هي بالذات تقرأ الآن اكثر من السابق . اكتشفت مؤلفين جدداً كما يكتشف المسافر مناطق جديدة . الامير الصغير وأرض البشر من تأليف اكسوبري ، والماء الحي من تأليف كوجينكوف وارض الوطن من تأليف كارايف وعشت في تشوكوتس تأليف سموشكين .

الى رودولف ٢٢ كانون الاول ١٩٥٢

"... وصلت النسخة الأصلية من كتاب مكسيم غوركي الأم . وهكذا استطعت بذلك التأكد من صحة الجملة ، التي عثرت عليها بصيغة مختلفة في الترجمة التشيكية واليونانية للكتاب . اجد هنا ان الترجمة التشيكية اكثر تطابقا مع الاصل . وتقول : اولئك الذين يحطمون السلاسل التي تقيد العقل ، هم وحدهم البشر الحقيقيون ."

تلقت من رودولف كتابا عن التنقيب الاثري ومن فلادا تلقت كتابا عن علم الفلك ، وكانت تلك قراءة مثيرة ، تلك النظرة المزدوجة الى اعماق الارض والى اعماق الفضاء . كانت تستعير الكتب من الاصدقاء ومن المكتبة المحلية ، وكانت تعير كتبها للآخرين ، لأن " الكتب مثل الناس ، ينبغي ان لا تبقى مستكينة عبثا ، بل عليها ان تكون مثلنا في خدمة الحياة ."

حين لا يكون عندها ضيوف ، يكون البرنامج اليومي لفلاستا الآن منتظماً : من الواحدة حتى الرابعة في الليل تكتب او تقرأ . وعندما تبدأ الطيور غناءها ، تنجح في اغلب الاحيان في ان تغفو مدة ساعة او ساعتين . بعد ذلك تنهض لتعني بالمعزاة ، وتتناول الفطور وترتب المنزل . قبل الظهر يتقاطر المرضى ، وبعد الظهر الاطفال الذين تعلمهم اللغات الاجنبية . إنها مجموعات متغيرة . بعضهم ينقطع بعد حصتين او ثلاث حصص ، لأن السيدة الدكتور صارمة فيما يتعلق بالتحضير ، ولا تتسامح بشيء . وقد صمد بعضهم ، وهو يحقق تقدماً الامر الذي يبعث في نفسها السرور

منذ زمن طويل اعتادت ان لا تقفل باب الدار . هكذا افضل . فكلما رن الجرس كانت تهتز هلعا ، اعتادت ذلك منذ الحرب ، حين كانت في انتظار دائم ، متى يدق جرس الباب رجال الغستابو . اضافة الى ذلك كان عليها حين تغلق الباب ان تقوم وتذهب لفتح الباب ، كلما دق احدهم الجرس . وفي بعض الاحيان تجد صعوبة في المشي وخاصة عند نزول او صعود السلالم . من يريد شيئاً منها الآن ، يفتح الباب بنفسه ويتجه مباشرة ليصعد السلالم ، حتى الاطفال كذلك .

اليوم اول من حضر روجينكا ، وهي اول من يحضر في كل مرة تقريبا . تحب ان تكون هنا ، هذا الامر واضح عليها . إنها طفلة شاطرة متوقدة الذكاء ، ولكنها شرهة طماعة قليلاً . اذا ما لازمتها تلك الشراة سوف تفسدها ، ولن تكون انساناً طيباً . الآن ايضا تجول عيناها الثاقبتان في ارجاء الغرفة ، تتلمس كل شيء وتتفحص كل شيء

"هل تعجبك هذه السجادة ؟" سألت فلاستا . الطفلة التي فوجئت تجنبت النظر ثم أحنّت رأسها

وهل تريدونها ؟ أحنّت رأسها ثانية ، غير انها هذه المرة بسرعة وحماسة . " غير انني أفضل ان اعطيك غيرها ، هي أعلى ما عندي " حاولت فلاستا اختبارها بأسلوب الحكايات . " انها سجادة سحرية ، لا يمكن رؤيتها ولكن من يمتلكها ، يمتلك قوة السحر ، ويفهم لغات الناس من البلدان البعيدة ، يمكن ان يتحدث اليهم وان يقرأ كتبهم . " عيون مسحورة .

"وانت سوف تعطيني اياها ؟ متى ؟"

"في كل ساعة جزء منها"

ابتسمت الطفلة بشيء من الاحباط . لعلها قد فهمت ، ام انها ببساطة فقدت الرغبة في

الى اسرة شتيفانيك ٢٥ تموز ١٩٥٣

... في الشتاء ، وعدت صبيين في الثالثة عشرة من العمر ، أن ارافقهما الى منبع نهر سازافا ، اذا ما واصلنا الدراسة بمتابرة ونشاط . وقد استجمعا قواهما وتطلعا لذلك . ولم يبق امامي غير انجاز الوعد حتى انني شعرت بالنظر لقواي الجسدية بخوف كبير . ارسلنا الدراجات الهوائية الى دوبرونين قرب مدينة يهلافا وقضينا اسبوعا من الترحال على ضفاف نهر سازافا حتى جليفيتس وبلانيك . نمنا الليل في الخيمة ... هل كان معكم في تاترا مؤلف ما ؟ نحن هذه المرة قرأنا طاغور . ولأجل التمرين اللغوي للصبين قرأنا مؤلف كبلنغ كتب الادغال ...

إنها في السابعة والخمسين ، وتمر ايام تجدد خلالها صعوبة في نزول درجات السلالم وبعد ذلك تمتطي الدراجة الهوائية وتنتقل مع اثنين من صبيان برناريتسه لقراءة رابندرانات طاغور على نور الشمعة عند اقدام بلانيك . إنها امرأة غريبة .

الى شتيفانيك الأكبر سنا ، الذي في دور النقاة :

... يدرك الانسان بصورة مفاجئة ، الدور العميق للمعاناة في تعميق الحياة الروحية . فحين نشعر بالعافية الجسدية الشاملة ، يخيل لنا في الحال ، أن الامر لا يمكن ان يكون بغير هذه الصورة ، ويظهر على السطح الاعجاب الاناني بالذات . لا ادري ما إذا كنت مخطئة ؟ اذ يخيل لي ان القسم الاعظم من البشر الانانيين ، هم الذين اعتادوا تحقيق اغلبية رغباتهم وحاجاتهم .

٦

ليس ثمتَ أحد يصدق ، كيف تبدو اعياد الميلاد في اغلب الاحيان ، عندما يكون الانسان وحيدا .

مرة يمكن تحملها وأخرى يضيق بها حتى السأم . في العام الماضي كانت لدى فلاستا في برناريتسه أمها وبدا لها الأمر أكثر سوءا ، كيف حاولتا إضفاء البهجة على اعياد الميلاد وإخفاء بأسهما المقيم حول ما ضاع الى الأبد

عدم الاستسلام للذكرى ، الشيء المهم عدم الاستسلام للذكرى . وهذه السنة أمها في براغ مع ميلادا . وقد كتبت في رسالة التهنة باعياد الميلاد الى حفيدة بنت اختها : تلميذة الصف الأول . ووقعتها بخط يتسم بالاهتزاز وعدم التأكد : أنا كاللوفنا ، تلميذة الصف الأخير في الحياة

الى اسرة كرزاكوف ٢٧ كانون الاول ١٩٥٤

"... مع حلول الغسق كنت في المقبرة ، وقبل ان ادخل الدار بصورة نهائية قمت بجولة في الحديقة التي يغطيها الثلج وفكرت بكم . في الخريف كنت أمل في سري ان تحصل على اجازة شتوية وانكم سوف تستطيعون انتم والصغير يان قضاء اعياد الميلاد لمرّة ثانية هنا . ألا يتحقق هذا في وقت آخر؟ اتوقع انني لا اضطر لدعوتكم ، فانتم تعلمون ان الانسان لا يدعى الى بيته . غير انهم هناك ينتظرونكم دائما ويكونون سعداء دائما بوصولكم..."

ما اكثر الثلج ، المنطقة كلها بيضاء متألنة ، وقد مالت الى الزرقة عند الغسق . قرعُ الاجراس يُسمعُ من فيسيلييتشكا ، وقد انضم قرع اجراس برناريتيتسه إليه . الصمت والأجراس وهنا وهناك اصطفاق باب وتنفة من صوت انساني . لم تجد الجرأة لاغلاق الباب على وحدتها

قبل الظهر كانت هنا يارميلا ، جاءت لها بحلويات عيد الميلاد وباقة ورود . يارميلا لاتنسى ابدا .

في بغداد كانت الدار في العادة مألئ بالورود في اعياد الميلاد . كان الاصدقاء يحملونها ملء ايديهم وفي السلال ، لم يبق هناك مكان لوضعها فيه ، ولم تكن المزهريات كافية .

الشجرة المزينة من ماريا وحولها الكثير الكثير من الورود ، البنية والحمراء والبيضاء ، تلك الرائحة والكثير من الضوء ، كان جيورجي يحب الكثير من الضوء ، خاصة ايام الاعياد ، الثريات والشموع والمفرقات .

جلست ملتصقة بالمدفنة الكهربائية ، في الدار المعتمة الخالية .

٧

من المعتاد في كل صيف ان تكون حفيدات ميلادا لبضعة اسابيع هنا . وهن فتيات ذكيات وعاقلات الى حد كبير والحياة معهن ممتعة . ولكن يعني هذا الوقوف على الرجلين

واستجماع قواها من أي مصدر كان ورعايتهن . الاسوأ في الامر ان ذلك يعني ايضا القيام بمهمة الطبخ كانت فلاستا طوال حياتها تتجنب الطبخ كان يكفيها كما هي الحال في الاوقات الاخرى ، حليب المعزاة وخثار اللبن وقليل من الخضروات والفواكه ، غير ان الاطفال بحاجة الى التغذية الجيدة ، وهذا ما تعترف به وتحترمه . يضاف الى ذلك انهم صريحون ، ويقولون ببساطة : فوي ، ياعمتى هذا غير جيد . ولذا فهي تحاول

تذهب معهم للتمشي في الحقول ، لاجل ان يستمتعوا بالركض والحركة والطبيعة وكذلك لأجل ان تريهم منطقة اجدادهم .

"... كان عندي الثلاثة الاصغر من الجيل الثاني من بنات اختى من ٣ ايار حتى بداية تموز . وقد سافروا مع آبائهم وامهاتهم الى بيسك في وضع رائع . وحملوا معهم - في رؤوسهم - الكثير من الشغير... الذي اقتربوا بوساطته من كارل هافليتشيك وكولار وكراسنو هورسكا وسلاديك وسفاتوبلوك تشيخ . ليس الاثنان اللتان في السادسة من العمر حسب ، بل وبنات الاربعة سنوات ايضا . فقد كانت دقيقة بصورة خاصة في التذكر ، وكانت تُدَكِّرُ الاكبر منها في كثير من الحالات . وفي الجلسات التي كنا نقيمها في الحديقة كانت تطالب بحماسة بمساهمتها المستقلة..."

الى اسرة شتيفانيك ٢٢ تموز ١٩٥٤

"...حتى نهاية حزيران كان عندي اربعة تلاميذ صغار ، بعد ذلك صبي طويل القامة في الرابعة عشرة من العمر لبضعة ايام . وهو ابن لابنة اخت بعيدة . عندنا ايضا البرد والمطر اكثر مما كان في مثل هذه الفترة سابقا... الحديقة حمراء بالورود وزرقاء بفضل زهور الناردين والزهور الجريس وتنشر فيها العطور كؤوس الليلك الابيض» .

الى اسرة شتيفانيك ٢٩ نيسان ١٩٥٥

"... ربما لن تتحقق الرحلة الى جيلين هذا العام - فمئذ هذا اليوم عندي تلاميذ من براغ..."

اطفال ابنة اخت فلاستا كانوا يدرسون في المدرسة في برنارتيتسه ، كانوا يعودون دائما في ذينك الشهرين الى حصة الدرس نفسها . كان من الممتع للغاية ان يكون زوجان من التلاميذ في الصف نفسه . بعد الظهر كانت العمة تشاركهم في انجاز الواجبات المدرسية ، وكانوا يقرأون الكتب . كما بدأت تعلمهم اللغات . وعند ما كانت السماء غير ممطرة ،

كانوا يحملون السجادة القديمة الى الحديقة ويمكثون هناك حتى يتساقط الندى

حرصت فلاستا على أن يأوي تلاميذها الى النوم في وقت مبكر . ففي حوالي الساعة الثامنة مساءً كان يسمع من غرفة الاطفال ومن غرفة النوم التنفس الرباعي المنتظم ، تنفسا هادئا لا يكاد يسمع ولكنه يملأ أرجاء الدار . كانت لها بفضل وجودهم ما تعمله من الصباح حتى المساء . وعندما كانت تنظف المطبخ كانت تردد بعض الاغاني بصوت خافت

٨

الاب الجديد فلادا ظهر فجأة يوم الأحد في برناريتيسه : عرّجتُ عليكم بعد سفرة في مهمة رسمية الى براغ . ثلاث ساعات الى هنا ، وثلاث ساعات للعودة وبعدها في القطار الى جيلين . ست ساعات سفر اضافية من اجل زيارة قصيرة . شعرت بفرح كبير . هيا أرني نفسك ، كيف تبدو الآن عندما اصبحت اباً . ارادت ان تهينى له شيئا وان تستضيفه ولو بالقليل ، غير انه لم يسمح بذلك : جئت لاتحدث معك ، فمن الممكن ان اتناول الطعام في اي مكان

تحدث ، بالدرجة الاولى ، عن كيفية تحول المخلوق الثديي الصغير الى إنسان صغير جدير بهذا الاسم . كم من الناس يريدون ان يحققوا لاطفالهم كل ما هو موجود في هذا العالم ، ورغم ذلك يخلقون منهم أنانيين وطفغاة . أين يكمن الخطأ ؟ في الأغلب في تأليه الوالدين المبالغ به لطفلهما . فهما لايرفضان له رغبة او طلبا ، ويربانه على الاعتقاد بأنه يمتلك الحق الطبيعي في كل شيء ، وله حق الافضلية قبل الآخرين . ولعل ذلك التأليه كان تعويضا عن الافتقار الى الحب .

"هناك أمر آخر يا فلادا ، ربما سوف تستغرب حين اقول لك هذا انا بالذات ، انا الطبيعية . من غير المهم كم ستكون عربية الطفل فاخرة ، وفي نهاية الامر ليس من المهم ان تقوموا بكلي الحضانن في كل مرة ، التعقيم ، حسنا ولكنني حين اسمع احيانا كل التعليمات المتعلقة بالنظافة والوقاية يبدو لي اننا بالنسبة لهذا الصغير لا نأخذ بنظر الاعتبار غير جسده . نكرس لجسمه كل العناية ، اما الروح فعليها ان تنتظر ، وسوف يأتي دور الروح فيما بعد . ولكن من الممكن ان يكون بعدها ، الوقت متأخرا . في نيويورك تعرفت على باحثة اجتماعية وقد قالت لي : يتحمل الطفل الأوساخ اكثر من تحمل فقدان الساعد الذي يضمه والقلب الذي يحتضنه . وكانت محقة يا فلادا . لاتتركوا ابنكم ينتظر طويلا شقيقه .

القت نظرة وراء الحافلة العمومية المغادرة وكانت تفكر في ان الانسان لايتلقى غير الحد الأدنى من التحضير المهمات التي هي اخطر المهمات في الحياة . نحن نتعلم خياطة الثياب ، والبرادة ، وتتعلم مداوات المرضى وقيادة السيارة ، غير اننا نربي الاطفال معتمدين على تعلمنا الذاتي وباسلوب التجربة والخطأ . تقول : سيكون ابني رائعا ، سوف يجيد اربع او خمس لغات منذ صغره ، ويتوفر له اساس جيد للمزيد من المعرفة لاحقا ، وينفتح العالم امامه . غير ان هذا خطأ ، اذ يتبين فيما بعد انه خطأ مصيري . خطأ لايمكن اصلاحه .

فقد ادركت منذ زمن بعيد ان المعلم من برائيك كان محقا ، ولكن ما هي اهمية هذا كله

الآن

٩

كانت تلك في العادة مجرد احساس عابرة ، عطر يُشَمُّ بالمصادفة ، سرعان ما يتشتت ويزول ، حتى أنك لا تمسك به لو استنشقت ثانية . لم تستطع تمييز الرائحة التي انتشرت ، ولم تستطع تذكر الحدث الذي ارتبط بتلك الرائحة ، والامر المؤكد انها بغداد شئ ما استنفر حمانم الجيران ، فانطلقت تصفق أجنحتها بقوة ، انه الصباح البغدادي ، الشديد الزخم لدرجة انها وقفت بلاحراك واغمضت عينيها كررت ذلك مرات كثيرة الى ان ادركت انها تشعر بالحنين . تتوق الى مشاهدة بغداد . وازافت الى ذلك مبررات عقلانية : معرفة الاساليب المستخدمة الآن للوقاية من الاخت البغدادية . في بداية عام ١٩٥٧ قدمت طلبا للحصول على فيزة لزيارة العراق . خلال الربيع والصيف تحسن وضعها الصحي كثيرا وفي تشرين الاول يمكنها أن تبدأ الرحلة . في نيسان قضت ثلاثة اسابيع في سلياتش لمعالجة ضغط الدم المرتفع . وقد افادها العلاج واحست انها على مايرام ، عندما توقفت لبضعة ايام في طريق العودة عند اسرة شتيفانيك في جيلين كان وضعها جيدا لدرجة انها اخرجت الجميع عن الطور : وقد اصطحب فلادا وزوجته فلاستا يوم الاحد في نزهة الى ترخوف . في البيت الخشبي الريفي تحت سوكولوف ، وحيث ارادوا اصلا تناول وجبة الغداء فقط ، اعجبت فلاستا بالمكان ورتبت بصورة مفاجئة الأمر للبقاء هناك ثلاثة ايام . ارسلتهم الى دارهم وبقيت هناك وحدها ، مجردة من حاجاتها باستثناء حقيبة اليد

الى ماريا تاور ١ تموز ١٩٥٧

كان الامر جميلا ورائعا ، ان تكون جميع قمم جبال تاترا الواطنة في متناول اليد وان يعيش الانسان تحت اقدامها هدوء الايام الاعتيادية ويتسلق مقتنيا آثار قاطعي الاخشاب الذين لايسيرون على الطرق المطروقة . وأن يرى الاوراق الاولى على اشجار الزان وعلى فسائلها برقع الداتيل الذي تكونه جنابذ زهور الشوك المتفتحة ، وان يرى زهور الجنطايا المتفتحة في المروج وقطعان الماشية ، التي شكى راعيها (التعاوني) ، الباتشا العجوز . من الدب الذي اختطف قبل زمن قصير شاة من قطيعه - كنت اعتقد ان الدببة لم تعد تعيش في بلدنا ، واذا بها هنا..."

ماذا في الامر حين لا يكون معها ثوب النوم وقد نظفت اسنانها بصورة مرجلة بدون فرشاة الاسنان كان ذلك رائعا ، هكذا بلا مقدمات وبصورة مفاجنة (حتى بالنسبة لها) الانفلات والتصرف ولو مرة واحدة ليس بما يُمليه العقل وانما للمجرد التسلية . كانت تلك الايام الثلاثة التي قضتها وحيدة بين الجبال والسماء كالهبة وقد قبلتها فلاستا بامتنان . على كل انها سوف تلتزم بالنظام خلال العمل المألوف .

"... تنامي عدد تلاميذي الذين يتعلمون الانجليزية بعد عودتي من حيث الاساس . وكان الكثير من الصغار يأتي للسؤال : هل استطيع الالتحاق بهؤلاء الذين يبدؤون الدراسة . وكذلك ابنة رئيس الاطباء ماخاتشيك من بيسك (التي كانت معي في مستشفى ديفيش) تأتي قبل ظهر الخميس مع اخيها ايفان الذي يبلغ السادسة من العمر..."

الانجليزية والايطالية والروسية . يحضر الاطفال الآن يوميا . وكان ذلك يتعبها ويفرحها . في وقت ما ، قبل ثلاثين عاما وعندما انتهت من القاء أول محاضرة لها في جامعة الامام ابو حنيفة ، قال لها نعمان : اشكرك يا ابنتي لكل ما قمت بتقديمه اليوم لتلاميذي . فانت لست بخيلة ، وربما تهبين في الحياة الكثير من اشيانك ، وهذا ما يستحق الشناء . غير انك في يوم ما سوف تقدمين آخر شي . واذا كنت تهبين من ثروة معرفتك ، فانك كلما وهبت اكثر ، بقي عندك المزيد

في زيارة ميخائيل

منذ فترة طويلة تشعر فلستا بالقلق على ميخائيل . فبعد الإصابة بالتهاب رئوي شديد عاناه في شتاء عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ بقي يعاني كهفا آخر : لقد تخلص من الخطر المباشر ، غير ان جسمه كان متعبا ، أكثر مما يكون الانسان في عمره على استعداد للاعتراف بذلك . اراد ان يعيش مثل الشباب الآخرين . وكان قد شعر بعد العودة من المستشفى أن حالته جيدة لدرجة انه كما كتب لفلاستا حل بحزم مسألة تأسيس العائلة . وقد تزوج حقا ، ثم اعلن بعد ذلك باحتفالية ولادة ابنه فاسيليي . وقد كان كافيا ان يبتل مرة في زخة مطر ربيعية ، ليعاني مدة شهر كامل الحمى وتصبب العرق في الليل والضعف والتعب الذي لاحدود له .

وما كاد يتشافى حتى مرضت امه . في الكولخوز ناب عنها الآخرون في العمل غير ان اخاه الذي كان في الرابعة عشرة من العمر لم يستطع انجاز العمل المطلوب في الحقل المنزلي . لهذا ذهب ميخائيل لمساعدته . ومرة اخرى تدهورت حالته الصحية " هذا ما ينبغي ان لا تسمح به لنفسك انت بالذات ، عليك ان لاتفرط بصحتك " وجه له الاطباء اللوم . من السهل على الاطباء اسداء مثل هذه النصائح ، ولكن ماالذي كان امامه ؟ بالاضافة الى ذلك لم يستطع تقبل حياة المريض المسكين

الى رودولف ٩ تشرين الثاني ١٩٥٧

"... لم تصل من ميخائيل منذ الربيع حتى كلمة واحدة ، وإنني أخشى ان يكون وضعه

قد تردى . ويوم امس بالذات قمت بكتابة وتقديم طلب سعة الدخول في ميلوفسكا ، من اجل زيارة كراسنودار لمدة خمسة اشهر"

قررت السفر لزيارة ميخائيل ، انها تريد ان تراه وان تنظر اليه باعتبارها " امه التشيكية " وكذلك باعتبارها طيبة له . بالاضافة الى ذلك أتعبها أن تكتب مزيدا من رسائل التذكير بطلبها للحصول على فيزة للعراق . سوف تمكث بضعة ايام في كراسنودار وبعدها تسافر الى جمهوريات اسيا الوسطى السوفيتية . فمن المؤكد ان الامراض هناك والمشكلات الصحية مشابهة للامراض العراقية في الكثير من الجوانب . وربما ستكون تجاربها مفيدة للبعض هناك .

لعلها قد شعرت بعد اتخاذ هذا القرار بشيء من الراحة . كانت تتطلع الى بغداد ولكنها كانت تخشاها في الوقت نفسه : فإن بغداد بالنسبة لها مرتبطة بجيورجي لدرجة من غير الممكن الفصل بينهما ، انها ترتبط بجيورجي ، بالاطفال ، بمستشفاها الصغير ، وبكل ما هو جميل وباعت على الامل ، كان حينذاك في تلك الباديات .

لو ذهبت لقامت بزيارة الاصدقاء ، إن كانوا على قيد الحياة . كانت تتوق الى ذلك . المحامي مصطفى كامل واسرة عز الدين - كيف تبدو ريم - الآن ؟ في الاغلب انها تزوجت منذ فترة طويلة ، ولاشك في انها سوف تزور صياد السمك مجيد ، الذي اصطاد لها سمكة "البنّي من الفرات" في نهر ديالى . غير ان الاصدقاء سوف يسألونها عن جيورجي وعن الاطفال . وسوف يكون عليها ان تتحدث ، وان تكرر من جديد ، ان تكرر لكل منهم من جديد . لماذا ينبغي فتح الجروح القديمة ؟ تكفي تلك الجروح التي تأتي من جديد . في العشرين من آب ١٩٥٧ كتبت الى اسرة كرزاكوف : "... في الثالث عشر من الشهر الحالي وفي هذا اليوم بالذات توفيت أمنا عند وقت الظهر في بيت اسرة شموليكوف في براغ . كانوا قد عادوا معها قبل ذلك بثلاثة ايام من مدينة بيسك"

الام كالالوفا ، تلميذة الصف النهائي في مدرسة الحياة ، تخرجت بدرجة ممتازة .

الى ماريا تاورر ٣ كانون الثاني ١٩٥٣

"... قبل اعياد الميلاد كتبت الى معهد الأستشراق ، طالبة اعارتي اية مطبوعات عن جمهوريات آسيا الوسطى ، وبصورة رئيسة باللغة الطاجيقية او مطبوعات مكتوبة بالحروف الازبكية عموما . غير انني لم أتسلم لحد الآن اي شيء .

متى سأسافر - لا ادري . كتبوا لي من مؤسسة السياحة ان استخراج وثائق السفر يستغرق بضعة اشهر واضافوا ان عليّ أن لا أؤكد الطلب . ولقد تردى وضع ميخائيل ، الذي اريد زيارته ، لدرجة كبيرة . وانني اخشى ان يتوفى قبل ان يتم انجاز الامور الشكلية للسفر"

الى اسرة كيرزاك ٢١ شباط ١٩٥٨ ألبوكا ، القرم

"عند وصولي كانت لدى ميخائيل تذكرة للإقامة في المصححة هنا في ألبوكا ، وهكذا سافرنا بعد اربعة ايام معا الى القرم . انه لا يبدو في حالة سيئة ولكنه يبدو في العشرين من العمر في أقصى الاحوال ، في حين ان عمره ٣٥ عاما..."

الى ماريّا تاور ٨ نيسان ١٩٥٨ ألبوكا قرب يالطا

"... العزيزة ماريّا ، وصلت هنا على الساحل الجنوبي (بدأ حراثة اراضي ساحل القرم الطورانيون في القرن الخامس قبل الميلاد) مع ميخائيل الذي يتلقى العلاج هنا في المصح بعد عشرة ايام اسافر الى سوتشي ، وبعد ذلك الى ستالين باد ، حيث اغادر من هناك في الطائرة عبر موسكو الى الوطن..."

للبحر وللسماء لون ربيعي فاتح ، غير ان الشمس تبعث الدفء بصورة مريحة . فلاستا تنهض في ساعة مبكرة ، وهي اول من ينهض في الفندق بكامله . تشعر بالأسف لكل لحظة تضع عبثا . انها تدفئ كتفها المؤلمة وتمتص اشعة الشمس بكامل جسمها ، تلتصق باشعة الشمس كما كانت تلتصق في دارها بالمدفئة الكهربائية . في لحظات الفراغ بين تلقي العلاج والراحة الالزامية يأتي لزيارتها ميخائيل ، لهما مصطبتهما على السفح المطل على البحر الازرق . " انه لشئ خاص ، فأنا لم اتحدث لأمي ولا لزوجتي عن نفسي قدر ماتحدثت اليك " قال لها مرة و استغرب ذلك هو بالذات .

تحدثا معا في الحافلة العمومية طوال الطريق الى يالطا . الى هذه المدينة البيضاء في الخليج الدائري . يالطا جميلة ، لا بد ان تشاهدها ، سوف اريك كل شئ هناك . قال ميخائيل بحماسة وفخر . غير انهم لا يمكن ان يشاهدوا " كل شئ " لضيق الوقت . لذا وضعوا قائمة حسب الاهمية .

في المقدمة الدار التي عاش فيها الطبيب الريفي ذو الابتسامة المتفهمة والنظارات . كان اسمه انطون بافلوفيتش تشيخوف . كانت الدار البسيطة ذات الاثاث الحميم في وسط

بستان ، وانه لمن الصعب تصديق ان تشيخوف قد انتقل الى هنا بين الاحجار العطشى والعاقول ، وفي هذا المكان الجاف غرس بستانا " اغلب الاشجار قام بغرسها بنفسه " قال المرافق باستثناء شجرة السرو في الجانب الايسر ، فقد زرع هذه اصدقاؤه ، عندما توفي تشيخوف ، لكي يقيسوا الزمن منذ وفاته بارتفاعها"

إنحت فلاستا لتنظر فوق السطح ، حيث تتجه قمة الشجرة نحو السماء الزرقاء . منذ زمن طويل يعيش العالم بدون الدكتور تشيخوف ، غير ان الشجرة سامقة . تذكرت شجرة التفاح التي غرستها في حديقة برناريتيسه في عام الف وتسعمائة وخمسة واربعين . وكانت قد شعرت بالاسف حين تجمدت الشجرة بسبب شتاء قاسي البرودة ، لعل ذلك كان افضل . فكرت الآن ، افضل من ان يرى الانسان امام عينيه الزمن يمر بلا رحمة مجسدا في قمة شجرة .

في المرتفع فوق يالطا ، حيث يمكن مشاهدة منظر جميل للمدينة وللبحر ، عثروا بالقرب من ورشة قاطع الاحجار على قمة عمود وقد قلبت وصارت مثل مصطبة للجلوس . كانت من المرمر الابيض وذات زخرف ناعم ودقيق . من المؤكد انها من العهد اليوناني . عرف ذلك قاطع الأحجار ، فقد عثر عليها بنفسه قبل عدة سنوات في مكان ما هناك - اشار برأسه الى حافة جبل الدب المكسو بالغابات . كان عدد امثالها كثيرا هناك ولكنه وجد أنّ هذه القطعة هي الاقل تضررا . وقام بنقلها في عربة الى هنا . لماذا ؟ لانها اعجبته ثم انه وجد فيها نموذجا للزخرفة يعمل على نمطه . " ضعها في الاقل في الفناء " قالت فلاستا محاولة اقناعه " اذ يأتي الى هنا عدد متزايد من السياح ، وسوف تجد مرة ان احدهم اخذها الى مكان بعيد ، سوف ترى . " لوح بيده " من سوف يتحمل عناء نقلها - فهي ثقيلة . وقد بقيت هنا عشرين عاما ولسوف تستمر في البقاء . إلا في حالة ان يأخذوها الى المتحف ، فقد جاءوا قبل فترة والتقطوا صوراً فوتوغرافية لها

حان موعد الغداء ، وبدأت فلاستا تبحث عن مطعم ما . غير ان ميخائيل كان يتخذ هيئة غامضة وقادها الى مواصلة السير بمحاذاة الساحل . زعم اننا سنكون هناك في الحال ، في الحال ، بعد دقيقة سنكون هناك . الفندق لا يبدو من الخارج مخالفا لما هو مألوف . كان قد أصلح ولكنه قديم جدا . حسنا ، اذا كان يريد الدخول هنا فليكن . غير انه يمضي مستمرا نحو الفناء : ما موجود هنا ليس فناء ، انه إيوان جميل فيه نافورة ، وتتوسطه نخلة سامقة ، وتحت الاطواق البيضاء المحيطة بالمكان مائدة مكسوة بأغطية بيضاء . انه الوسط المعروف

والهادئ للدور الاسلامية (من الذي عاش في هذه الدار ، في فندق اوكرانيا حاليا ، قبل الحرب وعندما كان يعيش في يالطا تترُ القرم ؟)

تعرفت على رئيس اطباء المصح في ألبوكا وحصلت منه على بضعة رسائل توصية موجهة الى اصدقائه في مستشفى سوتشي وفي سوخومي . طوال حياتها كانت تميل الى أن تكون متأكدة مما تقصده ، أناسا ملموسين وليس معهدا . في امريكا ، حصل بضع مرات أنها أرادت زيارة بعض المعاهد الطبية العلاجية ولم تنجح في الحصول على توصية الى احد المسؤولين فيها . وبعد ذلك والى ان تم تفسير كل شيء ، واجهت الكثير من عدم التفهم ، وكان احدهم يدفعها نحو الثاني كما تنتقل بين الايدي قطعة البطاطة الحارة ، وهذا ما لا تريده . كانت تفسر بمرارة انها لا تريد شيئا من احد ، وانها تهتم فقط بهذه او تلك المسائل الطبية الاختصاصية . إرتباك عقيم وضياح للوقت .

ودعت ميخائيل - انه يبدو الآن في وضع مريح باستثناء هذه الرقبة الصيبانية النحيفة ، فكرت فلاستا . فاسيك سوف يكون في وقت قريب اطول منه ولاشك . ونأمل ان لا يضطر فاسيك بعد انها المدرسة الثانوية الى الذهاب الى الحرب .

سافرت الى سوتشي وسوخومي في الباخرة ، وقد زودها رئيس الاطباء برسالة توصية مكتوبة باللغة الغروزينية الى رئيس اطباء مستشفى أمراض الاطفال في تبليسي " هل تعتقد بأن لديهم في مستشفى الاطفال بالذات اكبر قدر من الخبرة في مجال الامراض الأستوائية ؟ " سألت بشي ، من الشك .

" لا ، لا ، لا ، غير انني أرسلك الى الانسان ، الذي يلم بحرفته إلماما استثنائيا ، بالاضافة الى انه يعرف جميع الاطباء من القفقاس حتى الاورال " ابتسم رئيس الاطباء " في بعض الاحيان تساورني الشكوك في انه يعرف جميع الناس .

استقبل الدكتور المرح والسمين فلاستا استقبالا وديا وكأنها من معارفه القدامى (لعله يعرف حقا جميع الناس في العالم) ورافقها في جولة للاطلاع على المستشفى ، واستمع باهتمام الى تجاربها في بغداد ، وقدم لها من العناوين ما يمكنها التنقل بضعة اشهر اخرى . وكتب الى جانب كل اسم السمات العامة للشخص المعني وخبرته المهنية وسماته كانسان ، مقدمة مع حركات ايمانية وسخرية نزيهة . " لاتقولي انني قلت لك هذا... "

"لاتركي باكو ، في الاقل لأن الطيب هو رئيس مجلس السوفيت ، ورئيس الاطباء هو

عمدة المدينة ، كيف يقولون هذا عندكم . لم يكن في المدينة كلها قبل اربعين عاما خمس وعشرين شجرة . حقا خمس وعشرون شجرة ، كانت محسوبة . اما اليوم - اذهبي الى هناك وشاهدي ، ليأخذوك الى شغيلة المؤسسة النفطية في البحر ، انتظري لحظة ، سوف اكتب له هذه الملاحظة الاضافية في الرسالة . باكو ، لا بد لك من زيارتها بالتأكيد وكذلك سمرقند وبخارى ..."

في جميع الرسائل كتب التوصيات بخصوص كل ما ينبغي ان يُمكنوا فلستا من مشاهدته . وقام بنفسه باجلاسها في الحافلة المعلقة القديمة (حافلة الجسر الهوائي المعلق) واصطحبها فوق المدينة الى قبر جريبيودوف ومن ثم على جبل ماتسميندا الى مطعم ، يُذَكَّرُ بمطعم نيبو زيزيك فوق مرتفع بيتشين في براغ . وشاهدت من هناك منظرا رائع الجمال لمدينة تبليسي .

الى اسرة كورزاك ٧ ايار ، ستالين باد

"... عبر سوتشي وسوخومي وغوري وتبليسي وصلت الى باكو . ومن كراسنوفودسكو الى سمرقند وبخارى وستالين باد . ومن هنا سوف احلق في الطائرة عائدة الى الغرب . ولقد قدمت خبرتي في المناعة من الاصابة بمرض الليشمانيا الجلدي ، ولهذا فأنا اشعر بالارتياح ."

الى ماريا تاور ٢٣ ايار ١٩٥٨ ، من موسكو (فندق اوستانكينو) :

"اعود يوم ٢ حزيران مساءً في طائرة تو-١٠٤ . لا أتاخر كثيرا في براغ . غير انني سوف احاول زيارتك..."

قدمت رحلة فلستا الى الاتحاد السوفيتي ، ثمرة اخرى غير منتظرة : عملان ادبيان . فخلال اقامتها التي استمرت ثلاثة اسابيع في موسكو تعرفت على الصحفية تاتانيا تيسوفا ، وقد اثار مصير فلستا اهتمام تيسوفا . وجاءت عدة مرات الى تشيكوسلوفاكيا لزيارة فلستا وكتبت عنها رواية نشرتها بصورة متسلسلة المجلة السوفياتية جينشتينا (النساء) .

العمل الادبي الثاني ، الذي أوحى به اقامتها في الاتحاد السوفيتي ، كان محاولتها الذاتية في كتابة عمل درامي . وكعادتها في كل مكان كانت حيثما تذهب في المدن السوفيتية ، تقوم بزيارة المسارح . واثارت اهتمامها المسرحيات التي تعرف المشاهدين بالشخصيات التاريخية المهمة ، المعروفة وشبه المنسية . واعتبرت اسلوب التربية بوساطة المسرح سليماً وفعالاً جدا . (كانت بصورة عامة تثنى الجانب التربوي والتعليمي في الأدب

والفن) .

وقد كتبت وفق نموذج المسرحيات التي شاهدتها هناك عملا دراميا من حياة ابيها

إلى ماريا تاور ١٦ تشرين الأول ١٩٥٨

"... في الصيف حاولت احياء ابي عن طريق عمل مسرحي عنوانه " اسبائيت التشيكي"
وقد ارسلت النص في الاسبوع الماضي الى اكااديمية العلوم الزراعية . ولا ادري هل سوف
يسمح بتقديمه على المسرح . وكانت رغبتى ان تحرض الشخصية الحقيقية من الماضي القومي
المنسي بقوة مثالها الايجابي ، شباب اليوم والمستقبل خلال اتخاذهم القرار وخلال عملهم...
بالطبع لست مسرحية ولا ادبية ، ولهذا فإن مجرد القيام بهذه المهمة كان تطاولا ، وأنا اقل
تفاؤلا في ان عملى قد حقق النجاح لدرجة تمكن من ان يراه الشباب الذين كتب من اجلهم..."

مخطوطة فلاستا الاولى ، المكرسة لاقامتها في بغداد والموسومة بعنوان " عبر البوسفور
نحو دجلة " موجودة في متحف الوثائق المكتوبة في ستراهوف . قدمتها للمتحف بعد بضع
محاولات غير مجدية من اجل نشرها كانت قد قامت بها قبل الحرب وبعدها . ولم يحظ
العمل المسرحي اسبائيت التشيكي ايضا بفرصة عرضه على خشبة المسرح كما لم يحض
بذلك البرنامج المسرحي الثاني لها والذي استوحته من حياتها الشخصية والذي كان عنوانه "
شجرة الدرداء الشمسية " ، بالعرض ايضا . وربما كان من الممكن ان تحقق تلك الاعمال
نصيبا أفضل من النجاح لو انها كتبتها باللغة الحية وذات الالوان التي كتبت بها رسائلها ، ولو
أنها لم تحاول بالقدر الذي حاولت "الكتابة بأسلوب ادبي"

حبة خردل

الى رودولف ١٦ شباط ١٩٥٩ ،

"..انني ممتنة لك ، اذ كتبت لي . اليوم بالذات . أجل فإن الايام صعبة في العادة . برد قارس ، وتجمد انايبب الماء وعطب الاجهزة الكهربائية ، والاكثر من ذلك الفرد المصاب بالعطب والذي يسمى رغم كل شيء ، الى تحمل هذه الوحدة الباردة ..."

ادركت في اية ظروف متطرفة تعيش ، فهي تسافر بعيدا الاف الكيلومترات ، مستخدمة القطار والطائرة والسفن البخارية ، ثم تعود بعدها لتبقى في الدار دون ان تخرج منها على مدى ايام طويلة . انها تفكر في بعض الاحيان ، هل من الممكن مجرد التصور ، انني كنت قبل بضعة شهور اتمشى على سواحل البحر الاسود وبحر قزوين ؟ وفي مقبرة نوفوديفجي (البنات الجديديات) ؟ ألم اقرأ عن ذلك ؟ لا لم اقرأ ، انني ما ازال اتذكر جيدا ، كيف ان السواحل في باكو ملأى برائحة النفط والسّمك المشوي . وكيف كانت تتنفس بحلاوة في موسكو اشجار كرز الطيور . فالرائحة لا يمكن ان تشم من الكتب . لاهد انني كنت هناك ، رغم ان هذا الامر يبدو ضعيف الاحتمال .

جاء الشتاء ، الشتاء الذي لانهاية له في الدار الخالية الباردة . في شهر تشرين الثاني عانت فلاستا اصابة شديدة بالانفلونزا ، وحتى اعياد الميلاد لم تسترجع إلا بصعوبة كبيرة صحتها بحيث انها بصعوبة استطاعت ارسال بطاقات التهنية والهدايا .

انها لا تنظر الى كتابة بطاقات التهنة كأمر شكلي . وكان النص المطبوع مسبقا يزعجها ، فهي تريد ان تكتب تمنياتها لكل واحد بصورة مختلفة ، وليس فقط العبارة المكررة ، أتمنى اعياد ميلاد مرحه وعاما جديدا سعيدا . لماذا يقومون بطبع مسبق لهذه العبارات ، التي تشغل بصورة عقيمة حيزا في البطاقة كتبت بحروفها الدقيقة الناعمة والملحة حتى فوق العبارة المطبوعة كانت البطاقات التي تبعث بها الى الخارج تمثل نداءاتها الشخصية من اجل السلام . خيل لها ان اعياد الميلاد ، اعياد القلب الطيب تلك ، هي افضل مناسبة لتوجيه تلك النداءات . ولهذا انتهرتها

الى فلادا شتيفانيك . في كانون الاول ١٩٥٨

"... اية دون كيشوتية يمكن ان تبدو في العلاقة بالكرة الارضية باعتبارها الدار الوحيدة المشتركة والمحبوبة ! ورغم ذلك من المؤكد انك تتفق معي ، في أن حياة الناس على الكرة الارضية لن تكون جيدة . اذا لم يحققوا جميعا بهذا الشكل . رسالة اعياد الميلاد . الاعمال الخيرية . وليس الشعارات المجردة . والتمسك بالاشياء التي تمثل المصلحة المشتركة للبشرية ..."

وحيدة ، لا يكاد احد يشعر بوجودها ، في الدار الحجرية القديمة في المدينة التشيكية الجنوبية . حيث لا تمر سكة حديد ، تابعت بذكاء وتوتر ما كان يجري على سطح الكرة الارضية ، في هذه " الدار الوحيدة والمشاركة والمحبوبة " . وكلما خيل لها ان هناك امراً غير سليم او غيرعادل . رفعت صوتها . وقد هدمت معرفتها اللغات كل الحدود

"بريك . هل تعتقدان حقا انهم سوف يأخذون برأيك ؟ هزت رأسها ميلادا عندما شاهدت فلاستا تكتب رسالة الى احد رجال الدولة ، إنهم لن يقوموا حتى بقراءتها ، وسوف تقوم السكرتيرة بالقائها في سلة المهملات ."

"لو انا اعتبرنا مقدما ، كل شيء ضائع . لكان مصير العالم سينا للغاية" قالت فلاستا وواصلت الكتابة . غير انها هي بالذات شككت لأصدقائها في واحدة من رسائلها : "... كيف ان الانسان لا يريد ان يكون ساذجا . ليواجه ماكنة الدولة بحبة خردل من الحقيقة البسيطة للبشرية عامة..."

كتبت الى تشرشل ، في الحال بعد خطابه عام ١٩٤٦ في جامعة فولتون . وكتبت الى حكومات الدول الاربع الكبرى خلال ازمة برلين . وكتبت الى كلمنت غوتوالد بعد صدور

قرار الحكم بالموت على ميلادا هوراكوبا . في دائرة البريد في برناريتسه كانوا يتسمون ،
عندما كانت السيدة الطيبة العجوز التي ترتدي معطفاً أسود رثاً ، تبعث الرسائل المسجلة
الى ذوي الاسماء اللامعة . وكانت هي ذاتها تبسم قليلا ايضا ، كما هي عاداتها

٢

كانت فلاستا حينذاك تجيد احدى عشرة او اثنتي عشرة لغة ، وتتعلم لغات اخرى . قبيل
السفر الى الاتحاد السوفيتي تعلمت في الاقل شيئا من اللغة الطاجيكية واللغة الجيورجية . ما
قيمة ذلك ، عبر اصداقواها عن استغرابهم من جديد ، فهناك يعرف الناس اللغة الروسية في
كل مكان . وفي معهد الاستشراق ايضا نهبوها الى ذلك عندما طلبت استعارة كتاب مدرسي
لتعلم اللغة الطاجيكية . ووجدت نفسها مضطرة مرة اخرى الى تبرير الأسباب والشرح
والتوضيح بل وكادت تضطر الى الاعتذار ، لانها تريد تعلم لغة اخرى .

لغة واحدة فقط من اللغات التي تجيدها ، حاولت ان تنساها ، منذ عشرين عاما ، عندما
غزت المانيا الهتلرية الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، لم تنطق بالالمانية . لم يستطع احد
اقناعها في إمكان ان تكون اللغة الالمانية في الاقل ، مفيدة كوسيلة للتفاهم . كانت بالنسبة
لها لغة بربرية وغير انسانية . هذه اللغة استخدمها للتفاهم فيما بينهم قتلة اطفالها وزوجها
Der Junge ist aber zerschossen! Na Also, senorita! . لن ينطق فمها هذه اللغة ابدًا

وقد استحوذت عليها فكرة مطاردة استخدام الجرمانية ، بل وحتى الكلمات الجرمانية
الدخيلة على لغة التخاطب التشيكية العامة منذ زمن طويل . كانت لاتعترف بكلمة
(كيدلوبني - لفت - ولم تسمح بأن يقال امامها : فلاشكا - قنينة - أو تاشكا - حقيبة -او
كارلشتين - اسم احدى القلاع التشيكية . كانت تصرخ بحدة في وجه اي كان ، حتى ولو
كانت تقدره اسمى التقدير . (غير انها كانت لا تقول من حيث الاساس : " هذا لايلانمني
وانما " هذا لا يروق لي " كان ذلك تقليدا عائليا موروثا وربما ظاهرة زمنية لذلك العهد ، ويبدو
انه لم يخطر لها مطلقا ان ذلك كان اسلوبا جرمانيا) .

وقد شملت كراهيتها للغة الالمانية ايضا جزءا من الادب الالمانى ، فقد كانت على
استعداد لأن تقرأ الاعمال المترجمة لبعض المؤلفين الالمان في حين كانت ترفض البعض رفضا
قاطعا . حتى انها رفضت غوته . اهتمته بجنون العظمة والكلبية " ساهم بنصيبه في تمجيد

بأية احاسيس كتبت فلاستا الى السيدة فويتخوفا في حزيران ١٩٥٩ حول زواج ابنتها المنتظر؟ إذ ان يندرا تزوجت المانيا ، ولعلها سوف تنتقل معه الى برلين

أجابت فلاستا بصورة مثيرة للدهشة : "... انني افكر الآن بدون توقف بيندرا . عسى ان ينشر اختيارها الطمأنينة في سنواتكم المقبلة ، وان يحمل للزوجين الجديدين حياة منسجمة . وان يمثل للشعبين المعنيين نبعاً ، يساهم في النمو الجديد للحياة بما يخدم البشرية..."
هل كان ذلك دليلاً على المهادنة؟ أم أنه كان دليلاً على مدى حب فلاستا ليارميلا؟

٣

أربع نساء شابات ، تتحدث الواحدة منهن عبر الاخرى . مترجمة اللغة الانجليزية قد أُخْرِجَتْ من اللعبة ، انها تحتسي القهوة ، وتأمل بجمالة ، وتبتسم بحيرة . هل هذا ممكن . فلاستا مندهشة ، مرة اخرى تسمع اللغة العربية حية ، لغة الحكايات ، التي بدأت بالنسبة لي عن حق بكان ياما كان؟

وجه اتحاد النساء الدعوة لها للقاء بمجموعة من العراقيات . وبعد فترة طويلة سافرت الى براغ ، العراقيات في عمر الشباب ، خلال فترة وجودها في بغداد لم يَكُنْ قد ولدن بعد أم انهن كن يجربن الحبو للتو . ورغم ذلك تذكرت معهن بعض المعارف المشتركين كان بينهن معلمة من الكاظمية . الا تعرف بالمصادفة اسرة محمود؟ كانت لهم في الكاظمية دار صيفية وبستان .انها تعرفه ، السيد محمود انه أب الأسرة . مازال على قيد الحياة ، ابنتهم خيرية تزوجت قاضيا

الحنين ، ايها الحنين القديم ، ها انت هنا ثانية . لمن أشعر بالحنين ، حقاً ، أأحن الى بغداد ام الى الشباب؟

على اية حال انني لم اسحب طلب السفر الى بغداد بعد . كل ما في الامر انني توقفت عن التأكيد عليه ، ماذا لو انني رغم ---

العراقيات ، شأنهن شأن جميع الوفود ، مُغرقات بالكثير من اللقاءات والرحلات الاستطلاعية والرسميات . وجهت لهن الدعوة لزيارة برنارتيتسه ، في الحال تحمسن للدعوة ، الريف التشيكي ، نعم ، سيكون ذلك رائعا ، شاهدن الريف قليلا من السيارة ، غير

ان ذلك لم يكن كافيا . لعل من الممكن تنظيم مثل هذه النزهة . انهن سيفادرن عائدات في الطائرة من فيينا بعد يومين

"من فيينا؟ اذاً فإن برنارتيته على الطريق " فرحت فلاستا وبدأت في الحال تنظم الامر . ولكن بلا جدوى . فإن برنامج الوفد محدد بشكل ثابت . المروج المزهرة ، زرقة مياه البحيرات وغابات حزيران دائمة الخضرة كانت تقدم بهذا الحجج ضد اجتماع مخطط له . ان هذا بالنسبة لهن شيء جديد تماما ، شيء غريب - فريد - قالت فلاستا معترضة . كان الناس من مختلف الارحاء المحيطة بنا يأتون لمشاهدة شجرة تنوب صغيرة في المزهرية - غير ممكن . اثار هذا الاحساس بالمرارة لدى فلاستا كما هي حالها حين تصطم بالشكليات . ودَعْن بعضهن مكرهات . تعالي بالتأكيد تعالي . قالوا لها باخلاص . ساذهب الى هناك ، اعتقد أنني سوف اذهب الى هناك في النهاية .

الى أسرة فويتيتش ١٩ حزيران ١٩٥٩

"... إنني عدت الى الحديقة ، التي يضيؤها القمر ، والى الدار ، الصامتة المفعنة بسياج الاشجار القاتم ، في الساعة العاشرة مساءً . وكان في انتظاري عند الصباح ، قبل كل شيء ، تنظيف اكداس الروث الذي خلفته بيلكا (المعزاة) ووليدها الهانج ، اكثر من تسع عربات ملأى حتى القمة . الحديقة بعد نقل التبن ، ومنتظرني الغسيل "الكبير" للاغطية والسياب . الواجبات ترمقني من كل الزوايا المغطاة بطبقة طرية من خيوط العنكبوت . غير ان حضوري الروحي معكم وليس هنا..."

الى أسرة شتيفانيك ٢١ آب ١٩٥٩

"... في بداية العطلة جاء لتعلم اسس اللغة الايطالية بافل الذي يبلغ الثامنة من العمر وهو ابن لابنة اختى من مدينة فودناني... وقد استطعت ان اساعد بسرعة وسهولة عدداً من الشباب الراشدين في تعلم الانجليزية ، وهكذا لم يمر هذا الصيف بلا جدوى..."

لم تشر في رسالتها الى انها حفزت لدى بافل الرغبة في تعلم اللغة العربية وبدأت تعلمها ايها

لم يحضر احد في صيف هذا العام باستثناء بافل . لم يحضر التلاميذ الصغار من براغ ولا فلادا ولا رودولف .

كانت تقف عند النافذة عندما يمر الناس القادمون من الحافلة العمومية القادمة من

براغ كانت تتأمل . غير ان احدا لم يأت اليها

الى رودولف ٣٠ آب ١٩٥٩

"الصيف يوشك على الانتهاء ، دون ان استطيع استقبالك هذا العام . اخشى انك تتعب نفسك في ظروف اصعب من ظروف العام الماضي . في الاقل لو استطيع التأكد من انك تقوم بالعمل الذي ينسجم مع موهبتك وتعليمك . واذا كنت سوف تستمر في السماح بالعكس ، فانك بالذات تسمح هكذا بتبذير أرفع ما عند الشعب من القيم . آسف لانني اجد نفسي مضطرة لان ارجو ذلك منك ..."

لم يكن من الممكن الرد على مثل هذه الدعوة المباشرة بالتبرير او التأجيل . استعاد رودولف ارادته وطالب بأعادة التأهيل الجسماني . وعندما جاء الرد الايجابي على طلبه بعد فترة من الزمن قدمت فلاستا التهنة القلبية له . لم تقل له مطلقا " أترى لو لم اكن " او " ألم أقل لك ذلك"

كتبت فقط أنها سعيدة لذلك ، وأن الامر كان عدلا . السعادة لأن بذرة خردلها نبتت .

لم يعد هذا ممكناً
في عمرك

إنَّ موضع الألم هو دائما مركز الجسد . فلاستا تدلك كتفها ، تضع وجهها عليه وكأنها تريد ان تهدئ ألمها . في العادة يحمل لها الصيف نوعا من تخفيف الآلام غير ان المطر يهطل الآن ، يهطل لليوم الثالث ، الرطوبة الفجة تتسرب الى الدار والى العظام . الذراع تؤلم ، ويبدو لفلاستا أنها مثل خنفساء كسيحة ، يجهدا جناحها المكسور .

في منتصف آب قررت ، لا بد أن اعمل شيئا لهذه الذراع . لو كان عندي مريض يعاني شظايا عظمية في المفصل ، لأرسلته منذ زمن لاجراء العملية ، غير أنني لا أذهب .

سبق لها ان شاهدت قبل فترة طويلة عندما كانت طالبة طب عملية جراحية مشابهة في معهد روزيليوف في بولونا . كان ذلك ايضا بعد اصابة اثناء الحرب ، خلال الحرب العالمية الأولى . وكانت الاصابة في الكتف ايضا . كانت باولا كالديني طوال السنوات الماضية تدعوها الى ايطاليا ، الى بولونا . يمكن لها ان تُجري العملية الجراحية هناك ، في الاقل تتاح لها هناك فرصة النقاها من العملية في المناخ الايطالي المريح .

كتبت الى باولا وقدمت في الوقت نفسه طلبا للحصول على رخصة سفر . سوف تقضي الشتاء في ايطاليا . وقد بدا احتمال تجنب شتاء واحد في الدار الباردة في برنارتيتهسه احتمالا مفرحا

الى ماريا تاور ٢٣ تشرين الأول ١٩٥٩ براغ ،

"... سوف اغادر في الحافلة العمومية بعد ساعة عائدة الى الدار ، دون ان استطيع هذه المرة تقديم التحية لك بنفسى حصلت على رخصة السفر لمدة ٢١٠ ايام ، وبقي فقط ان ترسل لي مؤسسة تشيدوك جواز السفر المصادق عليه وتذكرة السفر . اما الشكليات الرسمية من روما فلسوف تستغرق بضعة ايام ، غير انني امل في ان استطيع السفر في ٧ تشرين الثاني... إنني لا اطلع الى العملية ولكن لعلها سوف تحسن القدرة على الحركة..."

٢٤ تشرين الثاني ١٩٥٩ ، بولونا

"... لم اصل إلا صباح الامس - فقد انتظرت الفيزة ١٤ يوما عند اسرة ابن عمي في طابور . تبدو لي مدينة بولونا اكبر واكثر جمالا مما كانت عليه قبل سنوات... الجو معتدل ، والسما غائمة رغم ان الشمس الساطعة كانت يوم امس تشع فوق مدينة فيرونا..."

٢

أرادت ان تُجرى لها العملية في اقرب وقت ممكن . كانت تسعى دائما الى انجاز الامور غير المريحة في اقرب وقت . لماذا مواصلة التفكير في هذا الامر بصورة دائمة وافساد الاقامة كاملة بذلك . في اليوم الثالث بعد وصولها الى بولونا ذهبت الى المستشفى . في معهد روزيليوف استقبلها طبيب انيق يضع نظارة على عينيه وهو أستاذ مساعد ، استمع باهتمام متسامحة إلى ما قالته عن عملها التطبيقي هنا حين كانت طالبة طب قبل اربعين عاما . فقد ولد هو قبل اربعين عاما . وعندما ذكرت البروفيسور بوتى ، الذي كان يقف على رأس المعهد حينذاك - ركز انتباهه - فإن هذا الاسم مازال معروفا ومحترما

نظارتاه جميلتان ذات حفاقي واضحة ويتصرف بثقة عالية بالنفس ويمشي بخطوات طويلة مرنة ، لاشك في انه يتصور الطبيب الامريكى الناجح على هذه الشاكلة ويريد ان يقلده . المريضات مشغوفات به ، بالطبع من يستطيع مقاومة مثل هذا السيد الاستاذ المساعد . على أية حال سوف ارى بنفسى ، عندما ارقد في المستشفى . كانت تتطلع الى ذلك عموما فمن النادر ان يعرف الانسان عن الناس والمشكلات بالقدر الذي يعرفه في المستشفى .

قام الاستاذ المساعد باجراء الفحوص لها ونظر إلى الصور الشعاعية ، التي حملتها معها . وكذلك اطلع على نتائج فحوص الاشعة النووية . وقطع بعض مرات بخطواته المؤثرة

ارضية العيادة . بعد ذلك ارتقى في الكرسي مقابل فلاستا : ايتها السيدة بالطبع من الممكن ازالة شظايا العظام من جيوب المفصل (اعلم ذلك ، فكرت فلاستا) . ولكن اسمحي لي بأن اقول امرا واحدا : انني لا أنصح باجراء العملية في عمرك .

لماذا يقول لي مدام ، فكرت فلاستا ، مدام وبلكنة فرنسية ، ألت رغم كل هذا زميلة ؟ لاينصح ؟ لماذا ؟ آه ، في عمرك ، اي عمر هذا ، انني لم أكد أبلغ الثالثة والستين حسب .

طلبت منه أن يرتب لها لقاء مع البروفيسور . رفع حاجبيه مندهشا وقد مسه ذلك الى حد ما

(ماذا تعتقد ، أيقول لها الرجل العجوز شيئا آخر) . دعاها الى ان تمر على السكرتيرة وان تتلطف بالمكوث في قاعة الانتظار ، فإنه سوف يلقي نظرة ليتأكد ما اذا كان البروفيسور موجودا

مرت على السكرتيرة لتسد حساب الفحوص الطبية . وانتظرت عشرين دقيقة جاء بعدها البروفيسور بنفسه . سيد لطيف اشييب الشعر . وعبر عن ارتياح كبير اذ يتعرف على زميلة تشيكية سبق ان عملت في هذا المستشفى . اننا في كل الاحوال قد مررنا بجانب بعضنا على مقربة شديدة الى حد التلامس . ايتها السيدة الدكتورة . في اي عام عملت هنا ؟ عام الف وتسعمائة وعشرين ؟ هكذا ترين ، انني بدأت العمل بعد ذلك بخمس سنوات . اذن فإن هذا البروفيسور اصغر مني ايضا . خطر لها على حين غرة .

"انك تتكلمين اللغة الايطالية بشكل رائع ياسيدتي الدكتورة . واسمك الايطالي ؟ هل تستطيع السؤال ؟ لعل زوجك ايطالي؟"

"كان ايطاليا . انني ارملة ، قتله الالمان"

حزن لحظة مجاملة قصيرة . بعد ذلك عاد الى عمله التطبيقي في المعهد . واتفقا على بضعة اسماء لاطباء تذكرتهم فلاستا . وبوتي ، نعم البروفيسور بوتوي ، بالطبع ، كان ذلك هو العهد الذهبي لهذا المعهد . هو نموذجنا الذي لايطال . هز رأسه بتواضع وحماسة طبيب العظام الذي يتوج الشيب رأسه .

جاءت السكرتيرة بالقهوة والفاكهة . بعد القهوة بدأ البروفيسور الحديث عن الموضوع

"نعم تحدثت حول قضيتك مع الزميل ، وأطلعت على نتائج الفحوص . فإن الامر يتعلق بعملية صعبة للغاية ، ايتها السيدة الدكتورة . صعبة من جميع الجوانب"

بالتأكيد من الناحية المالية ايضا . بعد المبلغ الذي طلبتموه لقاء اجراء مجرد الفحوص ، لا أشك في ذلك

"ولا أستطيع ان اضمن لك ان تكون النتيجة على النحو الذي يرضيك تماما . هذا ما ينبغي ان اقول لك بصراحة"

هكذا هو ايضا لا يريد اجراء العملية

"انا لا انتظر المعجزات " اعترضت بسرعة " اعلم ان بعض الامور لا يمكن اصلاحها . مثل مرتكز عظم الكتف او ما اشبه . غير انني كنت انتظر في الاقل توسيع القدرة على الحركة او تخفيف مصاعب الحركة " قالت معتذرة .

"هذا بالذات ما لا أستطيع تقديم الوعد بتحقيقه بروح المسؤولية ."

لم تشأ التسليم بذلك " شخصيا حضرت هنا قبل اربعين عاما اجراء عملية اكثر تعقيدا وصعوبة ."

"نعم بالتأكيد " اثاره عنادها واصرارها " في عهد البروفيسور بوتني ، كما قلت لك . كان العهد الذهبي لهذا المعهد ."

على حين غرة تولد لديها انطباع محرج ، فهو يفضل الاعتراف بعدم الكفاءة الاختصاصية له ولزملائه على ان لا يضطر الى المساس بها عن طريق الاشارة الى تقدمها في العمر . " أنا اعلم " ساعده " تريد القول ان اجراء العملية اصبح متأخرا في عمري"

"لم اقصد هذا " اعتذر " على الرغم من انه من المفهوم ان العمر يلعب دورا غير صغير"

مرر يده بحركة ذات معنى فوق شعر رأسه الاشيب " أنا ايضا لم اعد أستطيع القيام بما كنت اقوم به في عهد الشباب . حتى النيبيذ لم اعد أستطيع تناوله . هل تتصورين ذلك ايتها الدكتورة ايطالي يحرم عليه تناول النيبيذ ؟ " حول الحوار الى موضوع غير جدي .

ودعا بعضهما بصورة ودية . وعندما اشارت فلاستا الى مسألة دفع كلفة المقابلة قال : " مطلقا ، لن تدفعي شيئا ايتها الدكتورة ، كنت ضيفتي العزيزة ، واذا كنت ستمكثين في بولونا ، تعالي مرة اخرى ، فإنني ارتاح للالتقاء بك"

تصافحا وابتسما . تجمدت الابتسامة على وجه فلاستا . لم تدرك ذلك إلا خارج المستشفى واحست بها كشيء عديم المعنى وفي غير مكانه . فقد فشلت الآن بالذات فيما جاءت من اجله ، وها هي تبتمس .

ماذا ستفعل خلال المائتين وسبعة ايام القادمة ؟ ان تخذ الى سبات الشتاء ؟ لامت نفسها : انني جنت ايضا من اجل باولا . ومن اجل مشاهدة ايطاليا . كنت اقول دائما إنها وطني الثاني ، كنت اقول ذلك منذ زمن طويل ، قبل ان اتزوج . بعد ذلك تزوجت من ايطالي واصبحت ايطاليا حقا الوطن الثاني لأطفالي . وقد جنت لمشاهدتها . الآن ، عندما لم تعد تحت حكم الفاشيين

اختلفت بحشود الناس وقت الظهيرة . كل منهم يسرع الى مكان ما . هي فقط الوحيدة بين الجميع ، التي لديها متسع من الوقت ، مائتين وسبعة ايام . الى اين يسرع كل هؤلاء ؟ لتناول الغداء ؟ عليها ان تأكل لقمة ايضا . حقا انها لاتشعر بالجوع ، ولكنه وقت الظهر . رأت على مقصف صغير لوحة كتب عليها " بيتزا طرية ولذيذة " عندما اصبحت داخل المطعم فقط تذكرت انهم كانوا يترددون عليه حينذاك . غير انه كان حانوتا يبيع خليطا حقيقيا من السلع : الاجبان والبسكويت والنيبيذ ومعجون الاسنان . كانت البيتزا من مبيعاتهم ايضا . كانت تعدها السيدة فيوريليا في المطبخ خلف الحانوت مباشرة . اما اليوم فهنا مطعم كل مافيه مطلي بالقصدير ووسائل الدعاية .

اربعون سنة . هل يمكن ان تمضي الاربعون عاما بهذه السرعة ؟ كان البروفيسور يقول لها : " ragazza nostra di praga " فتاتنا الصغيرة من براغ . احيانا يخيل لفلاستا انه مازال لها مع تلك الفتاة الصغيرة روحا مشتركة . الجسد لا ، الجسد اصبح عجوزا ومسحوقا وممزقا لم يعد يستحق حتى الترتيق .

٣

طلبت باولا كالديني بالحاح من فلاستا ان تبحث عن امكان اجراء العملية الجراحية في مكان آخر وان لا تستسلم : ربما في ميلانو أو في روما ، انها سوف تسأل اين يوجد مستشفى جيد متخصص بطب العظام .

"ربما في الوطن بعد ان أعود " قالت فلاستا " هنا ، لا ، وانت لاتعذبي نفسك من أجل

هذا الامر على اية حال ، لو اجريت العملية هنا لكلفت مبلغا باهظاً من النقود

وقد حلت الان الدهشة بدلا من خيبة الامل التي سببها رفض اجراء العملية الجراحية لماذا حرصت كل هذا الحرص على اجراء العملية الجراحية في ايطاليا ؟ هل لمجرد أنني شاهدت اجراء مثل هذه العملية هنا من قبل ؟ فعندنا في مدينة بيسك ، من الممكن ان تُجرى لي العملية بالجودة نفسها التي تُجرى فيها هنا ، ومجانا . مسكينة انت يا باولا لو كان عليها ان تدفع ثمن ذلك .

لا ادري اطلاقا كيف خطرت لي فكرة اجراء العملية هنا . سوف ارتب اجراء العملية في الربيع وبذلك تزول الهموم المرتبطة بالايام الباردة في فترة النقاهة . ناهيك عن انه كان علي منذ زمن طويل ان اضع مدفأة كهربائية في غرفة النوم ايضا . واصلت هذا الحوار مع النفس إلى ان ادركت : انني اقنع نفسي ، فانا بحاجة الى استعادة توازني المفقود

لم تكن تدري الان كيف تقضي وقت الفراغ . كانت باولا تذهب الى العمل . وكانت الأنتستان المحاميتان الاكبر سنأ واللثان سكنت معهما في شقة مشتركة ، خارج الشقة طوال النهار . في البداية كان الامر مريحا لفلاستا : طوال النهار سوف اكون طليقة وارتب اموري كما اشاء . ولكن في اليوم الثاني أو الثالث كانت تراقب ساعتها اليدوية ، التي كانت تزحف بلا رغبة نحو الرابعة . بعد ذلك اسرعت المحاميتان مرة واحدة الى الدار لتثيرا أعصابها بحيويتها الايطالية . بالاضافة الى ذلك كان يصل بعدهما عدد كبير من الاصدقاء الصحّابين وكانت الدار التي تم تشييدها قبل فترة غير طويلة تعيش حياة مشتركة ومنفتحة وكأن من فيها افراد اسرة واحدة . ومثل اية عائلة ايطالية فانها تتحدث باصوات عالية وتتشاجر ، ويحب افرادها بعضهم بعضاً باخلاص .

عملت باولا كل ما في وسعها . كانت في كثير من الاحيان تشتري تذاكر لزيارة المسرح او السينما ، وخلال ايام اعياد الميلاد رتبت لكليهما الاقامة مدة اسبوع في روما صلاة منتصف الليل في كنيسة القديس بيتر ، هذا ما سوف يثير اعجابك بالتأكيد" . قالت في سبيل اقناع فلاستا

اطلعتنا على هذه المدينة القديمة الجميلة ، وتناولتا العشاء الرباني في مطعم الفندق . وقد فرشت الموائد على طاولات مشتركة طويلة . ثم جلسنا متضايقتين بين عدد لا يصدق من الناس . كان الجو هناك حارا ، الاف الاجساد البشرية والاف الشموع ، وكان لهب الشموع

يتأرجح عاكسا كل هذا الذهب ، الذهب هنا كثير في كل الأرجاء ، فهو يزين الكنيسة ،
ويزين اردية الكهنة ، ، كان ابي سيقول ، كم من التوافه الدنيوية ، ما أكثر الثروة والتفاخر .
غير ان الأُرغُن كان يقدم اللحان ، وكانت بضع فرق غناء للاطفال تتناوب الغناء ،
وكان هذا جميلا

مجرد تناقضات متطرفة ، يبدو ان الامر بالنسبة لي لا يمكن ان يكون شيئا آخر . فكرت
فلاستا . فاما ان اكون وحدي في الدار الخالية والمظلمة او في روما وسط الحشود البشرية في
الاستعراض الذي تنقله عشرات المحطات التلفزيونية . ولكن ما الذي يغيره هذا في وحدتي
في نهاية الامر

كانوا قد خططوا لايام عيد الفصح رحلة الى فلورانس واسيسي وبيروجيا ، وفي شهر
نيسان الى دولوميت . في منتصف شهر آذار قامت فلاستا وحدها برحلة استمرت اربعة عشر
يوما على ظهر سفينة بخارية في جولة حول شبه جزيرة ايبينين ومن البندقية الى انكوني
وباري ومن ثم الى مالطا والى كاتانيا ميسيني وباليرمو والعودة الى يانافا . كانت تلك سفينة
شحن ، تقوم بتوزيع الطحين . ولأجل ان يكون انتقالها من ميناء الى ميناء اكثر ربحا بالنسبة
لصاحبها رجل الاعمال ، اقام في الطابق الاول منها بضع مقصورات للمسافرين وقاعة للطعام
وقاعة مشتركة للاستراحة . كانت الاسعار اقل من اسعار السفن السياحية ولم تكن ظروف
السفر اسوأ مما هي عليه في تلك السفن باستثناء عدم اقامة الحفلات المسائية هنا ولم يكن
ذلك يضير فلاستا بأي شكل من الاشكال .

كان يضيرها عدم اهتمامها عند نزولها من جسر السفينة الى الموانئ . كانت في
السابق تريد ان ترى اكثر ما يمكن وان تعرف الكثير وان تلم بكل شيء ، اما الان - فلا
شيء . لو انها واصلت الجلوس في المقصورة لكان الامر واحدا . كانت تتجول بلا هدف في
الشوارع والميادين مثل انسان قرأ عدة مرات جملة واحدة دون ان يفهم معناها .

كم كان من الناس في كل مكان وكلهم مروا بها ، دون ان يشعر احد بوجودها او يلقي
عليها نظرة . لو انني مشيت ولو لم اعد ، في الوقت المحدد للعودة الى السفينة ، لو
انني اختفيت ببساطة ، فما الذي سيحدث ؟ لا شيء . انهم سوف يبحثون عني ، بالتأكيد
من اجل النظام ، ولأجل ان لا تُخلق لهم مشكلات . فكرت بمرارة وبغير عدالة . من الذي
يهمه أمري ؟ من الذي يحتاجني ولاي غرض . استطيع الذهاب مع السياح من السفينة ، كانوا

ينطلقون معا ويعودون سوية ، مرحين كثيري اللفظ . كانت تتجنبهم بالذات لانهم كانوا
مرحين وثرثارين

عندما توقفوا في كابري ، كان المطر يتساقط بغزارة . السفينة تشم الساحل مثل كلب
مبتل . كانت الحياة هامة في مدينة الحمامات العالمية هذه ، الفنادق البيض والفيلات تنام
تحت الاجفان شبه المغمضة للنوافذ والستائر . زخات المطر تمزق آخر بقايا اعلانات الموسم
السابق وترميها على الاسفلت اللماع

ماذا اريد هنا ، وعن اي شيء ابحث . فكرت فلاستا ، لم يسبق مطلقاً أن تجولت عبثاً
هكذا ، كان لرحلاتي بشكل ما ، مغزاها ، هدفها ، رسالتها ، وليس هكذا ، انني هنا اقتل
الوقت . ولكن ماذا سأفعل في الدار ؟ خطر لها . سأقوم بتنظيف الحضيصة حول المعزاة
واحلب وابذل الجهود في العمل المنزلي ، واكتب الرسائل . ولكن تلامذتي يأتون لتعلم
الانجليزية والايطالية والروسية .

انه في كل الاحوال امر مضحك ان اتمشى في بالميرو وفي كابري وان اتمنى ان ينتهي كل
شيء بسرعة ، لأجل ان اكون ثانية في الدار انظف حضيصة المعزاة . انه لأمر مضحك .
وليكن ، هكذا انا مضحكة ، وماذا في الامر . إنني غريبة ولي الحق في ان اكون كذلك .

في شهر نيسان كانت تتمشى مع باولا في فلورانس . رأت يسوع تسيمايو واللوحات
الفنية في اوفيزي ودافيد ميكيلانجلو . كل ذلك كان وراء الزجاج ومغسولا قليلا ، وكان الماء
يجرى فوق ذلك الزجاج .

في ايار ذهبنا الى ريميني (لقد ضحت باولا لحد الآن من اجلى بالكثير من النقود وبكل
اجازتها لهذا العام ، ادركت فلاستا) . الجو على البلاج بارد وكان الماء باردا... لايام عديدة
كانت فلاستا الوحيدة في المنطقة كلها التي تذهب للسباحة . كانت تزرق وتتعلم ولكنها
كانت تقول الى باولا : لأتحمل هذا ، فإن الاستحمام في مياه البحر يساعدني بالتأكيد ، رغم
البرودة .

واصلت الاستحمام في البحر حتى الثامن والعشرين من ايار . بعد ذلك ودعت باولا
وعادت عبر سويسرا ، حيث اتفقت على لقاء مع اثنين من معارفها من امريكا ، الى الوطن .

الى اسرة فويتيتخ ٢٠ اذار ١٩٦١

"... عندنا اليوم يتناوب شروق الشمس وتساقط الصقيع على الخضرة عند مرتفع القديسين وعلى الاشجار المبرعمة . احاول تطعيم النباتات المهملة . إنني اخشى النحيب الذي سوف تطلقه المعزاة بيلكا ، حين سيأخذ منها الصبيان التيس الصغير الثاني بعد درس اللغة الانجليزية . بعد ان اخذوا الاول منها واصلت النحيب والعويل بمرارة ثلاثة ايام وكلما دخلت الحديقة يبدو واضحا انها تبحث عنه"

الى ماريا . بدون تأريخ

"انها في الواقع اول معزاة ودود ، منذ ان اتحت لي فرصة المراقبة . ينبغي ان تشاهدي كيف انها ترتاح لوجود الضيوف : انها تلاطفهم وتمس بجبهتها ايديهم ، بل وتقدم لهم من شدة الفرح انحناءات التقدير واقفة على قوائمها الخلفية . وتقدم حوالى ٤ ألتار من الحليب يوميا - لهذا فان لديّ من الحليب ما يمكنني من توزيعه على الاصدقاء"

الى اسرة فويتيتخ ٢٠ اذار ١٩٦١

"... لأول مرة منذ عودتي من ايطاليا قمت بجولة على الدراجة الهوائية ايفاءً لديون قديمة - بدأت من بيلينكا وكونتشيست عبر باروفنا ودوبسكي نا بيخيتسا..."

الى ماريا ٣١ اذار ١٩٦١

"... اليوم هو الجمعة الكبيرة . في العيادة الاستشارية في الطابق الارضي لدارنا تجري عملية تلقيح الاطفال ضد الجدري ، المطر يتساقط في الخارج ولا اجد شيئا يذكرني بمناسبة الاعياد باستثناء رسالتك ورسالة إنغبورغ . لم أقرأ الرسالة النرويجية بعد ، فهي طويلة ، واريد اولاً ان ارد على رسالتك... لقد تسلمت من مترجم مسرحية هالدور لاكسينس المسرحية مع كتاب تعلم اللغة الاسلندية وقاموس لها . وهكذا قضيت باهتمام كبير الايام الثلاثة الاخيرة في محاولة للتعرف على هذه اللغة الشمالية . تقرأين - وتسمعين أو ترين جذور الكلمات التي استخدمها الفايكنغيون والبحارة البريطانيون ، في حين ان جوارب النايلون ، والقنبلة الذرية او الهيدروجين الثقيل ، يؤكد لك في الحال وجود القاعدة الامريكية في الجزيرة .

قمت بقطع اغصان اشجار التفاح والكمشري وقمت بتطعيم ما كان ضروريا ، وحضرت

وانتزعت مستعمرات الشري الذي تكاثر بدرجة كبيرة خلال غيابي في العام الماضي ، وقد زرعت في مكانه المحروث نباتات اكثر مقاومة واستمرارا..."

الى اسرة فويتبخ ١١ ايار ١٩٦١

"... انني استعد للكتابة الى مستشفى بيسك من أجل تحديد موعد العملية وحجز سرير بعد اجراء عملية المفصل . ولعله سيتم تحقيق تحسن في القدرة على الحركة بعد ازالة شظايا العظام التي خلفها كسر طرف عظم الذراع

في اعلى شجرة الحياة المقابل لنافذة غرفة نومي ، تستعد طيور القمري في هذه اللحظة بالذات على ما يبدو لبناء عش . خلال خمس دقائق اختفت عدة مرات بين الاغصان الخضراء لتقطع في الداخل رأس الغصن وتتأمل المنظر . بعد ذلك تنطلق الى ما فوق المزارب لسطحنا القصديري وبعد قليل تعود وفي مناقيرها غصينات صغيرة (اصواتها التي اسمعها مكرهه تثير حزني منذ سنوات : انها اغاني الصباحات البغدادية"

الى فلادا شتيفانيك ١٢ حزيران ١٩٦١

"... من جديد لم يتم اجراء العملية الجراحية للكثف ، بعد ثلاثة أيام عدت من المستشفى الى البيت... في اعماق الاغصان الخضراء ، عاليا في قمة شجرة الحياة المقابلة لغرفة نومي قامت طيور القمري البرية هذا العام لبناء عش لها . بالضبط مقابل نافذتي بوابة الدخول التي تختفي فيها كما تختفي في نفق متحرك . في العام الماضي سببت لي فرحا مشابها . طيور السنونو . اثنان منها كانا يحطان في كل مساء على المصباح القائم فوق سريري وينامان على اسلاك خط الكهرباء

اقراً هادور لاكسنيس واتعلم بوساطته اللغة الاسلندية .

لم تتحقق عملية الذراع ، فقد قال طبيب التجبير " في مثل عمرك لم يعد الامر ممكناً"

الطريق تستمر

الى ماريا تاور ١٥ ايلول ١٩٦١

"قضيت الصيف في الدار ، زارني مختلف الناس لحظات ، واعتقد ان اسرة شمولىك جاءت ايضا مع الاحفاد ثلاث مرات . وحققوا رغبتى حين اصطحبوا معهم اخي ياروسلاف . وهكذا - في يوم ولادة رادبور بالذات - التقى تحت سقف الاب وبعد سنوات عديدة الاخوة من جديد لبضع ساعات .

ليس من السهل علي الخروج من الدار ، فانا في العادة شديدة التعب ، حتى بمجرد القيام بالمهمات الاجتماعية في البيت ، ناهيك عن السفر أو الزيارات..."

الى أسرة كرزاك ٢٠ كانون الأول ١٩٦١

"لقد عدت للتو من العلاج في ياخيموف . الدار مملأ بالصقيع ، اشعر بدوار في الرأس بسبب الصراع القليل النجاح مع التجمد والمحافظة على الماء المتدفق حيثما ينبغي ان يتدفق..."

الى اسرة فويتسيخ ، كانون الأول ١٩٦١

"... رغم الصقيع عند مدخل البابين ، بدأت الدار تكتسب طابع الدار المسكونة . (مقابل ذلك لا افتقر الى الاحداث التي يسببها غياب الذاكرة : امس احترق جانب معطف الفرو الاسود - انزلق من الارىكة ، حيث كنت ادفنه قبل مغادرتي لزيارة طبيب الاسنان ، ووقع

على المدفأة وذلك حين ذهبت لتقديم الماء للمعزاة ولأخذ حطب الإيقاد إلى المطبخ من مخزن الاخشاب) . تحملت الإقامة في ياخيموف بفضل المكتبة هناك ، غير ان آلام الكتف كانت شديدة وقد لازمى الزكام والسعال حتى اليوم وبعد العلاج النووي تحسن وضع مفاصل الرجلين ، ولذا فانا أمل في ان تعود عظام الكتف المؤلمة الى رشدها..."

الى اسرة شتيفانيك ٢ كانون الثاني ١٩٦٢

"... في هذه اللحظة تعم الزرقة هذا الصباح الشتاني الجميل خارج الدار . شجرة الحياة التي يغطيها الصقيع امام نافذتي الشرقية والجنوبية تمثل بالنسبة لي اشجار عيد الميلاد حية... تلاميذي -مجموعتان - ذوو السابعة عشرة والخامسة عشرة - ومن ثم ذوو الثانية عشرة ادرسهم الانجليزية . واعلم طالبا في السابعة عشرة الفرنسية ، واعلم ابنة طبيب الاسنان عندنا الايطالية ، أما المعلمة التي سوف تسافر لزيارة زوجها في كوبا فأعلمها الاسبانية ."

٢٦ كانون الثاني ١٩٦٢

"... اليوم هو اليوم الذي وجدت دراهوميلا ليديا نفسها في المساء بين ايدي جيورجي وامى : وكانت تنظر اليها من الجانبين ومن نافذتين منارتان زرقاوان من منائر بغداد وفي قمة النخلة ، التي كان حفيفها يسمع داخل الدار ، كان الهزار يغني ..."

٢٢ ايار ١٩٦٢

"...في الخامس عشر من هذا الشهر بدأت اخيرا دار الحضانة عملها . وهكذا تراجع الصمت المألوف هنا ، امام خلية النحل في الطابق الارضي..."

الى أسرة فلادا ، ٤ تموز ١٩٦٢

"... الصغار في الطابق الارضي لدارنا يطلقون عدة مرات في اليوم ازيزا مثل خلية النحل : هناك ميلان (الوحيد الذي يخاف المعزاة والقنفذ) وميرك وبافل ودراهوشيك (اجمل اطفال المعلمة واشدهم عنادا) وفانوشيك وفاشيك ، ابن واحدة من الممرضتين ، لدى الثانية انيتشكا التي تبلغ الثالثة من العمر . اما دانا فهي في الثانية من العمر ومارتسلا سنة ونصف السنة ، ولكنها تجيد حين تُسأل تقديم نفسها وتنسجم مع الاخرين في الفناء وفي الحديقة . دار الحضانة تستقر!"

الى اسرة فويتاخ ٢٥ حزيران ١٩٦٢

"... لا ، يا يارميلا ، إنني هذا العام لم اقدم طلبا للعلاج في اي مكان . فإن مجرد

واجب ارتداء الملابس يتعبني لدرجة انني لم اشد عزمي لأذهب الى المركز الصحي من أجل اخذ حقنة الاتريودين ، رغم انها في الأغلب سوف تكون مفيدة لي
دار الحضانة تعمل لحد الآن بصورة جيدة . امام قن الارانب لديهم ملعب رملي ، ولقد اتيت من سقيفة البيت لهم بارجوحة مشبكة علقتهما بين اشجار التفاح . خلال ايام قطع الاعشاب وبعدها فتح الصغار بوابة الغابة للخروج منها في السفرات الى المروج والعودة منها . انها طريق طويلة لمثل هؤلاء الجواله!

الى ماريا ٢ تموز ١٩٦٢

"... منذ ان بدأت اتمتع باشعة الشمس هدأ من حيث الاساس ألم عضلات الذراعين والكتف ، الذي عرقل بشكل كبير منذ عودتي من ياخيموف ، اي منذ ثمانية اشهر ، جميع الحركات وكذلك الاستناد عليها مهما كنت حذرة . ولذا فإن الشعور الراهن بانخفاض شدة الالم يثير السرور في نفسي"

وفي رسالة اخرى الى ماريا

"... قمت باعداد وسيلة مرتجلة لتعديل العمود الفقري كل يوم جمعة على الشرفة المنحدرة فوق غرفة النوم . في كل مرة اثنم الحظ الكبير اذ استطيع المكوث في الهواء الطلق بين قمم الاشجار وان ارى الافق على مقربة شديدة من الطيور..."

٢

السماء الزرقاء . كم هي جميلة بلا حدود السماء الزرقاء . لايمكن ان يكون لأي كوكب آخر افقا أجمل . الغيوم البيضاء البطينة الحركة والصامته ، أو المتوحشة والمنخفضة ، مثل خرق رمادية قائمة ، قبيل العاصفة . احيانا تخلق طائرة وتخلف وراءها خطوطا كالتى ترسم بالطباشير على اللوح المدرسي . خلال الجو الجميل تبقى فلاستا على السطح حتى غروب الشمس ، تراقب كيف ان اللون الازرق يتحول الى لون فيروزي ، وكيف يبيض ويصفر ويتحول الاحمر الى ذهبي في الحواشي .

كان رادبور يعشق تقلبات الافق هذه ، عندما كان يرى غروب الشمس الجميل يحملهم جميعا على الخروج الى الحديقة ، ومهما كان العمل الذي بين ايديهم ، كان عليهم ان يتخلوا عن كل شيء . هيا تعالوا وانظروا كيف هي السماء!

(الآن رأته لحظة بدقة تقريبا امامها : عيناه المستديرتان المسحورتان ، ولا يحدث لها هذا إلا نادرا) .

كان جيورجي يوضح ماهو الريح* والسماق** والقرع*** غير ان رادبور كان يرى التنين وأبو الهول والساحرات كان يرى في كل غيمة هينة مخلوق ما

فلاستا الان تتعلم اللعبة القديمة لابنها . هذه الغيمة عربية محملة بالتبن ، وذلك حسان البحر ، وذلك قطاع جانبي لوجه انسان ، الجبهة والانف والذقن . الغيوم تمر والعربة المحملة بالتبن تكبر ، حسان البحر المسكين تقوس بكامله و الوجه الانساني تبده تيارات الريح ويختفي ، ويتلاشى ، كما تختفي امام عيني الانسان الوجوه البشرية الضائعة .

هبّت الرياح واخذت قمم اشجار الراتنج والسرو تتمايل ، عليها ان تنتقل الى الداخل ، اذ برد الجو ومن الممكن ان تأتي الرياح بالمطر " الدكتوراة معلقة مرة اخرى على السطح " سمعت من الحديقة المجاورة ، هذا الساخر لم يكلف نفسه حتى عناء خفض صوته . ألم يسمع قط شيئا عن تعديل العمود الفقري ؟ ربما لا . وهو ينطلق من موقف : عندما يفعل احدهم شيئا لا أفهمه ، فهو مجنون .

لا بأس . ها هي الدكتوراة قد نزلت ، انها ذاهبة للاغتسال والرقاد بصورة منتظمة في الفراش . عندما سيلاحظون النور في غرفتها اثناء الليل سيقولون ، اي سحر تمارسه الدكتوراة من جديد

امسكت بيديها انشوطتين من الجبال وسحبتهما للاقتراب من النافذة . وببطء نزعت عن رجليها الطوقين الجلديين وانزلت الى سقيفة الدار كان ذلك رائعا ، كم تشعر بالراحة بعد كل مرة تعدل بها العمود الفقري . هذا الدماغ النشط ، الذي جرى به الدم بشكل جميل .

الأنشوطتان الحبليتان والطوقان الجلديان أعدها لها رودولف ، عندما كان هنا في زيارته الاخيرة .

شرحت له كيف تتصور الامر ، وقام بعمل ذلك بصورة مثيرة للدهشة . غير انه غضب :

* الريح : (stratus) طبقة أفقية خفيفة من سحب رمادي ينسبط فوق رقعة واسعة - المورد

** السماق : (cirrostratus) سحب مرتفع أشبه بالحجاب - المورد

*** القرع : (cumulus) سحب مؤلف من اكداس مدورة ذات قاعدة مسطحة - المورد .

يا اماء ، لاتقولي بصورة متكررة كيف وماذا ينبغي ان اعمل " مدي يدك اليسرى هنا وخذي باليد اليمنى هذا وهنا اقطعي - انني اعلم كيف تريدان ان يكون ، دعيني ولسوف اقوم بذلك وفق اسلوبى

هكذا يغضب دائما ، يزعم ان فلاستا تفكر بكل التفاصيل ، لدرجة انها تقتل كل مبادرة في الانسان .

ما الذي بقي لي يا بُني ، وانا ارقد هكذا عاجزة ، غير التفكير في كيفية اعداد الاشياء الضرورية لو استطع ذلك

ذهبت الى السرداب لجلب الحليب . الآن في الصيف لابد ان تحفظه هناك صيانة له من الحموضة . بقي عليها بعد ذلك ان تحلب المعزاة وان تسقي الحديقة ، فالسما لن تمطر على ما يبدو .

المهم ان يكون الصيف طويلا وجميلا ، لتستطيع البقاء على السطح حتى ولو كانت ترتدي معطف الفرو ، ماذا في الامر ، فهو على اية حال محروق هنا وهناك .

الافضل عندها ان تقضي الليل بكامله هناك ، لتستطيع تأمل النجوم ، غير ان الجو يتسم بالبرودة خلال الليل ، ومن ثمّ سوف يشبه الى حد كبير الليالي في بغداد

٣

الى اسرة كرزك ٢٧ كانون الأول ١٩٦٢

"... قضيت معكم فوق اورفا ايام الاعياد بكاملها . اذ وصلت الكتب في عشية عيد الميلاد ولكنني لم استطع في ذلك اليوم اكثر من القاء نظرة عليها ، مقابل ذلك كنتم في الوحدة والصمت التام للعزلة الثلجية خلال اليومين اللاحقين ، شركائي الاحياء الوحيدين ومرافقي واسرتي..."

الى اسرة فويتبخ ٢ كانون الثاني ١٩٦٣

"...في دار الحضانة مع الممرضتين ومنظفة واحدة ، يستمر العمل بما يشير الدهشة ، والاطفال اصحاء مرحون . وما كان قد تبقى مخزونا في سقيفة الدار بعد اطفالنا ، عاد الى الاستخدام اليومي . في الصيف الارجوحة الشبكية ودراجة الرجل والآن الزلاجة والقاعدة

الحاملة للشجرة . بالنسبة للذين يبدؤون الكلام للتو ، ينطقون او تماتيكيا لدى ظهوري كلمة
تفاحة..."

الى اسرة كرزاك ١٥ شباط ١٩٦٣

"... حديقتنا منذ شهر كانون الأول تحت الثلج - الآن يبلغ سمكه ٤٠ سنتمترا . ليس
فيه غير المسالك ، التي يرعى بقاءها الارنب..."

وفي رسالة مكتوبة يوم ٣٠ اذار ١٩٦٣

"... كتب ميخائيل انه يدرس مع ابنه فاسيا . اصبح اطول منه بمقدار الرأس وهو على
وشك انهاء المدرسة الابتدائية بصوفها الثماني (عندهم تبدأ الدراسة في السابعة من
العمر ، أليس كذلك؟) . واذا ما انتهت الامتحانات الختامية بنجاح ، فإنه يستعد لدخول
المدرسة الصناعية ."

كيف تستطيعين البقاء هناك وحيدة الايام بطولها دون ان تكلمي احداً ، لعلي في هذه
الحالة سافقد القدرة على الكلام ، استغربت ميلادا ، عندما التقيتا في بيسك خلال مراسيم
تشجيع اخيهما . انت تعتقدين ذلك يا ميلادا . فأنا اخوض حوارات طويلة على مدى الايام
واحيانا خلال الليالي ايضا . الرسالة حوار ، ألم تلاحظي ذلك ؟ لو كنت تعلمين كم من الناس
اتحدث إليهم خلال الاسبوع وعبر اية مسافات بعيدة . الكتاب ايضا حوار : تسألين ، ماذا
سيفعل بطلك ومع من سوف يلتقي وكيف ستكون النتائج . تسألين والكاتب يجيب عن
اسئلتك ، وربما يكون ذلك عبر مسافة بعيدة في المكان والزمان .

هل فكرت مرة في اعجوبة اكتشاف الكتابة ؟ أنا اعلم ان الكتابة تكاد تصبح امرا غير
عصري ، فأنا مثلا استطيع ارسال شريط مسجل وان اقول كل ما اريد قوله ، غير أنني افضل
أن اكتب . لو كان عليّ ان أُملي على المسجل ما اريد كتابته ، لساد الصمت .

لا ، لا ، لا تخافي ، فإنني لن انسى اللغة ، بل على العكس فقد عثرت الآن على لغة
جديدة . اتعلم اللغة الاسلندية ، هل سبق ان قلت لك ذلك ؟ . انني اوشك ان اجيد الكلام
بها . ولقد كتبت الى معهد الاستشراق في طلب كتاب تعلم اللغة السواحيلية ، لا أنا لا
استعد للسفر الى اي مكان في افريقيا ، غير انني لم اعرف بتاتا اية لغة افريقية ولذا فإن
الامر يشير اهتمامي .

ببساطة اريد ان اعرف كيف تبدو هذه اللغة ، وكذلك لكي لا يكسل الدماغ . غير انهم

لم يرسلوا شيئا حتى الآن . لعلمهم بأسفون على ارسال مثل هذا الكتاب النادر لامرأة عجوز

٤

في الفترة الاخيرة وصلت رسائل من الاصدقاء في عهد الشباب ايضا ، من الذين لم يكتبوا سنوات طويلة شيئا عن احوالهم أو انهم كانوا يكتبون مرة في السنة بطاقات التهنية بمناسبة اعياد الميلاد . الآن هم متقاعدون ولديهم وفرة من الوقت ، ويتذكرون . وهكذا كتبت ايضا ليذا دوبروسكا . تبادلنا بضع رسائل وبعدها دعيتها فلاستا الى برنارتيته . جاءت في زيارة لاربعة عشر يوما . إنها عموما كما كانت في سنوات الشباب ، حيوية ، متعددة النشاط لا تعرف التردد . وفي الحال انسجمت في العمل في حديقة فلاستا في برنارتيته . علمتها فلاستا كيف تحلب المعزاة ، وقامت معا بتحضير لبن الكيس من حليب المعزاة . وقامت بجني عنب العلب وتعليبه . كان عنب العلب قد اثمر بكثرة ، ولذا كانتا تضعانه في علب وترسلانه الى معارفهما . كانتا تطبخان مما تقدمه الدار ، او كانت كل منهما تأخذ قليلا من لبن الكيس وتجنيان من الشجرة مباشرة البرقوق الاصفر لتأكلانه معه . كانتا تقومان بالنزهة مشيا على الاقدام لمسافات طويلة ببطء ، وكانتا تذهبان عبر الطريق المفضلة لدى فلاستا والتي تمر بين الحقول ، نحو معبد القديسة العذراء روزالي ، المعبد القائم تحت اشجار الصنوبر .

مرة وبعد مطر صيفي دافئ ، كانت المروج ملأى بالمياه ، مرت ليذا عبر طريق موحلة منزلقة ، وقد حاولت تجنب برك الماء ، اما فلاستا فقد خلعت حذاءها وسارت غير مكترثة بالماء عبر المروج .

"تعالى ايضا ، انه شيء رائع ، إذا مشيت على الطريق فلا بد ان تقعي . " اغرت ليذا بتجريب ذلك مقتدية بها ، حافية ، في البداية بخطوات حذرة لانسان المدينة الذي اعتاد ان تكون تحت اقدامه ارض صلبة مغطات بالاسفلت او مرصوفة بالحجارة ، ولكنها سرعان ما اعجبت بهذا التخويض .

كان الماء دافئا ونقيا وكانت الاعشاب مرنة تسمح الارجل برفق .

"فلاستا ، ان هذا رائع " قالت ليذا فرحة وكانت تخوض في المياه التي اغرقت المرحج هنا وهناك وكانت فلاستا تنتظرها في الاعلى عند سد البحيرة مبتسمة . بعد ذلك خطر لليدا ان

بمقدورهما ان تسبحا ، غير انهما للأسف لم تصطحبا معهما المايوهات . ولماذا المايوهات ، لوحت بيدها فلاستا ، فليس هنا من كائن حي . سبحتا عاريتين ، وواصلتا السير . وقد عادتا الى الدار تحت جناح الظلام تقريبا

عندما غادرت ليذا بعد اربعة عشر يوما ، كانت تشعر بانه لم يسبق لها ان عرفت اية منطقة كما عرفت بزخم شديد منطقة جنوب الاراضي التشيكية مع فلاستا "كانت الاقامة عندك رائعة يافلاستا ، وفي العام القادم سأكون عندك ثانية إن لم تطرديني " : قالت وكانت تعني ما تقول بصدق ، ولكن كم من الاشياء التي نفكر بها بصدق لانفذهها رغم ذلك

٥

الى اسرة فويتسخ ١٩ تشرين الأول ١٩٦٣

"تركنتني مؤسسة السياحة في بوديوفيتسه ، طوال الصيف في صمت قاتل ، اذ كنت في قائمة الاحتياط . وهكذا توصلت في شهر ايلول الى القنطرة في ان الرحلة قد الغيت . ولكن في الساعة الحادية عشرة من يوم ٩/١٢ جاء نني ساعة البريد بدعوة عاجلة ، في ان احضر بعد غد للسفر في الطائرة الليلية من مطار روزين في براغ . اوف!

... كما توقعت يندريشكا بدقة يتسم الجو في ايلول عند البحر الاسود بهبوب الرياح ، ولكن لحسن الحظ غيّر النبع الكبرى الحار في شاطئ دروجبا الوضع بالنسبة لي ، عندما حقق العلاج نجاحا غير منتظر . فقد غسل بحماماته الشمسية الرائعة عضلاتي التي دمرتها الاشعة العلاجية النووية ، لدرجة انني في نهاية الايام الاربعة عشر شعرت وكأنني قد تغيرت . وهكذا بدأت اهتم بالاحياء المجهرية في المواقع التي تتعرض الى مطر مياه النبع . وإذا ما استطعت المحافظة على الكفاية من قواي بودي الذهاب لمشاهدة منابع المياه الحارة الايسلندية لكي آخذ معي من هناك مواد تتعلق بالفحوص والعلاج لأختصاصيينا في علم الاحياء المجهرية . (تنظم أكاديمية العلوم في صوفيا جولة في كل شهر في منابع المياه المعدنية عند البحر الاسود . فقد عشروا قرب فارتنا على وجود فيتامين B12 بوفرة . لا ادري كيف يعمل جماعتنا في بيشتاني . اتصلت تلفونيا مع المكتبة الطبية في براغ طالبة المعلومات الموثقة في هذا الصدد) .

... كانت اقامتي هذا العام في فارتنا سعيدة بصورة غير اعتيادية . فقد ظهرت دون توقع اسرة الجراح البلغاري ، الذي بحثت عن زوجته دون طائل سنوات طويلة تلبية لرجاء ميخائيل . التقيت بها في عام ١٩٤٦ عند سريره في مستشفى كيرتش في براغ . هي بالذات لم تكمل دراسة الطب لأنها تزوجت ، ولكن لها ابتتان وتعمل في مختبر كلية الطب . الدكتور كاريفانوف اكمل الدراسة وعمل خلال السنوات الاولى في الاراضي التشيكية ، ومن بين المواقع التي عمل فيها ايضا مدينة طابور... على اية حال ، كانت مرة اخرى حكاية سعيدة لاكتشاف انساني

من الدكتورة دي لوتي الى معهد الاحياء المجهرية في الأكاديمية البلغارية للعلوم .

صوفيا

الاصدقاء المحترمون

"... أجد في نفسي الجرأة في ان اتقدم اليكم مباشرة بالرجاء من اجل ان ترسلوا نسخة من المواد المطبوعة المتعلقة ببعض نتائج مراقبة الترسبات على الاحجار القريبية من منابع المياه الحارة في بلغاريا . وتهمني بصورة خاصة اشارة البروفيسور عمانوئيل حول وجود فيتامين B12 بوفرة..."

حاولت قبيل سفرتي السياحية الى فارتنا تعلم شيء من اللغة البلغارية وانني افهم بشكل جيد مطبوعاتكم ، لانني ايضا اعرف الروسية ."

ولابد لي من ان اجد لابنتي اسرة كارايفانوف من يتراسل معهما ، وليكن في عمر مناسب لهما . فانهما تجيدان اللغة التشيكية بشكل جميل ، غير انهما بحاجة الى الممارسة والتدريب في الكتابة ايضا باللغة التشيكية .

٦

في صيف عام ١٩٦٢ اضيف الى سجل العناوين التابع لفلاستا ، الاحمر اللون والمكتوب بكثافة ، تحت الحرف س عنوان في بلزن : الدكتور ياروسلاف سليبيكا

هذا الدكتور الشاب وغير المعروف ، كتب لها رسالة يرجو إن كان ممكناً ان يحضر مع زوجته لزيارتها . تعرف على اسمها منذ ايام دراسته في كلية العلوم الطبيعية ، اذ أن

البروفيسور اوبنيرغر كان قد تحدث عنها وعن عملها في العراق . وهو بالذات طبيب ودكتور في العلوم الطبيعية ويحاضر في كلية الطب في بلزن ومن المقرر ان يسافر في الخريف الى بغداد ، ليعمل هناك في رئاسة معهد التشريح المجهرى . وسوف يذهب مع أسرته ، مع زوجته وطفلين . وهو على يقين من انها هي بالذات يمكن ان تقدم لهم نصائح قيّمة فيما يتعلق بالعمل والاقامة هناك --- جلست لكي تجيب على رسالته ، غير انها تخلت عن ذلك بعد جملتين . فقد خيل لها ان القلم يكتب ببطء شديد وان طريق الرسالة الى بلزن طويل اكثر مما ينبغي . ذهبت الى دائرة البريد وارسلت برقية : تعالوا في اي وقت تشاؤون . اتطلع للقاء بكم . دي لوتي . عادت الى الدار وكأنها مسحورة .

واخيرا ، اخيرا يبدو أن كل ذلك لم يذهب عبثا

بعد ذلك بيومين او ثلاثة أيام توقفت امام الدار سيارة ذات رقم يشير الى انها من مدينة بلزن . جاؤوا مع الاطفال . رأتهم عبر النافذة واسرعت لاستقبالهم . لو لم تستطع التحكم بعواطفها لفتحت لهم ذراعيها ، ولكن ماذا سيقولون وهي تراهم لأول مرة .

أجلستهم في غرفة الاستقبال عند الوجداق . وهيات لهم القهوة في الفناجين العربية وكانت قد فكرت بعناية في كل ما ينبغي ان تقوله لهم وما ينبغي ان تنبههم اليه ومم ينبغي ان تحذرهم . المناخ ، هذا هو الامر الاساس . خلال الصيف لا بد لهم من العودة الى اوربا من أجل الاطفال ، بلا قيد او شرط . عليهم عدم الاستخفاف بما يمكن ان تفعله حرارة الجو هناك . العادات ، لكي لا يجدوا انفسهم في موضع محرج بسبب عدم معرفتهم . الوقاية والنظافة ، بصورة اساسية عليهم الانتباه للماء والفواكه . لا بد من غلي الماء لأي غرض كان حتى لغسل الفاكهة . عليكم غلي الحليب . (برر ، انا لا احب الحليب المغلي ، احتج الصغير يارا) انت ايتها السيدة هنا لن يكون الامر سهلا بالنسبة لك . كل شيء لا بد ان يغسل ، جميع اللحوم ينبغي ان تطبخ جيدا ولفترة طويلة ، تخلي عن اي ييفتيك او لحم مطبوخ بسرعة ونصف معمول ، هذا ممنوع تماما... ولكن ماذا اقول لكم ، فلستم ذوي معرفة سطحية ، نسيت ان امامي دكتورا في الطب وفي العلوم الطبيعية في آن .

لعلك لاتستطيع حتى التوقع ايها الزميل كيف ان المعرفة الدقيقة للعلوم الطبيعية تنقصني . حشراتي كانت في الاغلب شجاعة وليس وعيا ، لا ، انت على حق ، لم تنقضي الجرأة في اي وقت ، لحسن الحظ . لأنني اعتقد أنها الامر الاساس والضروري للحياة ، حين يريد الانسان ان يعيش الحياة وليس ان يقضيها في الانتظار . زوجتك تتسم بالشجاعة ، ثَمَّنْ هذه السمة

فيها . اتدري كم من الاصدقاء من كلية الطب كتب لي : ان بودي المجيء الى العراق وبسرور ، ولكن افهميني ، فانا متزوج والبينة هناك - كما تقرين ذلك ولاشك - غير ملائمة للمرأة الاوربية . حتى انهم لم يدركوا سلوكهم غير اللائق تجاهي ، فقد كنت في واقع الامر امرأة ايضا . ربما كان ذلك مجرد تبرير ، ربما كانوا يخافون هم بالذات ، ليس من المناخ قدر خوفهم من المشكلات الجديدة ومن الشعوب التي لم يألفوها من قبل ، ان الخطوط المطروقة والمألوفة مريحة لدرجة رائعة...

انتظروا ، لكي لا انسى العناوين ، كتبتها لكم هنا . سوف اكون سعيدة لو التقيتم بأحد منهم ، كان هؤلاء اصدقاء جيدين لي ومن الممكن ان يكونوا نافعين لكم ايضا ، يستطيعون مثلا مساعدتكم في اقامة اولى الصلات . اعلم انكم لن تكونوا هناك وحيدين . تقولون إن هناك خمسين أو ستين من ابناء بلدنا ؟ هذا شئ ممتاز . غير ان الانسان ينبغي ان لا يحصر نفسه في غيتو الاقلية . هذا ما فعله الانجليز في العراق ، ولهذا لم يستطيعوا مطلقا فهم هذا البلد

ما الذي اردت قوله لكم بعد ؟ آو ، كتبت على هذه الورقة ما ينبغي ان تروه هناك . خذوا الاطفال بالتاكيد الى بابل والى اوروك والى نينوى ، الى الموصل . وحين تذهبون الى الجنوب نحو البصرة لا تأخذوهم معكم ، فإن الجو فظيع هناك . لعلي لم أنس شيئا . عندما رافقتهم قبيل المساء حتى السيارة ، خيل لها انها تعرفهم طوال حياتها ، وكانت تشعر انها لاتستطيع تصور حَلفِ لها في بغداد أفضل منهم

٧

سافرت اسرة سليبكا في شهر تشرين الأول وكانت فلاستا تنتظر رسائلهم بفارغ الصبر . كانوا يرسلون لها كل مرة رسالة او رسالتين ، كما كانوا يلتقون بها ، حبات عقد منفرد : ماضيها في بغداد

"... الامام نعمان لم يعد على قيد الحياة ، غير إننا تعرفنا على ابنه عبدالله . انه رجل مكتنز في الخمسين من العمر ، وقد فضَّضَ الشيب فوديه ، وتشبه قمة رأسه قبة المسجد الذهبي . من النادر أن لا يبتسم . قمنا بزيارته في فيلته في حي الحدائق الحديث (ربما محلة البساتين الجديدة) . وقد جاء بالصور الفوتوغرافية وعرفنا واحدة منها ، هي الصورة نفسها المعلقة على الجدار في برناريتيتسه ، يظهر فيها ابوه بين شخصيات مهيبة من رجال الدين

المسلمين وبينهم ، كظاهرة نادرة ، المرأة الوحيدة التي هي انت - - -
"إتصل بنا البروفيسور الألماني لينزين ، الذي يقود اعمال الحفريات في المدينة
السومرية القديمة اوروك ، التي تعرف اليوم بالوركاء . تذكر ، قال انه التقى بك عدة مرات
في بغداد ، في دار الطبيب اليهودي روبيتشوفيتش (يتعلق الامر بالطبع بالدكتور
روبتشكا) ، اترين ، بعد اربعين عاما دون ان يغطي الرمل الآثار..."

في نهاية الرسالة هذه الاضافة : " اسمك يساعدي في كل مكان ويفتح لي الطريق..."
" ... اخيرا عثرت على دربونة الراهبات "وكذلك الدار التي كانت مستشفاك فيها . غير
ان الدار اليوم قد تم تحديثها . في الفناء متجر لبيع اجهزة الراديو والتلفزيون ، وقد هُدم
القسم الخلفي من الدار... وعلمنا من تاجر الراديو ، ان صاحبة الدار السيدة برزنجي التي
يقال ان عمرها بلغ المائة عام ، مازالت تأتي بنفسها كل شهر لتسلم الايجار . اردت ان
التقط صورة فوتوغرافية للدار ، غير ان ذلك غير ممكن ، لأن الدربونة ضيقة لدرجة لا تمكن
من اخذ صورة كاملة . ارسل لك في الاقل صورة للممشى الداخلي في الدار . الى جانب
زوجتي ترين صاحب المتجر وابنه .

"عثرت على عدسة مكبرة وتفحصت كل تفصيل : في الصورة : المشبك والاعمدة
الخشبية المزخرفة وإطار الباب المطلي بالابيض . كيف انها تعرف كل هذا معرفة حميمة .
الآن خيل لها ان عدم اعطائها الموافقة على السفر الى بغداد يمثل بالنسبة لها نوعا من
الرحمة . فقد تصورت نفسها وهي ترتقي ببالغ الصعوبة السلالم التي تعرفها وكيف تستند
الى السياج الابيض . دار البواقين ، عائلة البرزنجي رحلت عن هذه الدار حينذاك لاعتقادها
أنها لاتحمل لها السعادة اضاف يارا الى الرسالة : إنهم يعاملوننا بلطف في كل مكان .
يطلقون علينا كلمة جيكي أي شخص تشيكي .

لابد لي من أن اكتب لهم ليوضحوا للعرب ان الجيكي يلفظ مثل شيخ . اما لفظة الجيكي
فقد اخذوها عن الانجليز . الانجليز يقولون ايضا جيك وكليفة ، ليس كليفة وانما خليفة . مرة
كانت مع ابنة اختها من الجيل الثاني في المسرح وكان عنوان المسرحية : كليفة من بغداد
وخلال فترة الاستراحة ذهبت وراء خشبة المسرح وأوضحت للمخرج ان من الاصح قول
وكتابة خليفة وتعني الذي يخلف* . غير انه اعترض قائلا اصبح من العادة القول هكذا (يقصد
كليفة بدل خليفة) .

* أخذت الدكتور فلاستا المعنى اللغوي للكلمة ، فالخلف - مثلا - تعني الذرية والسلف تعني الاجداد . ولكن المراد بالكلمة هنا هو أن
الحاكم في الاسلام هو خليفة الله في ارضه - المحرر

سألته " هل تقرض اظافرك باسنانك ؟ " نظر اليها مستغربا وغاضبا " أترى ، هذه ايضا عادة ولكنها سيئة ، عادة رديئة ، لماذا نتمسك بالعادة الرديئة ؟"

لابد لي من تذكيرهم بصياد السمك مجيد كان له كوخ في الضفة الاخرى لنهر دجلة ، في كراةة مريم . اذا كان مازال حيا لعله يتذكر . ليقولوا له ان سمكة البني الفراتية التي اصطادها لها محفوظة في المتحف .

وماذا عن الدكتور روبيتشيك ؟ عليهم ان يسألوا عنه ، الجيران في الاقل ، فإنهم بدون شك سيعرفون شيئا عنه .

٨

جاء ليفتح الباب رجل طويل القامة نحيف أبيض الشعر . تجاعيد الرقبة واليدين وحدها توحي أن عمره يقترب من الثمانين عاما . طاب نهارك ايها السيد الدكتور . تردد السيد العجوز لحظة وهو لا يكاد يصدق ، بعد ذلك فتح ذراعيه : " هل أنتم تشيك ؟ تفضلوا ، تفضلوا وادخلوا! من أين لي أن يخطر في ذهني انني سوف استقبل اليوم زيارة من بلدي"

ولد في براغ في حي هوليشوفيتسه . ونشأ كما ينشأ اي صبي آخر في براغ . في عام ١٩٠٩ تخرج في جامعة براغ . وبعد ذلك بخمس سنوات ذهب للمشاركة في الحرب . حينذاك وصل مع الجيش النمساوي - المجري الى الموصل . كم كانت كثيرة هناك الاصابات بمرض التراخوما!

كانت تكفي لعشرة اطباء متخصصين وليس لطبيب واحد فقط ، عمل ما بوسعه وانقذ الكثير من الناس من العمى . بعد ذلك انتقل الى بغداد .

"الدكتورة كالالوفا ، كيف لا اذكركها ، تزوجت ذلك الايطالي ، كان اسمه دي لوتي . كان انسانا اجتماعيا رائعا ، كان دبلوماسيا بالولادة ، ماذا عنهما ؟ لاشك في أن اطفالهما قد كبروا . تحدثوا

حدثوه عنهم . لم يعد يبتسم وجهه الجميل والحكيم بدأ يشيخ امام انظارهم .

"اذن لي مع الدكتورة مصائر متشابهة " قال بصوت خفيض . فقد توفي لي في تشيكوسلوفاكيا المحتلة اثنان هما اكبر ابنائي"

"في تشيكوسلوفاكيا " كيف كان ذلك ممكنا ؟

نعم ، اقصد في عهد الاحتلال . ارسلتهما قبل الحرب للدراسة في براغ . كانت زوجتي تود ان تراهما في اوكسفورد او كمبرج ، وقد كان ذلك ممكن التحقيق ، اذ ان لي اخا في بريطانيا . غير انني اردت ان يدرسا في جامعة كارل . ثم جاءت الحرب هنا ، وهما كانا يهوديين ، قتلهما الالمان في تيريزين"

موت عقيم غادر وساخر في قلعة تيريزين انتظر ذينك الصبيين اللذين ولدا على ضفاف دجلة ، في قلعة تيريزين قرب ليتوميريتسه . ومنذ عشرين عاما يلوم ابوهما نفسه : لو لم أقم بارسالهما الى هناك . لو انني استجبت لطلب زوجتي وارسلتهما الى إنجلترا كما تقول الدكتورة كالالوفا : لو كنا بقينا في براغ ، لو كنا سمحنا لرادبور بالعودة الى هراديتس

"بالنسبة لنا كنا محظوظين في الاقل ، إذ كان لنا طفلان آخران . " يوضح الدكتور روبيتشيك وكأنه يريد ادخال السرور الى قلوبهم . البنت سوف تتزوج والابن يدرس في إنجلترا . مسكينة الدكتورة كالالوفا لم يبق لها أحد ، كم كانت سعيدة . تلك الفتاة المسكينة"

(كتبوا الى فلاستا عن هذا اللقاء واعطوا ايضا عنوانها الى الدكتور روبيتشيك ، ليكتب لها بنفسه ، لم تنتظر ، وبادرت الى الكتابة هي ، فقد اثارها واحزنها المصير المتشابه) .

كان الدكتور سليبكا الى جانب عمله في معهد التشريح المجهري ، يحاضر في موضوع علم الانسجة وموضوع علم الاجنة في بغداد والموصل :

"القيت المحاضرات حول انسجة - خيوط بوركين في عضلات القلب أو حول خلايا بوركين في الدماغ - الطلبة يعرفون الاسم الذائع الصيت لعالمنا ، فهو مكتوب في الكتب المدرسية ولكنهم يلفظونه وفق الطريقة الانجليزية ، بما يشبه باركينج . بعد توضيحي كانوا يأخذون نفسا طويلا ويتلفظون الاسم ليس بالدقة التامة ولكن بشكل يقترب من لفظه بالتشيكية..."

... جاء الدكتور روبيتشيك لزيارتنا ، وكان على زوجتي ان تعد له وجبة الطعام التشيكية شفيستكوفي كندليك لم يتناول هذا الطبق منذ عشرات السنين . وقامت باعداد الخبز بالفرن... تذكرنا براغ ، والمعهد البغدادية القديمة ، وتذكرناك..."

... غير أن الحياة في المدينة تغيرت كثيرا منذ عهدك بها ، فإن بغداد اليوم - في

مركزها في الاقل - مدينة كبيرة حديثة ، فيها بضعة بنوك في ناطحات سحاب...من الازقة الجانبية فقط يُحسُّ الجو الذي وصفته . المواطنون التشيك يقدمون هنا عملا جيدا ، وانتي اشعر بالاعتزاز ، اذ استطعت الى حد ما اعتبار نفسي خلفا يواصل العمل الذي بدأت تحقيقه هنا في وقت مضى

ومع الرسائل كانت اسرة سليبكا ترسل الى فلاستا مجلة بغداد ، التي يصدرها فريق من الاختصاصيين التشيك ، المقيمين حينذاك في بغداد . كان وصول كل عدد منها عيدا بالنسبة لفلاستا كانت تسأل عن كاتب كل مقال من المقالات المختلفة . ما هو فرع عملهم وما هي اختصاصاتهم وهل هم في العراق بمفردهم أم مع افراد أسرهم ؟ أرادت أن تعرف شيئا عنهم لتعرفهم أفضل ماداموا يتحدثون لها عن البلد الذي تعرفه معرفة حميمة

عشرت اسرة سليبكا على صياد السمك مجيد ايضا . مازال يصطاد السمك ويعيش في كوخه على ضفة النهر . ابنه مطر تخرج من الجامعة ويعمل محاميا . الصغير يارا كتب مضييفا الى الرسالة بضع جمل باللغة العربية . بدأ يكتب بشكل جيد عموما . وقد اشار الاستاذ المساعد سليبكا الى انه خلال حفل التخرج مثَّل بلده مرتديا روب جامعة كارل .

"يودي اعلامك بأن حلمك في تأسيس مركز تشيكي لدراسة الامراض الاستوائية سوف يتحقق في الاغلب في هذا العام . فمن المنتظر ان يضاف الى هنا طبيب خاص للجالية التشيكية ، سيقوم ايضا بدراسة عملية للامراض الاستوائية..."

هكذا اخيرا ، قالت محدثة نفسها ، استغرق الامر اربعين عاما ، كم صَعَدَتْ من الآهات احساسا بالمرارة ، ورغم ذلك فان الطريق تستمر ، تستمر هذه المرة بدوني ، ولكن هل يتوقف الامر على مشاركتي ؟

٩ الى اسرة فويتبخ ٣ نيسان ١٩٦٤

"...ماتت لي بعد احتضار صعب ، بعد ولادة المعزات الصغيرات ، المعزاة بيلكا . وقد عادت دار الحضانة الى الدار بعد أن كانت مدة اربعة عشر يوما مستضافة في المدرسة . على الارض الرملية تحت الشرفة تفتتح من جديد المعاطف الصغيرة الحمراء والزرقاء"

الى أسرة شتيفانيك ، بدون تأريخ :

"... تردت قدرتي على الحركة بالمقارنة مع العام الماضي . لحسن الحظ ان زميلتي في الدراسة سابقا والتي تقع حديقتها جوار حديقتي تقوم بقطع الاعشاب للمعزاة وفي الوقت

نفسه لأرانبها . قبل ١٤ يوماً جاؤوني بمعزة حلوب واعد ، فتية ونحيفة وأكول ، هي بالنسبة لي مغامرة مخيفة ، انها معزة ذات قرون وهي في الواقع جميلة ، بعينيها الواسعتين وتقدم لترين من الحليب يومياً ، وهكذا فإن عليّ ان اقتسم هذا الحليب الممتاز مع معارفي كما كنت افعل في وقت مضى

"... اليوم اعجب المعزة ، بعد ان قمت بحلبها ، البقاء في الحديقة لدرجة انها لم تكن ترغب في العودة الى الحظيرة . الصعوبة التي اواجهها عند المشي الان لاتمكنني من الامسك بسلسلة مقودها - لحسن الحظ حررتني زوجة الحداد مع ابن اختها..."

كل يوم اجد صعوبة اكبر في النهوض وارتداء الملابس والنزول من السلالم للاعتناء بالمعزة وارتقاء السلالم لتنظيف الغرفة ، لكي يستطيع التلاميذ الحضور لتلقي الدرس... كل يوم اصعب مع تقدم السنين والادراك بأن الوضع لن يكون يوم غد افضل ، وانما من الواضح سيكون اسوأ ، لأنها ستكون أكبر عمراً بيوم آخر . لحسن الحظ يطفو فوق كل هذا ، الاحساس الذي يشيع الدفء والنور في حياة فلاستا كلها : في بغداد يوجد طبيب تشيكي يلقي المحاضرات . وكذلك الشعور :

إنهم مازالوا يذكرونني في بغداد

الى اسرة سليكا . في كانون الأول ١٩٦٤ : في العلوية برد الجو وانتم تستعدون الآن الى اعياد الميلاد الثانية بالنسبة لكم في بغداد..."

"... الدار مألئ بالورود . ولكن هل ستكون عندهم شجرة عيد الميلاد ؟ كان عليها ان تفكر بذلك في وقت مبكر وان ترسلها لهم . مثلاً لو انها اقتلعت واحدة من الاشجار الصغيرة في الحديقة ، غير انها ربما لم تكن لتستطيع تغليفها ولفها بحيث انها تتحمل الطريق ولاتذبل . وهنا ليس لديها بيتربزروتش* في دائرة البريد"

كثبت ميلادا : تعالي ايام اعياد الميلاد الى براغ . وتستطيعين البقاء عندنا طوال الشتاء ان شئت ذلك . استطيع تصورك كيف تجلسين وحيدة في الزمهرير . شكراً لك ياميلادا على الدعوة ، غير انني معتادة على الهدوء وانني لست وحيدة ، هيهات ، في كل لحظة يحضر احدهم ، تقريبا كل اسبوع . الممرضات من دار الحضانة لطيفات معي . يحملن لي الغداء

* الاشارة هنا الى الشاعر التشيكي بيتربزروتش (١٨٦٧ - ١٩٥٨) وقد اشتهر بديوانه "أغاني سيليسية" المكرس لعمال أوسترافا وأعاد الشاعر النظر في قواعد الشعر التشيكي التي كانت سائدة في نهاية القرن التاسع عشر حتى في شكل اشعاره ، وأصبح المبدع للشعر الاجتماعي التشيكي الحديث - المحرر .

ويأخذن الرسائل الى البريد واستطيع مناداتهن في كل لحظة احتاج بها اليهن . انهم هنا في ايام العمل من السابعة صباحا حتى الخامسة بعد الظهر . بالطبع انهم في الليل وايام الاحاد ليسوا هنا ، ولكنني اتدبر امري بشكل ما . طلبت ان يعملوا لي فوق السرير وفوق حوض الاستحمام - البانيو مقبضا معلقا لكي استطيع القيام بسهولة . حقا انني لا افتقر الى اي شيء ، صدقيني يا ميلادا ولا تغضبي حين لا آتي . سوف ابقى هنا

الى اسرة شتيفانيك ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٦

"... عند النظر من النافذة صباح اليوم الى الحديقة المغطاة بالثلج وجدت الروعة المعاشة من جديد ، والتي ينبغي ان تروها لتدركوا مدى امتناني المتكرر لوالدي لانهما خلفا لي هذه الدار الهادئة والمريحة . كانت امي تكتب لي عندما كنت ما ازال في بغداد : عزيزتنا فلاستا ، يا شمسنا ، غير ان ابي في تلك الايام التي كنت اعيش فيها بعيدة عنهم ، كان يفرس اشجار الصنوبر ، لأن فلاستا تحبها..."

شجرة الصنوبر هذه في الحقيقة ايضا تقيس الزمن . في قمته يستقر اليوم الثلج ، ويشع ساقها المستقيم في شمس الشتاء وكأنه قُدَّ من البرنز .

"عندما اخرج في بعض الاحيان عند المساء مع عصا جيورجي السابقة وأحمل نفسي على التغلب على مقاومة مفاصلي ، أفكر بكم ، هل خرجتم من الدار ايضا..."

انني اسير وحيدة في الحديقة التي يغطيها الثلج ويقترّب الشفق ببطء . افكر بكم ، رودولف وهيلينا ، فلادا واولينكا ، افكر بكم يا أسرة سليبكا في بغداد ، يا يارميلا وكارل ، أفكر بك يا مارينكا وبك يا ميلادا ، وكذلك افكر بميخائيل وإنغبورغ وفاسيا وبيرتا وتونيا وباولا وتاتانيا تيسوفا ، وافكر بماري هاريسون ، وبالصياد مجيد ، والطفلة ريم واسرة عز الدين ، افكر بكم جميعا . هل خرجتم ايضا من بيوتكم للتمشي . إننا الآن جميعا تحت سقف واحد . تحت السماء ، تحت السقف الازرق لهذا الكوكب ، دارنا المشتركة"

الخاتمة

اللقاء

كان ذلك في ربيع عام ١٩٧٠ . عندما دعيتني صديقتي التي (كانت الى ذلك الحين) تعمل في البرنامج الاذاعي المكرس للنساء ، للتعاون معها في اعداد برنامج " السنوات تمر ، ايها السادة " . قبلت الدعوة بارتياح ، اذ كانت تجتذبي المصائر الحقيقية للناس ، التي تفوق في كثير من الاحيان كل خيال . كما اجتذبتني بالدرجة الاولى حقيقة أنا -انا وزوجي - تعرضنا في بداية فترة عملية التطبيع ، الى فقدان موقع عملنا - وقد تأكد هو بالاضافة الى ذلك عبر الكثير من المحاولات غيرالمجدية ، انه ممنوع من النشر . وقد ساعدتنا بضع ايد مدت لمساعدتنا ، مثل هذه ، في اعاشة اطفالنا الثلاثة .

هكذا وجدت نفسي مع المحررة فيرا ماخاتشكوبا والفني الاذاعي في مستشفى مدينة بيسك . كنا نبحث عن سيدة تحمل اسما ايطاليا ، الدكتورة ديلوتيوفا ، لا ، الحرفان دي يكتبان بصورة منفصلة دي لوتيوفا ، غير انها تشيكية ، من الاراضي التشيكية الجنوبية ، في وقت ما خلال سنوات العشرينيات سافرت وحدها تماما نحو الشرق ، ودرست هناك الامراض الاستوائية وكانت لها في بغداد مستشفاهها الخاصة ، وهي هنا ترقد مريضة . في العراق تزوجت ايطاليا . كان هذا كل ما عرفناه عنها .

كان وضعها الصحي متدهورا بشكل خطير بحيث ، ان الاطباء لم يسمحوا بتسجيل

مقابلة معها إلا بعد تردد كبير - واشترطوا أن يبقى هنا واحد منا فقط ولمدة نصف ساعة ليس أكثر . بقيت فيرا ، في حين خرجنا انا والفني . استطعت ان ارى السيدة الرقيقة الضائعة في الكرسي ، لحظة واحدة ، حينذاك لم اكن اتوقع أن الامر لن يكون مجرد حلقة من البرنامج الصباحي الذي يذاع ، ثم يتلاشى

اتفقنا على اللقاء في الاسفل عند السيارة . فيرا تأخرت كثيرا ، جاءت والتزمت الصمت . وضعت جهاز التسجيل على المقعد الخلفي في السيارة ، وعندما انتقلت الى جانب المسجل قالت بصوت خفيض " ايها الناس ، انها لقصة لا تكاد تصدق وفي الحال ، هناك في المكان ، في سيارة الشكودة التي تقف في موقف السيارات أسمعتنا إلى ما سجلته . حديث الطبيبة العجوز ومن بعدها مقابلة مع رئيس اطباء المستشفى الدكتور ماخاتشيك - من المصادفة ان يكون له مع فيرا اسما مشتركا . عرف رئيس الاطباء مريضته الحالية سنوات عديدة ، منذ فترة عملهما معا في مستشفى براغ ، حيث بدأ هو العمل وكانت هي تودع مهنتها . انبسطت امامنا احداث قصة درامية ، تشكل موضوعا لرواية .

وها أنذا كتبت تلك الرواية . ساعدتني فيرا في البحث عنم يتذكرون الاحداث واستجوابهم وفي دراسة الرسائل . سافرت الى بيسك مرة اخرى . اعطت لها العناوين الاولى السيدة الدكتور نفسها . بعد ذلك قادت الاثار الى بعضها . وفي وقت مبكر لم يتوقف الامر عند براغ ، وانما شمل الدار التي ولدت فيها الدكتورة في برناريتسه واسرة فويتسخ في بوديوفيتسه واسرة كيرزك في بودبرادي واسرة سليبكا في بلزن واسرة شتيفانيك في جيلين . كانت خيوط صداقات الدكتورة تمتد بعيدا . ولقد نجحنا في الاهتداء بتلك الخيوط وربطها . من بولونا كتبت لنا ردا واسعا المحامية باولا كالديني ومن كراسنودار كتب لنا ميخائيل لوغانسكي . وضحت التشيكية هيلينا فريدلوا التي تعيش في السويد بالسفر الى الترويج لزيارة انغبورغ - ريفلينغ هاغين وكتبت ما روته لها ثم ترجمته الى التشيكية . وفي متحف الاثار المكتوبة عثرنا على مخطوطة كتاب " من البوسفور الى دجلة " ، الذي اودعته الدكتورة كالالوفا هناك بعد الحرب بوقت قليل . واعارتنا السيدة ماريانا تاور بعد شيء من التردد رسائل فلاستا التي كتبتها ايام شبابها . ووصلتنا رزمة جيدة من اسرة شتيفانيك ووجدنا بعض المراسلات لدى الاسرة . كنت محظوظة . فإن اكثرية من وجهت لهم رسائلها احتفظوا بها : من هذه الحقيقة يمكن تقدير ما الذي تعنيه بالنسبة لهم .

وقدم المساعدة بحماسة و حيويته المتميزة الاستاذ المساعد حينذاك في كلية الطب

في بلزن الدكتور ياروسلاف سليبكا واذا كنت قد نجحت في وصف اجواء بغداد - حيث لم أزر بغداد قط - بصورة حيوية ومقنعة ، فان الفضل يعود اليه بالدرجة الاولى قام بالتدريس في كلية الطب في بغداد فترة اربع سنوات (١٩٦٢ - ١٩٦٦) . بعد ذلك تردد لفترة طويلة على الدول العربية لالقاء المحاضرات خلال جزء من الفصل الدراسي في الاقل في كل مرة . حينذاك في النصف الاول من سنوات السبعينيات ، ضحى لي بالعديد من الساعات وجاء بالصور الفوتوغرافية و باكداس المجلات التي اصدرها اختصاصيون الذين عملوا في العراق في مختلف المهن وتحدثت زوجته السيدة هناء عن ملاحظاتها وتجاربها النسوية ايضا تحدثا عن لقاءاتهما مع الناس الذين كانوا يتذكرون جيدا ، الدكتورة فلاستا ومستوصفها التشيكوسلوفاكى حصلت على الكثير من المعلومات - والاصدقاء كما كان الحال عند أسرة كيرزك في بودبرادي واسرة ماخاتشيك في بيسك .

ولعلي سمعت من الجميع تلك الجملة الوحيدة : تركت الدكتورة فلاستا أثراً في حياتي . في الاغلب كان هذا لأنها لم تستطع الاكتفاء بالنظر الى حياة الآخرين . ففي حدود امكاناتها حاولت ان تعمل شيئا من اجلهم . وفي حدود تلك الامكانيات ، استطاعت ان تفعل في كثير من الاحيان ما هو غير ممكن .

المصادقات

ففي بعض الاحيان ساعدتني مصادفة غريبة : وصلت مع فيرا الى ديتشين لزيارة المعلم العجوز لاديسلاف سفارتس ، الذي كان بعد الحرب العالمية الأولى من الرواد الاوائل لاساليب التعليم الحديث . كنا نتهياً لاعداد برنامج عنه ، ولم يكن يخطر لنا ان له صلة بأي شكل من الاشكال بالموضوع ، الذي كنت اعالجه على الطاولة في بيتي . ولكن ما كدنا نجلس حتى بادرننا بالسؤال :

"هل انتما الفتاتان اللتان سجلتما مقابلة مع الدكتورة دي لوتيوفا ؟ كنت اعرفها ، فقد درّست في الماضي البعيد ابنها في حي برانيك . كانت تلك هبة من السماء . فقد كنت لا اعرف عن فترة اقامة الدكتورة في براغ إلا القليل وكنت اعرف اقل من ذلك عن رادبور وعن وضعه الروحي الغريب . الذاكرة الرائعة للمعلم الذي يبلغ التسعين من العمر وضعت الان تحت

تصرفي . وفي الارشيف المنظم بشكل واضح عشر حتى على ملف رادبور

"انها حالة لم التق بمثلها من قبل مطلقا " كان في الملف تحليل لحالة الصبي من وجهة نظر المرابي ، والمراسلات مع والديه وبالدرجة الاولى مع جيورجي دي لوتي ، الذي كان علق آمالا كبيرة على ابنه ، والان يستقبل بمقاومة يائسة خيبة الأمل

فيما بعد وحين كانت الصيغة الاولى للرواية تنشر على حلقات في صحيفة ليذوفيه ديموكراتسيه ، رن جرس التلفون في مساء احد الايام

"هنا فاليا هولوبوفا ، بودي أن اقول لك انني نشأت في حي برانيك في جوار اسرة دي لوتي . وكانت الفيلا ، التي اقاموا فيها ملكا لوالدي وعندي ذكريات شخصية متنوعة عنهم . هل من الممكن ان نلتقي في مكان ما ؟ قالت على عجل . " من الصعب ، فأنا احداثك من زوريوخ ، غير انني سوف اكتب لك ما اتذكره . ولكن خبريني ألا يخلق تسلمك رسالة سميكة من سويسرا بعض المصاعب لك ؟ لقد ارسل لي اصدقائي بعض الاعداد من تلك الصحيفة ..."

أكدت لها انني اتراسل على نطاق واسع مع سويسرا . وليقرأ السادة المعنيون بكل هدوء ، ما يريدون . حينذاك كتبت لي فيما كتبت ان الحياة الزوجية لأسرة دي لوتي ، كانت تمر في ازمة خلال تلك الفترة التي سبقت الحرب"

"كنت في العمر الذي يُقرأ فيه بوشكين ، و تحفظ الفتيات عن ظهر قلب دور تاتيانا سألتني مرة ماذا أقرأ ، ورغم انها غير مسرفة في الكلام ومنغلقة ، تحدثت الي في تلك الامسية الصيفية كما تخاطب انسانا بلغ الرشد ... لايد لي ان ادرك ماذا اريد وان اصل الى ذلك رغم كل العقبات . ينبغي ان لا اكون عاطفية وان لا اخضع للاوهام والاغراء . فالسعادة لاتوجد . ثم اغلقت كتاب الشعر وناولتني إياه وذهبت الى الحديقة"

في احدى الرسائل التي بعثتها الدكتورة فلاستا الى اصدقائها خلال اقامتها الطويلة بعد الحرب في الولايات المتحدة الامريكية ، تصف بالتفصيل زيارتها للمواطن التشيكي المهاجر الدكتور كاميل نويمان . ما إن قرأت الرسالة حتى اتصلت باخت الدكتورة السيدة شمولىكوبا : " كاميل نويمان ، يقال انكم كنتم تعرفونه عندما كان طالبا - الم يصبح فيما بعد طبيب اطفال ؟ لم تعرف . بالطبع ، بدأت تتذكره . امه من بيرناريتسه ، كانت تسافر الى هناك في احيان كثيرة . ولكن هل اصبح طبيبا للاطفال ، لم تعد تذكر هذا .

أنا أتذكر . قاعة الانتظار مع كرسي متأرجح على هيئة حصان وفيها صور مرحلة . كانت معتمة الى حد ما . في شارع جانبي منحدر في الاسفل في تشيشكوف . السيد الطبيب نحيف ضارب الى الحمرة ، ولعله لكثرة انحنائه فوق الاطفال ، محدودب قليلا عند الكتفين . " ماذا جرى يا روزينكا ، ماذا انجزت ؟ رحب بي بروح الزمالة -بيننا نحن الضاربين الى الحمرة . لا بد ان يكون هو . لجأ قبيل الحرب مباشرة الى امريكا ، قال ذلك لنا حينذاك طبيب اسرتنا ، الذي كان صديقا له . ونجح عن طريق المصادفة البحث في الحصول على عنوانه في الولايات المتحدة الامريكية . كتبت له ثم ارسلت له كتابا " انك حتى لاتستطيعين ادراك كم سرتني واقع انه مازال في بلدنا من يتذكرني لحد الان ... " ثم أضاف بحزن ... وان الناس يذكرون بالطيبة يهوديا " فيما بعد قمت بارسال عنوانه ذلك في كاليفورنيا وبسرور الى الكثير من مرضاه ، الذين عالجهم في الماضي من امراض الاطفال . أمل انهم كتبوا له حقا

السيدة زدينا موجيجوفا قدمت لي بشيء ، من الخجل صورا فوتوغرافية وذكريات كتابية عن الدكتورة دي لوتي . ولمحت على عجل قائلة : انني بنت المعلم هوديك . المعلم الريفي الشجاع الذي يملأ اسمه يوميات دراهوميلا دي لوتي ، ابنة الدكتورة . خلال فترة الاحتلال كان الصديق المخلص والصامت لجيورجي . كان يهمني كثيرا . اتفقنا على اللقاء في كارلين عند البنت الاكبر للمعلم هوديك يريجينا ، حيث عاشت الام . استكملوا بذكرياتهم الشخصية قصة حياة الدكتورة وفي خلفيتها في نثف الكلام والعبارات المقتضبة ظهرت شخصية هوديك بابعادها غير المتوقعة .

بعد ذلك اخرجت يريجينا من درج الطاولة بضعة دفاتر سميكة تحتوي على ذكريات (ما كتبه الوالد) في فترة الدراسة الحرفية في فيينا وايام كان على الجبهة النمساوية -المجرية وخلال الفترة التي كان فيها نجارا فتيا ، يواصل الدراسة في المساء ليصبح معلما . كانت تلك شهادة مباشرة عن تطور الاوضاع في مناطق الحدود ، حيث كان يدرس في نهاية سنوات الثلاثينيات . (بعد ذلك سقط شهيدا في برناريتسه ، في آخر يوم من ايام الحرب) . اخذت تلك المذكرات من يريجينا وكنت ادرك انني آخذ على عاتقي عهدا . وهكذا ولدت بعد ذلك رواية " مصير شخص تشيكي " وصدرت في عام ١٩٨٤

في صيف عام ١٩٨٥ الحار اتصل تلفونيا الدكتور هوب ، جراح الرئة المشهور المتقاعد وسألني ما إذا كنت استطيع زيارته في قلعة براغ (القصر الجمهوري) . بالطبع استطيع وبسرور . يقيم الزوجان العجوزان المهذبان للغاية في الجناح الخلفي لبلدية هرادتشاني

المشيده باسلوب عصر النهضة عبر الباب المفتوحة على الشرفة أطل برج مرصد بتشين لتناول القهوة معنا . تحدث الدكتور هوب عن ابيه ، الذي كان لسنوات طويلة من معاونين المقربين لرئيس الجمهورية ماساريك . وكان يهوى التصوير الفوتوغرافي " أعتقد ان هذه الصور الفوتوغرافية ينبغي ان تكون لك فائني في الثمانين من العمر واقوم بعملية جرد حياتية ... " امسكت بيدي صورتين فوتوغرافيتين تم التقاطهما في حديقة قصر لاني . مثل الطيبة الشابة فلاستا كالالوفا بين يدي ماساريك . صورته الجانبية النبيلة ، في وضع يعبر عن الاهتمام الاستثنائي . والاهتمام الكبير الذي كرسه للاستماع الى مشاريعها ، التي دعمها فيما بعد . لم اكن اتوقع وجود هاتين الصورتين . قمت باعداد نسخ منها وارسلها الى اصدقاء الدكتور واصدقائي ؟ بالمناسبة الكثير من اصدقاء الدكتور اصبحوا اصدقاء لي وقد تم نشر الصورتين في الطبعة الرابعة لهذه الرواية .

مصائر

بمناسبة العيد الوطني التشيكوسلوفاكي المشترك الاخير ، في ٢٨ تشرين الأول ١٩٩٢ منحت الدكتور فلاستا كالالوفا - دي لوتي ، وسام ماساريك بعد الوفاة .

قبل ذلك بفترة ، في شباط ١٩٩١ وعند مرور عشرين عاما على وفاتها وضع سكان برنارتيته على الدار التي عاشت فيها لوحة تذكارية . وقد ازاح الستار عنها بصورة رسمية اللواء رودولف كيرزاك ، كان حينذاك رئيس إتحاد المناضلين من أجل الحرية . وقد قام بمهمته هذه حتى انتهاء الفيدرالية . هذا الأرمل الذي يبلغ السبعين من العمر كتب لي قبل فترة قصيرة : " إنني مغرق بالعمل في المدينة (بودبرادي) وفي المحافظة (نيمبورغ) . وقمت ايضا بالقاء الكثير من المحاضرات عن المقاومة في الخارج التي شارك فيها الضباط والمعلمون . حقا إنني لم اتغيب عن أية ازمة او حركة اجتماعية - ١٩٣٩ ، ١٩٤٨ ، ١٩٦٨ ، ١٩٨٩ - وكنت دائما في المقدمة او في القمة ، الامر الذي لم يكن صعبا : ففي المواقع التي يعرض فيها الانسان رأسه للمقصلة ، لا يكون الزحام مألوفاً . "

حينذاك ، عند ازاحة الستار عن اللوحة التذكارية ، في برنارتيته ، التقى الكثير من الناس . من بينهم ثلاثة من الذين كانوا اقرب الناس لدى فلاستا كالالوفا . بالإضافة الى رودولف كيرزاك جاء رئيس الاطباء الدكتور ماخاتشيك من بيسك وجاء من بلزن البروفيسور

سليبيكا . ميروسلاف ماخاتشيك ، الطبيب الحيوي والحميم والمحجوب ، اضطر الى ترك مستشفى بعد بلوغه الستين من العمر في وقت مبكر . سبب ذلك واحد من المرضى . وهو مهندس ورجل يقرأ كثيراً ، رقد في المستشفى للمرة الثالثة في الأقل . وقد حذره الكثيرون منه باعتباره مخبراً . غير ان الدكتور كان يلوح بيده غير مكترث للموضوع . وخلال نوبات العمل الليلية كان يدعو السيد المهندس لتناول القهوة . وكانا يتحدثان في مختلف المواضيع ، وكذلك عن الكتب . " هل اطلعت على كتاب سولجينيتسين ، الفولاغ ؟ استطيع اعارته لك " " شكرا هذا الكتاب عندي باللغة الالمانية " انزلق لسان الطبيب كان الصيد ناجحا وابتلعت السمكة الطعم ، وتبع ذلك التحقيق والاستجواب . وقد خيل لعميل المخبرات ان كتابا واحدا حتى ولو كان الحصول عليه بطريقة غير شرعية غير كاف . ماذا لو كانت تهمة التجسس لصالح الفاتيكان ، تضاف اليها تهمة توزيع الكتب المعادية . لماذا الفاتيكان بالذات ؟ كان الدكتور يحيط بعناية فائقة وباستمرار تقريبا في المستشفى عدداً من القسس . والقسس في الأغلب متقدمون في السن ويعانون المرض ، ولكن اشرح ذلك لرجال المخبرات في جهاز أمن الدولة وسوف يقنعون لاسيما حين يعرفون بالتأكيد ان لرئيس الاطباء صداقة تمتد سنوات طويلة مع يوسف بيران ، ذلك الذي اشتغل حمالا ينقل براميل الفحم الى المساكن في بيسك ، بعد ان مُنِع من العمل قسيسا . ومن الممكن ايضا ان لا يغيب عن انظارهم ان رئيس الاطباء قام بزيارة بيران في زوريخ عام ١٩٥٩ بعد ان غادر القسيس الممنوع من العمل الجمهورية التشيكوسلوفاكية بصورة غير شرعية .

نقلت القضية الى براغ الى وزارة الداخلية ، وكانت القضية تحتمل مختلف العواقب ، غير ان المصادفة تدخلت ، أم انها كانت يد القدر ؟ اذ ان العقيد الذي طرحت هذه القضية على طاولته للبت فيها ، كان هاويا كبيرا لصيد الاسماك . وكان يعرف الدكتور ماخاتشيك . : كانا يذهبان معا الى المواقع ذاتها لصيد السمك في ليبارني . ولم يؤيد الجواسيس في التهمة الموجهة الى ماخاتشيك كعميل للفاتيكان . وافق فقط على التهمة المرتبطة بكتاب سولجينيتسين . وهكذا أُجبر رئيس الاطباء على التقاعد عن العمل طوعا . " وجدت متسعا من الوقت لاجراء عملية جراحية لاستئصال سرطان المستقيم لذلك المخبر . وقد عاش بعد العملية عشر سنوات ، ..بعدها سوى السيد الاله الامور معه " علق صاحب الثمانين عاما باتزان

اضطر الى الخروج من المستشفى ، غير ان المرضى كانوا يتوجهون الى داره ، في الأقل

لأجل استشارته . وحدث انه ، في الحالات الاكثر خطورة ، كان يعرف عن عقار يمكن ان يشفي المريض ، ولكنه غير متوفر في بلدنا . لذا تجرأ على الكتابة الى الاب بيران ، الذي كان في ذلك الحين في المانيا ، في كنيسة قريبة من مدينة هايلبيرغ . وقد قام القس بارسال العقار . ودفع كلفة العقاقير المتعددة الاخرى من جيبه ثم شفعه بآخر من باب الوقاية : إن القسس يتلقون رواتب محترمة في المانيا ، وما الذي يحتاجه هو ؟

وعندما تزوجت ابنة رئيس الاطباء فيما بعد في المانيا وسمح لوالديها في بعض الاحيان بزيارتها كانوا يحملون اشياء كثيرة من بيران بانفسهم . غير ان رجل الجمارك كان يفتش السيارة وقد نظر متفحصا الى الحقائب : هل عندك فرقة موسيقية ؟ كان هناك أرغثان كهربائيان . هذا المهرب الابيض الشعر لا يبدو ان له فرقة موسيقية ... غامر وقال الحقيقة : إنني احملهما لكنيستين صغيرتين في الريف . اقل رجل الجمر صندوق السيارة ، وقال اذهب . في المرة القادمة حملوا معهم شيئا آخر . " اجل ، بالطبع شعرت بالخوف " اعترف الطبيب " فانا لست بطلاً"

بعد تشرين الأول ١٩٨٩ عاد الاب بيران سعيدا الى الوطن . والان حين يلتقيان ، الدكتور العجوز ، والسيد رئيس القسس في بيسك ، ليس في وسعهما إلا التذكر والابتسام . غير ان عملا آخر كان في انتظارهما . البحث عن الاموال لترميم الكنيسة ولشراء الاجراس لمدينة بيسك .

وفي هذا المجال ايضا يقدم الدكتور ماخاتشيك المساعدة ، كما قدم بلاشك رئيس القسس الدكتور بيران الكثير من حسابه : فهو يستلم راتبا تقاعديا من المانيا ، وما الذي يحتاجه هو ؟

هذان الرجلان يمثلان موضوعا لرواية ، ويؤسفي كثيرا أنني لا اكتبه .

ياروسلاف سليبكا ، الاستاذ المساعد حينذاك ، ويمكن ان نقول ان الدكتور فلاستا تحدثت عن اقامته الاولى في بغداد . قدمت له الكثير من النصائح المهمة والعناوين والمباركة الصامته . وبالمقابل ارسلت لها اسرة سليبكا الكثير من الرسائل وعندما عادت الاسرة قدمت لها تقريرا عاما . حينذاك حاضر الدكتور سليبكا مدة اربع سنوات في كلية الطب في بغداد ، وقاد عمل معهد للبحث العلمي . ثم عاد الى الدول العربية بعد ذلك عدة مرات لقضاء فترات قصيرة في القاء المحاضرات . كم مرة ؟ انه يعد : خمس عشرة مرة . وبلاضافة الى قضايا

الطب والعلوم الطبيعية كان يهتم منذ بداية حياته بالتأريخ : تأريخ الطب وتاريخ البلاد والناس . اهتم مثلا بتاريخ علمائنا - المهاجرين . قام بالقاء المحاضرات عن بعضهم في الوطن

كتب المقالات العلمية المتخصصة . ولم تبق معرفته في مجال النشوء التشكيلي للكائنات خفية . ووجهت له الدعوات لحضور المؤتمرات العلمية الدولية وقام هو بتنظيم مؤتمر مشابه كانت المشاركة فيه واسعة لدرجة رائعة في بلزن . على خرائط رحلات العمل للدكتور سليبكا تزداد الاعلام الصغيرة : شيكاغو ، كيوتو ، بافيا ، برشلونة ، ومن جديد الجامعة اليابانية ومن ثم اكسفورد وكاردف . اصبح عضوا في الجمعيات العلمية المشهورة والموقرة . وعمل في هيئات التحرير للمجلات العلمية الكبيرة ، وهو ابن معلم يعتبر نفسه معلما بالدرجة الاولى فهو يعلم عمليا الجيل الثاني من طلبة الطب . لاشك أن الدكتور فلاستا كانت ستشعر بالسرور كونه يمثل بلده تمثيلا جيدا . وكذلك كان سيفرحها ما يعمله من اجل جامعة العمر الثالث " لأجل ان لا يخلد الدماغ الى الكسل " فلقد كانت هذه مقولتها . وتحت هذا الشعار ، كانت تبحث وهي في الستين من العمر عن كتاب تعلم اللغة السواحيلية وعن كتاب تعلم اللغة الاسلندية " من اجل ان لا يخلد الدماغ الى الكسل "

البروفيسور الجامعي ، والحائز شهادة الدكتوراه مرتين ياروسلاف سليبكا (في الواقع ثلاث مرات لانه ايضا دكتوراه علوم) كان ببساطة انسانا موفقا . بالاخص لان شهرته والقباه العديدة لم تدفعه الى التعالي . بقي نشيطا وفعالا وانسانا فرحا ، وابا لاسرة ، ورجلا له تلامذة واصدقاء في العديد من بلدان العالم . وله ايضا طلبة اصبحوا اصدقاء

اجلس في مقهى صغير في براغ ومقابلتي يجلس الدكتور فلاديمير شتيفانيك . الكشف القديم فلادا ، الذي تعرفت عليه فلاستا في التلال فوق مايوفا ، كان ذلك في تموز ١٩٤٧ بعد ذلك تراسلت بنشاط مع والديه ، وتحملت عناء السفر الى براتسلافا لحضور حفل تخرج فلادا . وقامت برحلة معه ومع زوجته في منطقة جبال تاترا . ومن ثم رحبت بحماسة بولادة دالبيور

هكذا جلسنا عند طاولة المقهى في عام ١٩٨٩ ، عندما فصل من عمله الممتاز في الاتحاد الصناعي الكيمياوي ، وكأنه وقع في منزلق . السبب ؟ الابن دالبيور هرب بهدف اللجوء . حسنا . سوف اعلم محاميا اعتياديا في المؤسسة ، وبذلك اضمن امور المعيشة ايضا

وسوف تقل زيارتي الى براغ وربما لن يسمحوا لنا بالسفر . إنني اخشى فقط ان يخلقوا صعوبات امام ابنتي . وأمل ان يجد الصبي فرصة عمل في اسكندنافيا تلك . بعد ذلك لم نلتق حقا لفترة طويلة . كان يتصل تلفونيا فقط في بعض الاحيان . وكذلك في ليلة رأس السنة لعام ١٩٩٢ حين جرى تقسيم الدولة التشيكوسلوفاكية - التي ولد كلانا فيها في العام نفسه . قال في الحال مدافعا " لا اتصل من اجل الوداع ، فإن المسافة بين براغ وجيلين ستبقى كما هي "

السنوات تمر ، وفلاديمير شتيفانيك لا يفكر "بالاستراحة التي يستحقها" إنه محام تجاري مستقل ، ناجح في عمله وواثق بنفسه . وهو كثير السفر بالارتباط مع عمله ، يسافر الى براغ وفيينا والى ابعد من ذلك بكثير .

"وقع لي حادث فريد قبل العام الماضي في برشلونة ، وسوف احدثك عنه . كنت ادافع هناك عن مصلحة احدي الشركات . وفي وضح النهار وعلى بعد بضع خطوات من الفندق تعرضت الى هجوم . كانت مجموعة متناسقة بشكل جيد . إنه يروي العملية السريعة والصامتة وكأنها من افلام العصابات " عندما وجدت انهم سرقوا نقودي ووثاقي وتذكرة الطائرة وكل شيء ، سبب لي ذلك هزة عصبية شديدة ، وتدهورت حالتي ، وعندما اوصلوني الى المستشفى كنت في حالة اغماء . لم يكونوا يعرفون من انا ومن اين انا . شخصوا امرا واحدا هو أنتي أصبت بنوبة قلبية شديدة . كنت انسانا بلا وعي ولا اسم على السرير . ذكرته بكتاب كارل تشابك الحجر النيزكي . بالطبع أعرف هذا الكتاب " أجل مثل ذلك الطيار الذي سقط " . (بدا لي ثمت علاقة بعيدة : كان في عائلتنا بالتحديد طيار سقط . ولكن ذلك لم يكن مجهولا ، كان اسمه ميلان راستيفانيك) "عشروا عندي على اثر واحد يواصل حديثه " في جيب الصدر كانت بطاقة المحامية التي كنت في مباحثات معها يوم امس . بحثوا عنها ووجدوها . وعندما عدت الى وعيي ، كانت تلك المحامية اللطيفة تقف بجانب سريري . قالت لهم في الأقل المعلومات الاساس عني . كما نبهتهم الى انني لا اجيد الاسبانية . وهكذا كان في انتظاري طبيب يجيد الفرنسية . " وفي الوقت الذي كان فيه اطباء ينقذونه من اسوأ مصير ، كان العاملون وراء الكواليس في المستشفى قد ارسلوا بخبر الى سلوفاكيا عبر الفاكس مايل الدولي وعشروا على مؤسسة التأمين المسجل عندها . جرى كل شيء ، بسرعة وسهولة . وعندما اصبح قادرا على تحمل نقله في الطائرة الى بلده أعدوا له سيارة اسعاف تنقله الى الطائرة . سيارة الاسعاف وصلت هدفها ، الطائرة ، الطبيب المشرف

على خروجه من المستشفى يقدم له حقيبة من العقاقير الامريكية الفعالة ، ماذا لو انك لم تعثر عليها في بلدك " هناك تذكرت كثيرا السيدة الدكتور : أعتقد أنها تستطيع العناية والاهتمام بالمريض على هذا النحو ، بمثل هذا التفاني وبمثل هذا الاهتمام الانساني . " تردد لحظة وكأنه يعيش صراعا داخليا بين المحامي الذي يفكر بصورة عقلانية وبين أحاسيس الانسان العاجز والمريض جدا حينذاك . بعد ذلك اعترف قائلا : " كنت أشعر وكأنها هناك تمدُّ يدها فوقى حمايتي

مرة في ايار عام ١٩٩٥ اتصلوا بي تلفونيا من هيئة التحرير للصحيفة التي اكتب فيها بعض الاحيان : قالوا ان لي رسالة عندهم من امريكا . وسألوا هل اريد إرسالها ام انني سوف احضر لتسلمها ؟ سألت عن المرسل . انه السيد ميلان توميك . هل اعرفه ؟ هل يقول لي هذا الاسم شيئا

لم اكن اعرفه ، غير انه قال لي الكثير . انه ابن معلم في برنارتيته وزميل دراسة وصديق لدراهوميل دي لوتي . فان اسم ميلان على كل صفحة من صفحات يومياتها تقريبا ، حتى في اخر ما كتبه . انه حب الطفولة ، الذي اوشك ان يكون حب عهد التلمذة . كانا في الرابعة عشرة من العمر تقريبا . غير ان دراهوميل ليديا لم تحصل على مزيد من الزمن في هذا العالم .

كتب المهندس المعماري ميلان توميك ، انهم يستعدون للسفر في الصيف الى أوروبا . هل سيكونون في براغ ؟ وهل نستطيع التلاقي ؟

هكذا عرفت شخصية اخرى من شخصيات قصة برنارتيته . مصير تشيكي اخر في المياه الغاضبة الهانجة للقرن العشرين . قصة تكفي لكتاب - وهو كذلك يكتبها . يكتبها بروح السخرية والنكته وبلغة تشيكية جميلة وبسعة افق الانسان الذي عاش الكثير .

يحصل احيانا ان تلتقي باحدهم للمرة الاولى وتشعر أنك تعرفه طوال الحياة . كانت هذه هي حالتي مع ميلان توميك وزوجته السيدة مارتسلا . وبين حين واخر تنتقل الرسائل الان من كاليفورنيا الى حي براغ ٨ ومن حي براغ ٨ الى كاليفورنيا . هكذا جمعت الدكتورة فلاستا الناس الذين اعتقدت بقدرتهم على أن يفهم بعضهم بعضاً . ويبدو أنها نجحت مرة أخرى .

تركت أثراً في حياتي ، يقول اصداؤها القدامى متفقين .

تركت أثراً في حياتي ، اقول بامتنان ملتحقه بهم .

ملحق

طبيبة
من بيت البواقين*

براغ ، ايلول ١٩٩٦

ايلونا بورسكا

يروى الصحفي التشيكي موتول ستانيسلاف ، أنه تتبع آثار الطببة التشيكية التي عاشت وعملت في بغداد في العشرينيات ومطلع الثلاثينيات من هذا القرن ، مسجلاً دهشته وهو يمشي في شوارع المدينة الشرقية وأزقتها الجانبية الضيقة باحثاً عن بيت عائلة البواقين . وعلى باب هذا البيت في بغداد ، قبل سبعين سنة ، علق لوحة كتبت بالعربية يومذاك - المستشفى التشيكوسلوفاكي - الطببة فلاستا كالالوفا . وبذلك يكون هذا أول مستشفى تشيكوسلوفاكي في الشرق .

لم تخلُ مقالة الصحفي موتول من الاندهاش المصحوب بالتعاطف . ومثل هذا التعاطف والاندهاش يظهر لدى الكاتبة ايلونا بورسكا في كتابها الصادر عام ١٩٧٨ عن الطببة التشيكية نفسها بعنوان " طببة من بيت البواقين "

يخاطب الصحفي موتول الطببة قائلاً : " عرفتك فقط من خلال الصور الفوتوغرافية ، عرفتك من خلال كتاب وضعته عنك بالتعاون مع ايلونا بورسكا " . ويشير في مكان آخر من تقريره الى أنه قبل سفره الى الشرق - بغداد - بفترة قصيرة جداً ، بحث عن قرية بيرناريتسه الواقعة بين مدينتي طابور وبيسك في المقاطعة الجنوبية من الاراضي التشيكية . زار موتول المقبرة في هذه القرية ، وكانت ثمة زيزفونات وارفة وصف من أشجار الحور

* البواق : العازف على البوق والبوق في اللهجة البغدادية هو البرزان

الباسقة ورائحة هواء الصمت التقليدي وفي المقبرة كان قبر امرأة هي الطبيبة فلاستا كالالوفا . وضع الصحفي اكليلاً من الزهور على القبر وغادر القرية وتوجه بعد ذلك الى الشرق للبحث عن آثارها هناك

كانت امرأة نحيفة رقيقة اليمين ، متوسطة القامة ، ودود أليفة في صوتها وابتسامتها ، ذات جبين عريض ووجه لم يكن يخلو من مسحة حزن هادئ ودائم ولم يخف سكون الجدية الذي يظهر عليه غالباً . في سنوات دراستها الطب كانت أول امرأة أنجزت دراستها بدرجة امتياز في تاريخ جامعة كارل في براغ . وأتقنت في الوقت ذاته تعلم اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والاسبانية والايطالية . وأثناء دراستها تعلمت اللغة التركية ثم اللغتين العربية والفارسية .

لقد عازمت وهي طالبة على الذهاب الى الشرق والعمل هناك . ولم يمل قرارها حافز رومانتيكي ولم يكن بدافع حب العيش في التوترا أو المغامرة كما لم يكن نزوة . والواقع فقد حفزت قرارها يومذاك مطامح بأن تعمل طبيبة في منطقة الشرق الأوسط حيث امراض المناطق الحارة الفتاكة وحيث تفترض الحاجة وجود مساعدة طبية وأيضاً اكتشاف ما يوقف مخاطر هذه الأمراض وسيكون هذا اتصاراً باهراً . لهذا لم يكن قرارها قفزة في الظلام كما وصفه كثير من معارضيه وأصدقائها يوم أعلنت فيما بعد قائلة " إما الذهاب الى دمشق أو الى بغداد . وهذا قرار . وعندما يتخذ القرار لابد من تطبيقه ...

في خريف عام ١٩٢٤ ظهرت الطبيبة كالالوفا في اسطنبول في طريقها الى الشرق . وقضت بضعة شهور تعرفت خلالها على الشيخ الوقور البروفيسور التركي عبد العزيز مجيد حيث قال لها مودعا " تذكري يا ابنتي أن كلامنا خالق للجنة والنار في داخله . تذكري ذلك عندما تجيء اللحظات الصعبة في حياة الانسان ... " . وتقول فلاستا لمؤلفة الكتاب عنها خلال محادثتهما بانها لم تنس تلك الكلمات بالمرّة .

ثم بعد اسطنبول ، هاهي بغداد التي قالت بعد سنوات من الاقامة فيها " ياإلهي كم أحببت الناس البسطاء فيها ، الامهات يصطحبن أطفالهن المرضى ..."

وأحبت هذه المدينة الشرقية وقالت عنها " لاشيء أجمل هنا من قضاء أمسية على ضفاف نهر دجلة " وكتبت في مراسلاتها بعد سنوات تقول " يتألق الضوء فوق المرأة التي تتكسر عليها موجات النهر ... وتختلط معاً رائحة النهر والجرف والنخيل..."

غير ان واقع المدينة الشرقية - بغداد - كان حاضرا على الدوام في ذهن الطبيبة كالولفا . وفي السنوات التي عاشت فيها هناك ، كان عدد الاطباء في عموم البلاد - العراق - لايزيد على (٢٠٠) طبيب مع مستشفى ملكي في العاصمة وكانت هي تعلم أن الوقت يعمل ضدها وان عملها بلا انقطاع قد يكون الاداة الوحيدة لها في مواجهة تحدي امراض المناطق الحارة وانتقلت عملياً حياة عشرات وربما مئات الأطفال واجرت عمليات جراحية بامكانيات تقنية طبية محدودة للغاية ونجحت في الأغلبية العظمى منها . وقد عرف قسم كبير من سكان بغداد إسمها وكلماتها العربية المنطوقة بلكنة أجنبية ، وعرفوا مكان مستشفاهما واقتربت باسمها أماكن متنوعة في المدينة وهناك من يقرن حياة وعمل الطبيبة كالولفا في بغداد بفترة فتح أبواب الجامعة للنساء ، مما اسفر منذ ذلك الوقت عن زيادة عدد الطبيبات في تاريخ تلك البلاد

حالفها قدر من الحظ في هذا المناخ من العيش والعمل عندما تعرفت على الايطالي جيورجي دي لوتي خلال زيارتهما آثار بوابة عشتار وقصر نبوخذ نصر في خرائب بابل ، وتجوّلا معاً في زيارة مدن قريية من بغداد وتعرفا على اصداقء كثيرين ثم تزوجا وفي بغداد ولد لهما ولد و بنت .

ذات يوم في عام ١٩٣٢ عادت عائلة الطبيبة كالولفا الى تشيكوسلوفاكيا بعد ان ودعت الشرق . فقد كبر الاطفال وحانت سنوات دراستهم في مدارس تشيكية . وفي سنوات استقرارها كرست الطبيبة جهدها العلمي مع جهود زوجها في مقاومة أمراض المناطق الحارة .

في الثامن من مايو/ آيار ١٩٤٥ وقبل يوم واحد فقط من نهاية الحرب العالمية الثانية رسميا ، هنا ، على الجبهة التشيكية ، واثناء هزيمة وتراجع فلول الجيوش الهتلرية ، اقتحم بيت عائلة دي لوتي في قرية برناريتيسه جنود نازيون مهزومون . وسأل أحدهم رب البيت الايطالي - " لست تشيكية ؟ " لم يكن السؤال غريبا فالرجل دي لوتي كان قد إعتاده وكان ممكنا أن ينجو لو أجاب بالنفي ولكنه قال انه تشيكي ، فهنا عمله العلمي وهنا فلاستا والأطفال والأرض التشيكية . فكان أن وجه الجندي النازي نار رشاشته الى الطفلين فقتلها ثم قتل الزوج وأطلق النار على فلاستا ، وقال الجنود لبعضهم بأنها ميتة هي ايضاً وتركوا باحة البيت . غير أن الطبيبة كالولفا تغلبت على جراحها بعدما أصبحت ضحية للعنف والحرب . وإذا كانت الحرب تغذي متفعين منها فقد تركت ندبة في الروح لايمكن نسيانها . ويلاحظ أن فداحة الخسارة والألام بعد فقدان أطفالها وزوجها عجزت عن سحق روح المقاومة فيها .

وعادت الى مستشفاهما للعمل والدراسة وتعلم لغات أخرى حيث بلغت في أواخر سنوات حياتها (١٤) لغة .

وتشير ايلونا بورسكا في مقدمة كتابها " طيبة من بيت البواقين " الى شعورها بأهمية وثقل الكتابة عن طبيبتها . وقد عثرت المؤلفه بورسكا على الطيبة كاللوف دي لوتي في مستشفى مدينة بيسك لا كطبية بل امرأة منهكة ومريضة . وبعد عام من اللقاءات المستمرة والأحاديث والذكريات التي سجلت صوتيا توفرت أكثر من الف صفحة من الوثائق والاجوبة والانطباعات عنها بضمنها مواد من الذين عرفوها وعملوا معها من زملائها وتلامذتها واصدقائها ومعارفها

ومنذ عالم ١٩٧١ في مقبرة قرية بيرنارتيته في منطقة جنوب الأراضي التشيكية حيث الزيزفونات الوارفة وصف أشجار الحور الباسقة ثمة قبر لانسانة وطيبة تشيكية حملت خلال حياتها شيئا من الود والذكريات الطيبة عن مدينة الشرق - عن بغداد وأهل بغداد

اعداد : ي . بابانوف

من الصحافة التشيكية

آذار ١٩٩٣

الكاتبة ايلونا بورسكا

الكاتبة إيلونا بورسكا متخصصة في علم الاجتماع ، غير أنها مارست مهنة الصحافة كمحررة لسنوات عديدة ، وقد هيمنت على اهتمامها بالدرجة الأولى النماذج الفريدة للناس ومصائرهم . وعلى خلاف المؤلف والسائد لم تبحث عن مواضيعها تحت الأنوار الكاشفة ولا بين الأسماء اللامعة بل اعتادت إنتقاء مواضيعها في الظل ، بين المجهولين ومن لا أسماء لهم . وكأنها أرادت أن تؤكد بصورة متكررة الموضوعة التي تقول « إن كل حياة إنسانية تشكل موضوعاً لرواية » . لهذا فإن أغلبية شخصيات «روايتها الواقعية» أناس مجهولون بعيدون عن الاهتمام بهم ومنسيون بلا حق . ينطبق هذا على المعلم الريفي هوديك وعلى الطبيب والكاتب فرتيشيك حمزة وينطبق على ذلك الذي لم يَمَجِدْ كثيراً من الأخوين تشابك : الأخ الأكبر يوسف . غير أن الكتاب الذي أثار أوسع الأصداء بين القراء ليس في الجمهورية التشيكوسلوفاكية حسب ، وإنما في الولايات المتحدة الأمريكية أيضاً هو الكتاب المكرس للمصير الدرامي للدكتورة فلاستا كالالوفا - دي لوتي «طبيبة في بيت البرزنجي» . فقد تم وبسرعة بيع نسخ الطبعات الثلاث الأولى . وصدرت الطبعة الرابعة . إن هذا الكتاب حول المرأة تجاوز حدود بلده كما تجاوز حدود الزمن . وفي عام ١٩٩٩ صدرت الطبعة السادسة منه في براغ .

فهرس الكتاب

- 5 - كلمة الكاتبة إلى الطبعة العربية
- 7 - الذكرى في محاولة لاستعادة الزمان والمكان - دمجيد الراضي
15. - على الطريق
53. - اللقاء الأول
65. - فلاستا كاللوفنا .. الامبراطور
- 81 - خمسون درجة في الظل
- 95 - دار البواقين
109. - برج بابل
131. - أيام الصيف الثاني الخاتمة
- 151 - الخاتم
159. - رحلة الزواج
- 167 - ليهبك الله ابناً يبقى حياً
177. - دربونة النمل
191. - تحت انوار النجوم الأرضية
197. - صيف في كردستان
- 219 - نلتقي تحت شجرة الدردار
- 231 - زمن الاحباط
247. - أمان الدار
- 261 - رسالة من كريسين
271. - البلوزة الحمراء
291. - الثامن من أيار قبل غروب الشمس
305. - وحيدة
313. - البحث عن الضائعين

- 329 - زهور البنفسج كبيرة هنا ولكنها بلا رائحة
- 347 - أين رأيته ؟
- 361 - براغ للمرة الثالثة
373. - أيام عكرة
- 379 - كلما أعطيت أكثر
395. - في زيارة ميخائيل
- 405 - حبة خردل
413. - لم يعد هذا ممكناً في عمرك
425. - الطريق تستمر
445. - الخاتمة
459. - ملحق - طيبة من دار البواقين - ياروسلافا بابانوها